عبد العزيز ايت بنصالح

شيشاوة

منذ ما قبل التاريخ إلى الآن

2012

شيشاوة

منذ ما قبل التاريخ إلى الآن

كتاب

شيشاوة

منذ ما قبل التاريخ إلى الآن

تأليف

عبد العزيز ايت بنصالح

الطبعة الأولى: 2012م

رقم الإيداع القانوني: 2012 MO 2314

ردمـــــك: 1 -453 -31 -9954 -978

صدر الكتاب بدعم من:

منتدى شيشاوة للثقافة والفنون

صورة الغلاف:

إحدى معصرتي السكر، شيدها السعديون في شيشاوة في ق 10 هـ/ 16م. بعدسة المؤلف عام 1989.

المطبعة والوراقة الوطنية

زنقة أبو عبيدة، الحي المحمدي، الداوديات - مراكش

هاتف: 05 24 30 37 74/05 24 30 25 91

فاكس: 05 24 30 49 23

iwatanya@gmail.com www.elwatanya.ma

عبد العزيز ايت بنصالح

شيشاوة

منذ ما قبل التاريخ إلى الآن

2012

إهـــــــداء

إِلَى المؤسسين لحضارة الحوز؛ وإلى مَنِ استأنف البناءَ والترميمَ من خَلَفِهم.

مقدمة

لا نُريدُ أن نَقتَحِمَ هذه المُحاوَلَةَ بالكلامِ عن أرضِ شيشاوة، وسُكَّانِها ومُجتمَعِها، كأنَّنا شاهَدنا بِدايَةَ التَّاريخِ في هذه البُقْعةِ مِنْ أرضِ المغرِبِ. هذا بالطَّبْعِ، وهمٌ خالِصٌ. ولكنَّ هذا لن يَمنَعَنا من أن نستهِلَّ بَحْثَنا باستِثْمارِ بعضِ ما خلَّفَتْهُ لنا بُحوثٌ في ميادينَ، ولو مُسْتَعْصِيَّةٍ عنَّا، كالبَّالِينَطُلُوجْيا[1] في جبلِ إيغُّود، الذي لا يبعُدُ عَنِ المَركَزِ الإداري لِشيشاوةَ سِوى بِأربَعين كلم تقريباً. ستبدو لنا شيشاوة من خلال هذا الكتاب، كُلَّما وسَّعنا الرُّؤْيَةَ لِتَشْمَلَ بُقَعاً أُخرى من سهلِ الحَوْزِ تَقَعُ في مُحيطِها الإداري، أو لا تَدْخُلُ فيه؛ ستبدو لنا –ونحنُ نذهَبُ بِبَحثِنا إلى حيثُ تنتهي خَرَائِطُ التَّقسيم الإداري– في صورةٍ تُوَطَّنُ من لَدُنِ إنسانِ النْيَانْدِرْتَال،[2] ذلك الإنسانُ الأكثَرُ تَقَدُّماً بالنِّسْبَةِ إلى عَصْرِهِ، البَّالْيُولِيتِي الأَوْسَط، وتُتَوَغَّلُ من لَدُنِ كَتَائِبِ الرُّومان، وتُفتَحُ من قِبَلِ الفاتِحين المُسلمين، وتُستَغَلُّ، وتَصْمُدُ، وتُمَدَّنُ، وَتُناظِرُ، وتتَمَرَّدُ، وتَطِيشُ... وقائِعُها تارةً، هي تَرْديدٌ لِوَقائِعِ مُرَّاكُشَ؛ وفي أُخرى، هي مُناوِئَةٌ لِمُرَّاكُشَ، ولِفاسَ من خِلالِ إثَارَةِ بعض

---

[1] - البَّالِينَطُلُوجْيَا: هو عِلْمُ المُتَحَجِّرَات، يَهتَمُّ بالدِّراسات الأُحْفُورِيَّةِ الَّتِي تَبَقَّت مِنَ الكائنات الحيَّة في الحفْرِيَّات، أوالبقايا الرُّسوبيَّة مِنَ الماضي والآثار المترتِّبة عن هذه الدِّراسات.

[2] - إنسان النيانْدرْتالْ: هو الإنسانُ الَّذى استوْطن أوربَّا، وأجزاءَ من غرب آسيا، وآسيا الوُسطى. تعود أوَّلُ آثاره إلى 350.000 سنة مَضَتْ. انقرض إنسانُ النِّيَانْدِرْتَالْ في أوربَّا حوالي 24.000 سنة مَضَتْ.

قبائِلِها، وأهلِها للفِتَنِ. تاريخُها لامِعٌ مُشرِقٌ في فتراتٍ؛ ودامي في أُخرى. إذ سِلْسِلَةُ الأحداثِ فيه مُتَقَطِّعَةٌ، وغيرُ مُسْتَرْسَلَةٍ وهو ما يُصْبِغُهُ بالمَواقِفِ الدْراميَّةِ الكثيرة. فتكونُ شيشاوةُ مُنفعِلَةً بالأحداثِ حيناً، وتَصيرُ في آخَرَ هي الفاعِلَةُ؛ خُصوصاً بين القرنَيْنِ (14و19م). ولكن دون أن تَتَحَرَّرَ مِنَ التَّبعِيَّةِ، ودون أن تَكونَ لَها ولأَهْلِها فرصةٌ للأَخْذِ بِزِمامِ المُبادَرَةِ.

يَحِقُّ لنا أن نَسْتَنْطِقَ ماضي شيشاوة لِنستَجْلِي بعضَ ما يُحَبِّبُهُ لنا المُستقبَلُ. وعليه، سيظهرُ - من خِلالِ هذا الكِتابِ- أَنَّ شيشاوة، بعد أن أُبْعِدَتْ عن كُلِّ أمَلٍ في تبوُّإِ مكانةِ العاصِمة في زمن كُلِّ دولةٍ مِنَ الدُّول التي تعاقبت على حُكم المغرب، وعُزِلَتْ بشكلٍ عَفويٍّ عن سُبُلِ بلوغ تِلْكُمُ المكانة، التي تَبَوَّأَتْها مُرَّاكُشُ منذ دولة المُرابطين، ومِنْ بَعْدِهِمُ المُوحِّدين، ثُمَّ السَّعديِّين فالعلويِّين؛ بل ورُوقِبَت بِدِقَّةٍ وَجَدَتْ، بالرَّغم من ذلك، في ذاتِها القوَّةَ اللَّازمةَ لِتَنْفَلِتَ مِنَ الاندثارِ، الذي ذهبت ضَحِيَّتَهُ البُقْعَةُ المُبارَكَةُ رباط شَاكِر، أُولى الحواضر في سهل الحوز؛ ومِنْ بعدِها نَفِّيس، ثَانِي حواضِرِ الحوز؛ والأُفولَ الَّذي لَحِقَ بِاغمات، ثالث الحواضِرِ. هذه ظاهِرةٌ خارِقةٌ تستحِقُّ التَّنويه، لكنَّها لا تدعو إلى تحوير تاريخ هذه البَلْدَةِ، أو تضخيمِهِ بِقَدْرِ ما تدعو إلى الوَعْيِ بِآلِياتِهِ. (باعتِبارِها بلدةً، ومدينةً فيما بعد، وإقليماً فَتِيّاً الآن) .

إِنَّ الزَّائِرَ لِمُرَّاكُشَ في (ق6هـ/ 12م) مِنَ الشَّرق، أو مِنَ الأندلُسِ، يُدرِكُ في الحينِ ما تَمتازُ به الكتبيَّةُ مَثَلاً، من عظمةٍ ورصانةٍ، مِنْ بَهاءٍ وبساطةٍ فتعودُ به الذَّاكِرةُ إلى لُغةِ الزَّعيم الرُّوحي ابْنُ تُومَرْتْ، وما غَلَّفَهَا من عِفَّةٍ وبلاغةٍ، مِنْ

صرامةٍ وإيجازٍ. الكُتُبِيَّةُ وبِحَقٍّ آيةُ الموحِّدين؛ وَلَئِنْ بَاتَتْ قِمَّةَ الفنِّ المغربِي، فَلأَنَّ الدَّولَةَ الموحِّدِيَّةَ التي شيَّدتْها كانت حقّاً، ذاتَ هِمَّةٍ وطموحٍ.

أمَّا الزَّائِرُ لِشيشاوةَ في (ق10هـ/ 16م) مِنَ الشَّرقِ، أو مِنَ الأندلس، أو من بِلادِ النَّصارى: إنجلَتِرَّا، هولندا، فرنسا، إيطاليا، البُرتُغالِ... يُدرِكُ في الحينِ حالَمَا تقعُ عيناه، عن قُرْبٍ، على المَعْصرتيْنِ اللَّتيْنِ شُيِّدَتَا في فترةِ حُكْمِ السُّلطانِ المنصورِ السَّعدي، أنَّهُما مَعاً، آيَتَا السَّعْدِيِّين. فقد أَنْشَأَهُما في شيشاوة مُتأخِّرَتَيْنِ عَنِ المَعاصِرِ الإثني عَشَرَة الأُخرى، فباتتا نَموذَجاً في التَّنسيقِ المُحْكَمِ لوَحَدَاتِهما التَّصنيعيَّة. وما اخْتِيارُهُما في سِتّينِيَّاتِ القرن الماضي مِنْ لَدُنِ الباحث الأَرْخِيُولُوجِي بُول بِيرْتِيي لأجل التَّنقيب عن بقايا وحداتِهما التَّصنيعيَّةِ لِفَهْمِ مِيكَانِيزْماتِ باقي مَعَاصِرِ مَغْرِبِ ق16م، إلاَّ لِكونِهما بَاتَتَا أكثَرَ المَعاصِرِ الأُخرى احتِفاظاً بِوَحَدَاتِهَا التَّصنيعيَّة، بِرَغْمِ مُرُورِ حوالِي 430 عاماً عن تشييدِهما. صُمِّمَتا بِدِقَّةٍ غريبةٍ كأنَّهُما مَتاهَتَيْنِ، تَماماً كَبَانِيهِمَا السُّلْطَانُ المنصورُ في تدبيرِهِ المُناوِرِ إزَاءَ القُوَى التي هَدَّدَتْ كِيانَهُ في (ق10هـ/ 16م) فاتَّهَمَتْهُ بالغُموض والمُخَاتَلَةِ، فبلغت به شُهْرَتُهُ الآفاقَ فكان، بالرَّغْمِ من ذلك، نافِذَةً فيما بين بِلادِ النُّوبَةِ والبحر المُحيطِ من ناحية الغرب. وتِلْكُما معصَرتانِ شِيشَاوِيَّتَانِ لَمْ يُكتَبْ لأيِّ مَعْصَرَةٍ مِنَ المَعاصِرِ السَّابقَة عنهُما في سُوسْ أن تحظى بالنَّظرِ إلى سَلامَةِ المعالِمِ نفسِها التي احتفظَتَا بِها لِلنَّاظِرِ إِلَيْهِما في شيشاوةَ.

لإيلافِ أهلِ شيشاوةَ منذ ق16م وهُمْ يَحتَفُونَ بِضُيوفِهِمْ، إيلاَفِهِمْ كَسْرَ قُنَنِ قوالِبِ السُّكَّرِ، ورَمْيِهَا جانِباً مِنْ قُعُورِ الزَّنابيلِ المُخَصَّصَةِ لِحِفْظِ القِطَعِ المُكَسَّرَةِ على عَمْدٍ، لإدراكِهِمْ أَنَّ تِلْكَ القُنَنَ بالذَّاتِ كانت تَتَرَسَّبُ فيها –أثناءَ تصنيعِ عَصِيرِ قَصَبِ السُّكَّرِ في مَعْصَرَتَيْ شيشاوةَ (ق16م)– العوالِقُ وهي داخِلَ قوالِبِها الطِّينِيَّةِ المُتَكِئِ بَعضُها على بعضٍ في وضعٍ مَقْلُوبٍ كَيْ يَتَصَلَّبَ العَصيرُ وسَطَ فُرنِ التَّجفيف. فَتَسيلُ عَوَالِقُ العَصِيرِ في القَوالِبِ على مَهْلٍ من خِلالِ الثُّقُبِ الصَّغيرَةِ، التي في رُؤُوسِهَا المَقلُوبَةِ نحو الأسْفَلِ، وتتجمَّعُ حيثُ توجَدُ القُنَنُ المَقلُوبَةُ. فَقُنَّةُ قالَبِ السُّكَّرِ في أذهان أهلِ شيشاوةَ، منذُ ذلكَ الحِينِ إلى الآنَ، غيرُ صالِحَةٍ لإعدادِ الشَّايِ المُعَتَّقِ لِضُيُوفِهِمُ الكِرامِ، ولِذا يَعْرِضُونَ عنها، ويُحَلُّونَ الشَّايَ بِقِطْعَةِ سُكَّرٍ يأخُذونَهَا مِمَّا بَقِيَ مِنَ القالَبِ، حتَّى لا يتأثَّرَ ذلك الشَّرابُ السَّاخِنُ اللَّذِيذُ بِما يعتبرونَهَ عوالِقَ.

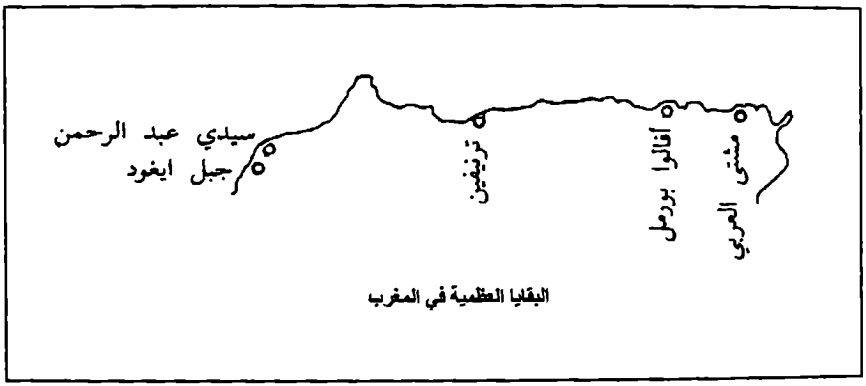

البقايا العظمية في المغرب

الباب الأول

شيشاوة منذ ما قبل التـّاريخ إلى زمَنِ المُرابِطين

الفصل الأوَّل:

فترةُ ما قبل التَّاريخ في شيشاوة إلى التَّوغُّلِ الرُّوماني

الفصل الثاني:

شيشاوة مِنَ الفُتوحـات الإسلامية إلى المُرابِطـينَ

الفصل الأوَّل
فترة ما قبل التَّاريخ في شيشاوة إلى التَّوغُّلِ الرُّوماني

أوَّلاً: إطارُ المُعالجَةِ:

يبدو مِنَ الصَّعب أن يُقْحِمَ الباحثُ نفسَه في مِثلِ هذه المواضيع، فالتَّهيئُ -مِنْ خلال المصادر التَّاريخية- لإطارٍ تاريخيٍّ طويلٍ، خاصٍّ بِشِيشَاوَةَ قد لا يُسعفُ الباحثَ بالارتياح نَفْسِهِ، الذي يُحِسُّهُ حين يقتفي آثارَ أخبارِ المُدُنِ الوسيطيَّة الأُخرى. إذ أَوْلَتِ الكِتاباتُ التاريخيَّةُ القديمةُ اهتماماً كبيراً بالعواصم، والمدن الكبرى، كفاس، ومرَّاكش، وتلمسان، وتونس؛ أو بالمحطَّات التِّجارية الهامَّة، والمناطقِ التي تأجَّجت فيها الصِّراعاتُ، والاصطداماتُ، كالثُّغور، والممرَّات... وارتبطت جُلُّ مَضامينها بالسَّلاطين، والأمراء، والدُّعاة ارتباطاً مُغالياً فغيَّبتِ المجتمعَ، كأنَّها كانت تتحدَّثُ عن فئاتٍ تقع خَارِجَهُ. اللَّهُمَّ فيما تعلَّق بنوعٍ خاصٍّ مِنَ الكتابات التي، وإن لَمْ تكن تاريخيَّةً صِرف، فقد أسعفتنا بالوقوف على مجموعةٍ مِنَ المظاهر التي ضبطتِ المجتمعَ المغربيَّ في فتراتٍ مُعيَّنةٍ من حيثُ البنيةُ، والاقتصادُ، والعقيدة، والتَّنظيمُ، والعاداتُ. كَكُتُبِ التَّراجم، والنَّوازل، والفوائد، والكرامات، والحِسبة، والطَّبقات...

ولعلَّ عزوفَ الكِتابات عَنِ التَّطرُّقِ إلى شِيشَاوَةَ بالإسهاب نفسِه، الذي حظِيتْ به كُبرياتُ مُدُنِ المغرب، يرجع بالأساس إلى عدم تَبَوُّإِ هذه المدينة درجةَ العاصمة في زمن أيِّ دولةٍ مِنَ الدُّول، التي تعاقبت على حُكْمِ المغرب. إذ تقع شِيشَاوَةُ في مَوضعٍ يَبعدُ بِكثيرٍ عَنِ المغربِ الأوسطِ: القُطْرِ الذي أَخْضَعَتْهُ الدُّوَلُ، التي حَكَمَتِ المَغرب في العصر الوسيط: (المُرَابِطُونَ، المُوَحِّدُونَ، بَنُو مَرِينَ). كما تنحَرِفُ بِمَوْقِعِها إلى اليسار مِنَ الزَّاوية الواصِلَةِ بين سهل السَّايْسْ حيثُ (فاس، مكناس) وسهلِ الحوز حيثُ (مرَّاكش). وتبعدُ أيضاً، بِمَسافاتٍ عَنِ الأطلسِ المتوسِّطِ: المنطقةِ التي تَمَيَّزت بِحِدَّةِ شَوْكةِ قبائِلها الثَّائرة. وهي عواملُ وضَعَتْهَا في مرتبةٍ أدنى مِنَ الموضِعِ الذي شيَّد فوقَهُ المرابطون عاصمَتَهُمْ مُرَّاكُشَ [1].

وإذا كان ذلك الموضِعُ الذي شُيِّدت فوقَه مُرَّاكُشُ قد وفَّر مَصادِرَ مِياهٍ، وغِطاءاً نباتِياً تكفَّلا باستمالة المُرابطين إليه دون غيره؛ فإنَّ شِيشَاوَةَ هي الأُخرى، قد وفَّرت -مِنْ خِلال واديها الحامل لاسْمِها وسواقيها- غِطاءً

---

[1] - حينما كان الباحثُ الفرنسي "Paul Berthier" بصدد التَّنقيب الأرخيولوجي في ستِّينيات القرن الماضي، في أساسات المَعْمَلَتَيْنِ الخاصَّتَيْنِ بالسُّكَّر في شيشاوة على عهد السَّعديين، في (ق10هـ/16م)، صادفَ رِوايةً شفويَّةً تؤكِّد بأنَّ بقايا سور المعصرة القريبة من زاوية بَلْمْقَدَّمْ، كانت في الأصل قد خُصِّصت لتشييد العاصمة المرابطية قبل مراكش في ذلك المَوضِعِ القريب مِنَ المَعْمَلَتَيْنِ دون غيره!؟ لعلَّ هذه الرِّواية الشَّفوية تُترجِمُ رغبةَ سُكَّانِ شِيشاوَةَ في أن تتبوأَ بَلْدَتُهُمْ درجةَ العاصمة مَحَلَّ مرَّاكش، أو على نُولِها. أنظر المقالين:

-"En Marge des sucreries Marocaines"

-"Recherches Archéologiques à La Zaouïa Bel Moqadem Chichaoua Haouz de Marrakech"

- Paul Berthier: Héspéris Tamouda 1970 pp 141- 169.

نباتياً تَقَرُّ له عينُ كُلِّ مَنْ يُلقي عليه نظرةً مِنْ أعلى جبل تِلْدَّاتْ.[1] وعليه، نجد أنفسَنا مُضطرِّين إلى أن نُوَسِّعَ الإطارَ التَّاريخي لِشِيشَاوَةَ بِأَنْ نَربِطَهُ بِخَصائِصَ لِتاريخ الحوز، ما دامتِ المنطقةُ، التي كانت بَلْدَةً بالأمس، قد تحوَّلت إلى إقليمٍ واسعٍ يضمُّ سهلَ الحوز، وجِبالَ الأطلس الكبير الغربي، التي أَلِفَ المؤرِّخون أن يُسَمُّوها "أَدْرَارَنْ دَرَنْ".[2] غير أنَّ رَبْطَ شِيشَاوَةَ بالحوز يَطرح صُعوبةً تتمثَّل في غياب وحدةٍ جغرافيةٍ مُوحَّدَةٍ، ومُتميِّزةٍ. إذ أنَّ ثُنائيةَ السَّهل الواسع، الممتدِّ مِنَ الجْبِيلاَتْ في الشَّمال الشَّرقي من شِيشَاوَةَ إلى الأطلس الكبير الغربي في جُزئها الغربي الجنوبي، يُعيقان عَمَلِيَّةَ اقتفاءِ آثار إطارٍ تاريخيٍّ مُوَحَّدٍ. إذ لِكُلِّ مَجالٍ مِنَ المجالَيْن المذكورَيْن حضورٌ مُعيَّنٌ داخلَ الكتابات التَّاريخية في فتراتٍ مُتفاوتةٍ. ثُمَّ إنَّ سهل الحوزَ قد وُجِدَ - على حدِّ قول هِنْرِي تِيرَاسْ-: "*في حالةٍ مِنَ اللاَّتوازن، انطلاقاً مِنَ القرن الحادي عشر الميلادي، إثْرَ تأسيس مُرَّاكُشَ (المدينة الإمبراطورية) من لدن المرابطين، والتي استقطبت حولَها، ابتداءً من هذه الفترة، كُلَّ النَّشاطات الاقتصادية، والسياسية للمنطقة.*"[3] وعلى الرَّغم من كُلِّ ذلك، نسجِّل أنَّ

---

[1] - تِلْدَّاتْ: جبل يُطِلُّ على التجمُّع الإداري في شيشاوة بِعُلُوٍّ يصلُ إلى 420م.

[2] - "أَدْرَارَنْ دَرَنْ": أي جبل الجبال باللِّسان الأمازيغي لدى المؤرخين القُدامى، كالبكري، وابن خلدون، وابن أبي زرعٍ الفاسي، وابن الخطيب، وابن قنفذ القسنطيني وغيرهم مِمَّنْ أرَّخوا لِمَغْرِبِ العصر الوسيط. أنظر أيضاً:

-Emil Laoust: "Contribution à La Toponymie du grand Atlas occidental".

[3] -Henri terrasse: "Villes Impériales du Maroc" 1937 Grenoble p23.

-Gaston Deverdin : "Marrakech Des origines à 1912" p24.

تاريخَ الحوز يبدأ كغيره مِنَ التَّواريخ بالتَّأْرِيخِ المُسَمَّى بِفترة ما قبل التَّاريخ، وهي الفترة التي أفرزت لنا إنسانَ شيشاوة بِمُواصفاتٍ لافِتةٍ للاهتِمام، تُولِجُهُ في زُمْرَةِ الإنسان المتقدِّم بالنِّسبة إلى عَصْرِهِ خلال النْيَانْدِرْتَالْ، المُسَجَّلِ ضِمْنَ البَّالْيُولِيتِي الأوسط، المنتمي إلى الزَّمن الجيولوجي الثَّالث.

ثانياً: إنسانُ شيشاوةَ المُتَقَدِّمُ بالنِّسبَةِ إلى عَصْرِهِ:

أسعفنا مُتخصِّصون في علومٍ غيرِ عِلْمِ التَّاريخ بمعلوماتٍ تُثبتُ وجودَ بقايا صِناعاتٍ نْيُولِيتِيكِيَّةٍ في منطقة شيشاوة.[1] ويُشير في هذا الباب الباحثُ بُولْ كُوهْلِرْ إلى أنَّه عثر على ما أسماه بِوَرْشةٍ مِنَ السِّلِكْسْ[2] مُنْتَشِرَةٍ على حافَّة جبل تِلْدَّاتْ. كما يُشيرُ الباحثُ الفرنسي جُونْ دْرِيشْ إلى أنَّه عَثر على بقايا مِنَ السِّلِكْسْ، مَنحوتةٍ بطريقةٍ تصنِّفُها داخلَ العصرِ المُسْتِيرِي،[3] عَثر عليها فوق سطح ضِفَّتَي وادي شِيشَاوَةْ. ويشيرُ من بعدِهِما الباحثُ الأَرْخِيُولُوجِي الفرنسي بُولْ بِيرْتِي إلى أنَّه صادف -خِلالَ تنقيبه في بقايا المعاصر السُّكَّرِيَّة السَّعديَّة في شيشاوةَ- مَجموعةً مِنَ المُخلَّفات صنَّفها في خانةِ بقايا ما قبل التَّاريخ، سواءٌ في جبل تِلْدَّاتْ، أو إثرَ حُصولِهِ على صِنْفٍ

---

[1] - نيوليتيكية: أي تعود إلى الزَّمن النْيُولِيتِيكِي، وهو المُنتمي إلى الزَّمن الجيولوجي الثَّالث.

[2] - السلكس: صخر منحوث استخرج منه الإنسان القديم أدوات للطهو، والصيد، والحرب....

[3] - John Dresch : "Recherches sur l'évolution du relief dans le massif du grand Atlas, lc Haouz et le sous" Tours 1941 p 505.

العصر المُسْتِيرِي: هو العصر الحجرى القديم-الأوسط، يمتدُّ ما بين 40.000 سنة و50.000 سنة.

مِنَ الرَّخَوِيَّاتِ على ضِفَّتَي وادي شيشاوة، أو على بعض الأدوات التي تعود إلى العصر النيُولِيتِي.[1] نُلْفِتُ الانتباهَ إلى أنَّ جبل إِيغُّودْ المُهَيْمِنِ بارتفاعه على التجمُّع الإداري في شيشاوة من جِهَتِها الغربية، قد كان مَسرحاً لاكتشافٍ أَنْتْرُبُّلُوجِيٍّ هامٍّ تَمَثَّل في العثور على جُمجمة إنسانٍ، وبِمحاذاتِها كراكيرُ مُنْتَثَرَةٌ مِنَ الأدوات التي لا تخلو من أهَمِّيةٍ: (كَكُوى النَّار، وأحجار السِّلِكْسْ المنحوتة...) وأنَّ الجبلَ المذكورَ لا يبعدُ عن شيشاوةَ سِوى ب 40 كلم تقريباً، على الطَّريق المؤدِّية إلى الشَّمَّاعية.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ صاحبَ الاكتشاف[2] يصنِّفُ إنسانَ إِيغُّودْ داخلَ إطار الإنسان المُتقدِّم بالنِّسبَةِ إلى حضارةِ الإنسانيَّةِ خلالَ عصر النْيَانْدِرْتَالْ، بالاعتماد على حوالي 425 قِطعة مِنَ المخلَّفات المنحوتة بدِقَّةٍ مِنَ السِّلِكْسْ، كشفت كُلُّها - على حدِّ قولِهِ- عن ذكاء ذلك الإنسان، وأيضاً مِنْ خلالِ بقايا أدواتٍ ناريَّةٍ، عن أنَّ ذلكَ الإنسانَ كان مُتقدِّماً بالنِّسبَةِ إلى عصْرِهِ، ومُستقِرّاً في الآن نفسِهِ في ذلك الزَّمن البعيد. وإذا اعتبرنا أنَّ المسافةَ القصيرةَ التي تفصِلُ بين مَوضِعِ الاكتشاف وشيشاوةَ، خاليَّةٌ مِنَ الحواجزِ الطَّبيعيَّةِ التي يُمكِنُ أن تَعوقَ التَّنَقُّلَ، والتَّواصُلَ بين النَّاسِ والأشياء؛ فسيُصْبِحُ في مَقدورِنا أن نُصَنِّفَ إنسانَ شيشاوةَ بِدَوْرِهِ، ضِمن خانة الإنسانِ

---

1 - Paul Berthier: "Recherches Archéologiques à La Zaouïa Bel Moqadem" Héspéris 1970 p 141-169.

2 - Emile Enouchi: Professeur à La Faculté des sciences dc Rabat: "L'homme de jbel ihroud" : Etude de paléontologie Humaine : « Héspéris » 1963: pp 229-230.

الأكثرِ تقدُّماً، وذكاءً، واستقراراً بالنِّسبة إلى الإنسانِ في فترةِ البَّالْيُولِيتِي الأوسط: إذ كشفت أبحاثُ بُولْ بِيرْتِي عن وجود قِطَعٍ مِنَ السِّلِكْسْ نفسِه على ضِفَّتَيْ وادِي شيشاوة، وعند قَدَمِ جبل تِيلْدَّاتْ على بعد أمتار من الوادي.

ثالِثاً: تقديمُ المثلَّث الرُّوماني والكشفُ عن ما بعدَهُ:

حَصَرَتْ بعضُ الدِّراسات الوجودَ الرُّوماني في المغرب في المثلَّث المتكوِّن من (طَنْجَةَ، سَلاَ، وَمَكْنَاسَ)، واستند أصحابُها على مُخَلَّفاتٍ رومانيةٍ عثروا عليها في كُلٍّ من جنوبِ الرِّبَاطِ، وشَمالِ مَكْنَاسَ حيثُ جبلُ زَرْهُونْ. وقد سادت كُلَّ هذه الدِّراسات بشكلٍ لافتٍ إلى حدود صدور مَقالٍ للباحثِ أُوزِينَا[1] وضَّح فيه أَنَّ التَّحليلَ البِيتْرُوغْرَافِي[2] الذي أُجْرِيَ على بقايا وُجِدت فوق صخورٍ في الأطلس المتوسِّط، قد بيَّنَ أَنَّ رموزَ الكتابات المسجَّلَة عليها، هي نفسُها التي سُطِّرَتْ على صخورٍ نُحِتَتْ من جبلِ زَرْهُونْ. ونظراً للتَّشابه الحاصل بين كُلِّ هذه الصَّخور وتلك التي عُثِرَ عليها في وَلِيلِي، فقد خَلُصَ الباحثُ إلى القول: *"إنَّ تلك الصُّخور قد حُمِلت من مَواضِعِها الأُولى إلى الأطلس المتوسِّطِ، إبَّانَ الفتح الإسلامي للمغرب في* [62هـ / 681-682م]، *أو بعدَه."* ويُضْفِي بُولْ بِيرْتِي على هذا القولِ بعضاً مِنَ التَّلميع، إذ يقول: *"كان بالإمكان أن تُغلَق المسألةُ، أو يقتصِر*

---

[1] - أنظر المقال السَّابق لِبُولْ بِيرْتِي: ص 166.

[2] - هو تحليلٌ يُجْرِيه المتخصِّصون على الصُّخور لِيُحَدِّدُوا أعمارَها، ومَنْحوتاتِها، والتَّشابُهَ الَّذي بينها وبين باقي الصُّخور.

الوُجودُ الرُّوماني بالفِعلِ، على المثلَّث المذكور، لو لَمْ نَعثُر بِدورِنا، أثناءَ بَحْثِنا في بقايا مَعَاصِرِ السُّكَّر السَّعديَّة في شِيشَاوَة، على مُخلَّفاتٍ رومانيَّةٍ أهمُّها بعضُ الرَّكائزِ، وأشكالُ المِدْخَنات، وأيضاً بعضُ القِطَعِ مِنَ النَّسيج..." [1]

غير أنَّ بِيرْتِيي يَتَحَفَّظُ بين أن يَعتبِرَها رومانيَّةً صِرف، أو أنَّها تطبَّعت فقط، بالأَنْماط الرُّومانية في ميدان التَّشييد.

وفيما يتعلَّق بالتَّوغُّل الرُّوماني في ما وراءَ المثلَّث الذي حدَّدَته الدِّراساتُ المذكورةُ، نتوفَّرُ على إشارةٍ تُفيدُ أَنَّ رومانيينْ هُما: سِيتُونْيُوسْ بُولِينْيُوسْ، وَدُوسُودْيُوسْ جِيتَا، قد قاما بِحَملةٍ اقتَحَما أثناءَها الأطلسَ الكبير الغربي إلى حدود وَادْ كِيرْ في الجنوب الشَّرقي مِنَ المغرب؛ كما يُسعِفُنا الباحث دُو لاَشَابِّيلْ[2] بِمعلوماتٍ ساقها عَنِ المؤرِّخ الرُّوماني دْيُونْ كَاسْيُوسْ[3] تُفيدُ أنَّ القائدَيْن المذكوريْن قد تتبَّعا آثارَ (البَرَابِر) الفارِّين من زحفِهما، إلى أن توغَّلا في الصَّحراء. ويُضيفُ صاحبُ المَقال أَنَّ الوجود

---

[1]- أنظر المَقالَ السَّابق لبُول بيرتّيي.

[2]- لا توفِّر الإشاراتُ الطَّفيفة التي وردتْ في كتابات كُلٍّ من بْلِينْ الشَّيْخْ، أو سُولاَنْ، أو دْيُونْ كَاسِيُوسْ سوى معلومات مُنتَثِرة عن رحلة القائد الروماني سيتونيوس بولينيوس إلى المغرب والجزائر خلالَ العقد الرَّابع مِنَ القرن الميلادي الأوَّل (42م). إذ يُؤكِّدُ بْلِينْ الشَّيْخْ بأنَّ القائدَ، أو القُنْصُلَ الرُّوماني: "هو الوحيد الذي تمكَّن من أن يجتاز الأطلس ببعض آلافٍ مِنَ الخطَوات" أنظر:

-De la chapelle: "L'expédition de suetonus polinus dans le sud du Maroc" « Héspéris » 1934 pp 107-124 .

-Coll. Guillamar Budé M Histoir Naturelle: "Le Maroc chez les anciens" 1924 pp 33-34.

- انظرِ المَقالَ نفسَه لِصاحبه "دُولاَشَابِّيل"؛ وانظر أيضاً:

[3]- Boissé : "Histoire Romaine" T 8 pp 500 -501 .

الرُّوماني قد تَراجَعَ فيما بعدُ، عَنِ المناطق التي كان قد توغَّلَ فيها، بعدَ أن تبيَّنَ الرُّومانُ قِلَّةَ مَوارِدِها الاقتصادية، بالمقارنة مع المناطق الشَّمالية مِنَ المغرب. لكن ما علاقَةُ كُلِّ هذا بِشِيشَاوَةَ؟

لقد أُجرِيتْ بُحوثٌ أَرْخيُولُوجِيَّةٌ على جزيرة مُوكَادُورْ المعروفة بالصَّويرة حالياً، عَامَ (1369هـ/1950م) من لدن الباحِثَيْن دِيسْجَاكْ وَكُوبَرْلِي، استُشْمِرَتْ فيما بعدُ، من لدن الباحث أَنْدْرِي جُودَانْ،[1] فوضَّحت لنا –يقولُ بُولْ بِيرْتِيي في المقال نفسِهِ–: *"إنَّ الجزيرة [مُوكَادُورْ] قد وفَّرتِ الكثيرَ مِنْ بعض المخلَّفات الرُّومانية، التي يعود تَأْرِيخُهَا إلى فترة مابين القرن الأوَّلِ قبل الميلاد والقرن الثَّاني بعده."* ويُضيفُ الباحثُ نفسُه قائلاً: *"إنَّ شيشاوة لا تبعُدُ عن مُوكَادُورْ سوى بحوالي 100 كلم، وهي مَسافةٌ كان الرُّومان، على بساطَةِ وسائل نَقْلِهِمْ، يقطعونَها في ظرف ثلاثة أيَّامٍ."*

ويُسعفنا كَارْكُوبِّينُو في كتابه "المغرب" القديم بِمعلوماتٍ مَفادُها: *"إنَّ فترة ما بعد حكم دُيوقْلِيَانُوسْ لَمْ يَنْمَحِ خلالَها التَّأثيرُ الرُّوماني في المغرب، بالرَّغْمِ من تراجُع الوجود به؛ بل إنَّ المغربَ قد تَمَسَّحَ في كثيرٍ من أقطارِهِ..."*[2] وعن وجود الإمبراطورية الرُّومانية في المغرب كَكُلٍّ، يُقِرُّ الباحث تُوفُونُو بِحدوثِ تَراجُعٍ كبيرٍ للأفواج الرُّومانية عن توغُّلِها السَّابق، في وقتٍ استطاع فيه: *"... المغربُ اللاَّتيني والمسيحي – على حَدٍّ*

---

[1] - A.Jodin: "Mogador Comptoir phénicien du Maroc Antique et les établissements du roi Juba 2 aux îles purpuraires" E. Marocaine et internationale –Tanger- p38.

[2] -J. Carcopino: " Le Maroc Antique" Paris Gallimare Ed. 1948 p23.

قوله- أن يحتفظ بالحضارة التي مَنَحَتْهُ الإمبراطوريةُ إيَّاها، بالرَّغم مِنِ انحصاره بين إسبانيا الفيزيغُوتيَّةِ وأفريقيا الوِنْدَاليَّةِ." ويعود كَارْكُوبِّينُو ليُؤَكِّدَ أنَّ المغرب قد شهِد انطلاقاً من ق17م: *"حركةً كبيرةً مِنَ التَّنقُّلات بين النَّاس والأشياء والأفكار."* [1] ونذيِّلُ هذا الطَّرْحَ بِنَصٍّ للباحث المغربي عبد الله العروي، إذ يقول: *"تكونُ الفترةُ الطَّويلةُ الممتدَّةُ مِنَ القرن العاشر ق.م إلى القرن السَّابعِ ب.م حِقبةً مُتميِّزةً، يَطَأُ أثناءَها أرضَ المغربِ الفينيقيُّون، والإغريقُ، والرُّومانُ، والوِنْدَالُ، بعضُهم يزورُ السَّاحِلَ فقط، وبعضُهم يُقيمُ ويتوغَّلُ داخِلَ البِلادِ... إنَّنا لا نعرفُ هذه الحِقبَةَ الطَّويلَةَ إلاَّ من خِلالِ الآداب اليونانيَّةِ، واللاتينيَّة. نتعرَّفُ على المَغاربةِ الأصليِّينَ من خِلالِ ما يَقُولُه عَرَضاً، جغرافيون ورحَّالةٌ، وهم يتكلَّمون على شعوبٍ أُخرى."* [2] فإذا ما تَوَهَّمْنا أنَّ الوجودَ الرُّوماني في أفريقيا قد دام عشرةَ قرونٍ، واستغرَبْنا بعدَ أَنْ أدركنا السُّرعَةَ التي انْهارَ بِها حُكْمُ روما، واندثرت بِها حضارتُها، ولُغَتُهَا فهل يَحِقُّ لنا أن نفترِضَ أنَّ تأثيرَ اللِّسانِ الرُّوماني، في بعضِ المناطِقِ مِنَ الحوزِ، قد تَمَّ من خِلالِ تقلُّبِ تَّسْمِيَّةِ شِيشَاوَةَ من إِشِيشَاوَنْ ذاتِ الأصلِ الأَمَازِيغِي إلى شَفْشَاوَنْ، التي لا علاقةَ لَها بمدينة شَمالِ المغرب، رُبَّما لِتلاقُحِ اللِّسانَيْنِ الأمازيغي واللَّاتيني، دون أن نقطَعَ بذلك قَطْعاً نِهائِيّاً؟!

---

[1] - R.Thouvenot dans: "Hespéris" 1951 P 486 à 475.

[2] - عبد الله العروي: "مُجملُ تاريخ المغرب" المركز الثَّقافي العربي، البيضاء ص 57.

الفصل الثَّاني
شيشاوةُ مِنَ الفُتوحات الإسلامية إلى المُرابِطِين

أوَّلاً: مَوْضِعُ شِيشَاوَةَ خِلالَ الفُتوحات الإسلامية (62هـ/ 681م):

سجَّل الرَّحَّالَةُ أبُو عُبَيْدٍ البَكْرِي أَنَّ الفاتِحَ العربي عُقْبَةُ بْنِ نَافِعٍ قد توغَّل في المغرب إلى أن وصل إلى مدينةِ نَفِّيسْ، التي *"حاصر بها الرُّومَ، ونصارى البربر، وكانوا قَدِ اجتمعوا بها لحِصانَتِها، وسِعَتِها فَلَزِمَهُمْ حتى فتحَها، وبنى بها مَسجداً إلى اليوم، وأصابوا فيها غنائِمَ كثيرةً وذلك سنةَ اثنتَيْن وسِتِّين."* [1] يَجدُر بنا أن نُذَكِّرَ بِأَنَّ المؤرِّخَ نفسَه قد أسعفَنا منذ سنة (460هـ/ 1068م) بِمعلوماتٍ توضِّح أَنَّ المسافات التي طَواها خلالَ رِحلته: *"من نفِّيس إلى شَفْشَاوَنْ ثلاثون ميلاً"*. غير أَنَّ الأَرْخِيُولُوجِيِّينَ الَّذين جابوا المنطقةَ بِمَسْحِهِمُ المُحْتَشِمِ، منذ أزيدَ من تسعين سنةً، لَمْ يعثُروا

---

[1] - أبو عبيد البكرى: "المسالك والممالك". طبعة البارون دُو سْلاَنْ ص 160 من الجزء المُعنون "المُغربُ في ذِكْرِ إفريقيَّةَ والمَغرب". للإشارة ف 30 ميلاً التي تبعد بها شيشاوةُ عن نَفِّيسْ تكاد تُعادل حوالي 45 كلم، على اعتبار أنَّ الميل يساوى حوالي 1600متر. نُضيف هنا أنَّه لا علاقَةَ لتسمية شفشاون بمدينة الشَّمال التي أُسِّست على عهد السَّعديين، وسنُوضِّحُ أسبابَ التَّسمية حين نكونُ بصدد الحديث عن أسباب تطور أسماء شيشاوة عبر الزمان.

على أثرٍ لأنقاض نَفِّيسْ؛ وهو ما يَضَعُنا أمام صُعوبة تحديد زحف عُقبةَ بْنِ نافعٍ بالنِّسبة إلى شِيشاوةَ التي نحن بِصَدَدِهَا الآن. غير أنَّ المُتَمَعِّنَ في نصِّ البكري لا يلبثُ أن يُلاحِظَ في الأسطُرِ التي تَلَتْهُ، أنَّ الرَّحَّالَةَ نفسَهُ قد رصدَ: *"من مدينة نَفِّيسْ إلى مدينة أَفِّيفَنْ مَرحَلَةٌ."* ثُمَّ وصف أَفِّيفَنْ بكونها: *"مدينةٌ بطحاءَ طيِّبةٌ، ومنها ترقى في جبل دَرَنْ، وهو جبلٌ مُعترِضٌ في الصَّحراء، مَعمورٌ بقبائلِ صنهاجةَ، وغيرِها."* [1]

وإذا كانت هذه النُّصوصُ قد وضَّحت أنَّ منطقةَ الحوز قد وفَّرت لنا مجموعةً مِنَ المدن، والمحطَّات ومن ضِمنِها شِيشَاوَةَ، التي جعلها البكري محطَّةً على نحو كُلٍّ من اغْمَاتْ، سِجِلْمَاسَّةَ، دَرْعَةْ، وغيرِها فإنَّ المؤرِّخَ نفسَه كان قد قدَّمَ لنا –على حدِّ قول لِيفِي بْرُوفَنْسَالْ– شهادةً لا تُناقَشُ قيمتُها في كون مُرَّاكُشَ لَمْ تكن قد شُيِّدت بعدُ إبَّانَ ذِكرِه لِشِيشَاوَةَ. إذ ذكر صراحةً في النُّبْذَةِ القَيِّمَةِ التي خصَّصها لِتاريخ المُرابطين، إلى غاية وَقْتِ تحريرِه لِكِتابه "المَسَالِكُ والمَمَالِكُ" أَنَّ: *"أمير المرابطين إلى اليومِ* [أي في (460هـ/ 1068م)] *وذلك سنة ستين وأربعمائة* [هو] *أبو بكرِ بْنُ عمرَ، وأمرُهم مُنتشِرٌ، وغيرُ مُلتَئِمٍ، ومُقامُهم بالصَّحراء."* [2]

---

[1] - المصدر نفسُه ص 160.

[2] - المصدر نفسُه ص 160-161.

إنَّنا نستطيع بالإستناد إلى البكري -يُضيفُ لِيفِي بْرُوفَانْسَالْ- أن نؤكِّدَ أنَّه في عام (460هـ/ 1068م)، أي بعد مرور ستِّ سنواتٍ على التأريخ الذي زُعِمَ أنَّه تاريخُ تأسيس مُرَّاكُشَ، وهو (454هـ/ 1062م)، لَمْ يكن يُعرَف شيءٌ عن هذه المدينة الجديدة سواءٌ في المغرب، أو في الأندلس. فهل معنى هذا أنَّ شِيشَاوَةَ قد شكَّلت تَجَمُّعاً سَكَنِياً دفع بالبكري إلى أن يَعتبِرَهُ مَحَطَّةً قبل أن توجدَ مُرَّاكُش؟! للإجابة على هذا التَّساؤل نستنِدُ إلى لِيفِي بْرُوفَنْسَالْ، الَّذي يستنتجُ أنَّه في عام (460هـ/ 1068م)، لَمْ تكن مُرَّاكُشُ قد تأسَّست بَعْدُ، ولا فاسُ قد فُتِحَتْ، ولا المَغربُ الأوسطُ والشَّرقي قد نَاوَشَتْهُ كتائبُ اللَّمتونِيِّينَ. غير أنَّ الاستنتاجَ يرتبط باستقصاء رِوَايَةِ شاعِرِ لَمتونةَ أبي بكرِ بْنِ الصَّيْرَفِي، المتميِّزة بِمُعاصَرَتِها للأحداث؛ وهي وإِنْ ضاعَ المؤَلَّفُ الذي احتواها: "الأنوارُ الجلية في ذِكْرِ الدَّولة المرابطيَّة" فقد نقلَها لنا ابنُ عِذَارِي عَنْ كِتابِ ابنِ الصَّيْرَفِي، قبلَ أن يضِيعَ، قائلاً: *"وفي سنة اثنتين وستِّينَ وأربعمائة، في الثَّالث والعشرين لِرَجَبْ، ابْتُدِئَ بأساسِ مُرَّاكُشَ وذلك قصرُ الحجر، وشَرَعَ النَّاسُ في بِنَاءِ الدُّورِ دُونَ السُّورِ."* [1]

---

[1]- صدر مَقالٌ خصَّ به لِيفِي بْرُوفَنْصَالْ مَسألةَ تأسيس مُرَّاكُشَ؛ وضَّح فيه كيف أنَّ المؤرِّخين الذين اعتمدوا على سنة (454هـ-1062م) كَتَأْرِيخٍ لِبناء مُرَّاكُشَ، استندوا في ذلك، على المُؤَرِّخَيْنِ ابن خلدون في كتابه "العبَر" الذى اعتمد بِدَوْرِهِ على ابن أبي زرعٍ الفاسي في "روض القِرطاس". وآخَذَهُمْ على أنَّهم اعتبَروا ابنَ خلدون، في تقديرٍ مُبالَغٍ فيه بالنِّسبة إلى تاريخ المغرب قبل عصر المرينيِّين، مَصدراً أساساً للأخبار يحظى بالثِّقة، أكثرَ مِمَّا يحظى بها =

ثانياً: تأسيسها:

بِالرَّغْمِ مِنْ كَوْنِ شِيشَاوَةَ لَمْ تَحْظَ بِطَرِيقَةِ التَّشييد نفسِها التي حَظِيَتْ بِها المدنُ القديمة، ومن بينِها مُرَّاكُشُ: أي بِوَضْعِ سورٍ يُسيِّجُها، ومَسجدٍ، وسِجنٍ، وقصورٍ؛ وهي كلُّها خاصِّياتُ مُدُنِ العصر الوسيط في المغرب فإنَّ الرَّحَّالةَ البَكْرِي كان أوَّلَ مَنْ ذكَرَها كَمَحَطَّةٍ، ومِنْ بَعدِه ابْنُ أَبِي زَرْعٍ الفاسي كَمَدِينَةٍ، وهو ما يدفَعُنا نحنُ، إلى إشعارٍ آخر، إلى أن نَرصُد لَها عامَ (460هـ/ 1068م) كَتَأْرِيخٍ لِزَمَنِ تشييدِها. وهي السَّنةُ نفسُها التي انتهى فيها البكري من كِتَابَتِهِ. وإذا كان هذا الجغرافي قد أَلِفَ أن يَقيسَ المَراحِلَ، والأميالَ بالمحطَّات، والمُدُنِ فإنَّ مُومَنْ بْنُ يُومَرْ الهُوَّارِي الذي نقلَ إليه أخبارَ المَسلَكِ من اغْمَاتْ إلى السُّوس، ما كان لِيَضَعَ شيشاوةَ كمحطَّةٍ بين نَفِّيسْ ومْرَامَرْ لو لَمْ يَتَبَيَّنْ منها المُواصفاتِ نفسِها، التي لِغيرِها مِنَ المحطَّات.

= غيرُه مِنَ المصادرِ. وعلى غِرار ذلك، لفتَ الانتباهَ إلى مَصدر أبي بكرٍ بن الصَّيْرَفي، المُعاصِرِ للمرابطين، والمُسَمَّى عند جَاكْ بيرْكْ بشاعِرِ لَمْتُونَةَ، المُعنْون ب "الأنوار الجليَّة في ذكر الدَّولة المرابطيَّة"، (وهو مصدرٌ نَأسَفُ عن ضياعه مثلَما تأسَّفَ لذلك العلاَّمة عبد الله كَنُّونْ)، وأكَّد على أنَّ المُعتَمدين عليه من أمثال ابْنِ عَذَارِى في كتابه "البَيَانِ المُغْرِبِ"، والمؤرِّخ المجهول في كتابه "الحُلَلُ المُوشِيَّةُ" يؤكِّدون كلُّهم على أنَّ تاريخ التَّأسيس على وجه التَّدقيق، هو يوم (23 رجب من عام 462 هـ/8 مايو 1070م) ولم يكن حينَها، يوسفُ بنُ تاشفين هو صاحب المُبادرة في التَّأسيس، وإنَّما كان سالِفُهُ الأميرُ أبو بكرٍ بنِ عمرَ اللَّمتوني.

لِيفِي بْرُوفَنْسَالْ؛ ترجمة أحمد التَّوفيق: "مراكش مِنَ التَّأسيس إلى العصر الموحِّدى" ص 23 مجلَّة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض بمراكش. البيضاء، 1989.

على هذا الأساس، يُمكِنُ لأيِّ شِيشَاوِيٍّ سُئِلَ عَنْ زمن تّشييدِ شيشاوة مَسْقِطِ رَأْسِهِ، أن يقولَ بِكُلِّ اعتِزَازٍ:

"شُيِّدَتْ شِيشَاوَةْ عام (460هـ/ 1068م)" [1]

ويَجُرُّنا هذا إلى ضرورة التَّعريف بِهَوِيَّةِ مُؤَسِّسِيها؛ فلا يَسَعُنا في هذا الباب، إلاَّ أن نعتَمِدَ على الزَّيانِي -وهو المؤرِّخُ الرَّسْمِيُّ للدَّولة العلويَّة الشَّريفة خلالَ نِهاية ق19م- إِذْ يُسعِفُنا بِمعلوماتٍ قَيِّمَةٍ حول المؤسِّسين الشَّرعيِّين يقول فيها:

"ثُمَّ أَسَّسَ المَصامِدَةُ مدينَةَ شُوشَاوَةَ، ومدينَةَ اغْمَاتَ أُورِيكَةَ." [2]

ولا غَرابَةَ في ذلك، خصوصاً إذا ما سلَّمنا مع مجموعةٍ مِنَ المُؤرِّخين، وفي مُقدِّمتهم البكري، بأنَّ المَصامِدةَ من (إمْصْمُودَنْ باللُّغة الأمازيغيَّة) يشكِّلون الأفواجَ الأساسَ في تعمير المغرب في واجهته الأَطْلَنْتِيكِيَّةِ على الخصوص. فهم -على حَدِّ قول ابن خلدون-: *"أكثَرُ قبائل البربر وَأَوْفَرُهُمْ"* إذ يُقَسِّمُهُمْ إلى *اغْمَارَةَ* الَّذين: *"يعتَمِرون رِحابَ الشَّمال"*

---

[1]- استَشْرَفْنَا هذا الطَّرحَ من خلالِ قراءةٍ مُتَأنِّيةٍ للنُّصوص، وأَسْعَفَنَا في الجَزْمِ أبو عُبَيْدِ الله البكرى، بما ورد في كتابه: "المسالكُ والممالكُ"، فحَرِصْنا على أن يتزامن تأريخ التَّشييد مع انتهاء البكرى من كتابَته، دونَ أن نَحتَسِبَ أنَّ شيشاوة، كبلدةٍ كانت تعيش وتتحرَّكُ حتَّى قبل أن يذكُرَها هذا الرَّحَّالةُ الأندلسي.

[2]- أبو القاسم الزَّياني: "التُّرجُمانةُ الكُبرى في أخبار المَعمور بَرّاً وبحراً." تحقيق عبد الكريم الفيلالي وزارة الإعلام الرباط 1967 ص 79.

وبَرْغَواطَةَ في الوسط: "في بَسَائِطِ تامَسْنَا وريفِ البحر المُحيط، مِنْ سلا إلى أَزْمُورْ، وأَنْفا، وآسْفِي" وأهلُ: "جبال دَرَنْ في الجنوب" [1] يتَّضح من هذا التَّقسيم أنَّ سُكَّانَ ناحية شِيشَاوَةَ ينتمون في أصولِهِمْ إلى قبائل المَصَامِدَةِ-الأَمَازِيغ من أهل جبال دَرَنْ.

ثالِثاً: شِيشَاوَةُ خِلاَلَ الزَّحْفِ المُرَابِطِي:

يزداد هذا تأكيداً عندما نقرأُ على لِسان عَلِيِّ بنِ أبِي زرعٍ الفاسي مَثَلاً، أَنَّ أبا بكرِ بْنِ عمرَ اللَّمْتُونِي ارتَحَلَ، بعد غَزْوِهِ لِجميع بلاد السُّوسِ، إلى بِلاد المصامدة: *"ففتح جبالَ دَرَنْ، وفتح أيضاً بِلادَ رُودَةَ، وفتح مدينةَ شيشاوةَ بالسَّيْفِ، ثُمَّ فتح بِلادَ نَفِّيسَ، وسائِرِ كَدْمِيوَةَ، وأتاهُ قبائلُ رَكْرَاكَةَ، وحاجَّةَ فبايعوهُ، وارتحَلَ إلى مدينة اغْمَاتْ."* [2] ولعلَّ ما يُثيرنا في هذا النَّصِّ هو وُرودُ كلمة شِيشَاوَةَ، ونَعتِها من لَدُنِ صاحبه بالمدينة ومُرَّاكُشُ لَمْ تُؤَسَّسُ بعدُ. إذ ذكر ابْنُ أبِي زرعٍ الفاسي اغْمَاتَ بعد ذِكْرِهِ لشيشاوة في إطار المدن، التي فتحها أبو بكرِ بْنِ عمر اللَّمتوني[3] إذ قرَّرَ – على حدِّ قول رواية ابن عِذَاري

---

[1] - أنظر مَقال البلاَّوى أحمد: "الإطار البشرى والحياة الحضرية بناحية مرَّاكش قبل التَّأسيس." مجلَّة كلِّية الآداب جامعة القاضي عياض مرَّاكش. ص 39. البيضاء 1989.

[2] - ابن أبي زرعٍ الفاسي: "الأنيس المُطرِبُ بِرَوْضِ القِرطاس في أخبار مُلوك المَغرب وتاريخ مدينة فاس." طبعة دار المنصور، الرِّباط، 1970. ص128-129.

[3] - هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ أبا بكرِ بنُ عمرَ قد فتح شيشاوة من جهة السُّوس، قبل أن يُعرِّجَ في اتِّجاه اغْمات.

المنقولة عَنِ ابْنِ الصَّيْرَفِي- أن يؤسِّسَ قاعِدةً مُرَابِطِيَّةً على مَقْرُبةٍ من اغْمَاتَ خِلالَ عام (461هـ-1069م). ويُعزِّزُ لِيفِي بْرُوفَنْسَالْ كلَّ هذا بالإشارةِ إلى أنَّ المدينةَ نفسَها قد دخلت تحت إِمْرَةِ أبي بكرِ بْنِ عُمَرَ اللَّمتونِي، كما دخل في طاعته المصامِدةُ-الأمازيغ، المعْتَمِرون لِكُلِّ الجبالِ المُجاورة منذ عام (450هـ-1058م). هذا وقد واصلَ أبو بكرٍ بن عمر اللَّمتوني غزْوَهُ للصَّحراءِ فيما بين عامي (450هـ/ 1058م) (460هـ1068م)، ثُمَّ عادَ إلى اغْمَاتَ لِيَتزَوَّجَ من زَيْنَبَ النَّفزاويَّة، التي أشارت عليه باحتلال عددٍ مِنَ الدُّور لِيَسكُنَها، هُوَ وقومُه. ولَمَّا لَمْ يَسلَمْ من لَوْمِ السُّكَّان، وتكرار شكواهُم طلب منهم أن يَدُلُّوهُ على مَوْضِعٍ يتأتَّى له فيه بِناءُ مدينةٍ. وبعد مُخابرةٍ، ومُفاوضةٍ انْتَهَوْا إلى قرارٍ يَقضي بالبحث في الحدود، بين اغْمَاتَ أُورِيكَةَ واغْمَاتَ أَيْلاَنَةَ، عن مَوْقِعٍ قَفْرٍ، بعيدٍ عن مَجرى الماء لِيَكونَ بِمَنْجَاةٍ مِنَ الفيَضان في فصل ارتِفاع مُستوى مِياه الأودِية، والشِّعاب.

ولْنورِدِ الآنَ نَصَّ "البَيَان المُغْرِب" بِحَرْفِهِ إِذْ يقول: *"فعرَّفوا بذلكَ أميرَهُم أبا بَكْرِ بْنِ عُمَرَ، وقالوا له: قد نَظَرْنَا لك مَوْضِعَ صحراءِ لا أَنيسَ به إلاَّ الغزلان، والنِّعام، ولا تُنبِتُ إلاَّ السِّدْرَ، والحَنْظَلَ."* إلى أن أسَّس مُرَّاكُشَ في التَّاريخ، الذي قدَّمناه عَنِ ابْنِ عِذَارِي، والذي رواه بِدَوْرِهِ عَنِ ابْنِ الصَّيْرَفِي.

يُستفادُ مِنْ كُلِّ ما تقدَّم أَنَّ شيشاوةَ قد ذُكِرَتْ كَمحطَّةٍ شبيهةٍ بالمحطَّات، التي اعتاد البَكْرِي أن يَقِيسَ بِها المسافات، التي كان يَقطَعُها

كرحَّالَةٍ؛ ثُمَّ ذُكِرَتْ من بعدِهِ، من لدن ابْنِ أبِي زَرْعٍ الفاسي كمدينةٍ فتحَها أبو بَكْرِ بْنُ عُمَرَ اللَّمتونِي بالسَّيْفِ، قبل أن يفتَح اغْمَاتَ، وقبل أن يُشَيِّدَ مُرَّاكُشَ بسنواتٍ. فهل كانت شيشاوةُ قُبَيْلَ تأسيس مُرَّاكُشَ، رَابِعَ حَوَاضِرِ الحوز بعد رباط شاكر، نَفِّيسْ، واغْمَاتْ؟

أ)- **المستوى البشري**: تُوضِّحُ لنا الإشاراتُ، التي تركتها لنا خريطةُ لِيفِي بْرُوفَنْصَالْ أَنَّ المجالَ الممتدَّ بين وادي تَانْسِيفْتْ شَمالَ شيشاوة وقَدَمِ جبل دَرَنْ في جنوبِها، قد كانت تسكُنُهُ خلال (ق6هـ/ 12م) القبائلُ التَّالية: رَكْرَاكَةَ، مَسْكَالَةَ، مْتُوكَّةَ، ودَمْسِيرَةَ بين وادي شيشاوة والسَّاحِلِ الأطلنتِي. ثُمَّ بطونُ فْرُوكَةَ، صُودَةَ ولَصِّيفَةَ بين وادي نَفِّيسْ شرق شيشاوة ووادِيها الحامِلِ لاسْمِها. ويعزِّزُ الباحثُ أحمد التَّوفيق هذا التَّوزيعَ بالتَّمَوْضُعَاتِ، التي رصدَها لِبعض القبائل في ناحيَّةِ الحوز خلالَ (ق7هـ13م)، إثر تحقيقه لِمَخطوطِ "التَّشَوُّف إلى رِجال التَّصَوُّفِ" لابن الزَّيَّات. إذ أورد بِدورِه، القبائلَ التي اكتفيْنا منها بِرَكْرَاكَةَ غربَ وادي أَسِيفْ المَالْ، الَّذي يتوسَّط وادي نَفِّيسْ شرقاً ووادي شِيشَاوَةَ غرباً. ويُسعِفُنا في هذا الباب، صاحبُ "كتاب الأنساب" بِمَعلوماتٍ حول مَوْقِعِ شيشاوة من رَكْرَاكَةَ، الَّذين كانت مَساكِنُهُمْ على عَدْوَتَيْ وادي تَانْسِيفْتْ، عند مَصبِّه في المحيط الأطلنتي؛ يُسعفنا بالقول إنَّ: *"شَفْشَاوَةَ كانت تابعةً لِرَكْرَاكَةَ."* [1] يتَّضِحُ أَنَّ المجال المحيطَ بشيشاوة قد كان آهِلاً بالسُّكَّان، ولعلَّ عبارةَ ابْنِ خلدون عَنِ

[1] – ابنُ عبد الحليم: "كتاب الأنساب" مخطوط الخزانة العامَّة بالرِّباط تحت رقم كـ 1275.

المصامدة (أَكثرُ قبائل البربر وأَوْفَرِهِمْ) كافيةٌ لِتُبيِّنَ أَنَّ الاستقرارَ في شيشاوةَ، كان قد تحقَّقَ منذ زَمَنٍ بعيدٍ جِدّاً عن تأسيس مُرَّاكُشَ.

ب)- **المستوى الاقتصادي**: يُسعِفُنا ابْنُ حوْقَلُ خلال (ق4هـ/ 10م)، بإشاراتٍ عن علاقاتٍ تِجاريَّةٍ خاصَّةٍ بقبائِلِ بَرْغْوَاطَةَ المستَوْطِنين، قبل مَجيء المرابِطين مِنَ الصَّحراء، في مَجَالاتٍ تقعُ بين جنوب وادي سَبُو وشَمال وَادِي أُمِّ الرَّبيعِ؛ إذ يقول: *"وقد يَصِلُ إليهم*، أي إلى البُرْغْوَاطِيِّينَ، *أهلُ اغْمَاتَ والسُّوسَ أيضاً بالتِّجارة..."* [1] فهل كانَتِ القوافِلُ المُنطَلِقَةُ مِنَ السُّوسِ تَخترِقُ المجالَ الذي تتحكَّمُ فيه شِيشَاوَةُ آنذاك؟ يكادُ الرَّحَّالَةُ أبو عُبَيْدٍ البَكْرِي يُجيبُنا -ولَوْ ضِمْنِيّاً- عن هذا التَّساؤُلِ، من خِلال النُّصوص المتناثِرَةِ التي تركَها لنا عن شِيشَاوَةَ، وعن غيرِها مِنَ المناطق المجاورة لَها. إذْ ينطَلِقُ في استِعراضِهِ للمحطَّاتِ التِّجاريَّةِ المُنتَشِرَةِ في سهْلِ الحوْزِ، قبل تشييد المرابطين لِمُرَّاكُشَ، مِنْ اغْمَاتْ أُورِيكَةْ إلى مدينة نَفِّيسْ التي يَصِفُهَا بِكَونِها: *"...كَثِيرَة الأَنْهار، والثِّمار، ليس في ذلك القُطْرِ مَوْضِعٌ أطيبُ (منها) ولا أَجْمَلُ نَظَراً."* [2] ثُمَّ يذكُرُ أَنَّ المسافَةَ: *"... من نَفِّيسْ إلى مدينة أَفِيضَنْ مَرْحَلَةٌ، وهي مدينةٌ بطحاءُ كثيرةُ المياه والفواكه، ومنها إلى مدينة تَامَرُورْتْ مَرحلةٌ، وهي مدينةٌ لطيفَةٌ طَيِّبَةٌ."* فما مَوْقِعُ شِيشَاوَةَ من كُلِّ هذه المُدُنِ؟ وما نصيبُها

---

[1] - ابنُ حَوْقَلْ: "صُورَةُ الأرض" 1967 للإشارة فهو زار الأماكِنَ، التي قام بوصفها سنة 356هـ من وفاة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

[2] - المصدر نفسُهُ، الذى لأبِي عُبَيْدٍ البَكْرِى.

مِنَ الرَّواج الذي كان سائداً بينها؟ قبل أن نُجيبَ عن أيِّ تساؤُلٍ مِنَ الإثْنَيْنِ، نَجِدُ أنفُسنا مُطالَبِينَ بِتَحديد مَوْقِعِ دِلاَلَةِ نَفِّيسْ، وأَفِّيفَنْ، وكذا تَامَرُورْتْ بالنِّسبة إلى شِيشَاوَةَ:

ج)- فيما يَتَعلَّقُ بِنَفِّيسْ: يُؤكِّد أحمد التَّوفيق أَنَّهُ بالرَّغم من إشارات صاحِبِ "المَسَالِكِ والمَمَالِكِ" إليها، ونعني به البَكْرِي، فَهِيَ تدخُل في عِدَادِ المدُنِ المُنْقَرِضَةِ؛ وقد أَعْيَى الباحثين التَّخمينُ في تحديد مَوْقِعِهَا انطلاقاً منَ النُّصوص، بالرَّغم من كون مِنطقة التقاءِ وادي نَفِّيسْ بِوَادي تَانْسِيفْتْ لا زالت مَحَلَّ عِمارةٍ إلى اليوم. وإذا كان العَبْدَرِي[1] قد ذهب إلى القول بأَنَّ البَكْرِي قد وَهَمَ في ظَنِّهِ أَنَّ نَفِّيسْ مدينةٌ وإنَّمَا الصَّحيحُ أَنَّ نَفِّيسْ وادٍ لا غَيْرَ؛ فإنَّهُ بقولِهِ هذا -يُعقِّبُ أحْمدُ التَّوفيق- لَمْ يُقَدِّرْ أَنَّ الزَّمانَ الذي بين عهدِ البكري وعهدِهِ -وهو أكثرُ من قرنَيْنِ- كافٍ لِطَمْسِ حضارةٍ كامِلَةٍ. ويُضيفُ أَنَّ مِمَّا يُسْتَأْنَسُ به في تَحديدٍ تقريبِي لِمَوْقِعِ المدينة المذكورة، ما جاء في كِتاب الأنساب، حيثُ ذكر أنَّها بين تَيْزَّلْتْ ودَرْكَالَةَ وهو مَوْضِعُ إنْمِّغْزَنْ.[2] ومَوْضِعُ تَايْزَّلْتْ وكذلك إنْمِّغْزَنْ مَعروفان إلى اليوم.

إذا ما استحضرنا إشارةَ الإدْرِيسِي التي تُفيد أَنَّ مِنْ بين القبائل التي تقطُنُ جنوبَ مُرَّاكُشَ: قبيلتَيْ نَفِّيسْ وصَادَةْ، وإذا ما أعقبناها بإشارةِ صاحِبِ "الحُلَلُ المُوشِيَّةُ"، التي تُفيد أَنَّ بِنَاءَ مُرَّاكُشَ كان بين بلادِ هَيْلاَنَةَ

---

[1] – أبو عبد الله العَبْدَرِي الحِيحِّي: "رِحلةُ العبدرى" تحقيق محمَّد الفاسي- الرباط- 1968، ص 159.

[2] – ابنُ عبد الحليم: "كِتابُ الأنسابِ" مخطوط الخزانة العامَّة الرِّباط، كـ 1275.

وبلاد هَزْمِيرَةَ؛ فإنَّ مَوقِعَ مَجالات شِيشَاوَةَ بالغرب من مُرَّاكُشَ، وامتدادَ أطرافِها إلى بعض النِّقاطِ من جنوب غرب هذه المدينة، يَدفعُنا إلى أن نَتَعَقَّبَ كُلاً من قبيلة نَفِّيسْ، صَادَةْ وهَزْمِيرَةْ، علَّنا نلتَمِسُ من ذلك علاقةَ إحدى هذه القبائِلِ بِشِيشَاوَةَ موضوعَ بَحثِنَا. يتَّضِحُ من كلام الإدريسي عن نَفِّيسْ، أَنَّ هذه الأخيرة تَسَمَّتْ باسْمِ المدينة، وكذا القبائلُ التي كانت تسكُن في جوارِهَا، غير أَنَّهُ لَمْ يربطْ بين نَفِّيسْ المدينة ونَفِّيسْ الوادي. وإذا كانت إشارَةُ ابْنِ عِذَارِي المُرَّاكُشِي قد قَدَّمَتْ لنا نَفِّيسْ على الموضع الآتِي: *"وكانت مَزْرَعَةً لأهل نَفِّيسْ... ونَفِّيسْ -بِفَتْحِ النُّون وتشديد الفاء وسُكون الياء المُثَنَّاةِ من تَحتِها- جَبَلٌ مُطِلٌّ على مُرَّاكُشَ."* [1] فإنَّها تُساعِدُنَا على أن نَجعَلَ مَوَاطِنَ قبائِلِ نَفِّيسْ تَمْتَدُّ على وادي نَفِّيسْ إلى حدود مَوضِعِ مُرَّاكُشَ؛ ولَرُبَّمَا إلى حدود وادي تَانْسِيفْتْ. والتَّسليمُ بِهذا الاِفْتِرَاضِ يُولِجُ قبيلةَ هَزْمِيرَةَ فِي إحدى قبائِلِ نَفِّيسْ. ويلتقي كُلٌّ من صاحب كِتَاب الأَنْسَابِ والأستاذُ أحمد التَّوفيق في مَوضوع هَزْمِيرَةَ، إذ يُسجِّلُ هذا الأخيرُ ما يلي: *"وأصلُها إِزَامَرْنْ وهي الأَكْبَاشُ، وكانوا قبيلةً من المصامِدَةِ، اسْتَوْطَنُوا بين أسوارِ مُرَّاكُشَ وَرَكْرَاكَةَ."* [2] على أَنَّ صاحِبَ كتاب الأنساب، كما أسلفنا، يُؤَكِّدُ أَنَّ شَفْشَاوَةَ كانت تابعةً لِرَكْرَاكَةَ، وهذه الأخيرةُ مُتاخِمَةٌ بِمَواقِعها لِمجالاتِ شِيشَاوَةَ إلى حدود الصَّوِيرَةِ.

---

[1] – ابن عِذَارِي المُرَّاكُشِي: "البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب". ج4 بيروت، ط2، 1980.

[2] – ابن الزَّيَّات، التَّادلي "التَّشوُّفُ إلى رِجال التَّصوُّف" ومعه أخبار أبي العبَّاس السَّبتي، تحقيق أحمد التَّوفيق، البيضاء، 1984. ص213.

بالنسبة إلى أَفِّيفَنْ وتَامَرُّورْتْ: يقول الأستاذ أحمد التَّوفيق عن أَفِّيفَنْ في تعليقٍ لهُ في "التَّشوُّفِ": *"وقد تَصَفَّحْتُ في طبعةِ المُغْرِب في ذِكرِ أفريقيَّةَ والمَغرب، وكذا في تَرجَمة دُوسْلاَنْ، وترجمة مُونْتوي الخاصَّة بتَامَرُّورْتْ؛ وقد قال عنها إنَّهَا على مَرحلتَيْنِ من نَفِّيسْ، وعلى مَرحلةٍ من مدينة أَفِّيفَنْ التي يبدو أنَّها شِيشَاوَةَ الحاليَّةِ، فتكونُ تَامَارُّورْتْ قريبةً من إِيمِي نْ تَانُوتْ، أو هِيَ نفسُها..."*[1]

وعن تَامَارُورْتْ، يُشيرُ المُحَقِّقُ نفسُهُ إلى أنَّها اسْمُ مَكانٍ شائِعٍ؛ ومَعناهُ بِدايةُ العَقَبَةِ. وهي لازالت مَعروفةٌ إلى اليوم، غير بعيدَةٍ عن إِيمِي نْ تَانُوتْ الحالية. أمَّا عن تَامَارُورْتْ المُوغِلَةُ في الجبل، فَإِنَّهُ يَنفي أن تكونَ المقصودةُ، لأنَّها زَاوِيَّةٌ بعيدةٌ تَقَعُ بالقرب مِنْ مَنْبَعِ وادي إِيمِي نْ تَانُوتْ. وإذا ما تتبَّعْنَا أَسْطُرَ نَصِّ البَكْرِي، فإنَّنا نَجِدُه يَذْكُرُ مَاغُوسَةَ بعدَ تَامَرُورْتْ، الشَّيءُ الذي يدفعُنا إلى القول بِأَنَّ أفواجَهُمْ إمَّا انتقلت إلى مَواطِنِهِمُ الحالِية، وإمَّا أَنَّ تَامَارُورْتْ هذه توجدُ بين أَمْزْمِيزْ وإِيمِي نْ تَانُوتْ.

وعن قبيلة صَادَةْ، أسعفَنا البَيْدَقُ بِمعلوماتٍ تُفيد أَنَّ ابْنَ تُومَرْتْ، الزَّعيمَ الرُّوحي للموحِّدين، بعد خُروجه من اغْمَاتْ أُورِيكَةْ قاصداً دارَه بِإِكْلِي نْ هَرْغَةْ، تَقَلَّبَ خلالَ رِحلتِه في جِبال دَرَنْ، فزارَ قبيلةَ صُودَةْ من جُملة ما زار من قبائِلِ الجبل. غير أَنَّ المُثيرَ في ما ساقَهُ لنا البَيْدَقُ يَكمُن في أَنَّ المَهْدِي بْنُ تُومَرْتْ قد بَلَغَ قبيلةَ صُودَةْ بعد أَنِ استكملَ زيارةَ قبيلةِ إِي نْ

[1] – أنظر التَّعليق الَّذى خَصَّ به الأستاذُ أحمد التَّوفيق ص129 مِنَ "التَّشوُّف إلى رِجال التَّصوُّف".

مَاغُوسْ. وإذا علِمْنا أَنَّ قبيلةَ إِي نْ مَاغُوسْ، وهي إحدى بُطون كَدْمِيوَةَ، تَتَمَدَّدُ بِمجالاتِها على وادي أَسِيفْ المَالْ، فَإِنَّ مَواطِنَ قبيلةِ صُودَةَ تقعُ، لاَ شَكَّ، غربَ هذا الوادي، أَيْ في المنطقة التي تَسكُنُهَا حاليّاً قبيلةُ مْزُوضَةَ المُنتمية بِمجالاتِها إلى إقليمِ شِيشَاوَةَ. ما عسانا نستنتجُ من هذه الجَوْلَةِ في بعض المجالاتِ والقبائِلِ، التي كانت تُحيطُ بِشِيشَاوَةَ خِلال (ق4هـ/ 10م)؟

- يُعتبرُ البَكْرِي أَوَّلَ من ذَكَرَ شِيشَاوَةَ عند تَحديدِه للطَّريق بين اغْمَاتْ ورِبَاطِ قُوزْ على السَّاحِلِ الأطلنتي، ولِذلك اتَّخذنا زمن انتِهائِهِ مِنَ الكِتابَةِ علامَةً بيِّنةً لِتَحْديد تأريخ تشييد شيشاوة.

- يُعتبر ابْنُ أَبِي زَرْعِ الفَاسِي أَوَّلَ من ذَكَرَهَا بعدَ البَكْرِي كَمَدِينَةٍ، وهو ما يَدفعُنا إلى الإعتقاد بِأَنَّ التَّجمُّعَ السَّكَنِي، الذي كانت عليهِ في أَيَّامِ البَكْرِي سُرعانَ ما تَوسَّعَ بعده، في أَيَّامَ ابْنِ أَبِي زَرْعٍ الفَاسِي.

- إِنَّ مْرَامَرْ التي ذَكَرَهَا كُلٌّ مِنَ البَكْرِي في "المسالك"، ثُمَّ ابْنُ عبدِ الحَلِيمِ في "كتاب الأنساب" على أنَّها كانت، في أَيَّامَ هذا الأخير، تابعةً هِيَ وشِيشَاوَةَ لِرَكْرَاكَةْ، تُوجد في الشَّمال الغربِي من سيدي المُخْتَارْ، القِيَّادَة التَّابِعَة حالياً لِعمالَة شِيشَاوَةَ. وعن مْرَامَرْ فقد ترك لنا الحَسَنُ الوَزَّانُ خلال (932هـ/ 1525م) المعلوماتِ التَّالية: *"مدينةٌ بناها القُوطُ في الدَّاخِلِ، على نَحْوِ أربعةَ عشرَ ميلاً، مِنْ آسَفِي... وكانت فيما سَبَقَ خاضِعَةً لِحَاكِمِ آسَفِي، فَلَمَّا احْتَلَّ البُرْتُغَالِّيُونَ آسَفِي، هَرَبَ سُكَّانُ مْرَامَرْ وبَقِيَتْ مَدِينَتُهُمْ خالِيَةً زُهَاءَ سَنَةً. ثُمَّ اتَّفَقُوا بعد ذلكَ مع البُرتغالِّيينَ، ورَجَعُوا إلى دِيَارِهِمْ. وهم*

يُؤَدُّونَ حتَّى الآنَ، جِزْيَةً لِـمَلِكِ البُرْتُغَالِ." [1] وَبِشَأْنِ مَوقِعها الحالِي يقولُ الأستاذُ البَلاَّوِي: *"تَقَعُ مْرَامْرْ، التي تَحمِلُ أَنْقَاضُهَا اليومَ اسْمَ صَوِيرَةِ مْرَامْرْ، على الضِّفَّةِ اليُمنى لِمَسِيلَةٍ تَحمِلُ اسْمَ وادِي مْرَامْرْ، الذي يَنْبُعُ من جَبَلِ جَغْرَةَ (البالِغِ ارتفاعُهُ 518م) والذي يقع على الضِّفَّةِ اليُسرى لوادي تانسيفت."* [2]

- نستنتجُ أيضاً، أَنَّ هَزْمِيرَةَ المُنتَشِرَةِ حول وادي نَفِّيسْ، ووادي أَسِيفْ المَالْ هي تابعةٌ في جُزْئِهَا اليومَ إلى مَجالاتِ شِيشَاوَةَ.

- نُسَجِّلُ الشَّيْءَ نَفْسَهُ بالنِّسبة إلى صُودَةْ التي كانت -خِلاَلَ الفترة نفسِها- تُوجَدُ بين وادي أَسِيفْ المَالْ ووادي شِيشَاوَةَ.

وعلى العموم، يُلاحَظ أَنَّ جُلَّ هذِه القبائِلِ، والمواقِعِ، والمجالات تَتَمَوْضَعُ في نِقَاطٍ يقتربُ فيها السَّهلُ مِنَ الجبل؛ ولِذَا كانت تتحرَّكُ، دون شَكٍّ، وِفْقَ الثُّنائِيَّةِ التي تُهَيِّئُ الجبلَ كَمَرْعَى للاِنْتِجَاعِ وكَخَزَّانٍ للمياه والأشجار صَيْفاً، أو تُقَدِّمُ السَّهْلَ كَخَزَّانٍ للحبوب وكَمَوْقِعٍ شَتْوِي ثَانِي للرُّعاة الجَبَلِيِّينَ في فَصْلِ الشِّتاء.

---

[1] – الحسن بن محمَّد الوزَّان الفاسي: "وصفُ أفريقيا" ترجمة محمَّد حجّي ومحمَّد الأخضر. منشورات الجمعية المغربية، الجزء الأول، الرباط 1980.

[2] – المقالُ نفسُهُ الَّذى أوردَهُ الأستاذُ البَلاَّوى ضِمْنَ مجلَّة كلِّية الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة القاضي عياض مُرَّاكُشَ. البيضاء، 1989 ص 41.

ثُمَّ إِنَّ كَوْنَ المُدُنِ التي –حسب المؤرِّخين والجغرافيِّين الأَقْدَمِينَ– كانت تَحُفُّ بِشِيشَاوَةَ وهي ذاتُ أَهَمِّيَةٍ قُصوى في الرَّخاء، والثَّراءِ لَيَجعَلُها بدورِها – على حَدِّ قولِهِمْ– مَحطَّةً تِجارِيَّةً للطُّرق الكُبرَى، التي تناثرت في فِجَاجِ أَدْرَارَنْ دَرَنْ، ولَيَدْفَعُها إلى أن تلعب دوراً كبيراً في توجيهِهَا. إذ لا يُستبعَدُ أن تكونَ قد نالَتْ حظَّها، خلالَ فترةِ العصر الوسيط، مِنَ المنتوجَاتِ والبضائِعِ الآتِية مِنْ أَوْدَغِسْتْ، ومن خلالِها، من بِلادِ السُّودان جنوباً عبر فِجَاجِ تِنْمَلَّنْ، وتِيزِي نْ تَاسْتْ، وتِيزِي نْ وَشْدَانْ، أو على مدينةِ تَامَارُورْتْ، التي يَعتقِدُ الأستاذُ البَلاَّوِي أنَّها إِيمِي نْ تَانُوتْ الحالية. فهل هذه الأشياءُ كافِيَةٌ لأنْ تَكْفُلَ لِشِيشَاوَةَ أن تتبوَّأَ في العَصْرِ الوَسِيطِ مَكانَةَ حاضرةِ المجالات المحيطة بِها؟

إذَا كان الرَّحَّالَةُ والمُؤَرِّخُونَ المغارِبَةُ قد أَوضَحُوا أَنَّ الحَوْزَ قد شَهِدَ ازدهارَ مَدِينَتَيْ نَفِّيسْ واغْمَاتْ قبل تأسيس مُرَّاكُشَ، فَإِنَّ بعضَهُمْ قد أشارَ إلى أُفولِهِمَا فيما بعدُ. فعن أُفُولِ مدينة اغْمَاتْ مَثَلاً، يُسعِفُنا الإِدْرِيسِي بِمعلوماتٍ خلالَ سنة (549هـ/ 1154م) قائِلاً: *"وأَمَّا الآنَ، في وقتِ تأليفِنا لهذا الكتاب، فقد أتى على أكثر أَمْوَالِهِم المَصَامِدَةُ..."* فهلِ الأُفُولُ الذي تحدَّثَ عنه الإِدْرِيسِي يرتَبِطُ بِتَأْسِيسِ مُرَّاكُشَ العاصمةِ المُرابِطِيَّةِ؟ وهل كانتْ شِيشَاوَةُ تدخُلُ ضِمْنَ هذا الأُفُولِ؟ يُلاحَظ مِنَ الطَّرِيقَةِ التي قَدَّمَ بِها البَكْرِي كُلاًّ مِنْ اغْمَاتْ أُورِيكَة، ونَفِّيس، وكذا شِيشَاوَة، ومن بعدِها مْرَامَر

أَنَّ هذه المُدُنِ تقعُ بالأَسَاسِ جنوبَ وادي تَانْسِيفْت، وعلى مَسافةٍ شِبْهِ مُتَسَاوٍ بعضُها مَعَ بعضٍ. وهو ما جعلَها كَمَحَطَّاتٍ، وأسواقٍ للتِّجارة الآتيَّةِ منها، والآيِبَةِ إِلَيْهَا. غير أَنَّ تأسيسَ مدينة مُرَّاكُشَ في وسطِها، وبعيداً عن أَدْرَارَ نْ دَرَنْ –المَجالُ الجبلي الحَيَوِي لِتلكَ المدن وظَهِيرُهَا الرَّئِيسُ– وتَحَوُّلُهَا إلى عاصمةٍ لأَوَّلِ إمبراطورِيَّةٍ تعدَّت حدودُها الآفاقَ، التي كانت تَرْنُو إليْها مُدُنُ اغْمَات، نَفِّيس، شِيشَاوَة، ومْرَامَر جعلَ، بِلاَ رَيْبٍ، هذه المُدُنَ تَتَقَهْقَرُ تَدْرِيجِيّاً إلى أَنِ اختفى بعضُها تَماماً.[1]

رابِعاً: شيشاوة إبَّانَ حكم المُرابطين: (454-524هـ)/ (1062-1130م)

إذا كان المرابطون قد شيَّدوا مُرَّاكُشَ على مُستوى طُبُّغْرَافِي يَرتفِع عن سطح البحر ب(465م)، فإنَّ شيشاوةَ لا ترتفع عَنِ السَّطح نفسِه سوى ب (348م). يقع مركزُها الإداري الحالي في مُلتقى الطُّرق حيث تَتَمَوْضَعُ في الغرب من مُرَّاكُشَ على بُعد 72 كلم؛ فيما يَفصِلُها عَنِ الصَّويرة حوالي 102كلم؛ وعن إِيمِي نْ تَانُوتْ 47 كلم وهي المسافَةُ نفسُها، التي تفصلُها عَنِ الأطلس الكبير الغربي؛ وأخيراً تبعدُ عَنِ الشَّمَّاعِيَّةِ ب 60 كلم. هكذا نلاحظُ أَنَّ شِيشَاوَةَ هي في وضعيَّةٍ جغرافيَّةٍ أحسن مِنَ التي عليها مُرَّاكُشُ بالنِّسبة إلى البحر، ليس فقط، نتيجةَ قُربِها منه، وإنَّما يرجع ذلك إلى خاصِّياتٍ تضاريسيَّةٍ تُخَوِّلُ لِشِيشَاوَةَ الاتِّساعَ أكثر نحو الشَّمال، وكذا نحو

[1] – خلاصة المقالِ نفسِه للأستاذ البَلاَّوِي: المجلَّة نفسُها.

الجنوب. على العكس من ذلك، نلاحظ أَنَّ الامتدادَ الشَّمالي لِمدينة مُرَّاكُشَ يُعاق بفعل وجود سلسلة الجْبِيلاَت، وهي سلسلةٌ انْمَحَتْ مِنَ النَّاحية الشَّمالية لِشِيشَاوَةَ. فبات امتدادُ المنطقة باتِّجاه البحر المحيط نحو الشَّمال والشَّمال الغربي مُيَسَّراً، لا يُعاق سوى بجبلِ إِيغُّود، وهو الجبلُ المشهورُ داخل الحقل المُهتمِّ بالبحوث الأَنْتْرُبُّلُوجِيَّةِ.[1] ونشير أيضاً، إلى أَنَّ وادي تَانْسِيفْت، الَّذي يُعَرِّجُ نحو الشَّمال، بعد أن يكون قَدِ الْتَحَمَ بِوَادي مْرَامَر، يَنفتحُ بِمَجاريه على منطقة شِيشَاوَةَ.

وإذا كانتِ الرِّواياتُ الشَّفوية التي تردَّدت على أَلْسِنَةِ بعض السُّكَّان في بعض الدَّواوير الشِّيشاوِية، قَدِ اتَّفقت على أَنَّ المنطقةَ تُمَثِّلُ المَوضِعَ الذي كان حَرِيّاً بالمرابطين، والموحِّدين، والسَّعديين مِنْ بَعدِهم أن يُشيِّدوا فوقَه عاصمة المغرب فإنَّ ما يَشفعُ للَّذين رَدَّدُوها هو توفُّر شِيشَاوَةَ بالفعل، على مُعطياتٍ مُختلفةٍ من شأنِها أن تُثيرَ انتباه مُؤسِّسي المدن. لكنْ، ليس هناك مِنْ شَكٍّ في أَنَّ الذي جعلها تأتي في مرتبةٍ أدنى مِنَ العاصمة المرابطية مُرَّاكُشَ، هي وضعيتُها البعيدةُ عن وسط المغرب، وخاصَّةً عن زاوية الإشعاع الرَّابطة بين المحوريْن فَاسَ ومَكْنَاسَ مِنْ جهةٍ ومُرَّاكُشَ مِنْ جِهةٍ ثانيةٍ؛

---

[1] - أُجْرِيَ بحثٌ على مَقربةٍ مِنْ جبل إِيغُودْ على الطَّريق المؤدِّية من شيشاوة إلى الشَّمَّاعية. أنظر:

-Enouchi (Emile) : « L'homme du jbel d'Ihroud ,Extrait de paléontologie » Hespéris T 1963 ; vol. 4. Fasc. 1-2. pp 229-230.

وكذا بعدُها عَنِ المغرب الأوسط (الجزائر)، القُطْرُ الذي تشوَّفَت إلى إخضاعه الدُّولُ، التي حكمتِ المغربَ في العصر الوسيط.[1] وهي معطياتٌ لَمْ تَسْتَمِلِ الملثَّمين (المرابطين) إليها بالقَدْرِ الكافي، الذي استمالَهُمْ به المَوْضِعُ الذي شُيِّدَتْ فوقَه مُرَّاكُشُ، نظراً لِقُرْبِ هذه الأخيرة مِنَ اغْمَاتَ، المدينة التي فضَّلوا الاستقرار الأوَّلي بِها، قبل أن يُشيِّدوا عاصمَتهم غير بعيد عنها، وأيضاً لِتوفُّر مجالاتِه على شبكةٍ مائيةٍ هامَّةٍ تكمُنُ في وادي تَانْسِيفْت وروافده، وكذا الإشعاع الذي توفِّره بعضُ السَّواقي؛ وهي مُعطياتٌ وهبت لِمُرَّاكُشَ مجالاتٍ خضراء تَقَرُّ لَها عينُ كُلِّ مَنْ يُلقي عليها نظرةً من جبل جِلِيزْ.[2]

لَمْ نَأْلُ جُهداً في مُحاوَلَةِ تَرَصُّدِ بعضِ آثارِ الجِهادِ الشِّيشاوي أيَّام المرابطين؛ وعليه، فقد أثارَنا أن خَصَّ صاحبُ "التَّشوُّف" الأولياءَ الصَّالحين بِفَصْلٍ أثبت فيه أحوالَهم وسلوكَهُمْ، إِذْ ذَكَرَ في مَعرِض حديثه: *"تَفَرُّغَهُمْ للعبادة دون تعلُّقٍ بِحِرْفَةٍ... ولُبسِ المُرَقَّعَاتِ لِمَنْ لا يَجِدُها... وسفَرِهِم في كُلِّ رمضانَ إلى رباط شَاكِرٍ، الذي ذكر أنَّه من أصحاب عُقْبَةَ بْنِ نافعٍ الفِهْرِي."*[3] وعلى هذا الأساس نُلفت الانتباه إلى أَنَّ رِباطَ شاكرٍ يوجد الآن، في الواجهة الشَّمالية الغربية لِشِيشَاوَةَ، على بُعد مسافةٍ قصيرةٍ

---

[1] - نُلفت الانتباهَ إلى أَنَّ المغربَ الأوسط (الجزائر)، قد أَخْضَعَتْهُ كُلٌّ مِنَ الدَّولة الموحِّدية، ثم الدَّولة المرينيَّة في عهد السُّلطانيْنِ البارزين لهذه الأخيرة: أبو الحسن وابنه أبو عنان.

[2] - نُحيلُ القارئَ هنا على مَقالٍ حول "مُعجم عراصي مراكش" لِصاحبه حسن جلاب، مجلة البحث العلمي ص: 24.

[3] - "التَّشوُّف إلى رِجال التَّصوُّف" لابن الزَّيَّات، ص 52.

من وادي تَانْسِيفْت. إذ: *" مات هناك، وأَنَّ يَعْلَى بْنَ مْصَلِّيْنْ الرَّجْرَاجِي بناه، وكان يُقاتِل كُفَّارَ قبيلة بَرْغْوَاطَةَ. وغزاهم مَرَّاتٍ، وأَنَّ طَبْلَهُ هو الباقي هناك إلى الآنَ."* [1] وعن يَعْلَى بْنَ مْصَلِّينَ، فهو ثالثُ ثلاثةٍ –يقول أحمد التَّوفيق– الذين انتدَبَهُم شيخُهم أبو حامد بْنُ تَسِّيتْ بِاغْمَات لقتال بَرْغْوَاطَةَ، استقرَّ في شِيشَاوَةَ، وناوش البَرْغْوَاطِيِّينَ (المرتدِّين عَنِ الإسلام) فقُتِلَ الأوَّلُ، وقُتِلَ الثَّاني، إلى أن جاء دَوْرُ يَعْلَى وهو الرَّكراكي الأصل فشيَّدَ رباطَ شاكِرٍ، وكان ذلك قُرابة نِهاية المائة الرَّابعة للهجرة.[2] وقد بات رباطُ شاكرٍ مَحَجّاً للأولياء، خاصَّةً في شهر رمضانَ، وبات فيما بَعْدُ، في أيَّام زحف المرابطين مِنَ الجنوب، مُنطلقاً للحملات التَّأديبية التي قام بِها المُلثَّمون ضدَّ البَرغواطيين المُنتشرين في سهول تَامَسْنَا، بين وادي سَبُو شَمالاً ووادي أُمِّ الرَّبِيعِ جنوباً. ثم إنَّ موقعَ رباطِ شاكرٍ هذا في شَمال شِيشَاوَةَ، على مَقرُبةٍ مِنَ الضِّفَّة الشَّمالية لِوادي تَانْسِيفْت، يكاد يُمِدُّنا بتفسيرٍ للحيْرة التي انتابتِ الباحثَ الأَرْخِيُولُوجِي الفرنسي بُول بِيرْتْيِي، بعد أن عثر صُدفةً، وهو ينقِّبُ في أنقاض مَعْصَرَتَيْ السُّكَّر الشِّيشَاوِيَّتَيْنِ، على بقايا من أشكال البِناء والتَّزيين في دارٍ قديمةٍ ذاتِ طابعٍ مُرابطي،[3] فلم يستطع أن يلتمس لِحيْرتِه جواباً شافياً.

---

[1] – المصدرُ نفسُه، ص 52.

[2] – رِباطُ شاكرٍ هو أوَّلُ وَلِيٍّ صالحٍ دُفِنَ في المغرب، ويوجد ضريحُه على الحدود بين عَمالة شيشاوة وعَمالة آسفي.

[3] – أنظر مقال:

« La Maison de La pleine et la Maison des oliviers à Chichaoua » 1962: pp 75-77.

والواقعُ أَنَّ لِحَيْرَةِ هذا الباحث ما يُبرِّرُهَا؛ فالنُّصوص التي تَحدَّثت عَنِ الوجود المرابطي في شِيشَاوَةَ، ونَخُصُّ بالذِّكْرِ منها نَصَّ ابنَ أبي زَرْعٍ الفاسي، لَمْ تتعدَّ الإشارةَ إلى مرورهم منها أثناء إخضاعهم لِمناطق الحوز، قبل أن يتوجَّهوا إلى اغْمَات. وهو ما يجعلُنا نستبعدُ أن يكون أبو بكرٍ بْنِ عمر اللَّمتوني قَدِ استقرَّ في شِيشَاوَةَ، أو شيَّد بِها تلك الدَّار لتكون واجهةً خلفيَّةً لكتائب المقاومين المناوشين للبَرْغْوَاطِيِّينَ. وهو ما لا يَمنعُنا في الوقتِ نفسِهِ، مِنَ القول بأنَّ الدَّارَ المذكورة قد شُيِّدَتْ في شِيشَاوَةَ كثاني محطَّةٍ لتجمُّع المُقاتلين ضدَّ البَرغواطيين، بعد أن يكونوا قَدِ انطلقوا مِنَ المحطة الأولى، التي هي رباطُ شاكرٍ.

وإذا ما صحَّ هذا الافتراض يجوزُ لنا أن نُقِرَّ بأَنَّ مجالات شيشاوة كانت دَعامةً أساساً للمُقاتلين، الذين برز من بينِهم ابْنُ موسى المْلِيجِي،[1] وهو: *"مِنْ أهل قرية مْليجَةَ من بلاد رَكْرَاكَةَ، من تلامذة أبي عبد الله الذي كان بِتَالَّغْت، من أشياخ عبد الخالق بنِ ياسين من أكابر الأولياء."* [2] وقد

---

[1] – تُوجد قَرية هذا الوالي المُسمَّاةُ مْليحَةَ في مَوْطِنِ قبيلة احْمَرْ، على بُعد 68 كلم من مراكش، وعن يمين المُتَّجه منها نحو شيشاوة، وقبل الدُّخولِ إلى هذه المدينة بيسير. وتُسمى كذلك قرية البَطْمَة نسبةً إلى شجرة البَطْمِ، وهي شجرةٌ ذاتُ جذْعٍ ضخمٍ تعود إلى مُخلَّفات الزَّمن الجْيُولوجي الثَّالث. والبطمُ بِلسان البربر هو إِيكْ بجيمٍ مصريَّةٍ عليها سكونٌ وشدَّةٌ (lgg)، فتكون التَّسميةُ المنسوبة إليه هي الإيكّي. وهمزة القطع مع كسرٍ في أوَّله هي التي تُحوَّلُ في التَّعريب إلى هَاء، فجاء هكذا الهِيجّي. أنظر: إحالات الباحث أحمد التَّوفيق في كتاب "التشوف" ص 125-126.

[2] – المصدر نفسُه، ص 126.

وصف صاحب "التَّشوُّف" الولِيَّ المذكورَ بِما يُضفي عليه الأهَمِّيَة القُصوى، وذكر أنَّه أوصى بأن يُدفن في رباط شاكر. وتأتي أهَمِّيَةُ الرِّباط أيضاً، من كونِه مَكاناً كان الأولياءُ يَلْتَقُونَ فيه. وقد أثبت صاحبُ "التَّشَوُّفِ" ذلك حين قال: *"وحدَّثني أبو عِمرانَ موسى بْنَ وَرْكُونْ الهَسْكُورِي قال: حدَّثني برباط شاكرٍ أبو عَلِيٍّ مالكُ بْنُ تَمَاجُورْتْ..."*[1] ثم يُضيف: *"وقال داوود: حدَّثني أبو محمَّدٍ تيلْجِي بْنُ موسى قال: كنتُ أَعِظُ النَّاسَ على مِنْبَرِ شاكرٍ."*[2] إلى أن يقول: *"حدثني أبو العَبَّاس أحمد بنُ إبراهيم الأَزْدِي البَسْطي قال: رأيتُ مُنَيَّةَ في رباط شاكرٍ، فصلَّيت بِها في جماعةٍ مِنَ المُريدين وانصرفتُ عنهم. فأخبرني بعضُ مَنْ تحدَّث مَعَهَا مِنَ المريدين أنَّها قالت: حضر هذا العام بِهذا الرِّباط أَلْفُ امْرأةٍ مِنَ الأولياء."*[3] وقد كان توافُدُ الصُّلحاء على الرِّباط يتمُّ من مُختلِف جهات المغرب، إذ يُفيد المصدرُ نفسُه أَنَّ: *"أبا عبد الله محمَّدِ بْنُ موسى الأزكاني (من ناحية صفرو) فَرَّ إلى الله تعالى وساح في طلب الصَّالحين برباط شاكر."*

---

[1] – المصدر نفسُه، ص 218.

[2] – المصدر نفسه، ص 262.

[3] – هي مُنيَّةُ بنتُ مَيْمَونَ الدُّكَّالي، أصلُها من مَكناس ونَزَلَتْ في الجانب الشَّرقي من مُرَّاكُشَ، وبه تُوفِّيَتْ بين بابِ فاس (الخميس) وباب الدبّاغ، عام (595هـ/1199م) خِلالَ تولِّيَةِ الخليفة الموحِّدي النَّاصر، ودُفِنَتْ خارج باب الدبَّاغين.

البابُ الثاني

شيشاوة في فترة حُكم الموحِّدين

(524 – 668 هـ) / (1130 – 1269م)

الفصلُ الأوَّلُ:

الإطـارُ العـامُّ للمجـال الجبلي في شيشـاوة

الفصلُ الثَّاني:

وضعُ قبيلَةِ كَنْفِيسَةَ الشِّيشاوية مِنَ الكِتابات الوسِيطِيَّةِ

الفصل الثَّالِث:

المَجـالُ الجَبَلِيُّ لِشِيشَاوَةَ في عهد المَرينيِّين

الفصل الرابع:

السَّكسـيويون أمراء الجبل في شيشـاوة

الفصل الأوَّلُ

الإطارُ العامُّ للمجال الجبلي في شيشاوة

أوَّلاً: تَذكيرٌ:

إذا ما قمنا باقتفاء آثار المدن التي ذكرها الرَّحالةُ البكري كمحطَّاتٍ تجاريَّةٍ هامَّةٍ في الحوز قُبَيْلَ تأسيس المرابطين لِمُرَّاكُشَ، وهي: اغْمَات، نَفِّيس، شِيشَاوَة، مْرَامَر، تَامَارُوت، ثُمَّ قُوز. فإنَّنا نجد أَنَّ مُعظمَها قَدِ اختفى واندحر بِمُجرَّد اتِّخاذ المرابطين لِمُرَّاكُشَ عاصمةً لَهم في الحوز. وإذا كان الرَّحَّالَةُ البَكْرِي قد قدَّم لنا اغْمَاتَ أُورِيكَةَ على شكل: *"سوقٍ يقومُ يوم الأحد بِضُروبِ السِّلَعِ وأصناف المتاجر، يُذبحُ فيها أكثرُ من مِائة ثورٍ وأَلْفِ شَاةٍ، ويَنفَذُ في ذلك اليوم جَميعُ ذلك."* [1] وإذا كان الإدريسي قد زكَّى شهادةَ البَكري، الواردة قبله بحوالي قرنٍ مِنَ الزَّمان، إذِ اعتبر سُكَّانَ اغْمَاتَ بِمثابة: *"تُجَّارِ مَياسير، لَمْ يَكُنْ في دولة المُلَثَّمِ أحدٌ أكثرَ منهم أموالاً ولا أوسعَ منهم حالاً..."* فإنَّ هذا الأخير مع ذلك كلِّه، يُصوِّر لنا أُفولَ وتراجُعَ المدينة نفسِها قائلاً: *"وأمَّا الآنَ، في وقت تأليفنا لِهذا الكتاب*، أي حوالي 549هـ/ 1154م، *فقد أتى على أكثر أموالِهِمُ المَصَامِدَةُ..."*

تَسْتَوْقِفُنَا هنا مُلاحظةٌ: تتمثَّل في أَنَّ الإدريسي لَمْ يذكر ميناءَ قُوزْ الذي يمكن أن يكون قَدِ اختفى هو الآخرُ باختفاء اغْمَات، وهو وإن لَمْ يذكر

[1] – أبو عُبَيْدِ البكرى: "المسالك والممالك"، ص125.

شيشاوة، فذلك لا يعني أنَّها شَهِدَتِ المصيرَ نفسَه. لكون صاحب رَوْضِ القِرْطَاسِ ابْنِ أَبِي زَرْعٍ الفاسي قد ذَكَرَها بعدَهُ، على أنَّها مدينةٌ فتحها أبو بَكْرِ بن عُمَرَ اللَّمْتُونِي بالسَّيف، فهل انْفردت شيشاوةُ بالسَّبق في الصُّمود أمام انتشار وَرَمِ الأُفُولِ الذي سَبَّبَتْهُ العاصمةُ المرابطيَّة مُرَّاكُشُ؟ كان الباحثُ أحمد التَّوفيق على حَقٍّ حينما وصف مُرَّاكُشَ، العاصمة المرابطية-اللَّمتونية بِبُحَيْرَةٍ وسط بحرٍ مَصْمُودِيٍّ آهِلٍ بِالأَمَازِيغِ. ذلك لأنَّ الصَّنْهَاجِيِّينَ-المُلَثَّمِينَ قد وجدوا أنفُسهم في وَرْطَةٍ لَمَّا انصرف عنهُم أبو بكرٍ بْنُ عمر اللَّمتوني: *"إلى بلاد المصامدة... وطاعت أُورِيكَةُ وهَيْلاَنَةُ وهَزْمِيرَةُ... احتلُّوا اغْمَاتَ أُورِيكَةَ."* [1] أَمَّا الذي أسهَم في تعميق الوَرطة الصَّنهاجيَّة، فهو وعيُ المصامدة بضرورة ترحيلهم مِنَ اغْمَات. إذ وجد أهلُها في ضيقِ مَجَالِهِمُ الجبلي، وعجزِه عَنِ استيعاب الأفواج الوافدة إليه، حيلةً بعد أن: *"كَثُر الخلقُ بِها، وضَيَّقوا على أهلِها، وكانوا على حالٍ صعبةٍ."* فكان لابدَّ للمرابطين من أن يُشيِّدوا مُرَّاكُشَ في ذلك الموضع، وأن يجعلوها -على حَدِّ قول ابن خلدون-: *"... مُنطَلَقاً لِعَسْكَرِهِمْ، وللتَّمرُّس بقبائل المصامدة."*

أما الجانبُ الآخر مِنَ الوَرطة فَنَلْمَسُهُ فيما نقله لنا ابن خلدون، مِنْ كَون هؤلاء المصامدة لا يُحصيهم إلاَّ خالِقُهُمْ.[2] إِذِ امتَنَعوا عَنِ المُلَثَّمين بِمعاقلهم المُتاخِمَةِ للجبال، ولاذوا منهم بِها يُناصبونَهُمُ العَداءَ إلى أن ظهر

---

[1] – مؤرِّخٌ مجهولٌ: "الحُلَلُ المُوشيَةُ في ذِكْرِ الأَخْبَارِ المُرَّاكُشِيَّة" تحقيق سُهَيْلْ زكَّار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، 1979 ص15.

[2] – ابن خلدون، "العِبَرُ وديوانُ المُبْتَدإِ والخَبَرِ في ذِكْرِ العَرَبِ والبَرْبَرِ ومَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الأَكْبَرِ"، ج 7 ص 463.

بين ظُهراني هؤلاء المصامدة-الأمازيغ ابنُ تُومَرْتْ داعيةُ دولة الموحِّدين. وقد ترك لنا ابن خلدون في هذا الباب، نصّاً واضحاً عَنِ المصامدة، إذ كانت *"لهم مع لَمتونَةَ مُلوكِ المغرب، حروبٌ وفتَنٌ سائر أيامهم، حتى كان اجتماعُهم على المهدي، وقيامُهم بدعوته. فكانت لهم دولةٌ عظيمةٌ أدالت من لَمتونَةَ بالعُدْوَتَيْنِ."*[1] ويَحسِمُ صاحبُ "الحُلل المُوشِيَّة" في توضيح الصِّراع بين اللَّمتونيين المتَّخذينَ مُرَّاكُشَ عاصمةً لَهم وبين المصامدة المُظاهرين لَها، والمنتشرين في المجالات الجبليَّة الشِّيشاوية. إذ ينقُل لنا وَصِيَّةَ الأمير المرابطي يوسفُ بنُ تاشفين لابنه عَلِيٍّ قائلاً: *" ألاَّ يَهيجَ أهلُ جبل دَرَنْ ومِنْ ورائه المصامدةُ وأهلُ القَبِيلَةِ."*[2]

ثانِيّاً: رَصْدُ مَعْقِلِ المَصَامِدَةِ:

تحظى شيشاوةُ بالنِّسبة إلى الجبل (الأطلس الكبير الغربي)، بتموضعٍ يُخَوِّلُ لَها امتيازاً كبيراً، خصوصاً فيما يتعلَّق بعلاقاتِها مع منطقة السُّوس. ففي الوقت الذي نجد فيه مدينة مُرَّاكُشَ يُظاهِرُها الأطلسُ الكبير الغربي، بِقِمَمه الأكثرِ ارتفاعاً، وبِمَمرَّاته، وفِجاجِه: إذ تصل قِمَّةُ جبل تُوبْقَال إلى (4165م)، ومَمَرَّيْ تِشْكَا (2260م) وتِيزِي نْ تِيسْتْ (2130م)، فإنَّنا نجد أَنَّ شيشاوة تتحكَّم بِوَساطة إِيمِي نْ تَانُوتْ في مَمرِّ تِيزِي نْ أُومَاشُو، الذي يقع على ارتفاعٍ أَقَلَّ يصل إلى (1375م)، ومَمرٌّ آخرَ بوساطة أَكْلاَكَل وَأَرْكَانَةَ

---

[1] – المصدر نفسه، ج 7، ص 464.

[2] – مؤلف مجهول: "الحلل الموشية"، ص 82-83.

المؤدِّيان إلى منطقة السُّوس. فكيف كان يتحرَّك هذا المجال الجبلي وسط باقي المجالات الشِّيشاويَّة؟ وما هي العناصرُ البشريَّة التي كانت تتحكَّم فيه؟ أشار الباحث جَاكْ بِيرْكْ[1] غير ما مرَّةٍ، إلى أَنَّ المجالَ المذكور قد حقَّقَ تواصلاً كبيراً مع ما يقع خارجَه، واستند في ذلك إلى إشارات ليفي بروفنصال[2] الخاصة ببعض القبائل خلال الفترة الموحِّدية، في (ق6هـ/ 12م): وهي الفترة التي تَمَيَّزت بأكبر توسُّعٍ مَذْهَبِيٍّ عَسْكَرِيٍّ للأمازيغ المصامدة، المنتشرين في الأطلس الكبير الغربي. وإذا كانت كُلٌّ من تِنْمَل (مَعْقِلُ الموحِّدين في الجبل، ومُنْطَلَقُ عملياتِهِمُ العسكرية المُنَاوِشَةِ للمرابطين من مُرَّاكُشَ)، وأيضاً هَرْغَةُ (قبيلةُ الدَّاعيةِ الرُّوحي للموحِّدين المهدي بْنُ تُومَرْتْ) قد حَظِيَا معاً، باهتمامٍ كبيرٍ داخل كتابات (ق6هـ/ 12م)، فإنَّنا لن نتطرَّق إليهما إلاَّ فيما يربطهُما بالمجالات المنتمية إلى الإقليم المدروس. فما هي علاقة تِنْمَل بقبائل المجال الجبلي في شيشاوة؟

مِنَ المعلوم أَنَّ تِنْمَل تبعد عَنْ تِشْكَا بيومٍ واحدٍ مِنَ المَشي في اتِّجاه الشَّمال الشَّرقي. مِنَ المعلوم أيضاً، أَنَّ تِنْمَل هي المَعقِلُ الذي تحصَّن به ابنُ تُومَرْتْ يوم نَجَا مِنْ مُطاردة المُرابطين له، ومِنَ المكان نفسِه بات يُناوشهم

---

[1] – أنظر محتوى العنوان :

-"Articulations historiques du pays avec l'extéricur" in « Antiquités Seksawa » Héspèris 1953 pp 359-417 (Jacques Berque.)

[2] – من بين الكتابات المذكورة نركِّز على الرَّسائل الموحِّديَّة التي عثر عليها لِيفِي بْرُوفَنْصَالْ:

- Levie Provençal « Document inédits d'histoire Almohade » 1928 El Baydaq.

فيما بعد، وفيه شيَّد مَسجدَه الذي صار مَقَرّاً لاجتماع المجالس الأولى للموحِّدين. أَمَّا تِشْكَا، فقدِ اخترناها لانتمائها إلى المجالات المُحاذِيَّة للحدود الجنوبية الشَّرقية لِشِيشَاوَةَ، وهي المُسمَّاةُ في كتابات الجغرافيين، والطُّبُّغْرَافِيِّينَ مِيزَانُ المِيَاهِ. إذ قدَّمها إِمِيلْ لاَوُوسْتْ على أنَّها: *"مَنبعُ مياه وادي نَفِّيس وبلاد إِدَاوَرْدَاغْ وَسَكْسَاوَةَ، وهي أيضاً ميزانُ المياه بالنِّسبة إلى جبل كَنْفِيسَةَ."* [1] أَمَّا جُونْ دْرِيشْ، فقد قدَّم لنا تِشْكَا من زاويةٍ جغرافيةٍ، على أنَّها: *"تتكوَّن من سطوحٍ ذات حدودٍ دائريَّةٍ، تتخلَّلها مُنخفضاتٌ على تقعُّرٍ خفيفٍ، تُشرفُ عليها أجرافٌ وقِمَمٌ؛ تتراءى بها صخورٌ مِنَ الكْرَانِيتْ والدْيُورِيتْ، وتنبع منها مياهُ كُلٍّ من نَفِّيسْ، وأَسِيفْ المال، وواد سَكْسَاوَةَ."* [2] اعتاد المَصَامِدَةُ في كُلِّ قبيلةِ سَكْسَاوَةَ، وتَارْكَةَ أُوفَلاَّ أن يَصنعوا أَرْحَاءَهُمْ من صخور تِشْكَا؛ اعتاد أيضاً، السَّكْسِيوِيُونَ أن يَحتفلوا مع قبائل أخرى، بِمناسبة افتتاح مَوسم الرَّعي الجبلي.[3] وإذا ما اقتفيْنا آثار الفُسحة التي قام بِها جَاكْ بِيرْكْ داخل مجال تِشْكَا فإنَّنا، بعد المرور من تِيزِي نْ أُوزْدَمْ على ارتفاع 2700م، نصل إلى مُقَعَّرٍ رطبٍ يقع على ارتفاع 2500م، ومنه يُنْظَرُ مجالُ سَكْسَاوَةَ في اتِّجاه الجنوب حيثُ توجدُ مساحةٌ واسعةٌ مِنَ الوَحْلِ

---

1 - Emil Laoust « Contribution à une étude de la toponymie du haut Atlas » REI 1939-1940 tiré à Part .P 148.

2 - Jhon Dresch « Recherches sur L'évolution du relief dans le massif Central du grand Atlas le Haouz et le sous » 19441 p283.

3 – يبتدئ هذا الموسم حالياً بين 15 مارس إلى حدود 15 يوليوز.

الخِصب ينطلق منها وادي نَفِّيسْ تسمَّى لاَزْمُونْ كَنْفِيسْ ليصل، بعد يومٍ مِنَ الجريان، إلى بساتين تِنْمَلْ. ويدعونا الباحثُ نفسُه إلى إلقاء نظرةٍ على أسماء الأماكن التي صادفها في الضِّفَّة الأخرى للوادي حيثُ توجدُ قِمَّةٌ صخريَّةٌ تسمَّى تَوْرِيرْتْ نْ كُّورَانْ، أو بُرج نْكُّورَانْ، وعلى مَقرُبةٍ منه توجد دائرةٌ مِنَ الصُّخور تسمَّى أَزْرُو نَّايْتْ لَفْقِيهْ: أي صخور الفُقهاء. تتناثر بِمحاذاتِها بقايا آثار أنصاف الرُّحَّل وتسمَّى إِدُوكَازْ، وهي صخورٌ صلبةٌ تنتمي إلى إِدَاوْكِيرُون. وفي طرف آخر تسمَّى القمَّة بِأَكَادِير وَاضُو، أي حِصْنُ الرِّياحِ. وهناك أسماءٌ أخرى لأمكنةٍ أخرى مثل: أَكُونْس نْ كَنْفِيسْ أي مَرعى كَنْفِيس، وأَزَارُون كَنْفِيس أي وادي كَنْفِيس. وعلى العموم، توجد تِشْكَا وسط تجمُّعٍ هامٍّ مِنَ القبائل الشِّيشَاوِيَّةِ هي سَكْسَاوَةُ، آيْتْ تِيكْسِّيت، إِمِيلْوَان، آيْتْ أُوغْبَار، إِدَاوْمْسَاتُّوك، تِيكُوكَا، آيْتْ وَاكُنْسَان، إِمِيدْلاَّوْن، آيت كِّير، إِوِينْسِّيكْتَن الخ... ويُقيم هذا التَّركيز مِنَ الأُسر والقبائل تجمُّعاً في كُلِّ صيفٍ، في تِشْكَا، في إطار أسلوبِ أنصاف الرُّحَّل. على أَنَّ سَكْسَاوَةَ تحظى خلالَه، بنصيبِ الأسد من مَرَاتِعِ الرَّعي، ومِنَ الهدايا المُخصَّصة للأولياء. كما تحظى بسُلطة القرار في فَتْحِ، وفي إقفال موسم الرَّعي.

الفصلُ الثَّاني

وضعُ قبيلة كَنْفِيسَةَ الشِّيشاوية مِنَ الكتابات الوَسيطيَّة

أوَّلاً: تَعريف:

يقدِّم لنا البَيْدَقُ[1] قبيلة كَنْفِيسَةَ قائلاً: *"أمَّا كَنْفِيسَةُ – حفِظها الله– فتضمُّ اثنَيْنِ وعِشرين فخذةً: زْدَاغَةُ إِدَاوْزْدَاغْ، مَنْطَاكَةُ أُومَنْطَاكَانْ، أهلُ تْيكُوكَّا آيْتْ تيكُوكَّا، بَنُو مَصَّادْ دَّيَاكْ إِدَاوْمَصَّادْ دَّيَاكَاكْ، سَكْسَاوَةُ إِسَكْسَاوَنْ، مَدْلاَوَةُ إِميدْلاَّوْنْ، حَسَّانَةُ حَسَّانَاتْ، بَنُو وَاكَّاصْ آيْتْ وَكَّاصْ، مَاشَالاَتْ إِنْ مَاشَالاَتْ. أمَّا الَّذين هاجروا إلى كَنْفِيسَةَ من مناطقَ أخرى فهم إِزَامْكَانْ، كُوزُولِينْ انْكُوزُولاَنْ، مَحْمُودَةُ إِدَاوْمَحْمُودْ، بَنُو يَازْمَارِيتْ إِدَاوْإِيزِمَّارْ، مَحْمُودَةُ الظِّلِّ إِدَاوْ مَحْمُودْ، مَادِيسِيرَا إِمَادِيسِيرَانْ، بَنُو يَارَانْ آيْتْ وِينْ يَارَانْ، بَنُو وَاكَاسِيكَانْ آيْتْ وَاكَاسِيكَانْ، لَكُّونَةُ إِدَاوْلاَكُونْ، أهل أَسَانْ آيْتْ يَاسَانْ، هَرْغِيتَةُ إِرْغِيتَانْ، مَاسَاجِينَا أُومَاسَاجِينَا."* لُوحظ أَنَّ القبائل ذُكرت باللُّغة الأمازيغية (الشَّلْحَة)، ثُمَّ بالعربية في المقابل لاسم كُلِّ قبيلةٍ، وهي عمليةٌ قام بها مؤلِّفُ الكتاب نفسُه. يتَّضح من كثرة الأفخاد المُنضويَّة

---

[1] - البيدق: "كتاب الأنساب" أُخِذَ النَّصُّ عن ترجمة لِيفِي بْرُوفَنْصَالْ للكتاب، ص65. للإشارة: فَكَنْفِيسَةُ اليومَ تَشْمَلُ قبائلَ مُنْضَوِيَّةٍ تحت إدارةِ ثلاثة أقاليم وهي: إقليمُ شيشاوة، إقليمُ الحوز، ثم إقليمُ تارودانت.

تحت لواء كَنْفِيسَةَ أَنَّ هذه الأخيرة كانت على جانبٍ كبيرٍ مِنَ القُوَّة والِائْتِلاَفِ، ويزدادُ الأمرُ وضوحاً إذا ما علِمنا أَنَّ ابْنَ تُومَرْت كان قد خصَّصَ مَجالَها، إِثْرَ رِحلتِه التَّبشيرية، والعَسكريَّة في آنٍ واحِدٍ، في دَرَنْ خِلالَ عامِ (514هـ/ 1120-1121م) بعنايةٍ خاصَّةٍ. إذ أحاط بِمجالِ إِدَاوْ مَحْمُودْ من جهته الشَّمالية، وكذا الغربية إلى أن أخضَعَه، ومنه بلغ إلى تَاكَطُّوشْت المُتاخِمة لِجَنُوبِي مَمَرِّ تِيزِي نْ أُومَاشُّو المحاذي لإيمي نْ تَانُوتْ، إلى حدود البحر المحيط في الغرب حيثُ مجالاتُ إِمْشَاجِينَا على ضفاف مَصَبِّ وادِي سُوسْ. ثم سرعان ما عاد من جنوب السِّلسلة الأطلسيَّة لِيُهاجم إِدَاوْ مَحْمُودْ، إحدى قبائل كَنْفِيسَةَ بِوَسَاطَةِ آيْتْ وَاكَّاسْ، وهم بَطْنٌ من بطون القبيلة نفسِها. وبعد عشر سنواتٍ من ذلك، في حدود عام (526هـ/ 1132م) ثار من جديدٍ، ابْنُ مَلْوِيَّةَ، وهو زعيمُ كَنْفِيسَةَ في ذلك التَّاريخ، بعد أن ركَّز قواتِه بِتَاوْدَغُوسْت، وهو مكانٌ لم يَتِمَّ تحديدُه إلى الآن. غير أَنَّه قُتِلَ من لدن مُوحِّديٍّ يُدعى التِّيكِّي، على أَنَّ هذا الاسمَ يُعتبرُ بِمثابةِ أَوَّلِ إشارةٍ لِرَجُلٍ ينتمي لا مَحالَةَ، إلى قبيلة مْتُوكَّةَ الشِّيشَاوِيَّةِ، المسمَّاة بِالشَّلْحَةِ إِنْ تُوكَّةْ، التي إِنَّما هي جمعٌ للكلمة المُفْرَدِ أَتِّيكِّي.

يتَّضح مِمَّا أدرجناه أَنَّ الدَّعوةَ المُوحِّديَّةَ قد تمكَّنَتْ من بعض القبائل المصمودية، إلى درجة أَنَّها تولَّت إخضاعَ القبائل المجاورة لها إلى السُّلطة الموحِّديَّة القائمة. لاحظ جَاكْ بِيرْكْ أَنَّ التَّحرِّيات التي تَمَّت في شأن

الكتابات الإسبانية-المُسلمة التي تطرَّقت لفترة عبور الفاتحين لِمَضِيقِ جبل طارق، لم تكن كافيةً للكشف عن أسماءَ بَرْبَرِيَّةٍ شاركت في عمليَّة العبور تلك، ولها علاقةٌ بأسماءِ أمكنةٍ، أو قبائل مِنَ الأطلس الكبير الغربي المنتمي إلى مجالات شِيشَاوَةَ. غير أنَّه بالرَّغم من نُدرة الأسماء البَرْبَرِيَّةِ داخل تلك الكتابات، فَإِنَّ عبد الرَّحمن بْنَ خلدون يُسعفنا بمعلوماتٍ حول رِجالٍ مِنَ المصامدة-الأمازيغ، شَهِدَ لهم بالمشاركة الفعَّالة في الفتح الإسلامي بالأندلس إذ يقول: *"ومن بطون كَنْفِيسَةَ أيضاً قبيلةُ سَكْسِيوَةَ المُوطَّنون بِأَمْنَعِ المَعاقِلِ من هذه الجبال، يُطِلُّ جبلُهم على بسيطِ السُّوسِ مِنَ القِبْلَةِ، وعلى ساحل المحيط مِنَ الغَرْبِ... وكان من مَشاهيرهم كُسَيْرُ بْنُ وَسْلاَس بْنِ شَمْلاَل مِنْ أَصَادَةَ، وهو جَدُّ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى راوي المُوَطَّأِ عن مالك. دخل الأندلسَ، وشهِد الفتحَ مع طارقٍ في آخرينَ مِنْ مَشاهيرهم، استقرُّوا بالأندلس، وكان لأعقابِهم بِها ذِكْرٌ في الدَّولة الأُمَوِيَّةِ."*[1]

ما مِنْ شَكٍّ في أَنَّ تنافسَ هذه الأُسَرِ، والقبائل من أجل المراعي والهدايا قد أفصح عن مُشَارَطَاتٍ تسمَّى في لِسانِ آلِ مَازِيغَ بِتِنُوبْكَا، سوف نتعرَّضُ لَها فيما بعدُ، حين نُدرِجُ ذلك النَّوع مِنَ التَّراضي بين قبائل الجبل وقبائل السَّهل: هؤلاء يُوفِّرون مَراعيهم لأُلئك في فصل الشِّتاء، وأولئِكَ يتركون مياهَهُم تتدفَّقُ مِنَ الأعالي باتِّجاه السُّهول. في هذا الباب يسوق لنا جَاكْ بِيرْكْ بعض الحِكاياتِ التي تركها مُقَدَّمُ قبيلة إِداَوْ كِيرْيُون منذ سنة

[1] - ابن خلدون: "العبر" ج7، ص 462.

(1252هـ/ 1836م)، تُفيد أَنَّ تِشْكَا كانت تَمنحُ الماعزَ إلى القبائل المصمودية المحيطة بها. فهل بإمكاننا أن نستنتج، من هذا السُّلوك والمُشَارَطَةِ القديمة، وضعاً كان مشحوناً بالاصطدامات الحربية، وأيضاً بالمهادنات؟ يتَّضحُ أَنَّ حياةَ هذه القبائل كانت تعتمد في رِزقِها على حدود تِشْكَا، وعلى موارِدِها؛ بل إِنَّهَا قد شكَّلت، بفضل مَجالِها الجغرافي-الرَّعَوِي المتميِّز، مَسرحاً عالياً دارت على خشبته أغلبُ الأحداث التَّاريخية لسكَّان شِيشَاوَةَ وجِيرانِهِمُ المصامدة.

إذا كانت مجموعةُ كَنْفِيسَةَ تعني داخلَ الوثائِقِ الموحِّدية إِكَّنْ نْفِيسْ، فإنَّ تَشريحَ هذه الكلمة يُفصح عَنِ الدِّلالة الآتية داخل اللِّسان العربي: مَنَابِيعُ نَفِّيس. في هذا الباب لاحظ جَاكْ بِيرْكْ أَنَّ التَّرقيم الخاصَّ بِكَنْفِيسَةَ يتعدَّى مَنَابِيعَ نَفِّيسَ إلى أن يَبْلُغَ إلى المحيط الأطلنتي. وعليه، لا نَملك إلاَّ أن نحتفظَ بالتَّشابه الحاصل بين كَلِمَتَيْ كَنْفِيس وَنَفِّيس، مع العِلم أَنَّ هذا الأخير، أي الوادي، قد فقد منذ عهدٍ بعيدٍ اسْمَه داخل الجبل لِفائدة اسمٍ آخر هو أَسِيف تِشْكَا، أو وَادِي تِشْكَا. وعلى العموم فالقبائل المكوِّنةُ لِتِشْكَا هي: إِدَاوْزْدَاغ، إِمَنْطَاكَن، إِدَاوْمْسَاتُّوك، سَكْسَاوَة، إِمِيدْلاَّوْن، أَسِّن. أمَّا القبائلُ التي كانت في كَنْفِيسَةَ العُليا، ثم احتمت بِكَنْفِيسَةَ فهي: إِدَاوْ مَحْمُود، إِدَاوْ إِيزِيمَّرْن، دَمْسِيرَةُ، إِرْغِيتَان. ويجرُّنا هذا إلى مَقالِ رُوبِيرْ مُونْطَانْي إذ يؤكِّد فيه أَنَّ: *"قلبَ المجالاتِ* (البربرية) *لا يوجد بِتِنْمَل، وإِنَّما يَنْبُض بِتِشْكَا، خاصَّةً في الوادي المُبارَك، المُحاذي للولِيَّة لَلاَّعْزِيزَة، وأيضاً في*

المداشر العالية المُتاخمة للجبل، والتي هي في مِلْكِ إِدَاوْمَسَاتُّوكْ حيثُ يوجدُ رجالٌ أَشِدَّاءُ استفادوا من خاصِّياتِ أَدْرَارَنْ دَرَنْ، وَتَمَكَّنوا إلى حدود الأعوام الأخيرة مِنَ الحفاظ على تراث، ما يُسمِّيه صاحبُ المقال، بالجمهورية البربرية".[1] لا غَرابَةَ إذن، أن تحظى كَنْفِيسَةُ بأهَمِّيةٍ كبرى من لدن الموحِّدين، وخصوصاً منها قبيلةُ سَكْسَاوَةَ، إلى درجة أنَّ شُيُوخَهَا اعْتَزُّوا بأسبقيَّتهم على أهل جِلْدَتِهِمْ مِنَ القبائل المجاورة لهم، والتي تُخَوِّلُ لهم أن يَستخلصوا منهمُ الضَّرائبَ لِفائدة السُّلطة الجديدة التي حكمتِ المَغرب من خلال مُرَّاكُشَ، ونعني بها الموحِّدين.

ثانياً: مَرْتَبَةُ قبيلة كَنْفِيسَةَ مِنَ التَّمييزِ المُوَحِّدي:

لعلَّ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الموحِّدين قد أَدخلوا في اعتبارهمُ الاعتمادَ على كَنْفِيسَةَ، بعد أن فطِنوا إلى كثرة أَتْباعِها مِنَ القبائل والأفخاذ، كونُها مُثِّلَتْ بأربعة أشخاصٍ داخلَ مَجلِسِ الخمسين الذي نظَّمَهُ المهدي بْنُ تُومَرْتْ، في إطار ما أَسْماهُ بالتَّمييز: ونعني به التَّمييزُ بين قبائِلِ المغرب، بعد كُلٍّ مِنْ قبائِلِ: *"هَرْغَةَ: وهُمْ قبيلةُ الإمام المهدي، وهَنْتَاتَةَ، وَتِنْمَلْ: وهُمُ الذين*

---

[1] – Robert Montagne « Un épisode de la Siba berbère au XVIII S » Hespéris 1941 P 90.
للإشارة فَرُوبِيرْ مُونْطَانْيْ لا يشكِّل شُذُوذاً، أَو استثناءً عَنِ الباحثين الغربيِّين، خاصَّةً منهمُ الفرنسيين الَّذين تحامَلوا على تاريخ المغرب انطلاقاً من الايديولوجية الاستعمارية التي تحكَّمتْ في كتاباتهم. حاوَلَ -من خلال ذلك- أن يذهب بالكيان القبلي المصمودي في سلسلة الأطلس إلى ما أسْماه بالجُمهورية البربرية، مُستغلاً العُزلةَ التي فرضَها عليهم تحصُّنهم في الجبال المُتاخمة لِهذه السِّلسلة.

بايعوه على الإجازة والحِماية، وكَنْفيسَة، وَهَزْرَجَة، وَكَدْميوَة، وَوْرِيكَة." [1]
وإذا ما تصفَّحنا نَصَّ الرَّسائِل التي أوردها الباحثُ لِيفي بْرُوفَنْصَالْ [2] عَنِ الموحِّدين، لَوَجدنا أسماءَ الممثِّلين الأربعة مُرَكَّبَةً مِنَ الشَّلْحَةِ والعربية. فهل معنى هذا أَنَّ التَّأَثُّرَ باللِّسان العربي قَدِ انْتشر في كُلِّ مجالات الأطلس الكبير خلالَ الدَّعوة الموحِّدية، في زمنِ زعيمِها الرُّوحي المهدي بْنُ تُومَرْتْ؟

هناك شهادةٌ أخرى تُبَيِّنُ أَنَّ الموحِّدين كانوا يُدْخِلُونَ كَنْفِيسَةَ في حِسابِهم، كقبيلةٍ يَعتمدون عليها لِتكسير شَوكة الثَّائرين عليهم، والشَّهادةُ لابن خلدون. إذْ يُشير إلى أَنَّ أبا دَبُّوسٍ، وهو أحدُ الخلفاء الموحِّدين الأواخر، لَمَّا استقرَّ له الأمرُ، وتغلَّب على المُرْتَضَى كان قد: *"قَدَّمَ يَحْيَى بْنَ وَانُودِينْ لاِسْتِنْفَارِ قبائل السُّوسِ من كُزُولَةَ، ولَمْطَةَ، وكَنْفِيسَةَ، وصْنَاكَةَ..."*
وعلى العموم، فقد أحكم الموحِّدون سيطرتَهُم على القبائل المصمودية في الجبال المنتمية إلى شِيشَاوَةَ، حوالي نصفِ قرنٍ من (558هـ/ 1163م)/ (610هـ/ 1213م)، ثُمَّ سُرعان ما تلاشتِ السَّيطرةُ لانشغال الموحِّدين بِحُروبِهم ضدَّ كتائب المَرِينِيِّينَ، المُناوشين لَهُم ما بين عامي (609هـ/ 1212م) تاريخ هزيمة الموحِّدين أَيَّامَ حُكْمِ الخليفة النَّاصر في واقعةِ العُقَابِ في الأندلس؛ وعام (668هـ/ 1269م) زمنَ استيلاء المرينيِّين على العاصمة مُرَّاكُشَ.

---

[1] ابن خلدون: "العبر" ج7، ص 560.

[2] –Lévis Provencial : « Recueil des lettres officielles Almohades », P15.
- « Fragments inédits d'une Chronique du début des Almohades ». PP 364-366 .

ويُسعفنا ابن خلدون عن هذه الفترة الطَّويلة الدَّامية، بِمعلوماتٍ قائلاً: *" وكذا بنو مرينَ من زُنَاتَة خرجوا على الموحِّدين، فمكثوا يُطاولونَهُمْ نحواً من ثلاثين سنةً، واستولوا على فَاسَ، واقتطعوها وعُمَّالَها من مُلوكهم. ثم أقاموا في مُحاربتهم ثلاثينَ أُخرى حتَّى استولَوْا على كُرْسِيِّهِمْ بِمُرَّاكُشَ."* [1]

انتشرت خلال هذه الفترةِ القبائلُ العربيَّةُ في سهول السُّوسِ الواقعة جنوبَ المجال الشِّيشَاوِي، في مجالاَت ما بعدَ الأطلس الكبير الغربي. كما انتشرت في شَمال غرب شِيشَاوَةَ، في كُلٍّ من تَامَسْنَا، والهَبْطِ مَعْقِلِ البَرْغْرَاطِيِّينَ قَبلَهم. فمارسوا النَّشاطَ الرَّعويَّ، وبُنِيَتْ علاقاتُهم مع السُّلطة، على الخيانات المتتالية إلى درجة أَنَّ كُلَّ قبيلةٍ قد شكَّلت عالَمًا مِنَ الأُمراء والتَّابعين. وإذا كان بنو هِلاَلٍ قد برزوا، ابتداءً من عام (621هـ/ 1224م)، بشكلٍ جعل منهم سواعدَ مُدَعِّمَةٍ للأُسَرِ المتنازعة على الحكم، فسجَّلوا أنفُسَهُمْ كأبطالٍ وسط حروب الاسترداد في الأندلس، فَإِنَّ القبائلَ المصموديةَ قَدِ انقسمت على نفسِها، وانعزلت كُلُّ واحدةٍ في مَجالِها. فيما ارتبطت قبائلُ أُخرى بالجبال والواحات، حول ما سُمِّيَ بِحضارة المياه. وكثَّفت قبائلُ أُخرى حركاتِها التَّنقُّليَّة على شاكلة القبائل العربية إلى أَنِ انْدمَجَتْ فيها، فأقبلت على اللِّسان العربي إقبالَها السَّابِقِ على اللِّسان الأَمَازِيغِي؛ بل وَوَرِثَتْ عَنِ القبائل العربية نِظامَ تسلسلِ الأُسَرِ، فنشأت بين

---

[1] – ابن خلدون "المقدمة" ص227.

العُنصريْن روابطٌ وأحلافٌ ومُبادلاتٌ تجاريةٌ. وقَدِ اشتهر عن عربِ سُفْيَانَ بَنُو جَرْمُومَ، وعن غيرهم بَنُو وَانُودِين، أَوْ تَافْرَاكِين، كما اشتهر عَنِ قبائِلِ المصامدة الهَنْتَاتِيُّونَ جنوبَ مُرَّاكُشَ، وبرز السَّكْسِيوِيُّونَ جنوبَ شِيشَاوَةَ.

ثالِثاً: ملاحظاتٌ عن قبيلة كَدْمِيوَةَ:

يُقَدِّمُ لنا ابنُ خلدون كَدْمِيوَةَ قائلاً: *" وأَمَّا كَدْمِيوَةُ وكانوا تَبعاً لهُنْتَاتَةَ وتَنْمَل في الأمر، وجَبَلُهُمْ لِصْقَ جبلِ هَنْتَاتَةَ."* غير أَنَّ كَدْمِيوَةَ اليومَ لا تنتمي إلى شيشاوة إلاَّ من خلال بعض أطرافها. وعن تَمَرُّدِ رؤسائِها بُعَيْدَ الموحِّدين، على سلاطِينِ بني مَرين، يُضيف ابنُ خلدون: *" ولَمَّا تغلَّب بَنُو مَرِينَ على المَصَامِدَةِ ووضعوا عليهمُ الضَّرائِبَ، امْتنع يَحْيَى بْنُ سَعْدَ الله بعضَ الشَّيءِ، بِحِصْنِ تَافْرَجَا، وتَيَسَّخْت من جبلِهِم، وخالَفَه عبدُ الكريمُ بْنُ عيسَى وقومُه إلى طاعة بني مَرين، واختلفت إليهمُ العساكرُ إلى أن هَلَكَ يَحْيَى بْنُ سعد الله سنةَ أربعٍ وتسعينَ وستِّمائةٍ، وعساكرُ يوسفَ بْنَ يعقوبٍ،* الذي حكم مِنْ (685هـ/ 1286م) إلى (706هـ/ 1307م)، *مُجَمَّرةٌ على حِصاره، فهدَّموا حصونَه، وأَذَلُّوا مِنْ قومِهِ."* [1] هكذا تُضافُ كَدْمِيوَةُ إلى كُلٍّ مِنْ إِدَاوْ مَحْمُود، التي استعصت على المَهدي بْنِ تُومَرْتْ الموحِّدي، مُحتميةً بالقُوَّة، وبالظِّلال الوارفة التي لِقبيلة كَنْفِيسَةَ، ثُمَّ إلى سَكْسَاوَةَ التي كما سنرى

---

[1] - قد تعني كَلِمةُ الذُّلِّ في تاريخ المغرب –من خلال- قراءة مُتأنِّية للوثائق المليئة بحَرَكَاتِ السَّلاطين للقبائِلِ الثَّائِرَةِ لأجل إخْماد ثوراتها المُتَمَرِّدَة، الشَّيءَ الكثيرَ: كَقَطْعِ دَابِرِ الثُّوَّارِ بِقَطْعِ نَسْلِهِمْ، إمَّا بالتَّنكيل، أو بالتَّعذيب، أو بالذَّبْحِ أو باستِباحَةِ مَحارِمِهِمْ أيَّاماً وشُهُوراً...

لاحقاً، ستتصدَّى بدورها، إلى السُّلطة المرينيَّة. ويُشير ابنُ خلدون في مَعرض حديثه عن ما آلت إليه كَدْمِيوَةُ من جَرَّاءِ مُناهضتِها للسُّلطة الموحِّدية، أَوِ اصطِدامِها مع جارتِها هَنْتَاتَةَ أثناء الحملات المرينيَّة الأولى في الجبل، يُشير إلى دَوْرِ سَكْسَاوَةَ الشِّيشاويةِ داخل هذا الصِّراع فيقول: *"فلمَّا استفحل أمرُ عامرٍ بالوِلاية على مُرَّاكُشَ وسائرِ المصامدةِ، نَبَذَ إلى عبد الحقِّ العهدَ ونِحْلَةُ الخلاف والمُداخلة للسَّكْسيوِي شيخِ الفِتنة المُستعصي منذ أَوَّلِ الدَّولة."* يتَّضح أَنَّ سَكْسَاوَةَ كانت بمثابة رأسِ الفِتنة ضِدَّ سُلطة بني مَرين، وأنَّها كانتِ المَلجأَ الرَّئيسَ لِبعض الثُّوار، لِتَمْنَحَ الجَوَازَ والأمانَ لِكُلِّ ثائرٍ كَدْمِيوِي شُدِّدَ عليه الخِناق مِنْ لدن الهَنْتَاتِيِّينَ، عُمَّالِ السُّلطةِ الجديدة، المتمثِّلة في بني مرينَ القابعين في عاصمتهم فاس. فيكونُ وصفُ ابنِ خلدون لِهذا النوع مِنَ العِصيان قد ترك لنا على الأقلِّ، فروعاً من شجرة قبيلة كَدْمِيوَةَ:

محمَّد بن عبد الحق ⟩ بْنُ سعد الله بْنِ كَدْمِيوَةَ

علي

محمد بن عيسى ⟩ عيسى ⟩ بن عبد الكريم ⟩ بن عيسى.

منصور

ومِمَّا يوضِّحُ قوَّة القبائل والأفخاد الشِّيشاوية في الجبل، ما كان من أمر الخليفة الموحِّدي المُرتضى يوم فَرَّ من بطش أبِي دَبُّوسٍ من مُرَّاكُشَ، مُصطحباً معه وزيرَه ابنَ زيدِ بْنِ يَعْلُو الكُومِي، وأبا مُوسَى بْنَ عَزُّوزٍ الهَنْتَاتِي

إلى كَدْمِيوَةَ التي هي الآنَ، إحدى قبائِلِ شِيشَاوَةَ، بعد أن لم تَستطِع أيُّ قبيلةٍ أَنْ تُأْوِيهِمْ. وفي ذلك يقول ابنُ خلدون: *"ودخلتْ سنةُ خَمسٍ وستِّين وستِّمائَةٍ* [1266م] *والمرتضى بِمُرَّاكُشَ غافلٌ عن شأن أبي دُبُّوسٍ، والأسوارُ خاليةٌ مِنَ الحَرَّاس والحامية. وقصد أبو دُبُّوسٍ بابَ اغْمَاتَ، فَتَسَوَّرَ البَلَدَ مِنْ هنالِكَ، ودخلَها على حِينِ غَفْلَةٍ... وفَرَّ المُرتضى ومعه الوزيرُ أبو زيدِ بْنُ يَعْلُو الكُومِي، وأَبو مُوسَى بْنُ عَزُّوزٍ الهَنْتَاتِي. فلَحِقُوا بِهَنْتَاتَةَ وأَلْفَوْهُمْ قد بَعَثُوا بِطَاعتهم. فرحل إلى كَدْمِيوَةَ."* [1] غير أَنَّ المرتضى لم يَستطِعِ البقاءَ في كَدْمِيوَةَ، وإن كانت من قبلُ تابعةً إليه، إذ كان قد نصَّب عليْها عاملَه ووزيرَه أبا زيدٍ بْنِ عبد الكريم: *"فأرادَ النُّزولَ عليه، فمنعَه ابنُ سعدِ الله وسار إلى شَفْشَاوَةَ، ووجد بِها عدداً مِنَ الظَّهرِ فمنحَها عَلِيّاً بْنَ زَكْدَانَ."* يتَّضحُ أَنَّ شيخَ كَدْمِيوَةَ ورئيسَها لم يَسمح للمُرتضى الموحِّدي بالاحتماء بِقَبيلة كَدْمِيوَةَ، كما يتَّضحُ أَنَّ المرتضى قد عرَّج نحو شِيشَاوَةَ فعيَّن عليها عَلِيّاً بْنَ زَكْدَانَ، وأرسل إلى ابن: *"وانودين بِمُعسكره من حاحَّةَ، وإلى ابْنِ عَطُّوشَ بِمُعسكَرِهِ من رَكْرَاكَةَ باللِّحاق به."* يتَّضحُ أيضاً، أَنَّ شِيشَاوَةَ قَدِ انفصلت في أيَّام الموحِّدين، عن قبيلة رَكْرَاكَةَ، على العكس مِمَّا أثبتَه صاحبُ "كِتَابِ الأَنْسَابِ"، مِنْ أنَّها كانت تابعةً لَهَا.

[1] – ابن خلدون: "العبر"، ج6، ص351.

الفصلُ الثَّالِث

المجالُ الجَبلي لِشِيشَاوَةَ في عهد المَرينيِّين

(656هـ/ 1258م) (957هـ/ 1550م)

أوَّلاً: بعضُ أوصافِ الرَّحَّالَةِ للإمتداد الشِّيشاوي:

لقد ترك لنا الرَّحَّالَةُ العَبْدَرِي –خلالَ رِحلته إلى الشَّرق في عام (687هـ/ 1288م)– وصفاً عن سكَّان السُّوسِ؛ لاحظنا –مِنْ خِلاله– أَنَّ الزِّراعةَ في هذا المَوْطِنِ، في أيَّام هذا الرَّحَّالة كانت ناقصةً إن لَمْ نقُلْ مُنعدمة، وأَنَّ سكَّان السُّوسِ كانوا يُقيمون احتفالاتٍ غريبةٍ، وأَنَّ الحِرَفَ فيه مُستمِرَّةٌ. وهو وصفٌ لا يَفْرِقُ عَمَّا تركَه لنا البَكْرِي قبلَه، بِحَوالِي قرنيْن مِنَ الزَّمن، حول الأطلس الكبير الغربي. يتَّضحُ أَنَّ امتدادَ هذه المَظاهر الطَّبيعيَّة مِنَ الجبل باتِّجاه السَّهل يُوازيه تَلاقُحٌ بَشريٌّ بين أهالِي المصامدةِ، المُتَحَصِّنِينَ بِجِبالِهِمُ المنيعةِ، وسكَّانِ المحطَّات السَّهلية الخاصَّة بأنصافِ الرُّحَّل. ولعلَّ في تعدُّد الأفخاد التي قدَّم لنا صاحبُ "كتاب الأنساب" ما يُفيد أَنَّ كَنْفِيسَةَ مثلاً، قَدِ امتدَّت بِمجالاتِها الواسعة مِنَ الجبل إلى السُّهول الأَطْلَنْتِيكِيَّةِ الواطِئة، أَوِ العكس. ولعلَّ الامتدادَ نفسَه، وكذا النُّفوذَ الذي كان للقبائل هو ما جعل جَاكْ بِيرْكْ يستغلُّ التَّشابُهَ الحاصِلَ بين سَكْسَاوَةَ في الجبل، وشِيشَاوَةَ في السَّهل: أي بين إِسْكْسَاوَن في المجال الجبلي القديم،

وإيشِيشَاوَن في السَّهل، لِيَتساءَلَ عَمَّا إذا كان التَّشابُه ذاكَ عَرَضِيّاً، أو أَنَّهُ يُضْمِرُ ازدواجيَّةً لانتشار القبيلة في المجاليْن مَعاً.

يتَّضحُ أَنَّ العُنصرَ المصمودي قَدِ انتشرَ على أطرافَ شاسعةٍ من شِيشَاوَةَ السَّهل[1] والجبل على حَدٍّ السَّواء. لكنْ، إذا كان بعضُ المصامدةِ الشِّيشَاوِيِّينَ قد أَبْدَوْا في البِدايةِ عَداءً، ونُفوراً مِنَ المرينيِّين الزْنَاتِيِّينَ وأبناء عُمومَتِهِمُ الهَنْتَاتِيِّينَ، ودخلوا بِالرَّغْمِ مِنْ ذلك، في خِدمة السُّلطة الزْنَاتِيَّةِ الجديدة، وحَظَوْا بين يَدَيْ سلاطين بني مرينَ بالسَّبق في مُمارسة الرَّقابة على القبائل المصمودية المجاورة؛ فَإِنَّ قبيلةَ كَنْفِيسَةَ، على العكس من ذلك، قد تصدَّت منذ أوَّلِ الأمرِ، للسُّلطة الموحِّدية السَّابقة ولو في شخص فَخْذَتِهَا إِدَاوْ مَحْمُود، وستقوم بالتَّصدِّي لسلطة بني مرين الزْنَاتِيِّينَ أنفُسِهِمْ –كما سنرى لاحقاً– في شخص فخذَتِهَا سَكْسَاوَةَ. ولعلَّ ما أَهَّلها لذلِكَ العِصيانِ هو اتِّساعُ مَجالِها، وتَحَكُّمُها في الممرَّات القديمة والهامَّة بِشِيشَاوَةَ، كَمَمَرِّ تِيزِي نْ أُومَاشُو الذي خوَّل لَها الاتِّصالَ بِعَرَبِ السُّوسِ، عبر تَالْقَجُّونْت وآيْتْ تَامَّنْت، وأيضاً عبر المْنَابْهَةَ وآيْتْ إِيكِيسِر وَأَوْلاَد يَحْيَى. وهُما مَعاً، مَسْلَكَيْنِ خاصَّيْن بأنصاف الرُّحَّلِ في فصل الشِّتاء. هناك أيضاً، مَسلكٌ آخرُ عبر إِدَاو مَحْمُود في اتِّجاه مَنافذِ بْوِيبَاوْن، أو في اتِّجاه الشَّمال بالمُوازاة مع مَسْلَكِ قلعةِ بُولْعْوَان عبر إِيدْوِيرَان، غير بعيدٍ عن مَوضِعِ إِيمِي نْ تَانُوت، ومنه إلى الحوز حيثُ كانت تنتشر عربُ سُفْيَان.

[1] – أنظر الصفحة 381 من مقال "جاك بيرك": "Antiquité Seksawa" Hésperis 1953

تبعاً لِكُلِّ هذا، وَجَدَتْ شِيشَاوَةُ مَجَالَها مُنفتِحاً على مَجموعةٍ مِنَ المجالات الأخرى، إمَّا عبر السَّهل، أو عبرَ الجبل. وهو ما ساعدها على الصُّمود في وجه المُضايقات التي اختفى من جَرَّائِهَا، غيرُها مِنَ المدن القديمة. إلاَّ أَنَّ هذه التَّلاَقُحَاتِ سرعانَ ما كانت تَجُرُّ النَّكبات على مَصامدة شِيشَاوَةَ؛ إذ كثيراً ما أَهَّلَتْهُمْ حِدَّةُ شوكَتِهم إلى أن يَصيرُوا قِبْلَةً للثُّوار الفارِّين من بطش السَّلاطين. ففي عام (781هـ/ 1379م)، وبعد أن نَكَّلَ السُّلطانُ المريني يعقوبُ بْنُ عبدِ الحَقِّ بقبيلة سُفْيَانَ، اضطرَّ أميرُ هؤلاء الأعراب أن يَحتمِيَ –على حَدِّ قولِ جَاكْ بِيرْكْ– بِالسَّكْسِيوِيِّينَ، وهو ما يُلَمِّحُ إليه ابنُ خلدون بقوله: *"ولَحِقَ ابنُه مَنْصُورُ بْنُ مسعود بِالسَّكْسِيوِي إلى أن راجعَ الخِلاَفَةَ أَيَّامَ يوسف بن يَعْقُوبٍ المَرِيني."*

ثانِياً: حول علاقة شِيشَاوَةَ بِمُحيطِها الخارجي:

أ)- العهد الموحِّدي: مِنَ المعلوم أَنَّ الرِّحْلَةَ التَّبشيرية التي قام بها ابْنُ تُومَرْت قد توغَّلَت به في مَجالات كَنْفِيسَةَ إلى آخر فَخْذَةٍ منها، وهي إِمَاسَاحِينَا حيثُ أوقفَه البحرُ المحيط، قبل أن يعود لإخضاع قبيلة إِدَاو مْحْمُود.

ب)- العهد المريني: رَسَتْ في المجالات نفسِها مِنَ البحر المحيط قواربُ أبي الفضل، المُوفَدِ مِنَ الأندلس، من لدن القشتاليِّين الإسبان. وتوغَّل مِنَ السُّوس في الأطلس الكبير الغربي، إلى أن بلغ دِيَارَ الأمير السَّكْسِيوِي عبدِ الله، حفيدِ حَدُّو يُوسُف. فآزره عبدُ الله ضِدَّ السُّلطان المريني أبي عنان، وآواه.

د)- أشارتِ المَصَادِرُ الدَّفينَةُ المتعلِّقةُ بِتاريخِ المغرِبِ في العهد السَّعدي -كما سنرى لاحقاً خلال (ق10هـ/ 16م)-[1] إلى وجود مَجموعةٍ مِنَ المَنافذ المُنفَتِحَةِ على المجال المدروس (شِيشَاوَةَ). فهناك: أَمْكْدُول الذي يُعَدُّ ميناءً مُمَيَّزاً لِكُلِّ عَمالة السُّوسِ، بالقرب من مدينة مُوكَادُور الصَّويرة حالياً. ثُمَّ تَارْكُوكُّو في الجنوب الشَّرقي، أو رَأْسِ كِير، الذي يُعتبر المَنْفَذَ الرَّئِيسَ لِحَاحَّةَ. ثُمَّ تَافَطْنَا، الذي سيُعمَّر لاحقاً بِسَنْتَاكْرُوزْ، أي أَكَادِير لِيُصبح ميناءً خاصّاً بتصدير القوالِبَ السُّكَّرِية في فترة حكم دولة السَّعديين، كما سنرى لاحقاً. وقد سجَّلته الخرائط الإسبانية تحت اسم «Porto Msgina»: ميناء مَاسَاجِينَا، نِسبةً إلى آخرِ فَخْذَةٍ من قبيلة كَنْفِيسَةَ.

ذ)- يُلْفِتُ جَاكْ بِيرْكْ الانتباهَ إلى أنَّه توجدُ بقايا خِرْبَةٍ تَحملُ اسْمَ تَاسَكْسُوت على مسافةِ ساعةٍ مِنَ المَشي في الجبل المُطِلِّ على مَصَبِّ وادي كْزُولَةَ، في اتِّجاه السُّوس. ثُمَّ يُعقِّب مُتسائلاً: *"إذا لَمْ تَكُنِ الكلمةُ تُشير إلى أُكْلَةِ الكُسْكُسِ المعروفة لدى سُكَّان المنطقة، فهل معنى هذا أَنَّ نُفوذَ سَكْسَاوَةَ قَدِ امْتَدَّ إلى أن وصلَ إلى البحرِ المحيط؟!"* لِنَعُدْ إلى اقتفاء آثار دِلالة التَّسميَّة التي سُمِّيت بِها شيشاوة، ولْنُحَاوِل رصدَ علاقة تلك التَّسمية بِمسألة التَّعمير.

---

1 – « Les sources inédites de l'histoire du Maroc » in ESP TI 1921, P 54 in Portugal TI. 1934 P 120.

ثالِثاً: مسألةُ التَّسميةِ وعلاقتُها بالتَّعمير:

إذا كانت مُرَّاكُشُ، العاصمةُ المرابطيةُ والموحِّديةُ والسَّعديةُ وعاصمةُ بعضِ سلاطينِ العلويِّين، قد نالت حظَّها مِنَ الكتابات التَّاريخية[1] التي أشارت إمَّا بِوُضوحٍ، أو بِتلميحٍ إلى طبيعة مِلْكِيَّةِ الأرض التي شُيِّدت فوقَها المدينةُ. فَإِنَّ شِيشَاوَةَ التي لَمْ تَتَبَوَّأْ مَكانةَ العاصمة قَطُّ، ولَمْ تَعرفْ بالتالي، توافُد الرَّحَّالة والمؤرِّخين عليها بالحجم نفسِه الذي توافَدوا به على مُرَّاكُشَ، لم تستأثِر بالاهتمام نفسِه، ولا ذُكِرَتْ بالكثافة نفسِها على أَلْسُنِ المؤرِّخين. الشَّيء الذي يضعُنا أمام صُعوبة ترصُّد مَسألة المِلْكِيَّةِ، أَوِ التَّعمير بِها. ومِمَّا يزيدُ الأمرَ صُعوبةً هُوَ انْتِشارُ مَجالِها منذ (ق4هـ/ 10م)، على حِساب مَجموعةٍ مِنَ القبائل، وتنقُّلُ بعض هذه القبائل، عبر أطرافه، أو وجودُ أخرى على المجالِ نفسِه. وهو ما يُعيقُ الحَسْمَ في طبيعة المِلْكِيَّةِ، وربطِها بِقبيلةٍ دون غيرِها. ثم إِنَّ انتماءَ أغلبِ هذه القبائل إلى عناصِرِ المصامدةِ يَجْعَلُنا نُقِرُّ، بِلاَ رَيْبٍ، بِأَنَّ اللِّسانَ الذي كان سائداً في مَجالاتِها، هو اللِّسانُ الأَمَازِيغِي، والذي احتكَّ لا مَحَالَةَ، بِلِسَانَيْنِ غَرِيبَيْنِ عنه، هُما: اللِّسَانُ اللاَّتِينِي-

---

[1] - من خلال بعض الكتابات "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذارى. "الحُلَلُ المُوشِيَةُ في ذِكْرِ أخبار الحضرة المرَّاكشية" لِمُؤلِّفٍ مجهول. "الأنيسُ المُطرِبُ بِرَوْضِ القِرطاس في أخبار مُلوك المغرب وتاريخ فاس" لابن أبي زرعٍ الفاسي. "المعجب في تلخيصِ أخبار المغرب" لعبد الواحد المراكشي. "الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى" للنَّاصري. وكتب "ابن خلدون، ولسان الدين بن الخطيب، وابن قنفد القنطيني" وغيرهمُ كثير...
« Deverin : « Marrakech des origines à 1912.

الرُّومَانِي، ثُمَّ اللِّسانُ العربِيُّ المرتبطُ بالفتح الإسلامي منذ عُقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ الفِهْرِي. ولعلَّ ما يُزَكِّي هذا الافتراضَ هو ما جاء في النَّصِّ الذي تركه لنا الرَّحَّالَةُ أَبُو عُبَيْدُ البَكْرِي لَمَّا كان يتحدَّث عن زحف عُقْبَةَ بْنِ نافعٍ بِجُيُوشِهِ نحو مَدينة نَفِّيسَ، خلال (62هـ/ 681-682م): *"فحاصر بِها الرُّومَ، ونصارى البَرْبَرِ."* فهل وجد عُقْبَةُ شِيشَاوَةَ، قُبَيْلَ أن يُحاصرَ نَفِّيسَ، قد تَمَسَّحَتْ دِيناً، وتَنَصَّرَتْ لِسَاناً؟! إذا كان النَّصُّ قد نعث سكَّانَ نَفِّيسَ بِنصارى البَرْبَرِ لِكون صاحبِه قد تبيَّن، أو تَسَقَّطَ مِنَ الأخبار ما يُفيد أنَّهم كانوا يُؤَدُّونَ طقوسَ المسيحيَّة، أَوِ النَّصرانيَّة، فبأيِّ لُغَةٍ سيؤدُّون تلك الطُّقوس؟!

أمَّا عَنِ اقتحام اللِّسان العربِي للمجال نفسِه الذي نحن بِصَدده، فَيُضيفُ النَّصُّ نفسُه قائلاً: *"فَلَزِمَهُمْ حتى فتحَها، وبنى بِها مَسجداً إلى اليوم."* ولعلَّ أُولَى آثار استقرارِ حضارةِ العرب المسلمين الفاتحين للأمصار، تتمثَّلُ في تشييدهم للمساجد التي تَمْزِجُ بين وظيفتَي المَكان لِتَأدية الصَّلاة، والمكانِ نفسِه لِتَدريس الفِقه، وشرائع الدِّين الإسلامي. فما هي الوسيلةُ التي اعتُمدت للتَّلقين في نَفِّيسَ إن لم تَكُنِ اللُّغَةُ العربية؟ لِنَعُدْ إلى شِيشَاوَةَ، ونطرح سُؤَالاً: هل تأثَّرت باللِّسان (الرُّومَانِي-اللاَّتِيني) تأثُّرَ نَفِّيسَ به؟ مِنَ المعلوم أَنَّ شِيشَاوَةَ لا تبعدُ -حسبَ النُّصُوصِ القديمة- عن نَفِّيسَ سوى بحوالي ثلاثين مِيلاً، وهي مسافةٌ كافيةٌ لأن تَجعلَها تتأثَّرُ بِمَا تأثَّرت به جارَتُها نَفِّيس. نُضيفُ إلى هذا أَنَّ الرُّومانَ الذين أَثْبَتَتِ الأبحاثُ الأَرْخِيُولُوجِيَّةُ

أنَّهم وصَلوا إلى مُوكَادُورْ، ما كانوا لِيَتَوَغَّلُوا في الحوز إلى حدودِ نَفِّيس، لو لَمْ يَمُرُّوا من شِيشَاوَةَ. ولعلَّ ما يُوَضِّحُ أَنَّ شِيشَاوَةَ هي الأخرى، كانت خاضعةً للتَّأثير نفسِه، هو نَصُّ ابْنِ أَبِي زَرْعٍ الفَاسِي في شأن أَبِي بكرِ بْنِ عُمَرَ اللَّمْتُونِي، الذي –على حَدِّ قَوْلِ صاحب "رَوْضِ القِرْطَاسِ"–: "*فتح مَدينَةَ شِيشَاوَةَ بالسَّيف.*" فهلِ الفتحُ المُرابطيُّ هنا قد جاء كَرَدٍّ فِعْلٍ عَنِ العِصيان الشِّيشَاوِي فقط، أَمْ كَتَصَدٍّ لبقايا آثارِ الوُجودِ الرُّومانِي في المنطقة؟

إِنَّ المدَّةَ الفاصلةَ بين فتح عُقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ لِنَفِّيسَ، في عام (62هـ/ 681-682م) وفتح أَبِي بكرٍ بْنِ عمر اللَّمتونِي لِشِيشَاوَةَ تكادُ تصلُ إلى أربعةِ قرونٍ، وهي مُدَّةٌ زمنيَّةٌ كافيةٌ لأن تتطبَّع فيها مَجالاتُ شِيشَاوَةَ، من نَفِّيسَ إلى بعض الأماكن من دِيرِ دَرَن، بالإسلام وباللُّغة العربية. لكنْ، ما علاقة هذا الطَّرح بالتَّسمية؟! إذا ما عُدنا إلى المؤرِّخين والرَّحَّالة، واقتفَيْنا –من خِلال نُصوصِهِمُ القصيرة– آثارَ تطوُّرِ التَّسميةِ، فإنَّنا نلمسُ انسجاماً ضِمنيّاً مع الطَّرح الذي قدَّمناه قُبَيْلَ التَّساؤل عَنْ هذه العلاقة. فهل وقع لِلْبَكْرِي الذي تفرَّد بالسَّبق في ذِكْرِ الاِسْمِ بِشَفْشَاوَن، الْتِبَاسٌ –على حَدِّ قول الباحث الفرنسي بُولْ بِيرْتِيي– بين اسمِ شَفْشَاوَن: المدينة التي شيَّدَها ابنُ رَاشِدٍ في الشَّمال الغربي للمغرب خلالَ (ق10هـ/ 16م)، وشِيشَاوَةَ التي نحن بِصددِها؟

إذا تَمَعَّنَّا في المسألة جيِّداً، وربطناها بانتشار القبائل المصمودية الأمازيغية في المجال، وأردنا أن نَجِدَ للتَّسمية مَكاناً في اللِّسان المسمَّى

الشَّلْحَة، أو تَاشَلْحِيت المعتمَد لدى تلك القبائل، فإنَّنا سنجدُ أَنَّ أصلَها كان على هذا الشَّكل: إِيشِيشَاوَن، وهي -حسب افتراضِنا- فُونُولُوجِيَّةٌ أصلٌ، قبل أن يَمتزِج اللِّسانُ الأَمَازِيغِي بِأَيِّ لِسانٍ آخر، سواءٌ اللاَّتيني، أَوِ العربي. وإِيشِيشَاوَن تعني شيئان اثنانِ في الشَّلْحَةِ: إمَّا صغارُ الدَّجاج، غيرَ أَنَّ الكِتاباتِ القديمة لَمْ تُفصح عن مَعلوماتٍ تُفيدُ أَنَّ المنطقةَ كانت تتوفَّر على سوقٍ لا يُتداولُ فيه سوى صغارِ الدَّجاج. أو إِنَّ إِيشِيشَاوَن تعني تلك الهُضَيْبَاتُ والتِّلالُ القليلةُ الارتفاع، وهو طرحٌ يتماشى مع تَضَارِيسِ شيشاوةَ التي تَعُجُّ بالهُضيبات، خُصوصاً في المجال المُنفتِح على البحر -من خِلالِ- الصَّويرة والشَّمَّاعية. وعن دِلالة التَّسمية، أَسعفَنَا الأستاذُ الباحثُ أحمد التَّوفيق في تعليقٍ ضَمَّنَهُ كتابَ "التَّشَوُّفِ" بِمعلوماتٍ عن دِلالة التَّسمية، مَفادُها أَنَّ وَادِي شِيشَاوَةَ المعروف اليوم، كان في الأصل يُدعى وادي إِيشِيشَاوَن، ومعناه صِغَارُ الدَّجاج. فهل كان مَصامِدَةُ المجال يُقدِّسون الدَّجاجَ، أو صِغارَه؟ مِنَ المعلوم أَنَّ دراساتٍ كثيرةٍ تناولتِ المَوضوعَ الخاصَّ بالاعتقادات الأَمَازِيغِيَّةِ القديمة، قبل أن يعتنقَ الأمازيغُ الإسلام، فلم تُشِرْ أَيُّ واحدةٍ منها إلى تقديس الأَمَازِيغِ لِصغار الدَّجاج، فيما أشارت إلى مَكانة الكَبْشِ والماعِزِ لديْهم.[1]

[1]- Germain (G) : "Le culte du bélier en Afrique du Nord" Héspéris. T.V =xxxv 1et2 tri. 1948.

الفصل الرابع

السَّكسيويون أُمراءُ الجبل في شيشاوةَ خلال (ق8هـ/ 14م)

أوَّلاً: قبيلة سكساوة في فترةِ حُكمِ الدَّولة المرينية:

قدَّم لنا ابْنُ خلدون قبيلة هَسْكُورَةَ على أنَّها أكثرُ قبائل المصامدة تابعاً، وأنَّها تنتمي إلى بَطْنٍ من بطون القبيلة الأُمِّ كَنْفِيسَةَ. ثُمَّ استعرض اسْمَ أحدِ أبرز أُمرائهم وهو عبدُ الواحد السَّكْسِيوِي، أَوْ ما يُعرفُ عند السَّكسيويين بِحَدُّو يُوسُف.[1] وهو ما جعل جاك بيرك يتناول هَسْكُورَةَ على أنَّها سَكْسِيوَةَ، بل بدَّل الاسمَ الأوَّلَ بالاسمِ الثَّاني، مُتصرِّفاً في نَصِّ ابن خلدون دون أَيِّ ملاحظة، أو لفت نظرٍ إلى ذلك.[2] وعلى العموم، يقدِّم لنا ابْنُ خلدون هذه القبيلة على أنَّها لم تَسْتَنْزِف قُوَاها في دعم دولة الموحِّدين، كما وقع لغيرِها من أفخاذ كَنْفِيسَةَ المجاورين لها، وإنَّما حظِيَت على العكس من ذلك، بِعِنايةٍ هامَّةٍ من لدن بني عبد المُؤْمِنِ (الموحِّدين). وهذه شهادةُ ابْنِ خلدون إذ يقول: *"وأمَّا هَسْكُورَةُ، وهم أكثرُ قبائلِ المَصامِدَةِ، وفيهم بطونٌ*

---

[1]– يوجد مَدْفَنُ شيخ قبيلة سكساوة خلال ق13 في مَحال تابع لسَكْسَاوَةَ، وهو يُعرفُ لدى سكَّان المنطقة بآيتْ حَدُّو يُوسُفْ. تُوفِّيَ عام (681هـ/1282م). دُفِنَ في الجبال الموجودة عن يَسار مَسلَك يُسمَّى تِيمزْكَادِيوِين على الطَّريق المؤدِّية من شيشاوة، عبر "إِيغِي نْ تَانُوتْ"، إلى أكادير.

[2]– أنظر ترجمة "جاك بيرك" لنَصِّ ابنِ خلدون: "سكساوة القديمة" ص387. وأيضاً، ابن خلدون: "العبر" الجزء 7 ص354.

كثيرةٌ أوسَعُها بطنُ هَسْكُورَةَ. وأمَّا سِواهُمْ من بطون كَنْفِيسَةَ فَأَنْفَقَتْهُمُ الدَّولةُ بِما تولَّوْا من مُشايَعَتِها، وإبرام عُقْدَتِها، فهَلَك رِجالاتُهُمْ في إنْفاقِها سُبُلَ الأُمَمِ قَبْلَهُمْ في دُوَلِهِمْ. وأمَّا هَسْكُورَةُ فكان لهم بين الموحِّدين مَكانٌ واعتزازٌ بكثرتِهم وغُلْبِهِمْ، إلاَّ أنَّهم كانوا من أهل بَدْوٍ ولم يُخالِطُوهُمْ في تَرفِهِمْ، ولا انْغَمَسُوا في نَعيمِهِمْ." ويتحدَّث المؤرِّخ نفسُه عَنِ المجال الجبلي الذي امتنعَ المصامدةُ بِقِمَمِهِ العالِيَةِ، وتكاثَروا فيه فاشتدَّت به شوكَتُهم.

ثانِياً: حَدُّو يُوسُفْ شيخ القبيلة:

يُقدِّم لنا ابن خلدون أميرَ سَكْسَاوَةَ في صِفَةٍ يَستطيعُ المرءُ أن يَستنبِطَ منها سُلوكاً مُتناقضاً مع ما عرَفَهُ الجنوبُ المغربي من ركودٍ سياسِيٍّ، خلالَ العصر المرينيِّ الأوَّلِ. ففي الوقت الذي ازدهرت فيه الحركةُ الثَّقافيةُ في شَمال المغرب، خصوصاً في العاصمة المرينيَّةِ فاس، أيَّامَ السُّلطان أبِي يوسفَ يعقوبٍ مَاهِدِ الدَّولة، وأبِي ثَابِتٍ، ثم أبِي سعيدٍ الأوَّل؛ نتيجةَ اهتمام هؤلاء بتشييد المَدارس، أو إقامة المجالس مع العُلماء والشُّعراء. كان الجنوبُ المغربي، وخصوصاً مُرَّاكُشَ، يعيشُ ضغطاً ضرائبيّاً أسهم فيه الهَنْتَاتِيُونَ، عُمَّالُ بني مرينَ على مُرَّاكُشَ وعلى أَحْوَازِهَا، مُستغلِّين إعراضَ حكَّام بني مرين عَنِ الاهتمام بالجنوب. لكنَّ الذي لفت انتباهَنا هو بروز حركةٍ ثقافيةٍ نشيطةٍ في الجنوب، بالرَّغم مِنَ التَّهميش الذي شَمل هذه الجهةِ مِنَ المغرب، تَمَثَّلت في بروز الرِّياضي والعَدَدِيِّ الكبير ابْنِ البنَّاء المُرَّاكُشِي، والشَّيْخِ محمَّدٍ الآبُلِّي المُفَضَّلِ لَدَى ابْنِ خلدون من بين كُلِّ مَنْ دَرَسَ عليْهم، وابْنِ

السَّكَّاكِ، وحَدُّو يوسف وأبنائِه في قبيلةِ سَكْسَاوَةَ الشِّيشَاوِيَةِ وحَفَدَتِهِ. ثُمَّ الهَرْمِيري شيْخِ ابْنِ البنَّاءِ، وأبي زكريَّا الحَاجِّي في حَاحَّا، وللاَّ عزيزة في سَكْسَاوَةَ، وقد تفرَّد هؤلاء الثَّلاثة بِتأسيسِهم لِمَا يُسمَّى بِنِظَامِ الطَّوائف في السُّلوك الصُّوفي. وتأتي شهادةُ ابن خلدون لِتُؤَكِّدَ على أَنَّ قبيلةَ سَكْسَاوَةَ قد شَكَّلَتِ اسْتثناءً وشُذُوذاً عن ذلك الرُّكود، خصوصاً بعد انصرام العصر المرينِيِّ الأوَّل.[1] أما فيما يتعلَّقُ بأميرِها، فإنَّ ابنَ خلدون يُقدِّمُه بوصفٍ مُثيرٍ جدّاً إذ يقول: *"وكانَ رَئِيسَهُمْ فِي ذِكْرِنَا بَعْدَ انْقِرَاضِ بني عَبْدِ المُؤْمِنِ* [الموحِّدين] *حَدُّو يُوسُف -وَحَرَّرُوا لِسَانَ الأَعْجَمِينَ- هُوَ عَبْدُ الوَاحِدِ، وَكَانَ لَهُ فِي الاِسْتِبْدَادِ وَالصَّرَامَةِ ذِكْرٌ. وَهَلَكَ سَنَةَ ثَمانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ* (680هـ/ 1282م). *وَكَانَ مُنْتحِلاً لِلْعِلْمِ، واعِيَةً لَهُ، جَمَّاعَةً لِكُتُبِهِ ودواوينِهِ، حافِظاً لِفُرُوعِ الفِقْهِ، يُقالُ إِنَّ المُدَوَّنَةَ كانت مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ، مُحِبّاً في الفلسفة، مُطالعاً لِكُتُبِهَا، حريصاً على نتائِجِهَا من عِلْمِ الكيمياء والسِّيمياء والسِّحْرِ والشَّعْوَذَةِ، مُطَّلِعاً على الشَّرائِعِ القديمةِ والكُتُبِ المُنَزَّلَةِ بِكُتُبِ التَّوْرَاةِ، ويُجالِسُ أَحْبَارَ اليَهُودِ حتَّى لَقَدِ اتُّهِمَ في عَقِيدَتِهِ وَرُمِيَ بِالرَّغْبَةِ عَنْ دِينِهِ."*[2] هكذا برز في قبيلةِ سَكْسَاوَةَ الشِّيشَاوِيَةِ أميرُها عبدُ الواحد، المشهور حالياً بِحَدُّو يُوسُف، والذي كان مُعاصراً للسُّلطان المريني أبِي يوسفَ يعقوب،

---

[1] – أنظر: محمَّد المنُّوني: "ورقات من الحضارة المغربية في عصر بني مرين". يقسِّمُ فيه العلاَّمَةُ المرحومُ العصرَ المريني الأوَّل على السَّلاطين: أبو يوسف يعقوب + ابنُه أبو يعقوب يوسف + أبو ثابت عامر + أبو الرَّبيع سليمان + أبو سعيدٍ الأوَّل. "كلية الآداب الرباط" ص196.

[2] – المصدر نفسُه، الجزء نفسه، ص 355.

قبل أن يتوفَّى حَدُّو عامَ (680هـ/ 1281-1282م). برز كَقُطْبٍ من أقطاب الثَّقافة المصمودية في جبال شِيشَاوَةَ، واهتمَّ، إلى جانب كونِه أميرَ قومه، بِمجموعةٍ مِنَ العلوم العقلية والدِّينية، وبالسِّحر والشَّعوذة، وجالسَ اليَهودَ.

ثالِثاً: عَامِرُ بْنُ حَدُّو المسمَّى أَكْلِّيدْ[1]:

أفادتنا نصوص ابنِ خلدون بالتَّأكُّد من أَنَّ جبالَ المَصَامِدَةِ كانت تَعُجُّ خلالَ هذه الفترة، بِأَهْلِ الذِّمَّةِ وبِأَحْبَارِهِمُ المُوكَلِينَ بِحِفْظِ تعاليمهم وتنظيمها. ولعلَّ ما يُبَيِّنُ أَنَّ أُمراءَ سَكْسَاوَةَ قد جمعوا بين القُوَّةِ والشَّجاعة اللاَّزميْن لِتَبَوُّإِ مَكانةِ الأمير في قبيلةٍ اشتدَّتْ شوكَتُها على السُّلطة المرينية القائمة، بل ولَمْ تَستهلِكها مُتطلَّباتُ الموحِّدين السَّابقين، وبين اهتمامِهِمُ الكبيرُ بالعلوم وحِرْصِهِمْ على تداوُلِها، ومُحاربةِ الغريب مِنها عن مدَارِكِهِم والتَّصدِّي له؛ ما كان مِنْ أمر الأميرِ السَّكْسِيوِي يومَ نصَّب نفسَه مُتصدِّياً لِدَعْوَةٍ ظهرت في السُّوس، نقل لنا ابْنُ خلدون بعضَ تفاصيلِها مُعتمداً على ما ساقَه له شيخُه المُفَضَّلُ الآبْلِّي مُحَمَّد قائلاً: *"أخبرني شيخُنا محمَّد بْنُ إبراهيم الآبْلِّي قال، خرج برباطِ ماسَّة لأوَّل المائةِ الثَّامنةِ وعَصْرِ السُّلطانِ يوسفَ بْنَ يعقوبٍ، رجلٌ من مُنتحلي التَّصوُّفِ يُعْرَفُ بِالتِّوْيزِرِي، نِسبةً إلى تُوزَرْ مُصَغَّراً، وادَّعى أَنَّهُ الفاطميُّ المُنتظَر. واتَّبعهُ الكثيرُ من أهل السُّوس، من ضَالَّتَه وكُنُزولَتَه. وعَظُمَ أمرُه وخافَه الرُّؤساءُ المصامِدَةُ على أَمْرِهِمْ، فَدَسَّ*

[1] - ومعناهُ "السُّلطانُ" في عَشيرتِه.

عليه السَّكْسِيوِي مَنْ قَتَلَهُ بَيَاناً وانْحَلَّ أَمْرُهُ." [1] والواقع أنَّنا كِدْنَا نَعجِزُ عَنِ التَّعريف بِأَيِّ أميرٍ من أُمراء سَكْسَاوَةَ يتعلَّقُ الأمرُ، لو لَمْ يَعُدِ ابْنُ خلدون إلى الحدَثِ نفسِه في كتابِه "العِبَرُ" لِيُسَجِّلَ: "وقد كان لأَوَّلِ هذه المِائَةِ خَرَجَ بالسُّوس رجلٌ مِنَ المتصوِّفةِ يُدعى التُّوبَذْرِي، عَمَدَ إلى مَسجِدِ مَاسَّةَ بساحِلِ البحر هناك، وزعم أَنَّه الفاطِمِيُّ المنتظَرُ تَلبيساً على العامَّة... فتهافتت عليه طوائفٌ من عامَّة البربر تَهافُت الفراش، ثُمَّ خَشِيَ رُؤَسَاؤُهُم اتِّساعَ نِطاق الفِتنة، فدسَّ إليه كبيرُ المصامدة يومئذٍ عُمَرُ السَّكْسِيوِي مَنْ قتلَه في فِراشه." [2]

وفي أيَّام السُّلطانِ أبِي ثابتٍ، خلالَ العصر المرينِيِّ الأوَّلِ، كان هذا الأخيرُ قد نصَّب ابْنَ عمِّهِ يوسف بن محمَّدِ بْنِ أبِي عبَّاد بْنِ عبد الحَقِّ عامِلاً على مُرَّاكُشَ ونواحيها. فسوَّلت لِهذا الأخيرِ نفسُه أن يستقِلَّ بأمْرِ مُرَّاكُشَ، وأَنْ يَدْعُوَ لِنفسِه سُلطاناً بدلاً عن سلطان فاس. ولَمَّا اتَّصل الخبرُ بأبِي ثابتٍ في فاس: "سَرَّح إليه وزيرَه يوسفَ بْنَ عيسى بْنِ السُّعود... ويعقوبَ بْنَ

---

[1] – ابن خلدون "المقدمة" ص409.

[2] – ابن خلدون "العبر" ج1 من دار الرشاد، ص22: للإشارة، لا نعرفُ على مَنِ الْتَبَسَ الأمرُ: أَعَلَى ابنِ خلدون المُعاصِرِ للأحداث وغَيْرِ المُعايِنِ لما جرى في الأطلس الكبير الغربي، المُكتفي فقط، بالرِّوايَةِ الشَّفويَّة؛ أَمْ على الباحثِ الفَرنسي حاك بيرك حول تحديده لهوية الأمير السكسيوي؟ إذ أكَّد هذا الأخير في فصلٍ من فصولِ سكساوة القديمة عنْوَنَه ب: « Les Rois thaumaturges » بأنَّ السكسيوي المَعني بالتَّصدِّي لتلك الدَّعوة هو عبدُ الله. فيما يؤكِّد ابنُ خلدون أنَّه عُمَرُ، أو عامرٌ كما هو معروف في سكسيوَةَ وليس عبد الله. أنظر مقال "سكساوة القديمة" للباحث نفسه. ص391.

آصْنَاكْ في خَمسةِ آلافِ فارسٍ، فساروا إلى مُرَّاكُش وهزموهُ" فلم يَجِدْ بُدّاً مِنَ الإلتجاءِ إلى الجبل. ولِضمان الاحتماء: *"فَرّ إلى جِبال هَسْكُورَةَ فنزل على كبيرها مَخلوفَ بْنَ هَنُّو الهَسْكُورِي... واستجارَ به فلم يُجِرْهُ على السُّلطان أبي ثابتٍ، بل قبض عليه مع ثمانيةٍ من كِبار أصحابه... فَقُتِلوا في مَصرعٍ واحدٍ... ثُمَّ أَثْخَنَ أبو ثابتٍ في كُلِّ مَنْ خاض معه في الفِتنة... ما يَنيفُ على السِّتِّمِائَةٍ، وصَلَبَهُمْ على سورٍ مِنْ باب الرُّبْ، أحدِ أبواب مُرَّاكُش، إلى بُرجِ الحُرَّةِ عَزُّونَةَ... وخرج مُنتصفَ شعبانَ إلى مُنَازَلَةِ السَّكْسِيوِي، وتَدويخِ جِهات مُرَّاكُش فنزل بِتَامَزْوَارْت وتلقّاهُ السَّكْسِيوِي بالبيعة والهَدِيَّةِ والضِّيافة، فَقَبِلَ السُّلطانُ ذاكَ منه... فانكفأَ راجعاً إلى مُرَّاكُش."* [1]

---

[1] – أحمد بن خالد النَّاصرى السَّلاوى: "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" ج3 ص93.
للإشارة، ورد في النَّصِّ ذِكْرُ بُرْجِ الحُرَّةِ عَزُّونَةَ في مُرَّاكُش؛ وهي صُدفةٌ غريبةٌ جداً، تُبيِّنُ إلى أىِّ حَدٍّ ارتبط تاريخُ شيشاوة بتاريخ مراكش. فبُرْجُ الحُرَّةِ عزُّونَةَ هو تابعٌ إلى درب الحُرَّةِ عَزُّونَةَ في حَوْمَةِ المُوقفْ في مرَّاكش. والرِّوايةُ الشَّفوية التي التقطها الانتروبولوجي "Brives" في سكساوة من أفواه السَّكساويِّين الأمازيغ، تُثبتُ بأنَّ للأعزيزة قد نزلت إلى مرَّاكش لتستقرَّ هناك في دارٍ اقتنتها بذلك الدَّرْب، فسُمِّيَ باسْمِها، وأنَّها سُمِّمَتْ هناك من لَدُنْ مَنْ كادوا لَهَا الكَيْدَ. فأوصت أن تُحمل وهي تُحتَضَرُ، على ظهر بغلتِها، وأن لا تُدفَنَ إلاَّ حيثُ تتوقفُ البغلةُ. خطَتِ الدَّابَّةُ حاملةً معَها الوليَّةَ للأعزيزة، من مراكش في اتِّجاه الجبل، ولم تتوقف إلاَّ في قَلْبِ سَكْسَاوَةَ في الجبل حيث دُفنت الوليَّةُ للاعزيزة هناك. على أنَّ عددَ الرُّؤوس التي عُلِّقَتْ مِنَ الباب: (باب الرُّب) إلى الدَّربِ المَذكور، قد بلغ 600 رأسٍ للثُّوار.

رابِعاً: عبد الله السَّكسيوي حفيد حدُّو:

يأتِي دورُ عبدِ الله السَّكْسِيوِي بِنِ عُمَرَ، أو عامِر، وحفيدِ عبدِ الواحِدِ، أو حَدُّو يُوسُف، ليؤكِّدَ أَنَّ الاهتمامَ بالعلوم، وكذا بالرِّئاسة (المَشْيَخَةِ) داخِل قبيلة سَكْسَاوَةَ كانا أمريْن مُتوازيَيْن. ولعلَّ خاصِّيةَ عبدِ الله السَّكسيوِي هذا، تكمُنُ في طول المدَّة التي بَقِيَ فيها أميراً على سَكْسَاوَةَ، إِذِ امتدَّت إلى أواخر عام (762هـ/ 1360-1361م). وإذا كان الأمرُ قَدِ الْتَبَسَ على ابنِ خلدون في كِتاب "العِبَر" أثناء تتبُّعِهِ لِتسلسل شجرة أُمراء سَكْسَاوَةَ، فإنَّ ذلك راجعٌ إلى عدم زِيارَتِهِ لِمُرَّاكُشَ وأحوازِها، سواءٌ السَّهليَّةَ منها، أَوِ الجبليَّة؛ -وهو شيءٌ نَأْسَفُ له- واكتفائِه بتحصيل بعض أخبار المصامدةِ بالرِّواية الشَّفويَّة فقط.[1] إذ قدَّم لنا عبدَ الله السَّكْسِيوِي على أَنَّهُ ابنُ عبدِ الوَاحِدِ، وإِنَّمَا الصَّوابُ أَنَّهُ حفيدُه، أي ابْنُ عُمَرَ السَّكْسِيوِي بْنِ حَدُّو. وهو يقول خَطَأً، بعد انتهائِهِ مِنْ تقديم عبد الواحد: *"ثُمَّ كان ابنُه عبدُ الله مُقتفياً سُنَنَ أبيه في ذلك، وخصوصاً في انْتِحال السِّحر والاِستِشرافِ إِلَى صَنعة الكيمياء."*[2]

---

[1]- ويُقَدِّمُ لنا ابن خلدون شهادةً في آخِرِ الأسطُرِ التي خَصَّ بها قبيلةَ سَكْسَاوَةَ قائلاً: "ثم خرج عليهم لأعوامَ مِنِ استقلاله ابْنُ عَمٍّ له من أهل بيته، لَمْ يُنْقَلْ لِي من تَعريفه إلاَّ أنَّ اسْمَهُ عبدُ الرَّحمن، لأنَّ ثورتَه كانت بعد رِحلَتِي الثَّانيةِ مِنَ المغرب 776هـ- 1377م، فأخبرَني الثِّقاةُ بأمره." ابن خلدون: "العِبَر"، ج6، ص356.

[2]- ابن خلدون "العبر" ج6، ص356.

غير أَنَّ ابْنَ خلدون، وإن لم يَتَحَدَّثْ عن دور هذه الإمارة (سَكْسَاوَةَ) في تنشيط الثَّقافة في شِيشَاوَةَ، فَإِنَّ المستوى العِلمي الذي قدَّم به الأُمراءَ الثَّلاثة الأوَائل، وكذا الفترة الزَّمنية الطَّويلة التي غطَّوْها أثناء حُكمِهِم للإمارة، ومَدِّ نفوذِهِمْ –مِنْ خِلالِها– على القبائل المجاورة، كافيان لِتوسيع الإشعاع الثَّقافي في المناطق الجبليَّة المذكورة إِبَّانَ العصر المرينيِّ الأوَّل، وما بَعْدَهُ. ولعلَّ ما يُؤكِّد ذلك هو إشارةُ صاحب "البَيَانِ المُغْرِبِ" إلى الْتِجاء أَميرٍ مُوحِّديٍّ إليها لِيحترفَ فيها مِهنةَ النِّسَاخَةِ، ويَعيشَ من دَخْلِهَا، وقد كان هو أبو زيدِ بْنُ الخليفة الموحِّدي عُمَرُ المُرتضى الذي استمرَّ بِقيْدِ الحياة إلى حدود عام (712هـ/ 1312م) أي: إلى ما بعدَ انْهِيار الدَّولة التي حكَمَها سَلَفُهُ، وقِيامِ الدَّولة المرينيَّة بِحوالِي أربعين عاماً، أو يَزيد. ويعود ابْنُ خلدون الذي خَصَّ المَصامدةَ بِحَيِّزٍ كبيرٍ مِنَ الاهتمام في جُزئِه السَّابع من كتابِ "العِبَر"، في طبعة دار الرَّشاد الحديثة، ليتحدَّثَ عن نفسِه، ونَشأتِه في الجزء الموالي بعباراتٍ سرعان ما استنتجنا منها ارتباطَ مَصيره، خاصَّةً التَّكويني، بالإشعاع الثَّقافي الذي كان لِهذه الإمارة ولِجيرانِها. فبعدَ أَنِ اسْتَعْرَضَ قائمةَ الأساتِذَةِ والشُّيوخ الذين أخذ عنهم بِتُونُسَ، يَنتقل إلى الحديث عَنِ الذين لَقَّنوه في المغرب، لِيقف وَقْفَةَ إِجلالٍ وتقديرٍ عند شيخه محمَّدٍ الآبُلِّي. فيذكُرُ أَنَّ هذا الأخيرَ لَمَّا فَرَّ من تِلمسانَ إلى المغرب: *"لَحِق بِمُرَّاكُشَ، ولازَمَ العالِمَ الشَّهيرَ أَبَا العَبَّاسِ بْنَ البَنَّاءِ، فحصَّل عنهُ سائر*

العلوم العَقْلِيَّةِ." [1] وبعد أن نَهل من علوم المعقول والتَّعاليم والحِكمة: *"صَعِدَ إلى جبل الهَسَاكِرَةِ بعد وفاة الشَّيخ* ابن البناء *باستدعاءٍ من عَلِيِّ بن محمَّدٍ بن تُرُوميت ليقرأَ عليْه، فأَفادَهُ. وبعد أعوامٍ اسْتَنْزَلَهُ مَلِكُ المغرب السُّلطانُ أبو السَّعيدِ، وأَسْكَنَهُ بالبلد الجديد والآبِّلِي معه"*.

هذا دليلٌ واضحٌ على أَنَّ الإشعاعَ الثَّقافِيَ الذي وضع لَبِنَاتِهِ عبدُ الواحِدِ السَّكْسِيوِي وحفيدُه عبدُ الله، سرعان ما اتَّسعَ فانتقلَ إلى مَصَامِدَةِ هَسْكُورَةَ، لِيَبْرُزَ فيهمُ العلاَّمَةُ والفقيهُ ابْنُ تَرُّومِيت، الذي تلقَّى العِلْمَ بين يَدَيْهِ أفضلُ شُيوخِ ابْنِ خلدون. ويُشير أبو زكريَّا يَحْيى بْنُ خلدون في كتابه "بُغْيَةُ الرُّوَادِ"، وبِكثيرٍ مِنَ الوُضوح، إلى أَنَّ الشَّيْخَ ابْنَ تَرُّومِيت: *"كان طَلاَّباً للعِلْمِ، جَمَّاعَةً لِكُتُبِهِ وهو الذي استدعى بَعْدَ عَامِ* (721هـ/ 1321م) *الإمامَ الآبِّلِي، فقرأ عليْه وأفادَ منه. كما أَنَّ الشَّيْخَ عَكَفَ في خِزانة تلميذِهِ على النَّظَرِ إلى أن فاقَ أهلَ زمانِهِ في العُلوم العقليَّة بأَسرِها."* حسب تعبير المصدرِ نفسِه.[2] ويُضيف عبد الرحمنُ بْنُ خلدون عَنِ ابن تَرُّومِيت لَمَّا كان في هَسْكُورَةَ قائلاً: *"واجتمعَ طلبةُ العِلْمِ هنالِكَ على الشَّيخ، فكثُرت إِفَادَتُهُ واستِفَادَتُهُ."* ونظراً للأهَمِّيَة التي كانت للفقيه المذكور أسرعَ الآبِّلِي إلى أن يَنهلَ من عِلمه في هَسْكُورَةَ مَوْطِنِهِ،[3] فأسرع السُّلطانُ المرينيُّ أبو سعيدٍ

---

[1] - ابن خلدون "العبر" ج7، ص513.

[2] – أبو زكريا يحي بن خلدون "بغية الرواد" ج1، ص57.

[3] – ابن خلدون "التعريف بابن خلدون وبرحلته شرقا وغربا"، ص36.

بِدَوْرِهِ، إلى استقدامِهما مَعاً، إلى حَضرة فاس. بل وخصَّه بِدارٍ للسُّكنى هناكَ، في فاس الجديد.[1]

ومِمَّا يوضِّح أَنَّ الإشعاعَ الفكري لِهذه المنطقة الجبلية غيرِ البعيدة عن أراضي شِيشَاوَةَ خلال (ق8هـ/ 14م) لم يتوقَّف عند هذا العَلاَّمَةِ الجليل، بل تعدَّاه إلى بروزِ فقيهٍ آخرَ يُدعى مُوسَى بْنُ بَمْوِيمَن، المُلَقَّبِ بِبُخَارِي المَغرب، الذي استمرَّ على قَيْدِ الحياة حتَّى عام (723هـ/ 1323م). إذ يَصفُه صاحبُ كتاب "دُرَّةِ الحِجَالِ"[2] بِأَنَّهُ: *"من أَحفظِ أهلِ زَمَانِهِ للفقهِ والأَثَرِ، فضلاً عَنِ ادِّعائِهِ للاجتهاد."* وإذا كان المَصامِدَةُ في جبال شِيشَاوَةَ قَدْ أَقلعوا بالثَّقافة في المنطقة مِنَ الجنوب المغربي خلال (ق8هـ/ 14م)، إلى درجة أَنَّهم كانوا يُمِدُّونَ مُرَّاكُشَ نفسَها وفاسَ بالعُلماء الأَجِلاَّءِ فإنَّهُم، إلى جانب ذلك كُلِّه، كانوا شَوْكَةً حادَّةً على سلاطين بني مَرين؛ مُستغلِّين بُعْدَ مَعاقِلِهِمُ الجبليَّة الحصينة عَنِ العاصمةِ فاس، الشَّيْءُ الذي دفع بالمرينيِّين أَنْ يُنَصِّبُوا الهَسْتَاتِيِّينَ عُمَّالاً لَهُمْ على مُرَّاكُشَ، وجُبَاةً للضَّرائب مِنْ مَعاقِلِ هؤلاء المصامدة.

---

[1] – ما أجمل أن يَخُصَّ السُّلطانُ عالماً بارزاً بِدارٍ للسُّكنى في مدينة لَمْ يَمُرَّ على تشييدها أكثر من أربعين عاماً؛ إذ شُيِّدَتْ فاس الجديد من لَدُنِ أبي يوسف يعقوب عام (674هـ/1275م)، أمَّا السُّلطانُ أبو السَّعيد عثمان الذى استدعى الفقيهَ ابنَ تَرُّومِيتْ إليها، فقد حكم بين عامي (710هـ/ 1310م-731هـ/1331م).

[2] – ابن القاضي "دُرَّةُ الحِجَالِ"، ص878. وانظر أيضا "جذوة الإقتباس في ذِكْرِ مَنْ حَلَّ مِنَ الأعلام بِمدينة فاس" الجزء الأوَّل، تحقيق عبد الوهَّاب بْنُ منصور، الرِّباط، 1973-1974.للمؤرخ نفسه ص365.

ولَمَّا استتبَّ الأَمْرُ للسُّلطان المريني أبِي الحسن، الذي حكم بين عامَي (731هـ/ 1331م)-(749هـ/ 1348م)، وتبيَّن أَنَّ السِّكْسِيوِيِّينَ قد سبق وخرجوا عن طاعة سَلَفِهِ من سلاطين بني مرين، وامتنعوا عن أَدَاءِ الضَّرائب إلى عُمَّالِهِمُ الهَنْتَاتِيِّينَ، انتظر السُّلطانُ المذكورُ إلى أن: *"فَرَغ مِنْ شأن أَخيه عُمَرُ،[1] وسكَّن فتنَةَ المغرب، ودَوَّخ أَقطارَه، وحَلَّ مُعْتَصَمَهُ بالعساكر. فقام بِمُحاصرة عبدِ الله السَّكْسِيوِي دون أن يَجِدَ هذا الأخيرُ من يُمِدُّهُ بالمساعدة لِفَكِّ الحِصار. إذ كان السُّلطان أبو الحسن قد تغلَّب على عَرَبِ السُّوسِ، ثُمَّ أنزلَ عُمَّالَهُ بالعساكر بين السَّكْسِيوِيِّينَ."* ولَمَّا وجد عبدُ الله نفسه مَعزولاً: *"لاَذَ مِنَ السُّلْطَانِ بطاعةٍ مَعروفةٍ رَهَنَ فيها ابنَه مُحَمَّد، واشترط للسُّلطان الهَدِيَّةَ والضِّيافَةَ، فتقبَّل منه ومَنَحَهُ جانبَ الرِّضى."* غير أَنَّ عبدَ الله السَّكسيوي لم يَحفَظْ للسُّلطان المريني أبي الحسن سابِقَتَه تلكَ، وانتظر هو بِدَوْرِهِ وقتاً، إلى أن: *"كانت نَكْبَةُ السُّلطانِ أبي الحسن بالقيروان عام* [749هـ/ 1348م]، *واضطرب المغربُ فتنَةً، وخَلاَ جَوُّ البِلاد المُراكُشِيَّةِ مِنَ المَشايخِ، اجتمع رَأْيُ المَلإِ مِنَ المَصامدةِ على النُّزول إلى مُرَّاكُش، وأَحْكموا عَقْدَ الاِتِّفاقِ بينَهم، وأَجْمَعُوا تَخْرِيبَها بَما كانت داراً للإمرة ولمُقَامِ الكتائِبِ المُجَمَّرَةِ."*

---

[1] – كان السُّلطان المريني أبو الحسن (731هـ/331م-749هـ /1348م) قد توجَّه إلى المغرب الأوسط لحصار تلمسان، ثم عاد إلى مراكش. بعد أن علم أبو الحسن بغَدْرِ أخيه عُمَرَ عاد إلى المغرب، فتتبَّعَهُ السُّلطانُ إلى أن حاصرَه بِسِجِلْمَاسَةَ، واقتحمها عليه في عام (734هـ-1334م)، وقَتَلَهُ.

يبدو أَنَّ السَّكْسِيوِيِّينَ كانوا يُكِنُّونَ عَدَاءً شديداً لِلْهَنْتَاتِيِّينَ عُمَّالِ بني مرين على مُرَّاكُشَ وعليْهِم، كما كانوا يُبَطِّنُونَ كَراهِيَّةً لِمُرَّاكُشَ، مَوْطِنِ إمارةِ أولئكَ الهنتاتيِّين، الذين أَثْقَلوا كاهِلَ القبائلِ الأمازيغيَّةِ بالضَّرائب. وتَظهرُ مَلامِح العَداء جَلِيَّةً - مِنْ خِلال اغتنامِهِمْ- فُرصةَ خُلُوِّ مُرَّاكُشَ مِنْ شيوخ هَنْتَاتَةَ الذين صَحِبُوا السُّلطانَ المريني في حِصاره لِتِلمسانَ وأَفْرِيقِيَّةَ، لِيُجمعوا أَمرَهُمْ على الإنْقِضاضِ عليها. ولعلَّ ما يُوضِّح أَنَّ السَّكسيوِيِّينَ كانوا أَشَدَّ المصامدة تَحاملاً وتَربُّصاً بِمُرَّاكُشَ، ما كان من زعيمِهم عبدِ الله السَّكْسِيوِي، إذ: *"ضَمِنَ هُوَ تَخريبَ المَساجِدِ لِتَجافيهِمْ عنها، فكانت مَذكورةً على الأَيام."* فما الذي حَمَلَ السَّكْسِيوِيِّينَ على العَزْمِ على تَخريب مُرَّاكُشَ؟!

لقد تَناقَلَ النَّاسُ خبرَ وفاةِ السُّلطانِ أبي الحسن المريني غَرَقاً في البحر المتوسِّط، حتَّى أَنَّ الشَّاعِرَ الكَفِيفَ الزَّرْهُونِي نَظَمَ في حَقِّ هذا الحدَثِ المُؤْلِمِ قصيدةً سَمَّاهَا مَلْعَبَة. فاغتنم ابنُ السُلطانِ أبي الحسن، وهو أَبُو عِنانُ، الفُرصةَ لِيستولِيَ على الحُكم في غياب أبيه، غير أَنَّهُ انشغل بِأمر ابْنِ أخيه مَنْصُور. فتصادم الطَّرفان بِتَازَى، وانْهَزَم خلالَ ذلك مَنْصُورُ ليُقتلَ مِنْ بَعْدُ في فاس الجديد. وبذلك استَبَّ الأمرُ لأبِي عِنان، في وقتٍ كان فيه والِدُهُ أبو الحسن قد خاض بِسُفُنِهِ في البحر المُحاذي لإفريقيَّةَ (تونس)، بِرَغْمِ هَيَجَانِهِ، بعد أن لَمْ يُطِق خذلانَ القبائِلِ العربيَّة، وحِصَارَ الحَفْصِيِّينَ له مُدَّةً مِنْ ثَمانيَّةَ عشرَ شهراً. وكان أن غَرِقَتْ جُلُّ سُفنِه، فيما نَجا بِبَعضِها في ثَغْرٍ مِنَ الجزائر، ومنه

زحف مع ابنِه أبي الفضل باتِّجاه سِجِلْمَاسَةَ. ولَمَّا علِم بِأمرِه ابنُه أبو عِنان المُنَصِّبُ لِنفسِه سُلطاناً في غِياب أبيه، طاردَه هناك، فانحاز أبو الحسن إلى مُرَّاكُشَ بعد أن تَحاذَلَ عنه عَرَبُ سُوَيْدٍ. ومن مُرَّاكُشَ اتَّجَهَ نحو أُمِّ الرَّبيع، وهناك أدركَه ابنُه حول الوادي عام (748هـ/ 1348م)، فانْهزم عسكرُ المِلك الشَّيخ، فلجأ إلى هَنْتَاتَةَ حيثُ اعتُقِلَ هُناك ومات عام (749هـ/ 1348م). أَمَّا ابنُه أبو الفضل فسرَّحه أخوه أبو عِنان إلى الأندلس، اعتقاداً منه بِأَنَّهُ قد تَخلَّص منه.

اسْتَعْرَضْنَا هذه الأحداث الدَّامية لِنبيِّن إلى أَيِّ حَدٍّ انشغلتِ السُّلطة المركزيَّةُ بِمَشاكِلها الخاصَّة بالحكم، ففسحَت بذلك المجالَ لِعَبْدِ الله السَّكْسِيوِي، ولِتابعيه مِنَ المصامدةِ، أَنْ يُفكِّروا في جَمْعِ كَلِمتِهم على النُّزول مِنْ مَعاقلهمُ الجبليَّة الشِّيشَاوِية إلى مُرَّاكُشَ لِتَخريبها، بعد أن فطِنوا إلى خُلُوِّها من أُمراء هَنْتَاتَةَ المنشغلين عنهم بِمساندة أبي الحسن في حِصاره لِتِلمسان، وزحفه على أَفْرِيقِيَّةَ (تونس). ولِخُلُوِّهَا أيضاً، مِمَّنْ يُدافع عنها، بِسبب اسْتِنْفَارِ السُّلطان وابنِه المتنازعيْن للقُوَى التي كانت تَعْمُرُهَا. ويبدو أَنَّ عبدَ الله لَمْ يُسْرِع، والحمدُ لله، إلى تنفيذ ما كان عازماً عليه، وهو تَخريبُ مُرَّاكُشَ وهدمُ مَساجِدِها. إذ يذكُرُ ابْنُ خلدون أَنَّهُ سرعانَ ما: *"انْحَلَّ عَزمُهم، وافتَرَقَتْ جَماعَتُهم، وكَلِمتُهم بِمَا كان مِن اسْتقامَةِ الدَّولةِ بِفَاسَ، واجتماعِ بني مَرينَ على السُّلطان أبي عِنان... فانْحَجَرَ كُلٌّ منهم بِوِجَارِهِ."*

وفي أَيَّام حُكم السُّلطان المريني الجديد أبي عِنان، الذي دام بين عامَي (749هـ/ 1348م)-(759هـ/ 1358م)، بَرَقَتْ بارِقةٌ لِاستِعادة وحدةِ المغرب،

فبادر أبو عِنانٍ إلى استرجاعِ تِلمسانَ وبِجَايَةَ في أوَّلِ سنة (754هـ/ 1353م). كما اهتمَّ بِشُؤُونِ الأندلسِ، بِإرسالِهِ إعانةً إلى المُجاهدين، بل وأَرسلَ إثْرَ ذلكَ، أخويْهِ أبَا الفضل وأبا سالمٍ للإشراف على العمليَّات الحربيَّة، ظَنّاً منه أنه سيتخلَّصُ مِنهُما. غير أَنَّهُ ندِم على فِعْلِ ذلك. ولَمَّا عزم على استقدامِهما مِنْ جديدٍ، إلى المغرب أَبَى أبو الحَجَّاجِ، أميرُ غرناطةَ في الأندلس، إلاَّ أن يَتْرُكَهُمَا تحت حِمايته، خوفاً عليهِما مِنْ بطش أبِي عِنان. بل ذهب إلى أبعدَ مِنِ ذلك، إذ طلب مِنْ مَلِكِ قَشْتَالَةَ أن يُساعدَ أبا الفضل بِأُسطولٍ يُمَكِّنُهُ مِنْ فرض نفسِه سُلطاناً على المغرب، عِوَضَ أبِي عِنان. وعن هذه التَّفاصيلِ يُسعفُنا ابْنُ خلدون بِمَعلوماتٍ يقولُ فيها: *" ولَمَّا فَرَغَ أَبو عِنان مِنْ شأنِ أبيه واستولى على المغرب الأوسط، وغَلَبَ عليه بَنُو عبدِ الوَادِ. ولَحِقَ أخوه أبو الفضل مِنْ مَطْرَحِ اغترابِهِ في الأندلس بالطَّاعة يَوْمَ يُرُومُ الإِجازَةَ إلى المغرب، لِطلب حَقِّهِ. فأركَبَهُ السَّفيرُ إلى مَراحِلِ السُّوسِ، فنزل به."* [1]

[1]– ابن خلدون، ج6، ص355.

الباب الثالث

شيشاوة في فترة حُكْمِ المرينيِّين

(656هـ/ 1258م)-(823هـ/ 1420م)

الفصل الأول:

القَاهِرَةُ مدينةٌ سَكْسِوِيَّةٌ في شِيشَاوَةَ: (القِهْرَا)

الفصل الثاني:

للاعزيزة أشهر أولياء سكساوة منذ المرينيين

الفصل الثالث:

شيشـــاوة إبَّانَ الحكم السَّعدي

الفصل الأوَّل

القَاهِرَةُ مدينةٌ سَكْسِوِيَّةٌ في شِيشَاوَةَ: (القِهْرَا)

أوَّلاً: حول التَّشييدِ والمُشَيِّدِ الشَّرعي:

تستوقفُنا مُلاحظةٌ لابُدَّ أَنْ نُقدِّمَها في شكل تساؤلاتٍ؛ لماذا فضَّلَتِ السَّفينةُ القَشْتَالِيَّةُ التي أَقَلَّتِ الأميرَ المريني أبَا الفَضلِ مِنَ الأندلسِ، أن تَرْسُوَ به على ساحلِ السُّوسِ بالضَّبْط؟ مع العِلمِ أَنَّ السَّواحِلَ المُنفتحةَ على البحر المحيط تَنتَشِرُ على طولِها مَجموعةٌ مِنَ الثُّغور والموانئ المُؤهَّلَةِ لاستقبال سفينتِهِ، كثغور الشَّمال بِمُحاذاة قبائل اغْمَارَةَ. وهل كان أُولئكَ النَّصارى القشالِيِّين الذين حرَّضوا الأميرَ أبا الفَضلِ ضِدَّ أخيه أبِي عنان، على عِلْمٍ بامتناع إِمَارَةِ سَكْسَاوَةَ عَنِ السُّلطةِ المرينيَّة بسببِ بُعدِها عن عاصمتهم فَاسَ، أو لِتَحَصُّنِهَا بِمَعاقِلِها في الأطلس، لكي يَحْرِصُوا على أن يَتَوَغَّلَ أبو الفضل مِنْ ساحِلِ سُوس إلى تلكَ الإمارةِ الأمازيغيَّة؟ كيفما كان الحالُ، فابْنُ خلدون يُؤَكِّدُ لنا أَنَّ أبا الفضل هذا قد: *"لَحِقَ بِعَبْدِ الله السَّكْسِيوِي، فآوَاهُ هذا الأخيرُ، وظاهَرَهُ على أَمْرِهِ. فجَرَّد أبو عِنان العَزائِمَ إلى السَّكسيوِّيين، وعَقَدَ لِوَزِيرِهِ فَارِسُ بْنُ مَيْمُونُ بْنِ وَادْرَارْ على حربِهم"* .

غير أَنَّ السُّلطانَ أبا عِنان ضاق ذَرْعاً بتوالي ثورات السَّكْسِيوِيِّينَ منذ فترات حُكم سَلَفِهِ، وتَماديهم في عِصيانِهم بِإيوائهم لِمُنافسيه في الحكم، كأبي الفضل بْنِ أبي الحسن. فغيَّر طريقةَ إخضاعِهِمْ مِنَ الاعتماد على عُمَّالِهِ الهَنْتَاتِيِّينَ بِمُرَّاكُشَ إلى اقتِحَامِ حِصنِهِمُ الجَبَلِيِّ عليهِمْ بِأَعْدَادَ هائِلَةٍ مِنَ المُقاتلين. فعيَّن لأجل ذلك وزيرَه الذي –على حَدِّ قول ابن خلدون–: *"اسْتَخْرَجَ جُيُوشَ المغرب، وأَنَاخَ بِسَاحته سنةَ أَرْبَعٍ وخَمسينَ وسَبْعِمِائَةٍ (754هـ/1353م)، واختطَّ بِسفْح جَبَلِهِ مَدينةً لحِصارِهِ سَمَّاها القَاهِرَة، عام 755هـ/1354م."*[1] يُستفادُ مِنَ النَّصِّ أَنَّ أبا عِنان أوصى وزيرَه باسْتِنْفَارِ الجيوش، وهو ما يُوضِّحُ وَعْيَ السُّلطة المركزية في فاس باشتداد شوكةِ السَّكْسِيوِيِّينَ عليهم. يُستفادُ أيضاً، أَنَّ وزيرَ السُّلطان قد عَزَمَ على أن يُناوِشَهُمْ من مَجالاتِهِمُ القريبةِ منهم – مِنْ خِلال– تشييدِهِ لِلْقَاهِرَةِ: هذه المدينةُ الشِّيشَاوِيَّةُ الوَسِيطِيَّةُ التي قال عنها جَاكْ بِيرْكْ: *"بِرَغْمِ صُعوبة اختيارِ مَوْضِعٍ مِنَ المَواضِعِ التي تَتَشَابَهُ وَسَطَ البقايا المرينِيَّةِ في هذه الجبال الشِّيشَاوِيَّةِ، فَإِنَّ مُخَيِّلَتَنَا تأبى إلاَّ أَنْ تَختارَ على هذا المِهْمَازِ المُنحَدِرِ بِطَبَقَاتٍ*

---

[1] – ابن خلدون "العبر" ج6- ص355. يُلاحَظُ أَنَّ ابنَ خلدون ذكر بِأَنَّ فارس بْنَ مَيمون قد أناخَ بِسَفْحِ جبل السَّكسيوى في سنة أربع وخمسين وستمائة، حسب طبعةٍ تحقَّقْتُ مِنَ السَّنَةِ المذكورةِ خَطَأً. غير أن الصَّوَابَ هو أربع وخمسين وسبعمائة، كما هو مُثبتٌ في النُّسخة اللُّبنانية من كتاب العِبَرِ. لأنَّ السَّنَةَ الأولى تُحيلُنا على بداية حكم الدَّولة المرينية، والتي تبعد عن فترة حكم أبي عنان بقرن من الزَّمان.

عَمُودِيَّةٍ تُطِلُّ بِسَهْمِهَا على جَرَيانِ الوَادِي الحامِلِ لِاسْمِهَا القِهْرَا، عِنْدَ التِقاء سَيْلٍ مِنَ الماء بِسُيولِ آيت لحْسَن حيثُ توجدُ شَمالَ أَعرافِ جَبَلِ إِيْرْكُوس. وهي وضعيَّةٌ مُحَصَّنَةٌ تركت في أذهان سُكَّانِ المَنطقة إِحساساً مَرِيراً، من جَرَّاء الضَّربات التي أَلْحَقَهُمْ بِها تشييدُها هناكَ" [1].

كان لِتَشييدِ هذه المدينة بالقُرب من مَعاقِلِ الإِمَارَةِ السَّكْسِيوِيَّةِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ النَّتائِج؛ فَمِنْ جِهَةٍ قَطَعَتِ المَسالكَ بين مَعاقِلِ السَّكْسِيوِيِّينَ المُتاخِمَةِ للجبال، إِذْ شُيِّدَتْ على مُنحدرٍ مُمْتَنِعٍ فوق هضبةٍ وَعْرَةٍ بالقُرب مِنِ اسْتِدَارَةِ الوَادِي، الذي حَمَلَ اسْمَهَا فيما بَعْدُ (وَادِي القِهْرَا)، فَغَدَتْ صَعبةَ الاِخْتِرَاقِ، ومَنَعَتِ السَّكْسِيوِيِّينَ مِنَ النُّزول إلى دِيرِ الجِبال، إِمَّا بالقُرب مِنْ إِيمِي نْ تَانُوتْ الحاليَّة، وإِمَّا باتِّجاه ما بَقِيَ مِنَ السُّهول الشِّيشَاوِيَّةِ. وبذلِكَ حاصَرَتْ عبدَ الله السَّكْسِيوِي بِشَكْلٍ عبَّرَ عنه ابْنُ خلدون بالقول: *"وَأَخَذَتْ بِمِخْنَقِهِ، وزاحَمَتْ بِمَناكِبِهَا أركانَ مَعْقِلِهِ، حتَّى لاَذَتْ للسِّلْمِ،*

---

[1] – جاك بيرك في المقال نفسه ص394. مِنَ المعلوم أَنَّ المَوضِعَ الَّذى عيَّنَهُ وزيرُ السُّلطان المريني لتشييد مدينة القاهرة يوجد في قلب جبل سكساوة، بالقرب من قلعة إِلُّودْجَانْ إلى اليسار من إِيمِي نْ تَانُوتْ، بعد التوغُّلِ في الجبل انطلاقاً من دْوِيرَانْ. يتماشى مع الشروط التي وضعها ابنُ خلدون للمُولَعِينَ بتشييد المدن والتَّحصينات في العصر الوسيط، فيقول: "تُبْنَى في مُمْتَنَعٍ مِنَ الأمكنة، إِمَّا على هضبةٍ مُتَوَعِّرَةٍ مِنَ الجبل، وإِمَّا باستدارة نَهْرٍ بها، حتَّى لا يُوصَلَ إليها إلاَّ بَعْدَ العُبور على جِسْرٍ، أو قنطرةٍ، فيصعُبُ مَنالُها على العَدُوِّ، ويتضاعَفُ امتناعُها وحِصنُها." ابن خلدون "المقدمة"، ص132.

واشترط أَنْ يَنْبُذَ العهدَ إلى أبي الفضل المَصْرِيِّ عندَه يَذْهَبُ حيثُ يَشاءُ، فَتَقَبَّلَ منه، وعقَد له سِلْماً على عادته، وأفرجَ عنه." ومِنْ جِهَةٍ ثانيَةٍ، إِنْ كان عبدُ الله السَّكْسِيوِي قد فَكَّ الحِصارَ المرينيَّ عنه بِمُداخلَتِهِ للسُّلطانِ المريني أبِي عنان، وإِلقائِه المَعاذيرَ بين يدي وزيرِه فارس، كما فَعَلَ مع السُّلطانِ المخلوع أبِي الحسن، فَإِنَّ المدينةَ المُشيَّدةَ قد جَرَّتْ عليه فيما بَعْدُ، النَّكباتِ التي لَمْ تكن في حُسْبانِه.

كان لابُدَّ مِنْ أَنْ تقومَ القَاهِرَةُ بالوظيفة نفسِها التي أُنِيطَتْ بِهَا مُرَّاكُشُ قبلَها،[1] منذ أَنْ شُيِّدَتْ من لدن الوزير المريني فَارِسِ بْنِ مَيْمُونٍ بْنِ وَادْرَار عَامَ (754هـ/ 1353م). إذ باتت ثانِي مَدينةٍ تَصِلُ إليها كَتَائِبُ الهَنْتَاتِيِّينَ مِنْ مُرَّاكُشَ لإِرغامِ السَّكْسِيوِيِّينَ على دفع الضَّرائب. ولْنُورِد نَصَّ النَّاصِرِي الذي اعتمد على ابْنِ خلدون، إِذْ يُسعفنا بِمعلوماتٍ حول تاريخ التَّشييد فيقول: *"ولَمَّا نزل أبو الفَضْلِ بِساحلِ السُّوسِ، لَحِقَ بِعَبْدِ الله السَّكْسِيوِي، صاحِبِ الجَبَلِ المَنسوبِ إليه، ودَعَا لِنَفْسِهِ، وكان ذلك سنة أربعٍ وخمسينَ*

---

[1] – للإشارة، فقد نتج عَنِ الوظيفة التي قام بها الهنتاتيون انطلاقاً مِنَ القاهرة، في حَقِّ السَّكسيويِّين، والمتمثِّلة في جِبايَة الضَّرائب، والتَّنكيل بِمَنْ يَمْتَنِعُ عن أدائها. نتج عن كُلِّ ذلك أن تسكَّعَ مَثَلٌ شائعٌ في المنطقة ووصل صداهُ إلى مُرَّاكُشَ نفسها. يقولُ "إِوَا قْبَطُوهْ وشْبَعُو بَابَاهْ هَنْتَاتِي" للدِّلالة على ثُلَّة خاصَّة من رجال الأمن لَمَّا يُوسعُونَ مُشتَبَهاً به ضرباً وتعذيباً. ولذا باتت طريقةُ الهنتاتيِّين في الأَخْذ بِزِمام أمور الرَّعيَّة تُصَنَّفُهُمْ كَأَوَّلِ مَنْ أسَّس للنِّظام القَيْدَوِيِّ في المغرب، بِحَبَرُوتِ هذا النِّظامِ وشَطَطِهِ وتَجَاوُزَاتِه.

وسَبْعِمِائَة (754هـ/ 1353م). *فجهَّز السُّلطانُ أبو عنان إليهِ عَساكِرَهُ مِنْ تِلِمسانَ، وعَقَدَ على حَرْبِ السَّكْسِيوِي، وأبِي الفضل، لِوَزِيرِهِ فَارِسِ بْنِ مَيْمُونِ بْنِ وَادْرَار. فسار حتَّى نزل على جبل السَّكْسِيوِي، وأحاط به، وأخذ بِمِخْنَقِهِ، واختطَّ مَدينةً لُمعسكَرِهِ وتَجمِيرِ كتائِبِه بِسَفْحِ ذلكَ الجبل سَمَّاها القاهرة."*[1] والواقعُ أَنَّ المَرينيِّين، منذ أن شيَّدوا مَدينَتَهُمْ تلك، بَسَطُوا أَيديَهم بِوَسَاطَةِ الهَنْتَاتِيِّينَ على خيْراتِ شِيشَاوَةَ وما إليها. إذ ما إن شُيِّدَتِ القَاهِرَةُ حتَّى نَصَّبَ أبو عِنان عامراً بْنَ محمَّدٍ الهَنْتَاتِي وَالِياً على مُرَّاكُشَ، يَنطلق منها حيثُ يشاءُ، بِاتِّجاه المدينةِ الجديدةِ في الجبل الشِّيشاوي، كُلَّمَا أراد أن يُكَسِّرَ شَوْكَةَ أهلِها المصامدةِ، أو يُحَصِّلَ الضَّرائبَ منهم. وفي ذلكَ يقولُ ابنُ خلدون: *"ثُمَّ عَقَدَ له على جِبَايَةِ المَصامِدَةِ سنةَ أربعٍ وخمسين، وبعثَهُ لَها مِنْ تِلِمسانَ، فاضطلع بِهذه الوِلاَيَةِ، وأحسنَ الغِناءَ فيها، والكِفَايَةَ علَيْها، حتَّى كان السُّلطانُ أبو عِنان يقول: وَدِدْتُ لو أَصَبْتُ رَجُلاً يَكفيني نَاصِيَةَ الشَّرقِ مِنْ سُلطاني كما كَفاني عامرُ بْنُ محمَّدٍ ناصيَةَ الغرب وأَتَوَرَّعُ"*

– ما كان أبو عِنان لِيَلتَفِظَ بِهذا التَّصريح لو لَمْ يتمكَّن عامرُ بْنُ محمَّدٍ الهَنْتَاتِي مِنْ تَحقيق الأمن والاستقرار، ولو لِفترةٍ، بِجبالِ الأطلس الكبير الغربي، ومنها جبالِ شِيشَاوَةَ الآهلةِ بِالسَّكْسِيوِيِّينَ خلالَ تلكَ الفترةِ.

---

[1] – الناصري "الاستقصاء"، ج3- ص190.

– ما كان لِعامرٍ أن يتمكَّنَ من كَسْرِ شوْكةِ سَكْسِيوَةَ لو لَمْ يُشيِّد فارسُ بْنُ مَيْمُونُ مدينةَ القاهِرةِ، التي ضَيَّقَتْ عليهمُ الخِناقَ، وصَرَفَتْهُمْ عَنِ التَّشوُّفِ إلى عُمرانِ مُرَّاكُشَ ومَسَاجِدِهَا.[1]

– ما كان السُّلطان أبو عِنان لِيَسْتَأْصِلَ شَأْفَةَ ثُوارِ السُّوسِ، لو لَمْ يُحكِمْ وزيرُه فارسٌ، قبضَتَهُ على السَّكْسِيوِّينَ، ويَجعَلِ القَاهِرَةَ رِكَاباً لِمَا بعدَ الجِبالِ السَّكْسِيوِيَّةِ. ولعلَّ في نَصِّ النَّاصري ما يَكفي لِتوضيحِ ذلك، إذ يقول:" *ودخلَ الوزيرُ فارسُ أَرْضَ السُّوسِ، فَدَوَّخَ أقطارَها، ومَهَّدَ أكنافَها، وسارَتِ الأَلْوِيَةُ والجيوشُ في جهاتِها، ورتَّبَ العَساكِرَ في ثُغورِها، وأمصارِها*"[2].

هكذا سادَ بين سنة (754هـ/ 1353م): تاريخِ تشييدِ فارسِ بْنِ ميمونِ بْنِ وَادْرَار للقاهرةِ، وسنةِ (762هـ/ 1361م): وهي السَّنَةُ التي انتهت فيها إِمْرَةُ عبدِ الله السَّكْسِيوِي، وانتهى فيها حكمُ السُّلطان المريني أبِي سالِمٍ؛ ساد بين هذيْن التَّاريخَيْنِ استقرارٌ وهدوءٌ، عُمِّرَتْ –خِلالَهُ– مدينةُ القاهرة، إذ بُنِيَ فيها مَسجِدٌ جمع بين مُمارسَةِ الشَّعائِرِ الإِسلاميَّةِ، ومُمارسة القضاء. وإذا كانتِ الأَبْحَاثُ الأَرْخِيُولُوجِيَّةُ قد أَمْسَكَتْ -إلى حَدِّ الآن- عَنِ الكَشْفِ والتَّنقيب عَنْ أَنقاضِهِ، فَإِنَّ لِسَانَ الدِّينِ بْنِ الخَطيبِ قد ترك لنا ما يُزَكِّي هذا

---

[1] – للإشارة فقد تعدَّى صيتُ القاهرة مَجالات شيشاوة، ولاكَتْهَا الألسنَةُ كلَّما بلغ التوتُّر بأصحابِها مبلَغَهُ. إذ أَلِفَ الرَّجلُ أن يقولَ لمَنْ أثارَ غضبَهُ: "سيرْ كاعْ أَنْتَ لَلْقهْرَا". وإذا ظنَّ البعضُ بأنَّ القاهرةَ يُراد بها قاهرةُ المُعزِّ في مصر، فذلك خطأٌ. لأنَّه إنَّما يُراد بها قاهرة سكْساوةَ الشِّيشَاوِيةِ التي شُبِّهَتْ من لدُن سكَّان المنطقة بالجحيم، لِمَا سببته من مُضايقاتٍ وحصاراتٍ للسكْسيويين.

[2] – الناصري "الاستقصا" ج3، ص191.

القولَ. ففي مَعْرِضِ حديثِه عَنِ الشُّيُوخِ الأفاضِل الذين لَقِيَهُمْ، أو سَمِعَ عنهم خِلالَ مُقَامِهِ في المغربِ، يقولُ: *"كالقاضي الشَّيْخِ الفقيهِ، الحاجِّ، البادي القَشْفِ والسَّذاجَةِ أبِي بَكْرٍ عُثْمَانَ بْنِ صَالِحٍ المَسَّراتِي، المُرَاكُشِيِّ النَّشْأَةِ...حَجَّ أَربَعٍ وثلاثينَ وسَبْعِمِائَةٍ، وَوُلِّيَ القَضَاءَ بِقَصْرِ كُتَامَةَ، وَحِصْنِ القَاهِرَةِ، وآزْمُورْ، وَأَنْفَا"* [1] فالمساجِدُ لَعِبت دوراً هامّاً في بَثِّ العِلمِ ونشرِهِ، إذ كانت منذ القديم هي عَيْنُ المَدارِسِ، تُعقَدُ فيها حلقاتٌ ومَجالِسُ عِلمِيَّةٌ، ويتردَّدُ عليها الطُّلاَّبُ من كُلِّ حدبٍ لِيَنْهَلُوا من مَناهِلِ العِرفان الصَّافيَّة، ويأخذوا عن عُلماء وأئِمَّةٍ. هكذا ساد الأمنُ في جبال سَكْسَاوَةَ الشِّيشاويَّة مدَّةً تزيدُ عن ثَمانيَّةِ أعوامٍ، كانت خلالَها القاهرةُ دارَ القضاء للبتِّ في الخلافات التي تَحدُثُ بين السَّكْسِيوِيِّينَ، وربَّما بينَهم وبين باقي سكَّان شِيشَاوَةَ في ذلك الزَّمن من (ق8هـ/ 14م).

ثانِياً: محمَّدٌ السَّكسيوي الملقَّبُ بِأَيْزِمْ:

يبدو أَنَّ الأمور قد تبدَّلَتْ مع حلول عام (762هـ/ 1361م)؛ إذ سُرعانَ ما أثار محمَّدٌ السَّكْسِيوِي فِتنةً ضِدَّ أبيهِ عبد الله، أسعفنا عنها ابن خلدون بِمعلوماتٍ قائلاً: *"وخرج على عبدِ الله السَّكْسِيوِي لأيامِ السُّلطان أبِي سالمٍ ابْنُه محمَّدٌ المَعروفُ في لُغَتِهِمْ أَيْزِمْ، ومعناه الأسد."* ولَمَّا هَزَمَ محمَّدٌ هذا أباهُ عبدَ الله، التجأَ هذا الأخيرُ إلى مُرَّاكُشَ حيثُ: *"عامِرُ بْنُ محمَّدٍ الهنتاتِي كبيرُ المصامدة لِعهده، وعاملُ السُّلطان عليهِم، فَاسْتَجَاشَ به ووعدَهُ*

[1] – لسان الدين بن الخطيب "نُفَاضَةُ الجِرَابِ في عُلاَلَةِ الاغْتِرَابِ"، ص79.

عامرُ النُّصْرَةَ، وأمهَلَهُ عاماً ونِصْفَهُ، حتَّى وَفَدَ على السُّلطان، واسْتَوْهَبَ في ذلك." كان لابُدَّ لِعامرِ بْنِ محمَّدٍ هذا أن يُمهِلَ عبدَ الله السَّكْسِيوِي عاماً ونصفٍ، إلى أن يُحيطَ عِلماً سُلطانَ فَاسَ أبا سالِمٍ بِحاجَةِ عبدِ الله المُلِحَّةِ إلى الإِعانةِ لاسترجاع إمارة سَكْسَاوَةَ مِنِ ابْنِهِ المُستَبِدِّ بِهَا.

وهنا تستوقِفُنَا مُلاحظاتٌ: - أَلِفْنَا مِنْ عبد الله السَّكْسِيوِي أن يتصرَّف بِلباقةٍ مع سلاطين بني مرين، إِذِ استطاع من قَبْلُ، أن يَفُكَّ كُلَّ أشكالِ الحِصارِ التي ضربوها عليه خلال إِمْرَتِهِ الطَّويلة، إِمَّا بِمُداخَلَتِهِمْ، أو بتقديم ابنِه رَهينةً، أو بِإِلقائِه المَعاذِيرَ بين أَيديهِمْ لِمُماطَلَتِهِمْ.

- أَسفرتِ السَّنةُ والنِّصفُ التي أَطْلَعَ خِلالَها، عامرُ بْنُ محمَّدٍ الهنتاتِي السُّلطانَ أبا سالِمٍ على مُراد عبدِ الله، عَنْ تلبيَّةِ السُّلطان لِمطالِب السَّكْسِيوِي. ويُرجَّحُ أَنَّ ذلكَ لم يَتِمَّ إلاَّ بعد الاِتِّفاق على تنازلاتٍ، أو تعهُّداتٍ. وهو ما يقع عادةً، في مِثْلِ هذه الأحداث. غير أَنَّ الكِتاباتِ المُعاصِرةِ لَها واللاَّحِقة سكتت عن ذلك؟! وعلى العموم، فقدِ انْتَهت مُهْلَةُ السَّنَةِ والنِّصفِ بِقَبُولِ السُّلطان المريني إِمدادَ عامِله عامرٍ لِعبد الله السَّكْسِيوِي بالإِعانة. وفي ذلك يقول ابنُ خلدون: *"ثُمَّ أجمع على نَصْرِهِ من عَدُوِّهِ، فجمع له النَّاسَ، وخاطَبَ أَهْلَ وِلايَتِهِ أن يَكونَ معه يَداً. وزحف عبدُ الله حتَّى نزل بالقَاهِرَةِ، وأخذ بِمِخْنَقِ ابنِهِ وأشياعِهِ. ثُمَّ داخلَه بعضُ بِطانَتِهِ، ودلَّه على بعضِ العَوراتِ اقْتَحَمَ مِنها الجَبَلَ، وثاروا بِابْنِهِ أَيْزَمْ، فصاح به عبدُ الله وقومُه.*

وقَرّ محمَّدٌ أمامَهُمْ فَأُدْرِكَ بِتَلاَّسَفْ من نواحي الجبلِ وقُتِلَ، واسترجَعَ عبدُ الله مُلْكَهُ، واسْتَقَلَّتْ قَدَمُهُ." [1]

هكذا استوتِ الأمورُ لِعَبْدِ الله من جديدٍ، في زَمَنِ حكم السُّلطان أبِي سالِمٍ، غير أَنَّ هذِه الفترة التي كان فيها السَّلاطينُ المَرِينِيُّونَ ضحيَّةً لِاستبدادِ وُزرائِهِم بالحُكْمِ، وتَنَوُّعِ سِعاياتِهم، واختلافِ دَسائِسِهِمْ؛ كانت ذاتَ تأثيرٍ على إِمْرَةِ عبدِ الله السَّكْسِيوِي. فَبِحَضْرَةِ فَاسَ حَلَّتِ النَّكبةُ بالسُّلطان أبِي سالِمٍ بِسبب تفضيلِه لِوزيرِه وحاجِبِهِ أبِي عبدِ الله بْنِ مَرْزُوقٍ، إلى درجة أَنَّهُ صار لا يقطَع في شيءٍ إلاَّ من رَأْيِهِ، فأثار ذلكَ نِقمةَ الحاشيَّة عليه، وانضمَّ إليهم شُيوخُ بعضِ القبائل، فَأَعْرَضُوا عن أداء المَغارِم حتَّى أنَّهم تَوَلَّوْا مُعرِضينَ عن فِلاحةِ الأرض، وتربَّصوا به الدَّوائِرَ. كُلُّ هذا والسُّلطانُ مَشغولٌ عنهُم بِدِراسةِ العلوم الفَلَكِيَّةِ، والعَمَلِ بِآلَةِ الإِسْطُرْلاَبِ مع طبيب قصرِهِ المُختَصِّ في ذلك، أبِي الحسنِ المُرَّاكُشِيِّ القُسَنْطِينِي.[2] وكان أَنْ تَوَجَّسَ السُّلطانُ قاطِعَ نَحْسٍ في بُرْجِ طالِعِهِ، فانتقل من فَاسَ الجديدِ إلى قَلْعَتِهِ

---

[1] – ابن خلدون "العبر"، ج6، ص356.

[2] – مِنَ الطَّريف في هذا الصَّدد ما يَرْوِيه لِسان الدِّين بن الخطيب: "إذ ما إن تَوَجَّسَ السُّلطانُ أبو سالِمٍ من قاطعِ نَحْسٍ في بُرْجِ طالعِه حتَّى تَحوَّل مِنْ دار سُكناه بفاس الجديد إلى قصبة فاس البالِي، تفادياً لذاك النَّحس الَّذي يُهدِّد حياتَه. وتوعَّد المُرْجِفينَ بالأخبار السَّيِّئة، بالعِقاب الرَّادع بمجرَّد مُرور الوقت المُحدَّد لذلك القاطع الفلكي. ويبدو أنَّ هذه الأخبار انتقلت إلى خواصِّه وكُتَّابه، فأشاعوها بين الناس، فكان ذلك من أقوى الأسباب فيما نزل به." " نُفاضةُ الجِراب في عُلالة الاغتراب" ص 238.

بِفَاسَ البَالِي، واستخلفَ وزيرَه وزَوْجَ أُختِه عُمَرَ بْنَ عبدِ الله بْنِ عَلِيِّ بْنِ سَعِيدٍ اليَابَانِي، غير أَنَّ هذا الأخيرِ انْتَهزَ الفُرصةَ وثار عليه مُتحالِفاً مع رئيس الفِرقَةِ العسكريَّةِ الإسبانيَّةِ غَرْسِيَةَ بْنَ أَنْطُونْ، فاستحضر الأميرَ أَبَا عُمَرَ تَاشْفِينَ بْنَ أبِي الحسَنْ، وكان يُلقَّبُ بالمُوَسْوَسِ، لِكَوْنِهِ كان مَعتوهاً مُصاباً بِلَوْثَةٍ في عقلِه. بَايَعَهُ على السَّلطَنة واستولى على خزائِن بيتِ المال، ثُمَّ وزَّع الأموالَ على الجنود بغير حِسابٍ. ولْنَتْرُكْ لابنِ الخطيبِ فُرصةَ وصف الأحداث الفَوْضَوِيَّةِ التي شهِدَتْها فاس الجديد في أيَّامِ السُّلطان أبِي سالِمٍ:

" وكُشر إلى مَحَلِّ الثَّورة النُّزوعُ وَبِهِ اللِّحَاقُ، والسُّلطانُ أبو سالمٍ... قَدِ اخْتَبَلَ جَزَعاً، وقعَد بمِضْرَبِ هَجِيرِهِ، يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ويُلاحظُ الموتَ صَلْتاً مِنْ خَلْفِهِ وبين يَدَيْهِ، ويَستدعِي الماءَ لتَبريد جوانِحِهِ، فَيُؤْتَى بِهِ في أوانِي تَعَافُهَا البَهائِمُ. ولَمْ يَكُنْ إلاَّ أَنِ انْهَزَمَ النَّهارُ، فانْهَزَمَ عنه جَمْعُهُ مِنْ غيرِ قِتالٍ ولا مُدافَعَةٍ... وتُرِكَ أَوْحَشَ مِنْ وَتَدٍ في قَاعٍ..." [1]

وإن كانت هذه الأحداثُ قَدِ انتهت باجتِثَاثِ رأْسِ السُّلطان أبِي سالِمٍ، فإِنَّ تَزَامُنَهَا مع اضطرابِ أحوالِ عبدِ الله في إمارَتِهِ السَّكْسِيوِيَّةِ في شِيشَاوَةَ يَدعونَا إلى الاِسْتِغْرَابِ؛ إِذْ فِي الظَّرْفِ نفسِه استبَدَّ عامِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الهنتاتِي بِوِلايَةِ مُرَّاكُشَ، وانفرد بِها عن سُلطةِ بنِي مَرِينَ المُضْطَرِبَةِ أحوالُهُمْ في فاس. فَاسْتَغَلَّ الفُرْصَةَ يَحيَى بْنُ سُليمانَ السَّكْسِيوِي، وهُوَ ابْنُ عَمِّ عبدِ الله

[1] – المصدر نفسه، ج2، ص285.

إذْ: "*حينَ بلَغ استبدادُ الوزيرِ عُمَرَ بْنِ عبدِ الله الفَوْدُودِي على سُلْطَانِ المغرب، واستيدادِ عامرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بِوِلاية مُرَّاكُش، وثَأَرَ مِنْهُ يَحيى هذا بأبيهِ سُلَيْمان، وهو عَمُّ عبدِ الله، كان قَتَلَهُ أيَّامَ إمارتِهِ الأُولى، وأقامَ مَمْلكاً على سَكْسِيوَةَ إلى سَنَيِّ خَمْسٍ وسَبْعينَ وسَبْعِمِائَةٍ*"[1] تَمكَّن يحيَى بْنُ سليْمان من قتلِ ابنِ عمِّه عبدِ الله آخِذاً بِثأرِ أبيه سُليمان. لكن، لَمْ يَكَدْ يَستلذ بِإِمْرَةِ سَكْسِيوَةَ حتَّى: "*ثار عليه أبو بَكْرِ بْنُ عُمَرَ بْنِ حَدُّو، فقتَلَه بأخيهِ عبدِ الله، واستقلَّ بأمْرِ سَكْسِيوَةَ وما إليهِمْ.*" وبعد أعوامٍ مِنِ استقلال أبِي بَكْرٍ هذا بِإِمَارَةِ سَكْسَاوَةَ وما إليها مِنَ القبائِل الشِّيشَاوِيَةِ المُجاورة له في الجبل، أي في خلال عَامِ (776هـ/ 1374م): "*خرج عليهِمْ عبدُ الرَّحْمن...ظفر بأبِي بَكْرِ بْنِ عُمَرَ وقَتَلَهُ.*" وقَدِ استبَدَّ عبدُ الرَّحمنِ السَّكْسِيوِي بِإمرةِ سَكْسَاوَةَ إلى حدود (779هـ/ 1377م)، غير أَنَّ ابْنَ خلدون يُذَيِّلُ حديثَه عن أُمَرَاءِ سَكْسَاوَةَ بالقول: "*ثُمَّ بَلَغَني سَنَةَ ثَمانٍ وثَمانينَ وسَبْعِمِائَةٍ أَنَّ عبدَ الرَّحمن هذا: ويُعرَفُ بأبِي زَيْدِ بْنِ مَخلوفِ بْنِ عُمَرَ آجَلِّيدْ، قتلَه يَحيى بْنُ عبدِ الله بْنِ عُمَرَ، واستبدَّ بأَمرِ هذا الجبل، وهو الآنَ مَالِكُهُ، وهو أَخُ محمَّدٍ أَيزَمْ بْنِ عبدِ الله*"[2]

وعلى العموم، فَإِنَّ النَّسيجَ الذي تَرَكَتْهُ لنا نُصوصُ ابْنِ خلدون عن أُمراءِ سَكْسَاوَةَ، قد أَسعفنا بِوَضْعِ شَجرةٍ خاصَّةٍ بِأُسْرَتِهِمْ على النَّحو التَّالِي:

---

[1] – ابن خلدون "العبر" ج7، ص356.

[2] – المصدرُ نفسُه عَنِ الصَّفحة نفسِها.

يوسف السَّكسيوي

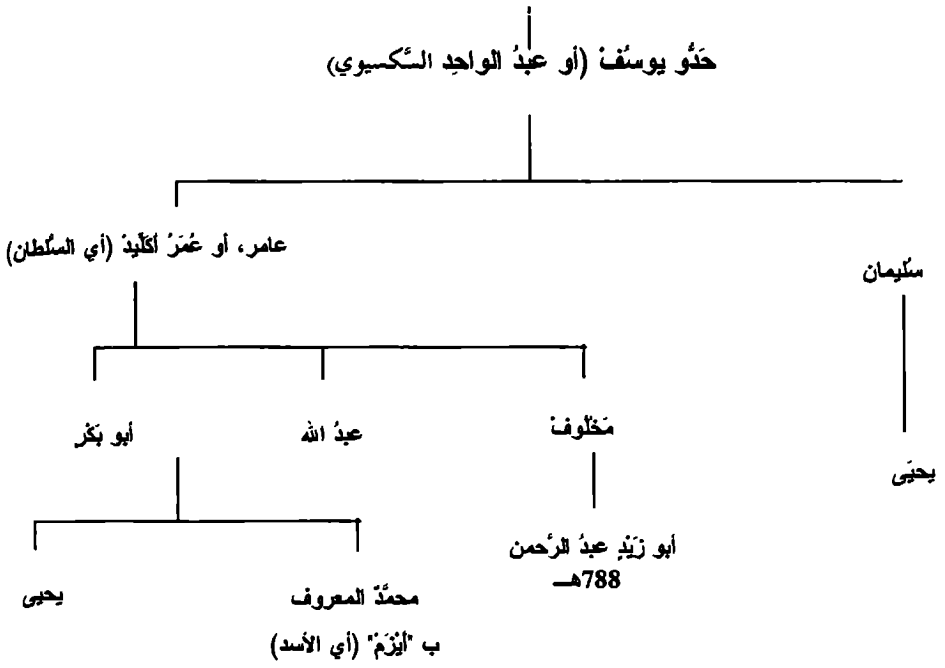

الفصل الثاني

للاَّ عزيزة أشهرُ أولياءِ سَكْسَاوَةَ منذُ حُكم المرينيِّين

أوَّلاً: طبُّغْرَافِيَةُ الوَلِيَّةِ:

لَمْ نَجِدْ بُدّاً مِنَ الإعتِمادِ على جاك بيرك في اقتِفاء آثار المحيط الخاصِّ بالوليَّة الصَّالحة للاَّعْزِيزَةَ.[1] يُؤكِّد هذا الأخيرُ أَنَّهَا هيمنت بشُهرتِها على الأولياء والصَّالحين المحيطين بِها في الجِبال الشِّيشاويَّة، كَسِيدِي مُحَمْدْ أَحُرْمِي، سِيدِي سْعِيدْ أُو مُحَمْدْ، سِيدِي الغَزْوَانِي، سِيدِي غَانْمْ، سِيدِي أَحْمَدْ أُو مْحَانْدْ، ثُمَّ وليٌّ صالِحٌ بِتَسميَّةٍ غريبةٍ إِيْزْمَاوْنْ إِيسِيرَانْ، أي أُسُودُ إِيسِيرَانْ. فهل معنى هذا أَنَّ مَكانَةَ كُلِّ هؤلاءِ الأولياء قَدْ تناقصت أمام صِيتِ الوليَّةِ عْزِيزَةَ؟[2]

---

[1]– اعتاد الطَّوَّابون، المُشيِّدون للأسوار والجُدران منَ التَّابية، أن يُرَدِّدُوا، أثناء دقِّهم للطِّين داخل الألواح، اسمَ الوليَّة الصَّالحة "للاَّعزيزة تَاكُرَّامْتْ"، مُحاولةً منهم خلقَ إيقاعٍ يُساعد على العمل. ولعلَّ امتدادَ هذه الظَّاهرة منَ الأطلس الكبير الغربي إلى الحوز لَدليلٌ على اتِّساع شُهرة الوليَّة الصَّالحة عْزِيزَةْ.

[2] - Jaques Berque « sociologie de Haut Atlas occidental »

منَ المعلوم أَنَّ "جاك بيرك" قضى فترةً تصل إلى 6 سنوات في سكساوة بين عامَيْ (1947-1953). وأَنَّهُ حاب مَجالات القبيلة بِوَصْفِهِ مُمَثِّلاً للسُّلطات الفرنسيَّة بِها. وكتب عنها مقالاتٍ وأجرى أبْحاثاً أهَمُّها "سكساوة القديمة".

مِنَ المعلوم أَنَّ الوَلِيَّةَ تَحظى بِمَكانةِ السَّبق داخلَ المجال السَّكْسِيوِي الواسع، الواقِع بين مَجالَي آيتْ غَزَّا إلى مُنحدَرِ تَنْسَّمْت، وَرَقْتُو، ومَجال آيتْ كِّيرْ. لُوحِظَ أَيْضاً، أَنَّ السَّكْسِيوِيِّينَ يطلقون اسم "حدود وعقوبات للاعزيزة" على صخرة ترسبت فوق طمي الوادي، استغلَّ صيتَها بعضُ المصامِدةِ لِيُحْيُوا تقليداً مَفادُهُ أَنَّ فتاةً عاقَّةً قد تَحوَّلت هِيَ ودابَّتُها، فوق تلكَ الصَّخرة إلى جَمَادٍ. كما توجدُ صخرةٌ أخرى كشاهِدٍ على التَّحوُّل الذي تعرَّض له جِسْمُ حاكِمٍ مُستبِدٍّ يُدعى أَمْغَار يُوبَادَالَنْ رَبِّي. وفي اتِّجاه الجنوب الغربي على مَشارِفِ مَجالِ إِيدْمَا، وهي قبيلةٌ ادَّعت أَنَّهَا انتصرت على قبيلةِ آيت غَزَّا، بِرَغْمِ أَنَّ هذه الأخيرة كانت تفُوقُها عدداً وعُدَّةً، فانتزعوا منهم دُوَّارَ آنْشَقْرِير. ويُروَى كذلك على لِسان مَنِ اهتمُّوا بأَخبارِ الوليَّة عْزِيزَةَ في سَكْسَاوَةَ، أَنَّ كُلاًّ مِنْ أُسرةِ آيت عْلِي وآيت لَحْسَنْ قد تَمكَّنتا مَعاً، من إِبادَةِ أُسْرَةِ آيت مُوسَى المُقرَّبَةِ مِنَ الوليَّة للأَعْزِيزَة. وكان يَحيى أُولْقَايْد هو الذي تزعَّم الأسرتيْن المعتديَّتيْنِ. فصبَّت عليهما الوليَّةُ نفسُها لَعْنَتَهَا، وسَخَّطَتْهُمَا، فكان أَنْ نقص عَدَدُهُمَا عمَّا كان عليْهِ. لَمْ تكتَفِ بذلك، بَلِ اسْتَضَافَتْهُمَا إلى تِوِّيلْت في غُرفةٍ بالطَّابقِ العُلْوِي للدَّار، وبعد أن حَشَرَتْ تحت غُرفَتِها حُزَماً كثيرةً مِنْ تِبْنِ الذُّرَةِ، أضرمَتْها بالنَّار لِتُودِي بِحياة اثنيْن وثلاثِينَ فرداً خَنْقاً. فيما فَرَّ واحدٌ منهم قَفْزاً مِنَ الطَّاقة، فطارَدَهُ خُدَّامُهَا، وطعنُوه بالرِّماح. ولِتخلِيدِ ذاك الحَدَثِ تَتَوَفَّرُ مَقصورَةُ المسجد، الأقرَبِ إلى ضريحها في الجبل، على سَقْفٍ من ثلاثٍ وثلاثين خشبَةً.

يُشيرُ جاك بيرك في هذا الباب، إلى أَنَّ الوَلِيَّةَ قد مُنِحَتْ بعضَ القِطَعِ الأرضِيَّةِ لِتَستفيدَ مِنْ مَدَاخِيلِهَا، في شهر مارس من كُلِّ عامٍ. وتوجد في المَجال نفسِهِ دفينةٌ أخرى تُدعى لَلاَّعَزُّو، مُحاطةٌ بالحجارة، ويُرجَّحُ أن تكون هي ابْنَةُ سِيدِي اعْمَرْ أُوحَدُّو، أي عُمَرُ بْنُ عبدِ الواحِدِ السَّكْسِيوِي، المذكورِ عندَ ابْنِ خلدون كأميرٍ، وقد دُفِنَ في مدخل دوار آنْشَقْرِير. يوجد مَدْفَنُ سيدي سْلِيمَانْ أُو عَامَرْ، وتُقام حَوْلَهُ، احتفالاتٌ خلال كُلِّ صيفٍ من كُلِّ عامٍ؛ وله هُوَ الآخرُ حضورٌ في التَّاريخ المصمودي، شأنُه في ذلكَ شأنَ عَامِرْ أُوحَدُّو. وهناك لَبْسٌ بين لَلاَّعَزُّو دفينةُ المجال الحيويِّ لِسَكْسَاوَةَ ولَلاَّعْزِيزَة، التي تبقى كَتَسْمِيَةٍ غريبةٍ عَنِ الشَّلْحَةِ. يُلاحَظُ أَنَّ اسْمَ عْزِيزَة نادرٌ بين الأسماء المُعْتَمَدَةِ من لدن الأَمَازِيغِ. فكيف يُمكن أن نُفسِّرَ مَوْضِعَ الدَّفْنِ الحقيقي؟ وهلِ اخْتيرَ ذاكَ المَوضعُ بالفِعل، لِتوطينِ أعلى نُقطةٍ مِنَ الجبل؟ أَمْ نحن أمام جُثمانيْنِ؟

نُلفِتُ الإنتباهَ إلى أَنَّ هُناكَ اسْمٌ يُثيرُ التَّعَجُّبَ، وهو زِينِيت، وهو يُفسَّرُ محلِّياً من لدن السَّكْسِيوِيِّينَ بِكونِه فِعْلُ أَمْرٍ يَنتهي بِإِتْ لِفِعْلِهِ الأصلِ زِينْ، والذي يَعني بِالشَّلْحَةِ التَّخَاصُمُ، أَوِ التَّصَادُمُ، أَوِ المُشَادَّاتُ... كيفما كان الحالُ، فالموضعُ المذكورُ يُحَدَّدُ كالتَّالِي:

أ) يُوجَدُ، في اتِّجاه القِمَّةِ مَدْفَنٌ صغيرٌ يُدعى سِيدِي بُولَقْنَادَل، وهو غيرُ مُسَيَّجٍ، ولَمْ تُبْنَ عليه القُبَّةُ. تَحُفُّ به مَقبرةٌ في مَوضِعٍ يُقالُ له أَزَالُو مُخَصَّصٌ للصَّلاة.

ب) يُوجَد بعيداً عن هذا المَوضِع في اتِّجاه الوادي، مُنْحَدَرٌ صخريٌّ يُدعى إيمِي نْ زَنُّو، وهي تَسميةٌ مَصموديَّةٌ قديمةٌ لَهَا علاقةٌ بِالجِنِّ.

ج) تُوجَد في اتِّجاه الأجراف المُشرفة على مْزَاوْت، صخرتان نُحِتَ بينهُما مَمَرٌّ يُكْشَفُ - مِنْ خِلالِه- مُرْتَكِبُو الكبائِر، والخطايا. إِذْ يَنْغَلِقَانِ على جسمِه إذا ما كان ذا سوابق، ويُسَمُّونَ تلك الصَّخْرَةَ إِفْرِي نْ تَسْكِي.

د) تتوفَّرُ لَلاَّعْزِيزَةُ على مَدْخَلٍ دُفِنَ فيه بَغْلُهَا، وعلى بَهْوٍ مِنْ غُرَفٍ كانت مُخَصَّصَةً لِحِفْظِ القُوتِ والمُؤَنِ الخاصَّة بالاحتِفالاتِ. ويُوجَدُ في الغرفة الأخرى فُرْنٌ، وأربع قُدورٍ للِطَّهْوِ.

ذ) تَنفتِح الدَّارُ، التي باتت بِمَثابَةِ زاويَةٍ، مِنْ بابِ لُوضَا، أي بابُ السَّهْلِ، ثُمَّ من بابِ دَرَنْ، أي بَابُ الجَبَلِ. ولعلَّ التَّسْمِيَتَانِ تُعبِّران عن ثُنائيةِ السَّهْلِ والجبل في ذِهنِيَة سُكَّانِ المنطقة. ويُوجَدُ إلى اليسار مِنَ القُبَّةِ مَدفنُ سِيدِي يَحْيى أُولْقَايْد، المَعروفُ بِكَوْنِهِ أَبَادَ أسرةَ آيت مُوسَى. ويوجد في القُبَّةِ الرَّئيسَةِ، مَدفنُ الوليَّة الصَّالِحة مع ثلاثةٍ آخرِينَ؛ أبُوها، وأمُّها، وخادِمُها.

كشف جاك بيرك عن تسميَّةٍ شائعةٍ بين السَّكْسِيوِيِّينَ هي بُولَقْنَادَلْ، والتي تعني عندَهُمُ الرَّجُلُ المُتَّضِحُ الرُّؤْيَا، واعتقدَ أَنَّ المَعْنِي بالتَّسميةِ هُوَ حَدُّو يوسف، مُؤَسِّسُ الأُسرة السَّكْسِيوِيَّةِ في العصر الوسيط. وإذا ما أَضَفْنَا يَحيى المَدفون في دارِ لَلاَّعْزِيزَةَ، ثُمَّ سُلَيْمَانَ المدفون في آنْشَقْرِير، غيرَ بعيدٍ عن عَزُّو، فإنَّنا نقترب على الأقَلِّ، من ثلاثةِ أسْماءٍ كشف عنها ابْنُ خلدون في كتابه "العِبَرُ"، كما رأينا ذلك في الفصل السَّابق.

ثانياً: الأسطورة الخاصَّة بالولية للأَعْزِيزَة: (الرِّوايَةُ الشَّفويَّةُ)

أمام تعدُّد المَواضيع التي ساقَتْهَا أفواهُ السُّكَّان في قالَبِ أُسطورِي عَنِ الوليَّة لَلأَعْزِيزَة؛ فضَّلنا أن نَعتمِد على الرَّحَّالَةِ الفرنسي (Brives)،[1] كما فعل جاك بيرك قبلَنا، لِكونِه حاول أن يَنتقي القَواسمَ المُشترَكَةَ مِمَّا رُوِيَ عن الدَّفينةِ المُقَدَّسَةِ لَدَى السَّكْسِيوِيِّينَ؛ فَسجَّلَ ما لَخَّصناه فِي: *"وُلِدَتْ لَلأَعْزِيزَةُ بهذه المناطق، ومنذُ طفولَتِها كانت تَسوقُ المَاعِزَ إلى الجبل في فصلِ الشِّتاء، بدَلَ أن تُصاحِبَ بَقِيَّةَ الرُّعاة نحو ضِفاف الوادي حيثُ الكلأُ والعُشبُ متوَفِّران في السَّهل، في وقتٍ لَمْ يَكُنْ في القِمَمِ التي تَتَرَدَّدُ عليها شِتاءً سِوى الصَّخْرِ. لكنَّ قُطعانَها كانت دائماً سَمينَةً بالقدر الذي كانت عليه قُطعانُ رُعاة السُّهول، فكان ذلك حُجَّةً على حُظْوَتِهَا الغريبة لدى الخالقِ سُبحانَه. ولِغَيْرَةِ الرُّعاة منها، وَشَوْا بِها إلى أبيها، الذي لَمْ يَنْتَبِهْ إلى الحالة الجَيِّدَةِ لِقُطعانِهِ، فأمَرَها بِاتِّباعِ مسالِكِ الرُّعاة في السَّهل. ولَمَّا أعرَضَتْ عن ذلك ضَرَبَها، فطلبت منهُ أن يُمعِنَ النَّظَرَ في قُطعانِهِ، فَراعَهُ أنَّها تَقْضِمُ وتَجْتَرُّ بِرَغْمِ خُلُوِّ الجبلِ مِنَ النَّبات. ولَمَّا شَبَّتِ اشْتهرت بِكَرمِهَا، وخَلْوَتِها، وزُهدِها، والتزامِها بالصَّلاة والذِّكْرِ والعمل؛ فُدِعيَتْ إلى الزَّواج، فَرَفَضَتْ. وكان قد عاكَسَها يوماً رَاعٍ ففَرَّت منه في الجبلِ إلى أَنِ انْسَدَّتْ في وجهِها كُلُّ المَسالِكِ، ولَمَّا هَمَّ أن يَغتَصِبَها اخْتَفَتْ عن نَظَرِهِ. فداع صِيتُهَا بتلك الكرامَة،*

[1] – Brives « Voyages Au Maroc » 1909 p :256.

وازدادَتْ شُهرتُها بالكَرامَةِ والوِلايَةِ. أراد السُّلطانُ أن يَتَقَرَّبَ مِنها، فاستقدَمَها إلى مُرَّاكُش، ولَمَّا اكتسبتْ صِيتاً كبيراً بين السُّكَّان أَقْلَقَتْهُ، فخافَ الفِتْنَةَ وزَجَّ بِها في السِّجْنِ. تعرَّضت لمِحاولاتِ التَّسمُّمِ، غير أنَّها كانت ترفُض ما يُقَدَّمُ إليها من طعام. إلاَّ أَنَّ الأمرَ حُسِمَ على يَدِ خادِمَتِها وإن كانت مِنْ قَبْلُ، مُخلصةً لَها. أَقْبَلَتْ عَزُّونَةُ على أَكْلِ الطَّعام، مع عِلمِها المُسبَقِ بِمَا دُسَّ فيه، وقالَت: (بِسْمِ الله وَمِنْ أَجْلِ الله أَمُوتُ). لكن قبل ذلك، طلبت من وصيفاتِها أَنْ يَضَعْنَها على ظهرِ بَغْلِها، وأن يُتْرَكَ حُرّاً يَمْشي في المَسالِكِ التي يَختارُها هُوَ، على أن لا تُدْفَنَ إلاَّ حيثُ يَتَوَقَّفُ. وكذلك كان؛ زحف البَغْلُ بِجِسَدِها وهي تُحْتَضَرُ، من مُرَّاكُش إلى حدود سَكْسَاوَةَ، وهناكَ توقَّفَ. ودُفِنَتْ في سَكْسَاوَةَ في مَوْكِبٍ حزينٍ. ثُمَّ رغِبَ سكَّانُ مُرَّاكُش في أَنْ تُبْنَى قُبَّةٌ على شرفِها، ولَمَّا تَمَّ لَهم ذلك اكْتَشَفُوا أَنَّ جُثمانَها باتَ يَرْقُدُ تارةً في مُرَّاكُش، وفي أُخرى في سَكْسَاوَةَ.[1] وأخيراً قَرَرَ السُّلطانُ أن تُبنى لَها قُبَّةٌ في سَكْسَاوَةَ".

---

[1]– مِنَ المعلوم أَنَّ مراكش تتوفَّر على دَرْبٍ قريبٍ من حَيِّ الموقف، يُدعى درب الحُرَّةِ عَزُّونَةْ. إذا كانت القُبَّةُ قد بُنيت على الوليَّة في جبل قبيلة سكساوة –على حَدِّ قول الأسطورة- منذ زمن المرينيِّين، فَإِنَّنا نستغربُ أمامَ صمود خطَأٍ إملائيٍّ داخلَ السَّطر المكتوب فوق بابِ دَارِ لَلاَّعْزِيزَةَ أَزْيَدَ من 600 سنةً. إذْ بدل أن يُكْتَبَ " لَلاَّعزيزة تقبَلُ زيارتكُمْ " كُتِبَ ما يلي: "للاعزيزة تَقْبَلُ زِيَرَتِكُمْ" بِحَذْفِ المَدِّ من أمام الياء السَّابقة عنِ الرَّاءِ، ربَّما تَماشياً مع إيقاع اللِّسان الأمازيغي!

ثالِثاً: مكانة الوليَّة من الكِتابة التاريخية (نص ابن قنفد):

كان بالإمكان أن نستعرض مختلفَ الرِّوايات، على كثرتها، وكنَّا إذَّاك سندخُل في دوَّامَة من المَروِيات لو لَم نعثُر على نصٍّ تاريخي جنَّبنا عناء هذه المَتاهَة. النَّصُّ لرحَّالَةٍ جزائري انطلق مِنَ المغرب الأوسط خلالَ (8هـ/ ق14م) من قُسَنْطِينَةَ، واقتفى آثارَ الأولياء الصَّالحين عبر الجِبالِ، بدءاً بِأبي مَدْيَنَ الغُوثْ دفينِ تلمسان، إلى أن وصل إلى الوليَّةَ عزيزة التي التقاها خلال عامِ (789هـ/ 1387م)، إذ يقول: *"ورأيتُ منهم بالمغرب الأقصى في طَرَفٍ سَكْسِوِيَّةَ من جِبال دَرَنْ بِمَوْضِعٍ يُقالُ له القاهرة [الحُرَّة] الصَّالحَةَ عزيزةَ السَّكسيويَّة. وتبرَّكتُ بِها، وجلستُ معها وهي متوجِّهةٌ في صُلْحٍ بين فِئَتَينِ عظيمَتَيْن. ولَها أتباعٌ من الرِّجالِ، وأتباعٌ من النِّساءِ. وكُلُّ طائفةٍ اشتَغَلت بالمُجاهَدَة والعِبادَة في جِهَةٍ ما تَخُصُّها. ويُضرَبُ لَها قَيْطونٌ بالوسط بِمَقرُبَةٍ من طائِفَة النِّساء. ولا يتحرَّكُ أحدٌ عن أمرِها، وإذا جَلَسَتْ للنَّاس تُلقي عليْها كساءً، ولا تترك فيه من أين تَنْظُرُ إلى أحدٍ"*.[1] يعتبر ابن قنفدٍ أحدَ المؤرِّخين والرَّحَّالَة القلائِلِ، الَّذين ساعَدونا على إدراك أنّ الزَّوايا في المَغرِب خلال ق14م، كانت تعتمد على نِظامِ الطَّوائف، وأنَّ شيشاوة كانت مَقَرّاً لِهذا السُّلوك الصُّوفي في شخص إمارَة سكساوَة خلال الفترة نفسِها. ويتَّضِح أنَّ القاهِرة اكتسبت شُهرةً إلى حَدٍّ أنَّ المؤرِّخَ حدَّد المجالَ الواسِعَ

[1] - أبو العبَّاس أحمد الخطيب الشَّهير بابن قنفد القُسَنطِيني المتوفَّى عام: (810هـ/1407-1408م).

لسكساوة بِها قائلاً: *"مَوْضِعٌ يُقالُ له القاهرة."* أفادَنا ابن قنفدٍ أيضاً، بالوُقوف على المَكانَة التي كانت للوليَّة الصَّالِحة للأَعزيزة. وإلاَّ لَمَا سَعَتْ في صُلْحٍ بين قِتَيْن عظيمتيْن. ثُمَّ ينقُلُ لنا صورةً عن صَرامَتِها، وهيْبَتِها، إذ لا يَتحرَّك أحدٌ إلاَّ عن أمرِها؛ وهي وَقورةٌ، مُدَثَّرةٌ بِخِمارٍ لا تترُك فيه ما يُنظَرُ إليْها منه.

ويضيفُ النَّصُّ قائلاً: *"وهي فصيحةٌ جِدّاً في أجوبَتِها، وأوامِرِها، وعَظِّها. ورأيتُ النَّاسَ يتزاحَمون عليْها. وما رأيتُ أَلْيَنَ من كَلامِها في السُّؤالِ عَنِ الحالِ. ولَها كراماتٌ مشهورةٌ."* هكذا يشهَدُ ابن قنفد للوليَّة عزيزة بالفَصَاحَة، واللِّين، وهو ما أَهَّلَها لأن تستأنِف حملَ مِشعَلِ الثَّقافة الصوفية بين أمراء سكساوةَ. ولعلَّ ابنَ قنفدٍ يعني بالفصاحَة تَمَكُّنَها مِنَ اللُّغة العربيَّة، لأنَّه يضَع الوعظ على رأس سلوكِها مع النَّاس. والوعظُ يكون عادةً بالاعتِماد على الكِتابِ، أو الأحاديث، أو إجْماع الفقهاء. ثُمَّ يذكُر اشتهارَها بالكرامات، غير أنَّ إمساكَه عَنِ ذكر نوع الكرامات جعل الألسِنَةَ تجتَهد في نَسْبِها إلى الوليَّة. كيفما كان الحال يضيف ابن قنفد قائلاً: *"رُكِبَ إلْيها الرَّئيسُ الشَّهيرُ، صاحبُ مَرَّاكش عامر بن محمَّدٍ الهنتاتي، وجلس معها كثيراً، وقال لي بعد أنِ انْفَصَلَ عنها: يا فقيه هذا هو العجب، تُبادِرُني بالجواب عَمَّا يَخْطُرُ في نفسي، وما قَدَرْتُ أن أُراجِعَها في كُلِّ ما طلبت منِّي. وما رأيتُ أنفذ من حُجَّتِها فيما تحتجُّ عليَّ به في الذي يُتَوَقَّفُ فيه. وكان عامر بن محمَّد الهنتاتي مِنَ الأذكياء الفُصحاء، الَّذين لا يُقهَرون بِحُجَّة. وهو من العُظماء، ورُؤَساء الدُّنيا، كلامُهم في ذلك حُجَّةٌ. وكان في جيشٍ صحيحٍ*

يزيدُ عن ستّةِ آلافٍ. وأقامَ حَرْكَةَ بِمالِ جزيلٍ." إذا كان ابن قنفذٍ قد عاصر ركوبَ عامر بن محمَّد الهنتاتِي إلى للأَّعزيزة بسكساوة، فإنَّ ذلك قد ساعَدنا على التَّعرُّف على الفترة التي عاشت فيها الوليَّة. وإذا ما سلَّمنا بِأنَّ السُّلطان المريني أبا عِنان قد نصَّبَ عامراً بن محمَّدٍ الهنتاتِي، الذي مَكَثَ سنواتٍ مُمثِّلاً للسَّلاطين بعد تشييد حِصْنِ القاهرة، إلى حدود عام (789هـ/ 1387م) فإنَّ الزِّيارة التي قام بها عامر للوليَّة المذكورَة لا يُمكن أن تكونَ قد تمَّتْ إلاَّ في حدود هذه الفترة، الَّتي تولَّى فيها الحكمَ السُّلطانُ المريني أبو زيَّان محمد؛ وهي التي تَميَّزت بِإِمْرَةِ عبدِ الله على قبيلة سكساوة. وإذا كان ابن قنفد قد أَطْرَى على صاحِب مرَّاكش عامر بن محمَّد الهنتاتِي، فإنَّ لسانَ الدِّينِ بْنَ الخطيب قد فاقَه في الإطراء إذ قال: "*وقدَّمتُ بين وَصْلي إلى مَرَّاكش، المُخاطَبَةَ إلى عميد تلك البِقاعِ، وشاهِ تلك الرُّقعَة، صَدْرِ هذه الحُدود القُصوى، المتميِّزِ بالرَّجاحَة، والرَّأيِ، والسِّياسَة، المُتَفَقِ فيه على إفاضَة العَدل، وكَفِّ اليَدِ، والتَّجافي عن مال الجِبايَة، والمُستأثِرِ إلى النُّبلِ الذي لا يَطيشُ نُبْلُهُ، والإدراك الذي لا يَفِلُ حدُّه، والدَّهاء الذي يُسبَر غوْرُهُ، والمَعروف الذي لا يَتجاوَزُ مَحالَّ الضَّرورَة حِمْيُهُ، عامر بن محمَّدٍ الهنتاتِي.*" [1]

وإذا كان المؤرِّخان قد أجمعا على وصف عامرٍ بالدَّهاء، وقوة الحُجَّة، ورجاحَة الرَّأي، والسِّياسَة؛ فإنَّ عامراً، على الرَّغم مِنِ امتِلاكِه لكلِّ هذه الصِّفات، صرَّح باستغرابٍ، بعد أن جالَسَ للأَّعزيزة، للرَّحَّالَة ابنِ قنفدٍ أنَّه

[1]- لسان الدين بن الخطيب: "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" ص 43.

كما لو أنَّه رأى العَجَبَ من تلك المرأة الصُّوفيَّة. خصوصاً عندما كانت تُبادرُه بالجواب عما كان يخطُر بِبالِه. كأنَّما كانت على إلْمامٍ بِأمور السِّياسَة، والدِّين، والحِكمَة. إلى درجة أنَّه عَجزَ عن مُراجَعتِها في كلِّ ما كانت تحتجُّ عليه به في الَّذي يُتَوَقَّفُ فيه. فهل معنى هذا أنَّ الخوضَ في مختَلِفِ العلوم العقليَّة، والدِّينيَّة، والسِّحر، والشَّعوذَة، والكيمياء، والسِّيمياء لَم يكن حكراً على أُمراء سكساوة، وفقهائِها، وإنَّما امتدَّ إلى النِّساء السَّكسيويات خلال ق14م؟ إذا كان نصُّ ابن قنفدٍ قد قدَّم لنا حُجَّةً دامغةً على أنَّ هذه المرأة قد خاضت في هذه العلوم بِمِثلِ ما خاض به غيرُها من أمراء قبيلَتِها، بل وبَرَعَتْ في الخوض بِشهادَة عامرِ بن محمَّدٍ الهنتاتي، الرَّجلِ الَّذي لا يُقهَرُ بِحُجَّةٍ، فإنَّه كان لِهذه السيِّدة أتباعٌ من النِّساء، وأتباعٌ من الرِّجال، وهو ما يُبيِّنُ أنَّها كانت تُعِدُّ لَهم أوراداً، وأمداحاً، وأقوالاً، وطقوساً. وعليه، فإنَّ ما كان يَملأُ جُعبَتَها مِنِ اهتِماماتٍ علميَّةٍ كان قَدِ امتدَّ لا مَحالَة إلى تابِعيها من النِّساء والرِّجال بالاستِماع، والقِراءَة، والتَّلقين.

وعن مكانَتها لَدى مُمثِّلِ السُّلطان المريني في مرَّاكش يقول ابن قنفد: *"وكان قاصداً لحِصارِ السَّكسيوي في جَبَلِهِ ليَدخُلَ تحت طاعَتِهِ، فأمَرتْه بالرُّجوع، وألزَمَت له طاعَةَ السَّكسيوي، فرجع. وجاءَه كتابٌ بِخِدمَتِهِ، وطاعَتِهِ. فأخبَرَني بعض الفُضَلاءِ أنَّ لَها في مُقَدِّمَة الصَّالحِين حالاً عظيماً نفع الله بِها"* هكذا يَختِمُ ابن قنفُدٍ حديثَه عن للأَّعزيزة مُوَضِّحاً أنَّها ضَمِنَتْ لِعامرٍ طاعَة أمير سكساوةَ، وتكفَّلَت بِها. بل عاد إلى مرَّاكش نزولاً منه عند

رغبَتِها، إلى أن بعث إليه السَّكسيوي بِكتابٍ يشهد على تلك الطَّاعَة. وهي حَجَّةٌ أُخرى على عُلَوِّ قدرِها بين الأمراء السَّكسيويِّين.

-يَتَّضحُ -مِنْ خِلال اقتفاء آثار أُمراء سكساوة في المجال الشِّيشاوي- أَنَّ الأميرَ عبدَ الله كان بِمثابة الوجه البارِز خلالَ (ق8هـ/ 14م)، بعد الذي كان لأَبيه حَدُّو يوسف.

- رأينا كيف أَنَّه تربَّص الدَّوائرَ بِمُرَّاكُشَ، خصوصاً في غِياب قُوات عَامِلِ بني مرينَ عنها، ومُلازمَتِهِمْ لِلسُّلطان أَبِي الحسن في حِصارِه لِتِلمسان وأفريقيَّةَ فيما بَعْدُ.

- رأيناهُ أيضاً، يُدَاخِلُ الأميرَ أبا الفضل، أَخ السُّلطان أَبِي عِنَانٍ الثَّائِرِ عليه، بعد أن صَيَّرَهُ الإسبَانُ إلى ساحِلِ السُّوسِ، ثُمَّ إلى الجبال الشِّيشاويَةِ بين يَدَيْ عبدِ الله السَّكْسِيوِي، الذي سرعانَ ما تَخلَّى عن مُآزَرَتِهِ لِيُلقي بِمَعاذِيرِهِ بين يَدَيْ السُّلطانِ أَبِي عنان، إذ قدَّم ابنَه مُحَمَّداً رهينةً، تعبيراً منه عن ولائِه، وطاعتِه.

- رأيناه يتحوَّل من مُتصدٍّ لسلطة بنِي مرين، ولِسلطة عُمَّالِهِمُ الهنتاتيِّين إلى طائِعٍ مُذْعِنٍ للسُّلطة المركزيَّة.

- رأينا كيف دارتْ عليه الدَّوائِرُ أَيَّامَ خروج ابنِه مُحَمَّدٍ المعروف بِأَيْزَمْ، وطردِهِ إِيَّاه من جبله.

هكذا يَختِمُ ابْنُ قُنْفُذٍ القُسَنْطِينِي حديثَه عن لَلاَّعْزِيزَةَ، مُوضِّحاً أَنَّهَا ضمِنت لِعامرِ بن محمَّدٍ الهنتاتِي طاعةَ أمير سَكْسَاوَةَ، وتَكَفَّلَتْ بِها. بل إِنَّهُ سرعان ما عاد إلى مُرَّاكُشَ نُزولاً عند رغبتِها فبعثت إليه، فيما بَعْدُ، بِكِتابٍ يشهد على طاعة أمير قبيلَتِها، وإِذْعانِه. وهي حُجَّةٌ أُخرى على عُلُوِّ شأنِها بين أُمراء سَكْسَاوَةَ.

وتظهرُ الوليَّةُ للاَّعْزِيزَةُ وسط هذه الأحداثِ حَاقِنَةً لِدِمَاءِ المَصَامِدَةِ، إِذِ امتزجت فيها –على حَدِّ قول جاك بيرك– القداسةُ بِالجُنُونِ.

هناك أيضاً، هُوةٌ كبيرةٌ بين الحياة المتأرجِحَةِ، والمُعذَّبَةِ للأمير السَّكْسِيوِي عبدِ الله، وجارِه المُعَاصِرِ له عامرُ بْنُ محمَّدٍ الهنتاتِي، المستفيدِ من خَدماتِهِ للبلاط المرينِي، إِذْ ساندَ وباركَ رُدودَ بني مَرينَ نُجاةَ تَعَنُّتِ عبدِ الله. غير أَنَّهُ سَيَلقى حتفَه هُوَ الآخرُ، بعد أن تعتقِلَهُ السُّلطةُ نفسُها في مَجالاته بِوَساطَةِ أُولئك الذين كان يَخدُمُهُمْ سابقاً. أَحَسَّ جاك بيرك بِذُعْرِ ابْنِ خلدون مِنْ كُلِّ هذه المَصائِر الغامضة، لذا افتقدت شَهاداتُهُ إِلى نَوْعٍ مِنَ التَّماسُكِ. إِذْ جعل ابنُ خلدونُ –على حَدِّ قول الباحِثِ الفرنسي نفسِه– عامِراً حفيداً لِعبدِ الله، ثُمَّ قدَّمَه على أَنَّهُ فقيهٌ مالِكِي، وهو ما يتنافَى مع الذَّوْقِ الموحِّدي المُسْتَبْطِنِ للنَّصِّ، الذي كان أُمراءُ سَكْسَاوَةَ يَميلونَ إليه.

وعن لَلاَّعْزِيزَةَ، فقد مَكَّنتنا شهادةُ ابْنِ قُنْفُذٍ القُسَنْطِينِي مِنْ أن نَعرفَ أَنَّ الممارسات الشَّرائِعِيَّةِ، والصُّوفيَةِ في مَغْرِبِ (ق8هـ/ 14م): أي في حدود

عام (789هـ/ 1387م)، السَّنَةِ التي كَتَبَ فيها كِتابَهُ "أُنْسُ الفَقير وعِزُّ الحَقير"، قد تَحَوَّلَتْ في هذه الفترة إلى مَجموعةٍ مِنَ الطَّوائف؛ منها ما ارتبط باسمِ مُؤَسِّسٍ مُعيَّنٍ لِلطَّائِفة، ومنها ما ارتبط بِمَوْضِعٍ جغرافِيٍّ معيَّن. فمثلاً هناك طائِفةُ الحاحيِّينَ، وطائِفَةُ الهَزْمِيرِيِّينَ، وقد شكَّلوا طوائِفَ تناسلت داخل المجال المصمودي الأمازيغي. فالهزميرِي، المُتوفَّى عام (679هـ/ 1280م) كان مُتَضَلِّعاً في علوم الحِساب إلى درجة أَنَّ ابْنَ البَنَّاءِ المُرَّاكشي، وهو قُطْبُ الرِّياضيات في ذلكَ العَصْرِ، كان يتردَّدُ عليه كطالِبٍ مُتواضِعٍ لِيَنْهَلَ من عِلمِه؛ كما كان الآبُلِّي، وهو الشَّيْخُ المُفضَّلُ لدى ابْنِ خلدون، يتردَّدُ على فُقهاء قبيلة هَسْكُورَةَ في الجبل. كما يشهَدُ ابنُ قنفُدٍ على أَنَّهُ كان لِلَلاَّعْزِيزَةَ هي الأُخرى، طوائِفٌ تقتفي آثارَها في الطَّريقَةِ: طائِفةٌ مِنَ النِّساء، وطائِفةٌ مِنَ الرِّجالِ.

الفصل الثَّالث

شيشاوة في فترة حكم الوطاسيين

(ق9هـ/ 15م)-(10هـ/ 16م):

أوَّلاً: شيشاوة من مَنْظُورِ الكِتابات الأجنبية:

تَمَيَّزتِ الكِتاباتُ الأوربية التي تناوَلَتِ المَجالَ المَدرُوسَ بالنُّدْرَةِ، خصوصاً بعد (ق8هـ/ 14م)؛ ليس فقط، بالنِّسبة إلى المنطقة السَّاحليَّةِ، الممتدَّةِ مِنْ مَازَاكَان: الجديدة، إلى رَأْسِ كِيرْ Cap de Gué. كما قلَّتْ هذه الكِتاباتُ بالنِّسبة إلى المَجال الثُّلاثِي الذي يُعْتَبَرُ الدِّيرُ بِمثابة نُقطة الوَسط فيه إلى حدود مُرَّاكُشَ، ومِنْ هذا المجال إلى مَازَاكَان. كانتِ المعلوماتُ سواءٌ المُباشِرةُ، أَوْ غير المُباشِرةِ، المُتعلِّقَةُ بِهذا المثلَّثِ مُختصَرَةً، وقليلةً جِدّاً. تَجدُرُ الإشارةُ إلى أَنَّ البُرتُغالَ قد تَمكَّنوا مِنَ السَّيطرة على هذا المثلَّثِ خِلالَ (ق10هـ/ 16م)، مِنَ المحيط الأطلنتِي إلى حُدود ما أَسْمَوْهُ بِالجِبَالِ المُشِعَّةِ: Les Mons clairs. ولعلَّ الحَسَنَ الوزَّانَ قد أَحْرَزَ السَّبقَ بِتَمَيُّزِهِ بالكِتابة عَنِ المَغرب في هذه الفترة؛ مُقَابِلَ البِيبْلِيُوغْرَافْيَا الإِيبِيرِيَّةِ الصَّامِتَةِ في مُجمَلِهَا، لِكَوْنِهِ تَخْضَرَمَ بين الرَّجُلِ (المسيحيِّ الأَغراضِ والمُسلِمِ النَّشأَةِ). ويَعتقِد الباحثُ الفرنسي جاك بيرك أَنَّ الرَّحَّالَةَ المغربِي النَّشأةِ، الإيطالِي التَّكوينِ، قد قام بِرِحلةٍ خِلالَ عام (921هـ/ 1515م)، زار - مِنْ خِلالها- إِيمِي نْ

تَانُوتْ في شِيشَاوَةَ، وهبطَ ضيفاً على جبلِ نَفِّيفَةَ الذي يُحَدِّدُ غرباً بِدايةَ ناحيَّةِ (مُرَّاكُشَ) فاصلاً بينَها وبين حَاحَّا. وهو: *"جبلٌ آهِلٌ بالسُّكَّان جِدّاً. ويُزرَعُ الشَّعيرُ في قِمَّتِهِ، فينمو بِكَثْرةٍ رَغْمَ أَنَّ الثَّلْجَ كثيراً ما يَتساقَطُ هناك. وسُكَّانُ هذا الجبل مُتوحِّشونَ لا تَربِيَةَ لَهُم..."* ويَنفرِدُ الحسنُ الوَزَّانُ بِإعطائِنا وصفاً كهذا، خاصّاً بِسُكَّانِ نَفِّيفَةَ مِنْ إيمِي نْ تَانُوتْ وضواحيها، ثُمَّ يُسجِّل رُدوداً مِنْ لدن هؤلاء السُّكَّان تُجاهَهُ فيضيفُ قائِلاً: *"إذا رَأَوْا حَضَرِيّاً عَجِبُوا منهُ ومِنْ لِباسِهِ، وذلكَ ما فَعَلُوهُ خِلالَ اليَوْمَيْنِ اللَّذَيْنِ قَضَيْتُهُما عِنْدَهُمْ. وقد وُسِّخَتِ البُرْنُسَ الأبيضَ الذي كنتُ أَلْبَسُهُ على عادة طَلَبَةِ هذه البِلاد. فَكُلُّ مَنْ تكلَّمْتُ مَعَهُ مِنَ الأَعيانِ لَمَسَ بُرنُسي لِيَنْظُرَهُ حتَّى أصبَحَ، في ظَرْفِ يومَيْنِ، كأَنَّه خِرقةُ مَطْبَخٍ. وأَلْزَمَني أَحَدُ هؤلاءِ الأَعيانِ أَنْ أُبادِلَهُ السَّيْفَ الذي كنتُ أَتَقَلَّدُهُ، وهو يُساوِي في فاس أَكثرَ مِنْ مِثقالٍ ونِصْفٍ، بِفَرسِهِ الذي يُساوي عَشْرَةَ مَثاقيلَ. وذلك لأَنَّ التُّجَّارَ لا يَأتون أبداً إلى هذه المنطقة بِسبب ما يَقَعُ فيها مِنِ اغْتيالاتٍ. ويَكثُرُ فيها المَاعِزُ، والعسل، وزيتُ الهَرجَانِ، ومِنْ هنا يَبدأُ ظُهورُ الهَرجَانِ."* [1]

وقَدِ اقتفى المؤرِّخُ الإسبانِي دْيِيكُو دِي طُورِّيس [2] المَسلكَ نفسَه مِنْ بَعْدِ الحَسَنِ الوزَّان، خِلالَ عام (957هـ/ 1550م)، فَمَرَّ مِنْ تِيزِي نْ أُومَاشُو،

---

[1] – الحسن الوَزَّان: المصدرُ نفسُه ج1، ص109.

[2] – دْيِيكُو دى طُورِّيسْ، "تاريخ الشُّرَفَا".

فعاين كيف أَنَّ الأَوضاعَ مُضطرِبَة في المغرب. ثُمَّ يأتِي بعدَه مُواطِنُه مَارْمُول كَارْبَخَال بِمعلوماتٍ فِي كِتابِه "إِفْرِيقْيَا"،[1] غير أَنَّهُ لا يُضيف أَيَّ جديدٍ لِمَا قام به سابِقُوهُ مِنَ المؤرِّخين الأوربِّيين. وتنتهي هذه المُلاحظاتُ الأجنبيَّةُ عَنِ المجال الذي يَهُمُّنَا، بِمعلوماتٍ لا تَخلُو من أَهَمِّيَةٍ، تركها لنا الرَّحَّالةُ البُرتغالي المَجْهُولُ.[2] وهي وَإِنْ لَمْ تتحدَّث عَنِ المجال إلاَّ بِما أشارَت به إلى تَوَغُّلِ بعضِ الحَملاتِ البُرتغالِيَّةِ في الجبال، فإِنَّها لا تَعْدَمُ أَهَمِّيَتَها.

ثانياً: شيشاوةُ إبان الحكم السَّعدي: (ق10هـ/ 16م):

إذَا كانت بعضُ مَجالات شِيشَاوَةَ قد سجَّلت حضوراً بارِزاً في تاريخ مَغْرِبِ (ق8هـ/ 14م)، وخصوصاً منها الجبال، سواءٌ على مُستوى الأحداث السِّياسية الاجتماعية، أَوْ على مُستوى الإنجازات الثَّقافيَّة، أَوِ السُّلوكِ الصُّوفي، في شخصِ قبائِلِ سَكْسَاوَةَ، وكَدْمِيوَةَ، وقبائِلَ أُخرى. فَإِنَّ هذه الأخيرة قد تراجعت عَنِ الأدوار الطَّلائِعِيَّةِ التي لعبتها مِنْ قَبْلُ في المنطقة، فَأَفَلَ إِشعاعُها، فعُزِلَتْ سَكْسَاوَةُ –على حَدِّ قول جاك بيرك–[3] نتيجةَ تَخَلِّي العَرَبِ الدَّاعِمِينَ الأُوَلِ، عَنِ التَّعامُلِ معها، وَالْتِفَاتِهِم نحو السُّلطة الجديدة القائمة، ونعني (السَّعْدِيُونَ في السُّوسِ). حيثُ هناك المجالاتُ خصبةٌ، والمنتوجاتُ الجديدةُ هي أكثرُ إِسهاماً في الاقتصاد،

---

[1] – مارمول كاربخال "أفريقيا".

[2] – المجهول البرتغالي "هسبريس"، ص19.

[3] – جاك بيرك: "هسبريس" « Antiquité Seksawa » ص398.

ونعني بها مَزَارِعُ قَصَبِ السُّكَّرِ. وقد سجَّلت شِيشَاوَةُ في الوقت نفسِه، وعلى النَّقيض من ذلك، حضوراً اقتصادياً لافتاً؛ مُستفيدةً مِمَّا كان ممرُّ تِيزِي نْ أُومَاشُو يُتيحُه لَها مِنْ فُرَصٍ. ذلك أَنَّ قِيامَ السَّعديينَ في السُّوسِ، وزحفِهِمْ باتِّجاه حَاحَّا، ثُمَّ اتِّخاذِهِمْ مُرَّاكُشَ عاصمةً لَهُمْ منذ (932هـ/ 1525م). كُلُّهَا تَحوُّلاتٌ جعلت مِنَ المَمَرِّ قلباً نابضاً لَها. فالتصقت بِبعضِ المحطَّات، التي أُقيمت على مَرَاحِلَ مِنَ المَمَرِّ، أَسْمَاءٌ مَخزنيَّةٌ كَمَجَالِ السُّلْطَانِ (Iger ugellid)، أَوْ أَكَلْكَالْ بالقُرب مِنْ وادي إِيشِّين. وهي المسالكُ التي مرَّت منها بِعْثَةُ الأَتْرَاكِ خلالَ عام (965هـ/ 1557م)، مُصَاحِبَةً للسُّلطان محمدٍ الشَّيْخ السَّعدي الآتي إليْها بِحَمْلَتِهِ من تَارُودَانْت، قبل أن يَغْتالُوهُ هناك وهو يتأهَّب لِكَسْرِ شوكة قبيلةٍ مُتَمَرِّدةٍ. ومِنْ بَعْدِ أَكَلْكَال تُوجد قلعةٌ تُسمَّى بَنْ تَاكَمُّوسْت، وهي إلى جانب مَثيلتها القَاهِرَةُ، لازالتا تَعيشَانِ وسطَ أذهانِنا ضِمْنَ خرائِبِ المَنطقة فقط، خَرائِبُ تَسْكُنُها البومُ. وتُفيدُ الرِّوايَةُ الشَّفويَّة أَنَّ القَائِدَ المُتسلِّطَ الذي شيَّدها فوق مَجالٍ خَالٍ مِنَ الموادِّ اللاَّزمَةِ للبناء، كان مُضطرّاً إلى أن يأتِي بالطِّينِ مِنْ أَمْسَكْرُود. ولَمَّا تُوُفِّيَ تَخلَّصت لِلتَّوِّ، قوافِلُ الجِمال مِنْ حُمولَتِهَا الطِّينية بِمجرَّد ما أُشْعِرَ سائِسُوهَا بِوَفَاتِهِ، فَبَقِيَتْ أَكوامُ الطِّينِ مُكدَّسةً في مَكانٍ يُقالُ له بِيكُودِين: وهو ما يَعني اليوم تَرَاكُمَاتٍ.

لِننتقِلْ إلى مَمَرِّ بِيبَاوْن، فنُسجِّل مع جاك بيرك مَجموعةً مِنَ المَسالِكِ الضَّارِبَةِ باتِّجاهاتِها في الجبال:

أ) مَسلكٌ في اتِّجاه الغرب: حيثُ يوجدُ إِدَاوْزِيكِي؛ يَنطلقُ من تِيمْزْكَادِوِين تُورْبَخِّين إلى حدود تِشْكَا حيثُ إِدَاوْ مَحْمُود، إِيفْرِكِيك، تَامَارْوُت، في مجالات إِرْغِيتَا.

ب) يَمُرُّ المسلكُ الثَّانِي مِنْ إِدَاوْ مَحْمُود؛ إِذْ يَنطلقُ من تِيمْزْكَادِوِين إلى تَافِيلاَلْت. ويَمُرُّ من تُاكُودَاشْت حيثُ إِدَاوْ زَال، ثُمَّ تَلِيزَّا حيثُ إِرْغِيتَا.

ج) يَنطلِقُ المسلكُ الثَّالِثُ من تِيمْزْ كَادِوِين عبر أَرْكَانَةَ، وإِدَاوْ زِيكِي تِيزِي.

د) يَنطَلِقُ المَسلكُ الرَّابع مِنَ النُّقطة نفسِها؛ أَيْ مِنْ تِيمْزْكَادِوِين إلى أَرْكَانَةَ، ثُمَّ تِرْقُو، وَإِدَاوْ تُوخْسَّات.

ويرى بِيرْكْ أَنَّ المُنافسَةَ التي كانت تُحدِثُها هذه المَسالِكُ كانت، دون شَكٍّ، تُقْلِقُ راحَةَ السُّلطانِ المنصورِ السَّعدي؛ ولعلَّ ذلك راجعٌ لِكَوْنِها تقعُ خارجَ مُراقبتِهِ، وتعود بعائداتِها على غير السُّلطة المركزية السَّعدية. وتأتِي القوافلُ عبر المَسالِك نفسِها، مُحمَّلةً بالفِضَّةِ، من مَنَاجِمِ تَامَدُّولْت، وأَفَّا مُتَّجهةً إلى مُرَّاكُشَ عبر أراضي شِيشَاوَةَ في (ق10هـ/ 16م). وإذا كانت قبيلةُ دَمْسِيرَةَ قَدِ استفادتْ مِنْ عائدات هذه المَسالِكِ، إلى درجةٍ جعلتْها تتحكَّم فيما جاورَهَا مِنَ القبائِل، فَإِنَّ ذلكَ الازدهار التِّجاريِّ السَّابقِ سُرعانَ ما أَعْقَبَهُ أُفُولٌ واضِحٌ لِهذه القبيلة.

عندما مَرَّ الحسنُ الوَزَّانُ بِجبل قبيلة آيْتْ عبد الله حيثُ مَنْبَعُ وادي شِيشَاوَةَ[1] خلالَ عام (921هـ/ 1515م)؛ لاحظَ أَنَّ سُكَّان: *"هذا الجبل مُتوحِّشون جِدّاً، مُحاربون لجِيرانِهِمْ على الدَّوام. يَستعملون كأسلحةٍ أحجاراً يقذِفونَها بالمَقاليعِ، ويَعيشون على أكل الشَّعير، والعسل، ولحم الماعِزِ. ويَختلِطُ بِهِمْ كثيرٌ مِنَ اليهود، الذين يُزاوِلون في هذه الجبالِ مِهْنَةَ الحِدَادَةِ. ويَصنعون المَجارِفَ، والمَناجِلَ، وصفائِحَ الخَيْلِ. كما يَخدُمون في البِناء، الذي لا يُفيدُهُمْ فائدةً تُذْكَرُ؛ لأَنَّ الجُدرانَ تُقامُ بالآجر النِّيءِ والطِّينِ، وتُغَطَّى المنازلُ بِالقَشِّ، إِذْ لا يُوجد جيرٌ، ولا قِرميدٌ، ولا آجُرٌ. وجميع المنازل مَبنِيَّةٌ بِشكلٍ واحدٍ في الجبال التي تَحدَّثْنا عنها آنِفاً."*[2] والغريب في الأمر أَنَّ المُؤرِّخَ الإسباني مَارْمُولْ كَارْبَحَال يأتِي بِحوالي 35 سنةً بعدَ الوَزَّانِ، أي في حدود (957هـ/ 1550م)، لِيُصَوِّرَ المنطقة المذكورةَ على أنَّها كانت تَزْخَرُ بالحركة التِّجاريَّةِ، خصوصاً في الموادِّ المعدنيَّة، والتي –على حَدِّ قول بِيرْكْ- يَسَّرت تَعامُلَ سكَّانِها مع الغُرباء. لقد خلَّف لنا الحسنُ الوَزَّانُ مَعلوماتٍ قَيِّمَةٍ عن مَجموعةٍ مِنَ المدن، والمَدَاشِرِ، والمحطَّاتِ التِّجاريَّةِ، وأوضحَ ما أصاب بعضَها من دَمَارٍ وخرَابٍ. وهو وَإِنْ لَمْ يُشِرْ إلى ما آلَتْ إِليه مدينةُ القَاهِرَةِ،

---

[1]– مِنَ المعلوم أَنَّ هذا الوادي يَحملُ أسْماءً مُختلفةً حسب أهَمِّيَّة المَواقِع التي يَجري بِمُحاذاتِها. فهو لَمَّا يَمُرُّ بالقُرب من مَحالات سَكْسَاوَةَ يُسمَّى وادي سكْسَاوَةَ، وحين يَمُرُّ بالقرب من أنقاض مدينة القَهْرَا يُسمَّى وادي القَهْرَا، وهو حيثُما يتوغَّلُ في السُّهل يسمَّى وادي شِيشَاوَةَ.

[2]– الحسن الوَزَّان: "وصف أفريقيا" ج1، ص110.

المشيَّدَةِ من لدن فارس بْنِ ميمون وزيرِ السُّلطان المريني أبِي عِنانٍ، فَإِنَّ هذه الأخيرة باتت مَسرحاً للصِّراع الذي نَشَبَ بين الأَميرْيْنِ السَّعدِيَّيْنِ، المؤَسِّسَيْنِ للدَّولة السَّعدِيَّةِ، يومَ كانا يتنازعان على الحُكم. ونعني بِهما الأخويْن أحمد الأعرج ومحمَّد الشَّيخ، كان ذلك خلال عام (951هـ/ 1544م).[1] إذ زحف الأَوَّلُ بِجيوشه من مُرَّاكُشَ، فيما زحف الثَّانِي بِجيوشه مِنَ السُّوس وتَارُودَانْت. فالتقت جيوشُهما حول مدينة القاهرة. ولعلَّ ذلك ما كان سبباً في المزيد مِنْ تَخريبِها.[2]

وإذا كان الوَزَّانُ قد أمسك عَنِ الحديث عَنِ القاهرة فَإِنَّهُ، على العكس من ذلك، يَمُدُّنَا بِمعلوماتٍ قَيِّمَةٍ حول ما آلَتْ إليه مدينةٌ شِيشَاوِيَّةٌ أُخرى تُدعى الجُمُعَة، اندثرت بِدورِها، ولم يَعُدْ لَها أثرٌ إلى الآن، إلاَّ في نَصِّهِ الذي يقولُ فيه: *"مدينةٌ صَغيرةٌ تقع في السَّهل بالقُرب مِنَ النَّهر المَدْعُو شِيشَاوَةَ، على بُعد نَحو سبعةِ أَميالٍ مِنَ الأطلس. أَسَّسها الأفارقةُ، ثُمَّ احتلَّها الأعرابُ في العصر الذي انحلَّت فيه سلطةُ الموحِّدين، ولَمْ يَبْقَ من هذه المدينة غيرُ آثارٍ قديمة"* ويبدو كأنَّ الحسنَ الوَزَّانَ يَنْعَى هذه المدينة، لِكَونِها وقعت بين أَيْدِي الأَعراب، لِمَا ألحقُوهُ بِها من تَخريبٍ ودمارٍ. وربَّما

---

[1] – « Sources Inédites de l'histoire du Maroc »

[2] – لَمَّا زُرْتُهَا، بعد أن تَوَغَّلْتُ في الجبل مِنْ دُوِيرَانْ، ومَرَرْتُ بِقَلْعَتَيْ بُولَعْوَانْ وإِلُّودْجَانْ، وجدتُها مَطْمُوسَةَ المَعالِمِ، اللَّهُمَّ من بعض الحيطان التي أَطَلَّ واحدٌ منها على استِدَارَةِ وادى القِهْرَا مِنِ ارتفاعٍ مُمْتَنِعِ الصُّعود مِنْ جِهَةِ الوادى، بادِيَ التَّحْصِينِ.

نَسَفُوا زُرُوعَهَا، وخرَّبُوا أوطانَها وعُمرانَها، لَيْلِهِمْ إلى التِّرحال، ونُفورِهِمْ مِنَ الاستقرارِ. وفي هذا الباب يُضيف الوزَّانُ قائلاً:" ...*ولا يَزرَعُ الأعرابُ من أرضِها إلاَّ الجزءَ الذي يُنتِجُ كِفايَةَ قوتِهم، ويَتركون سائرَها بُوراً. وفي العهدِ الذي كانت فيه هذه المدينةُ مَسكونةً، كان إنتاجُها السَّنوي مِائَةَ ألفِ مِثقالٍ. وعددُ كوانينِها سِتَّةُ آلافٍ. وقد مررتُ بالقُربِ منها، ونَزلتُ عند أعرابٍ وَجدتُهم في غايةِ الكرم، لكنَّهم غادرون بِطبعِهِمْ خائِنُونَ*"

على هذا النَّحوِ تكونُ نِهايةُ (ق9هـ/ 15م) قد ختمت على أُفُولِ مدينتيْنِ شِيشَاوِيَّتَيْنِ هامَّتَيْنِ، لَمْ يَبْقَ منهُما سوى بعضِ الحيطان، يصعبُ -من خِلالها- إقناعُ أيٍّ كان بِأَنَّها كانت أساسات لِمدينةٍ، أو لِحِصنٍ. ويرى جاك بيرك[1] أَنَّ الأهَمِّيةَ الاقتصاديَّةَ التي كانت لِسَكْسَاوَةَ قد سُحِبت منها لِفائدة المِحور الذي يتوسَّط الأطلسَ الكبيرَ الغربِي، والذي بات مَركزاً حيويّاً اقتضى الاهتِمامَ به وتَأْمِينَهُ. ومِمَّا زاد مِنْ قَساوة ذلك التَّحوُّلِ هو التَّهميش الذي مارستْهُ السُّلطةُ السَّعديَّةُ في حَقِّ تُخوم الأطلس الكبير. إذ أَوْلَتِ اهتماماً كبيراً لِمحطَّاتٍ تجاريَّةٍ أُخرى كَالتْوَاتْ، والصَّحراءِ، والسُّودان حيثُ تُومْبُكْتُو، وكَاغُو، وتِيغَزَّى. ليس فقط، لِكون السُّلطة قد بسطت نفوذَها على المنطقة المُنهارةِ قبائِلُها، بل لِكون السُّلطة نفسِها اختارت أسلوباً غير الذي اختارَه سابقوها. ويُضيف بيرك أَنَّ بقايا قلعتيْنِ في إِيمِي نْ تَانُوتْ،

[1]- جاك بيرك: "سكساوة القديمة"، ص401.

وإن كانتا على شكل أَطلالٍ وحُطامٍ الآنَ، فهُما يُعبِّران على الطريقة التي تعامل بِها المَخزَنُ مع قبائِلِ الجبل الشِّيشَاوِي. إِذْ عَمِلَ على مُحاصَرةِ القبائل الشِّيشاويَّةِ في الجبل مِنَ النَّاحيَّةِ الجنوبيَّة، بالزَّحف الذي يَسَّرَهُ لِقَبَائِلِ أولاد أَبِي السِّباع مِنَ الصَّحراء نحو السُّهول الحوزيَّة، في شِيشَاوَةَ. ثُمَّ أُضيفت إِليها قبائلُ مَعْقِل المُتكوِّنَةُ مِنْ احْسَايْن، ومجَّاط، وإِذَاوْ بْلاَل، أَوْ ذُوبْلاَل وهو ما سَنُفصِّلُهُ، في ما لَحِقَ من هذا الفصل.

قبيلة أولاد أبي السباع و جيرانها
في شيشاوة

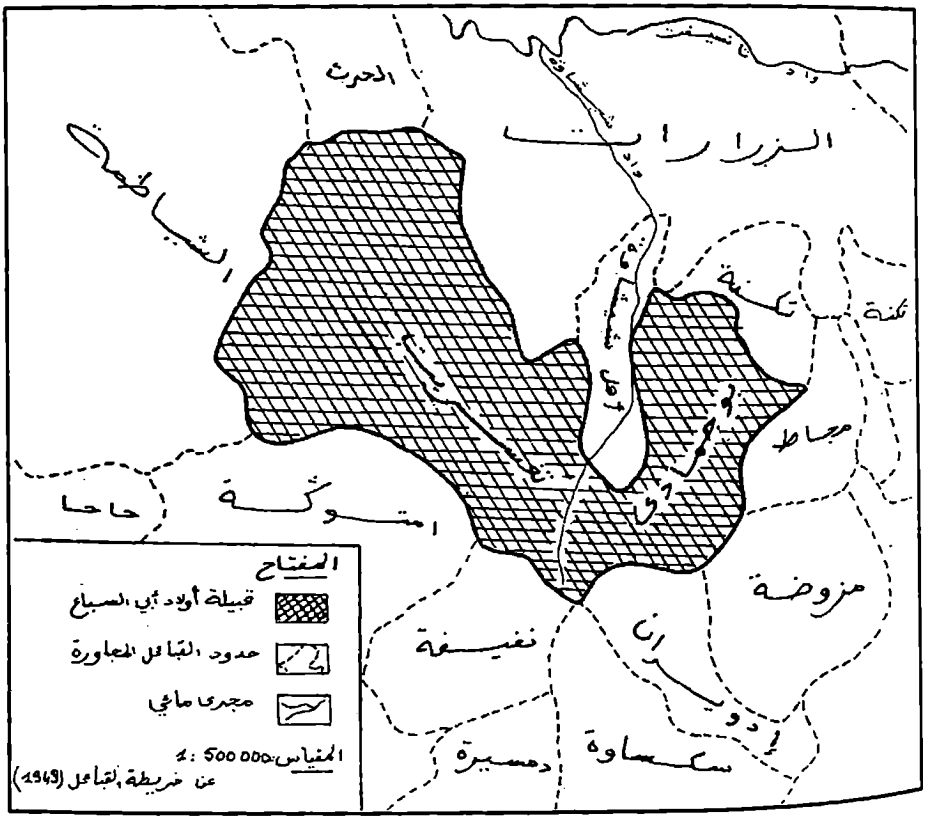

الباب الرابع

الرِّيادَةِ الثقافِيَّةِ فِي قبائل شيشاوة

الفصل الأول:

رِيادَةُ قبيلة سَكْسَاوَةَ

الفصل الثاني :

حَمْلُ المِشْعَلِ من لَدُن أولاد أبي السِّباع

الفصل الثالث:

قبيلة مْزُوضَة المُسْتَنْبِفَة

الفصل الأوَّل
رِيادَةُ قبيلَةِ سكساوةَ

أوَّلاً: عودٌ على بَدْءٍ:

إذا كان بنو مرينَ حُكَّامُ فاسَ، في القرنَيْنِ الميلادِيَّيْنِ الرَّابعِ والخامِسِ عشر، قد أهْمَلُوا الجَنُوبَ بِما فيه مُرَّاكُشَ وأحوازِها، وأوكَلُوا أمورَ تدبيرِ هذه الجِهَةِ مِنَ المغرب للهَنتاتِيِّينَ، عُمَّالِهِمْ على مُرَّاكُشَ، وعلى نواحيها في سُهُولِ شيشاوةَ وجِبالِها؛ فَإِنَّ ذلك لَمْ يَمنَعْ مِنْ ظُهور حَرَكَةٍ ثقافيَّةٍ في الجَنوب، وعلى الخُصُوصِ في المَجالِ الذي تناوَلْنَاهُ. ولعلَّ من أبرزِ وُجوهِهَا نذكُرُ الهَرْمِيري في اغمات، وابنَ البَنَّاءِ في مُرَّاكُشَ، وحَدُّو يُوسُف، وابنه عامرٌ، وحفيده عبدُ الله، والوليَّة الصَّالِحَة للاعْزِيزَةَ في قبيلة سكساوةَ الشِّيشاويَّةِ، دون أن ننسى البُوشْوَارِي الشُّوشَاوِي الذي أبَى العلاَّمَةُ الرَّاحِلُ، عبدُ الله كَنُّون، إلاَّ أن يُلَقِّبَهُ بِسَيُوطِي المَغْرِبِ. وعلى العُموم برزَتْ أعلامٌ في الجنوبِ المغربي بَصَمَتِ الثَّقافَةَ المغربيَّةَ بِكِتاباتِها، أو بِتَلْقِينِها العِلْمَ لأَعلامٍ أُخرى في مُرَّاكُشَ، أو في فاس.

ثانياً: حَدُّو يوسف السَّكسيوي:

تَقْتَرِنُ بِدايَةُ الصَّحْوَةِ الثَّقافيَّةِ في شيشاوةَ من خِلالِ بعض الإشارات المُنْتَثِرَةِ في المَصادِرِ الوسيطِيَّةِ الخاصَّةِ بِشُيُوخِ قبيلة سكساوةَ، الذين انتهت إلَيْهِمُ المَهارَةُ في تَلْقينِ الكثيرِ مِنَ العُلُوم الشَّرْعِيَّةِ، والعَقليَّةِ منذ القرن

الثَّالث عشر للميلاد. ولنا هُنا، إن أردنا التَّأصيلَ للصَّحوةِ الثَّقافِيَّة في شيشاوةَ، أن نُدْرِجَ من جديدٍ، شهادَةَ ابن خلدون في حَقِّ شيخِ قبيلة سكساوة حَدُّو يُوسُف، إذْ يقولُ: *"وكانَ رَئِيسَهُم في ذِكْرِنَا بَعْدَ انْقِرَاضِ عَبْدِ المُؤمِنِ* [الموحِّدين] *حَدُّو يُوسُفْ، -وَحَرَّرُوا لِسَانَ الأَعْجَمِينَ- هُوَ عَبْدُ الوَاحِدِ، وَكَانَ لَهُ فِي الاِسْتِيْدَادِ وَالصَّرَامَةِ ذِكْر. وَهَلَكَ سَنَةَ ثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ* [680هـ/ 1282م]. *وَكَانَ مُنْتَحِلاً لِلْعِلْمِ، واعِيَةً لَهُ، جَمَّاعَةً لِكُتُبِهِ ودواوينِهِ، حافِظاً لِفُرُوعِ الفِقْهِ، يُقالُ إِنَّ المُدَوَّنَةَ كانت مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ، مُحَيِّاً في الفلسفة، مُطالعاً لِكُتُبِهَا، حريصاً على نتائِجِهَا من عِلْمِ الكيمياء والسِّيمياء والسِّحْرِ والشَّعْوَذَةِ، مُطَّلِعاً على الشَّرائِعِ القديمةِ والكُتُبِ المُنَزَّلَةِ بِكُتُبِ التَّوْرَاةِ، ويُجالِسُ أَحْبَارَ اليَهُودِ حتَّى لَقَدِ اتُّهِمَ في عَقِيدَتِهِ وَرُمِيَ بِالرَّغْبَةِ عَنْ دِينِهِ."* [1] ويشهَدُ المؤرِّخُ نفسُهُ الشَّهادَةَ ذاتِها في حفيدِهِ عبدِ الله السَّكسيوي الذي مشى -على حَدِ قوْلِ ابن خلدون- على سُنَنِ جَدِّهِ حَدُّو. كما يترُكُ لنا ابنُ قنفُدِ القُسنْطيني في كِتابِهِ "أُنْسُ الفقيرِ وعِزُّ الحقيرِ"، شهادةً قيِّمةً في حَقِّ الوليَّةِ للاعْزِيزَة، شارَكَهُ فيها بِإِعْجابٍ غريبٍ، عامِرُ بْنُ محمَّدٍ الهنتاتي، عامِلُ سلطان بني مرينَ على مُرَّاكُشَ ونواحيها، سبقَ وأَدْرَجْناها فيما أَنِفَ من هذا البحث. تُبيِّنُ بِجَلاءٍ، أنَّ هذه الوليَّةَ الصُّوفِيَّةَ قد كانت من بين صُوفِيِّي المغربِ، أوَّلَ مَنْ أسَّسَ لِما سُمِّيَ بِنِظامِ الطَّائِفِ في التَّصَوُّفِ، إلى جانب كُلٍّ مِنْ أبِي زكريَّا الحاحي، والهَزْمِيري.

---

[1]- عبد الرَّحمن بنُ خلدون: "العِبَرُ" ج 7 ص 355.

ثالثاً: عبد الله السَّكسيوي:

يأتي دورُ عبدِ الله السَّكْسِيوِي بْنِ عُمَرَ، أو عامِرٍ، وحفيدِ عبدِ الواحِدِ، أو حَدُّو يُوسُف، ليؤكِّدَ أَنَّ الاهتمامَ بالعلوم، وكذا بالرِّئاسة (المَشْيَخَةِ) داخل قبيلة سَكْسَاوَةَ في شيشاوة كانا أَمْرَان مُتوازيَيْن. ولعلَّ خاصِّيةَ عبدِ الله السَّكسيوِي هذا، تكمُنُ في طول المدَّة التي بَقِيَ فيها أميراً على سَكْسَاوَةَ، إذِ امتدَّت إلى أواخر عام (762هـ/ 1360-1361م)؛ أي إلى عهدِ السُّلطانيْنِ المُتعاقِبَيْنِ على الحُكمِ في ظَرْفِ عامٍ واحدٍ، في زمنِ انْهِيارِ دولة بني مَرِينَ: أبو عُمَرَ تاشفين (762هـ/ 1361م)، وأبو زيَّان محمَّد (763هـ/ 1362م). وإذا كان الأمرُ قَدِ التبسَ على ابنِ خلدون في كِتابه "العِبَرِ"، كما سبق وأشرنا إلى ذلك أثناء تتبُّعِهِ لِتسلسل شجرة أُمراء سَكْسَاوَةَ، فإنَّ ذلك راجعٌ إلى عدم زِيارَتِهِ لِمُرَّاكُشَ وأحوازِها، سواءٌ السَّهليَّةَ منها، أَوِ الجبليَّة؛ -وهو شيءٌ نَأْسَفُ له- واكتفائِه بتحصيل بعض أخبار المصامدةِ بِالرِّواية الشَّفويَّة، فقط.[1] إذ قدَّم لنا عبدَ الله السَّكْسِيوِي على أَنَّهُ ابنُ عبدِ الوَاحِدِ، وإِنَّمَا الصَّوابُ أَنَّهُ حفيدُه: أي ابْنُ بْنِ حَدُّو عُمَرَ السَّكْسِيوِي. وهو يقول خَطَأً، بعد انتهائِهِ مِنْ تقديم عبد الواحد: *"ثُمَّ كان ابنُه عبدُ الله مُقتفياً سُنَنَ أبيه في*

---

[1]- ويقدم لنا ابن خلدون شهادةً في آخرِ الأسطُرِ التي خَصَّ بها قبيلةَ سكْسَاوَةَ قائلاً: "ثم خرج عليهم لأعوامٍ من استقلاله ابْنُ عَمٍّ له من أهل بيته، لَمْ يُنْقَلْ لِي من تَعريفه إلاَّ أنَّ اسْمَهُ عبدُ الرَّحمن، لأنَّ ثورتَه كانت بعد رِحْلَتِي الثَّانيَةِ مِنَ المغرب (776هـ-1377م)، فأخبرَنِي الثِّقاةُ بأمره.ابن خلدون: "العِبَرُ"، ج6، ص356.

ذلك، وخصوصاً في انْتِحال السِّحر والاِستِشرافِ إلَى صَنعة الكيمياء."[1]

غير أَنَّ ابْنَ خلدون، وإن لم يَتَحَدَّثْ عن دَوْرِ هذه الإمارة (سَكْسَاوَةَ) في تنشيط الثَّقافة في شِيشَاوَةَ، فَإِنَّ المستوى العِلمي الذي قدَّم به الأُمراءَ الثَّلاثة الأوَائل: عبد الواحد السَّكسيوي، وهو المَعرُوفُ اليومَ بِآيت حَدُّو يوسف، المدفونُ وسط الجِبالِ المُتاخِمَةِ لِلجبل عن يسار مَسْلَكٍ يُدعى تِمْزْكَدِوِين، على الطَّريق المُؤَدِّيَة من إيمي نْ تَانُوتْ إلى أكادير؛ وعامِرْ، وهو المدعو سيدي اعْمَرْ، غيرَ بعيدٍ عن مَدْفَنِ أبيه؛ ثُمَّ عبد الله، المدفونُ غيرَ بعيدٍ عَنِ الوَلِيَّة الصَّالِحة للأَعْزِيزَة. وكذا الفترة الزَّمنية الطَّويلة التي غطَّوْها أثناء حُكمِهِم للإمارة، ومَدِّ نفوذِهِمْ –مِنْ خِلالِها– على القبائل المجاورة، كافيان لِتوسيع الإشعاع الثَّقافي في المناطق الجبليَّة المذكورة إبَّانَ العصر المرينيِّ الأوَّل، وما بَعْدَهُ.

رابِعاً: مكانةُ الولِيَّةِ للأَعْزِيزَةِ مِنَ الكِتابات التَّاريخية:

كان في الإمكان أَنْ نَستعرِضَ مُختَلِفَ الرِّوايات الشَّفويَّة الخاصَّةِ بالوليَّةِ الصَّالِحة للأَعْزِيزَة، على تعدُّدِهَا؛ وكُنَّا إذ ذاك، سَندخُل لا مَحالَة، في دَوَّامَةٍ مِنَ المرويات، لو لَمْ نعثر على النَصِّ التاريخيّ الذي جَنَّبنا عَناءَ الانتِقاء. النَّصُّ لِرَحَّالَةٍ جزائِرِيٍّ انْطلق مِنْ مَوطِنه، خلال القرن (ق8هـ/ 14م)، من قُسَنْطِينَةَ مُقتفياً أخبارَ الأولياء الصَّالحين عبرَ الجِبال التَّالية: خَشْكُو، والمَقْطَع، وَأَوْرَاس، ثُمَّ جِبَالَ دَرَنْ في الأطلس الكبير

[1] – ابن خلدون "العبر" ج6، ص356.

الغربي. بدءً بالوَلِيِّ الجزائري الصَّالِحِ أبِي مَدْيَنَ الغُوثْ، إلى أن وصلَ إلى الوَلِيَّةِ لَلاَّعْزِيزَةَ، فالتقى بِها خلال سنة (763هـ/ 1362م)، في عهد حُكم السُّلطان المريني أبِي زَيَّانَ محمَّدٍ، فسجَّلَ لنا ما يلي:[1] *"ورأيتُ منهم بالمغرب الأقصى في طَرَفٍ، سَكْسِيوِيَّةً مِنْ جبل دَرَنْ بِمَوْضِعٍ يُقال له القَاهِرَةُ، الحُرَّةَ عْزِيزَةَ السَّكْسِيوِيَّةَ. وتبرَّكْتُ بِها، وجَلَسْتُ مَعَهَا وهِيَ مُتَوَجِّهَةٌ في صُلْحٍ بين فِئَتَيْنِ عظيمَتَيْنِ. ولَها أَتباعٌ مِنَ الرِّجال وأَتباعٌ مِنَ النِّساء. وكُلُّ طائِفَةٍ اشْتَغَلَتْ بالمُجاهدة والعِبادة، في جهةٍ ما تَخُصُّها. ويُضْرَبُ لَها قَيْطُونٌ بالوَسَطِ، بِمَقْرُبَةٍ مِنْ طائفةِ النِّساء. ولا يَتحرَّك أحدٌ إلاَّ عن أَمرِها. وإذَا جَلَسَتْ للنَّاسِ تُلقِي عليْها كِساءً ولا تَتْرُكُ فيه مِنْ أَينَ يُنْظَرُ إِلَيْهَا..."* يُعتبَر الرَّحَّالَةُ ابْنُ قُنفذٍ القُسَنْطِينِي أحدَ المؤرِّخين والرَّحَّالة القلائِلِ، الذين ساعَدُونا على إِدْرَاكِ أَنَّ الزَّوايا الصُّوفِيَةِ في المغرب خلال (ق8هـ/ 14م)، كانت تعتَمِدُ طريقَةَ، أو نِظَامَ الطَّوائِفِ،[2] وأَنَّ شِيشَاوَةَ كانت مَقَرّاً لِهذا السُّلوك الصُّوفِيِّ في شخص إِمارة سَكْسَاوَةَ خلالَ الفتْرَة نفسِها، على يَدِ الوليَّةِ لَلاَّعْزِيزَةَ. يَتَّضِح أيضاً، أَنَّ مدينةَ القَاهِرَةِ: القِهْرَا، قَدِ اكتسبت شُهرةً إلى حَدٍّ أَنَّ المؤرِّخَ ابْنَ قُنْفُذٍ قد حَدَّدَ المجالَ الواسِعَ لِسَكْسَاوَةَ بِها قائِلاً: *"مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ القَاهِرَةُ"*. كما أفادَنا في الوقوف على المكانة التي كانت

---

[1]- أبو العبَّاس أحمد الخطيب، اشتهر باسم ابن قنفذ القسنطيني، توفِّيَ في عام: (810هـ/1407-1408م).

[2] – ملاحظةٌ أبداها الباحثُ السُّوسيولوجي المغربي عَلِي أُومْلِيلْ في كِتابِه "الخطاب التاريخي".

للوليَّةِ الصَّالحة وإلاَّ لَمَا سَعَتْ في الصُّلح بين فِئَتَيْنِ، أغلَبُ الظَّنِّ أنَّهما قبيلتان تَنازعَتَا في عهدِها فاستَدْعَتْهُمَا، أو سَعَتْ إِلَيْهِمَا.

ثُمَّ ينقُل لنا صورةً عنها يَحْسِمُ -مِنْ خِلاَلِها- في اللَّبْسِ الذي شَابَ الرِّوايات المنقولة عنها، فَيُقَدِّمُها على وَقَارٍ، وكأنَّها مُسْتَبِدَّةٌ لا يتحرَّك أحدٌ إلاَّ عن أمرِها، وعلى احتشامٍ جَعَلَها تضَعُ خِمَاراً على وجهِها، لا تَتْرُكُ فيه ما يُنْظَرُ إليها منه. ثُمَّ يُضيفُ النَّصُّ قائلاً: *"وهي فَصيحةٌ جِدّاً في أَجوبَتِها وأَوامرِها وَوَعْظِها، ورَأَيتُ النَّاسَ يَتَزاحَمونَ عليها، وما رَأَيتُ أَلْيَنَ من كلامِها في السُّؤَالِ عَنِ الحال. ولَها كراماتٌ مَشهورةٌ..."* هكذا يَصِفُ ابْنُ قُنفدٍ لِسَانَ الوليَّةِ بالفصاحة، وهو ما أهَّلَها لأنْ تَحمِلَ مِشْعَلَ الثَّقافة الذي أَوْقَدَ نورَهُ مِنْ قَبْلُ، أُمَرَاءُ سَكْسَاوَةَ. ولعلَّ ابْنَ قُنْفُدٍ يَعنِي بالفصاحة هُنَا تَمَكُّنَهَا مِنَ اللُّغة العربيَّةِ، لأنَّهُ يَضَعُ الوَعْظَ علاَمةً من علاماتِها. والوعظُ غالباً ما يَتِمُّ في التَّعاليم الإسلامية إمَّا بالاِعتماد على الكِتاب، أَوِ الأَحاديث، أَوِ إجْماع الفُقهاء. ثُمَّ يذكُر اشتهارَها بين النَّاس بالكَرَامَاتِ، غير أَنَّ إِمْسَاكَهُ عَنِ الإِتْيَانِ بأمثلةٍ عن ذلك، جعل الأَلْسِنَةَ تَجتهدُ في نَسجِها عنها إلى اليوم. كيفما كان الحالُ يُضيفُ ابْنُ قُنْفُدٍ قائلاً: *"رَكِبَ إِلَيها الرَّئيسُ الشَّهيرُ صاحبُ مُرَّاكُشَ عامرُ بْنُ محمَّدٍ الهنتاتي، وجلس مَعَهَا كَثيراً. وقال لي بعدَ أَنِ انْفَصَلَ عنها (يا فَقيهُ، هذا هُوَ العَجَبُ، تُبادِرُني بالجواب عَمَّا يَخطُر في نفسي وما قَدَرْتُ أَنْ أُراجِعَهَا في كُلِّ ما طلبت مِنِّي. وما رَأَيتُ أَنْفَذَ من حُجَّتِهَا فيما تَحْتَجُّ عَلَيَّ بِهِ في الذي يُتَوَقَّفُ فيه). وكان عَامِرُ بْنُ محمَّدٍ مِنَ الأَذْكِيَاءِ الفُصحاء، الذينَ لا يُقْهَرونَ بِحُجَّةٍ. وهو مِنَ العُظماء ورُؤَسَاءِ الدُّنيا،*

كلامُهُمْ في ذلك حُجَّةٌ. وكان في جيشٍ صَحِيحٍ يَزِيدُ عَنْ سِتَّةِ آلاَفٍ. وأقامَ حَرْكَةً بِبَالِ جَزِيلٍ".

إذا كان ابْنُ قُنْفُذٍ قد عاصر زُكُوك عامِرِ بْنَ محمَّدٍ الهنتاتِي إلى لَلاَّعْزِيزَةَ في سَكْسَاوَةَ، فإنَّ ذلكَ يُساعِدُنَا على التَّعرُّف على الفترة التي عاشت فيها الوَلِيَّةُ. وإذا ما سلَّمنا بِأَنَّ السُّلطانَ المرينيَّ أبا عِنانٍ كان قد نصَّب عامِلَهُ عامراً بْنَ محمَّدٍ، مُباشرةً بعد تشييدِ القَاهِرَةِ: أي في حدود عام (755هـ/ 53-1354م)، فَإِنَّ زيارة عامِرٍ للوليَّة لا يُمكن أن تَتِمَّ إلاَّ بعدَ تغيينِهِ، بِعَشْرَةِ أعْوامٍ، أقلُّ، أو أكثرُ، ويُرَجَّحُ أن تَكونَ خِلاَلَ إمْرَةِ عبدِ الله على قبيلة سَكْسَاوَةَ. هذا، ويُقدِّمُ لنا المؤرِّخُ نفسُه عامراً الهنتاتِي على أَنَّهُ صاحبَ مُرَّاكُشَ، وأَنَّهُ مِنَ الأذكياء الفُصحاء الذين لا يُقهَرُون بِحُجَّةٍ. والواقِعُ أَنَّ ابْنَ قُنْفُذٍ لَمْ يتفرَّدْ بِهذا الوصف لِعَامِرٍ، وإنَّما ترك لنا لِسانُ الدِّينِ بْنُ الخَطِيبِ وصفاً يفوقُ هذا الذي قبلَه تنميقاً وتدقِيقاً، إذْ يقولُ: *"وَقَدَّمْتُ بين يَدَيْ وَصْلي إِلَى مُرَّاكُشَ المُخَاطَبَةَ إِلَى عَمِيدِ تلكَ البِقَاعِ، وشَاهِ تِلْكَ الرُّقْعَةِ، صَدْرِ هذه الحُدود القُصوى، المُتميِّزِ بالرَّجاحَةِ والرَّأْيِ والسِّياسة، المُتَّفَقِ فيه على إِفَاضَةِ العَدْلِ وكَفِّ اليَدِ، والتَّجافي عن مال الجِبَايَةِ، والمُستأْثِرِ إلى النُّبلِ الذي لا يَطِيشُ نُبْلُهُ، والإِدْرَاكِ الذي لا يَفِلُ حَدُّهُ، والدَّهَاءِ الذي لا يُسْبَرُ غَوْرُهُ، والمَعروفِ الذي لا يَتَجاوَزُ مُحَالَ الضَّرورَةِ حِمْيَتُهُ، عامِرُ بْنُ محمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الهنتاتي."*[1] وإذا كان المُؤرِّخان مَعاً، قد أجْمعا على وصف عامِرٍ بالدَّهاء

[1]– لسان الدين بْنُ الخطيب: "نُفَاضَةُ الجِرَابِ فِي عُلاَلَةِ الاِغْتِرَابِ" ص: 43.

وقوَّة الحُجَّةِ والرَّجاحة والرَّأي والسِّياسة؛ فَإِنَّ عامِراً، على الرَّغْمِ مِنِ امْتِلاكِه لِكُلِّ هذه الصِّفات، قد صرَّحَ باستغرابٍ لابن قُنْفُذٍ، بِأَنَّه وهو يُحَدِّثُ عْزِيزَةَ، كأَنَّما رأى العَجَبَ من تِلكَ المرأة الصُّوفية، خصوصاً عندما كانت تُبادرهُ بالجواب عَمَّا يَخطُر بِبَالِهِ وطَوِيَّتِهِ. وكأَنَّما كانت على إِلْمامٍ بأُمورِ السِّياسة والدِّينِ والحِكْمَةِ. إِذْ عجز عَنْ مُراجَعَتِهَا في كُلِّ ما كانت تَحتجُّ عليه به. فهل معنى هذا أَنَّ الخَوْضَ في مُختلِفِ العُلوم العقليَّة، والدِّينية، والسِّحْرِ، والكِيمياء، والسِّيمياء، والشَّعوذة لَمْ يكن حَكْراً على أُمراء سَكْسَاوَةَ، وفُقَهائِها فقط، وإِنَّما امْتَدَّ إلى النِّساء السَّكْسِيوِيَّاتِ منذ (ق8هـ/ 14م)؟! إذا كان ابْنُ قُنْفُذٍ قد قدَّم لنا حُجَّةً دامِغَةً في كون هذه المرأة قد خاضت في العلوم بِمِثْلِ ما خاض به غيرُها مِنْ أمراء قبيلَتِها، بل وبَرَعَتْ في الخوض بِشهادَة عامِرٍ، الوالِي الذي لا يُقْهَرُ بِحُجَّةٍ، فإِنَّهُ كان لِهذه السَّيِّدة أَتْبَاعٌ مِنَ النِّساء، وآخرون مِنَ الرِّجال، وهو ما يُبَيِّنُ أَنَّها كانت تَنْظِمُ لَهُمْ أَوراداً، وأَمداحاً، وأقوالاً وطُقوساً. وعليه، فَإِنَّ ما كان يَملأُ جُعبَتَهَا مِنِ اهْتماماتٍ عِلْمِيَّةٍ كان قَدِ امتدَّ، لا مَحالَة، إلى تابعيها مِنَ النِّساء والرِّجال، إنْ بالاِستِماع، أَوْ بالقِراءَةِ، أو بالتَّلقين. فهل مَعنَى هذا أَنَّ سَكْسَاوَةَ قد سبقت إلى إِشْرَاكِ النِّساء والرِّجال في الاِهتمام بِمُختلِفِ العُلوم منذ (ق8هـ/ 14م)؟

سبق وأشرنا إلى ذكر ابْنِ قُنْفُذٍ القُسَنْطِينِي لِمَكَانة الوليَّة عزيزة لدى مُمَثِّلِ السُّلطان المريني على مُرَّاكُشَ وأحوازِها، عامِلِهِ عامرِ بْنِ محمَّد الهنتاتِي، يوم أمرته بالرُّجوع عن السَّكسيويِّين، وحَقَنَتْ دماءهم، *وأَلْزَمَتْ له طاعة*

السَّكْسيوي. فرجع وجاءَه كِتَابٌ بِخدمَتِهِ، وطاعَتِهِ. كذلك ختم ابْنُ قُنْفُذٍ القُسَنْطِيني حديثَه عن لَلاَّعْزِيزَةَ، مُوضِّحاً أَنَّهَا ضَمِنَت لِعامرِ بْنِ محمَّدٍ الهنتاتي طاعةَ أمير سَكْسَاوَةَ، وتكفَّلت بِها. بل إِنَّهُ سرعان ما عاد إلى مُرَّاكُشَ، نُزولاً عند رغبتِها، فبعثت إليه فيما بَعْدُ، بِكِتابٍ يشهدُ على طاعة أمير قبيلَتِها، وإِذْعانِه. وهي حُجَّةٌ أُخرى على عُلُوِّ شأنِها بين أُمراء سَكْسَاوَةَ.

خامِساً: الفقيهُ البُوشْوَارِي الشُّوشاوي نَمُوذجاً:

كُلُّ القَرائِنِ تَدُلُّ على أنَّ البُوشواري الشُّوشاوي وُلِدَ في مُستهلِّ القرن التَّاسِعِ الهِجري(800هـ/ 1398م)، وأنَّ أوَّلَ تأليفٍ عُرِفَ له كان خِلال عامِ (841هـ/ 1438م)، وهو كِتابُ "الفوائِد الجميلة على الآيات الجليلة".[1] عاصر الشُّوشاوي فترةَ نِهايَةِ حُكْمِ دولَة بني مَرِينَ، التي تَمَيَّزَتْ باستِبداد الوزراء، والحُجَّاب على حُكمِهِمْ في فاس؛ وعاصَرَ كذلك، أوائِلَ الدَّولَةِ الوطَّاسية، التي لا تَقِلُّ تأخُّراً عن سابِقَتِها. ففي بِدايَةِ انهِيار دولة بني مرين، بعد مَقتَلِ السُّلطان أبي عِنانٍ على يَدِ وزِيرِهِ الحسن الفَوْدُودِي، بات السَّلاطينُ الذين تَعاقَبُوا على الحُكم بعدَهُ، أُلعُوبَةً في أيدي الوُزراء

[1]- أبو عَلِيٍّ بْنُ الحُسيْنِ بْنِ عليٍّ بْنِ طلحَةَ الرَّجراجي الشُّوشاوى: "الفوائِدُ الجميلةُ على الآياتِ الجليلةِ" دِراسة وتحقيق إدريس عزُّوزى، أستاذ بكلية الشريعة بفاس. وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلامية: عام (1409هـ/1989م). نَوَدُّ هنا أن نَشْكُرَ جزيلَ الشُّكر صديقَنا النَّاقد والباحِث والمُتَرْجِم محمَّد آيت العميم، الذى وافانا بنُسخة مُحقَّقَة من هذا الكِتابِ النَّفيس، حالَما أخبرْناهُ بانكِبابِنا على التَّمحيص في الجانب الثَّقافي لِشيشاوة.

والحُجَّابِ؛ يتصرَّفون في شُؤُون الدَّولَةِ تَصَرُّفاً مُطْلَقاً: *"يولُّونَ من شاءُوا، ويَخلَعون مَتَى أرادوا"* [1] وفي عهد حُكْمِ دولة الوطَّاسيِّين، الذي دام من عام (823هـ/ 1420م) إلى (957هـ/ 1550م) تغيَّرت أحوالُ المغرِبِ في جميع مَرَافِقِ الحياة، فحلَّت بِهِ نوائِبٌ، ونكباتٌ كان غزْوُ البُرتُغال للشَّواطيء المغربيَّة أبرَزَها. ومِنْ أشَدِّ الفِتَنِ ضراوةً التي حلَّت بِالمغرِبِ وعاصَرَها الشُّوشَاوي، ما وَقَعَ في بِلادِ السُّوس مِنِ اتِّهامٍ للفُقَهاءِ باسْمِ تَعالِيم الشَّيْخِ الجزُولي، نذكُرُ ثورَةَ عُمَرَ بْنَ سُلَيْمانَ السَّيَّافِ؛ إذ دامت أزْيَدَ من عِشرِينَ عاماً، ذهب ضحِيَّتَها كثيرٌ مِنَ الفُقهاءِ. وقد كان عَمْرُو السَّيَّافِ هذا –على حَدِّ قَوْلِ النَّاصِري– [2] تِلميذاً للشَّيْخِ أبي عبدِ الله محمَّدِ بْنِ سُلَيْمان الجزولي، صاحِبِ كتاب "دلائِل الخيرات" المُتوفَّى عام سبعين وثَمانِمائَةٍ، حسب ابن عسكر صاحِبِ "دوحة النَّاشِرِ".

بالرَّغْمِ من دلالَةِ اسمِ الشُّوشَاوي على أصلِهِ، فإنَّهُ تقلَّبَ بين أساطينِ العِلْمِ، التي توفَّرَتْ في حياتِهِ بالسُّوس. ويَصِفُ لنا العلاَّمة المُختار السُّوسي الأجواءَ الثَّقافيةَ لِهذا الإقليم، خِلالَ القرن (9هـ/ 15م) فيقول: *"كان القرنُ التَّاسِعُ قرْناً مَجيداً في سوس، ففيه ابتدأتِ النَّهضَةُ العلمِيَّةُ العجيبَةُ التي رأينا آثارَها في التَّدريس والتَّأليفِ، وكثْرةِ تَداوُلِ الفُنون، قد شاركت سَمْلالَةُ، وبَعْقيلَةُ، ورَسْمُوكَةُ، وآيت حَامْد، وأَقَا، والجَرْسِيفِيُّونَ، والهَشْتُوكِيُّونَ،*

---

[1] – النَّاصِري: "الاستقصا" ج 4 ص 34.

[2] – النَّاصِري: "الاستقصا" ج 4 ص 122.

والوَادْنُونِّيونَ، والطَّاطَائِّيونَ، والسَّكْتَانِّيونَ، والرَّأْسَلْوادِّيون، وغيرهم فيها... حتَّى كان ما يُدَرَّسُ في القرويِّين يُدَرَّسُ في سوس" [1].

ومِمَّا يَدُلُّ على أنَّ شيشاوة كانت تَزْخَرُ بالعِلْمِ والعُلماءِ، أُسَراً عن أُسَرٍ، هو شهادةُ المُختار السُّوسي في كِتابِه خِلال جزولة من أنَّ فقيهاً سِباعِيّاً، لَمْ يُصَرِّحْ بِاسْمِهِ، حَدَّثَهُ: *"أنَّ والِدَ الشُّوشاوي* [عليُّ بْنُ طَلْحَةَ] *كان مَشهوراً في شيشاوة في القِراءات."* [2] وللشُّوشاوي جُذورٌ في ركراكة، يُفصِحُ عنها نسَبُهُ، الذي استَخْلَصَهُ مُحَقِّقُ كِتابِهِ المذكور مِمَّا نقلَه عَنِ المُختارِ السُّوسي من مَشْجَرِهِ، إذ يقول: *"سيدي حُسَيْنٍ الشُّوشاوي، من ذُرِّية سعيدِ بْنِ يَبْقَى وهو عبدُ الله أَحَدُ الرِّجال السَّبعة المشهورين من أسلافِهِ رجراجة، وهو حُسَيْنُ بْنُ عليِّ بْنِ طلحةَ بْنِ عبد الرَّحمن بْنِ محمَّدٍ، دفينُ فُروكَةَ بْنِ سعيدِ بْنِ عبد الله."* [3] وللرَّجراجيين أيضاً، جذورٌ أصليَّةٌ ما بين شيشاوة، واحْمَر، والشْيَاظْمَة حيثُ أضرِحَةُ أسلافِهِمْ، ولَهم فُرُوعٌ في السُّوس.[4] وقد شَهِدَ العلاَّمة الرَّاحِلُ سيدي عبد الله كَنُّون شهادةً صريحةً في البُوشْواري

---

[1] - المختار السُّوسي: "سوسُ العالمة" ص 20.

[2] - المُختار السُّوسي: "خلالَ جزولَة" ج 4 ص 161.

[3] - أنظر كتاب "الفوائدَ الجميلة" ص 43.

[4] - يذكر صاحبُ سِلْوة الأنفاس الرِّجالَ السَّبعةَ لرجراجة، فيقول: "هُمُ السَّيِّدُ واسْمِينْ دَفِينُ جبلِ الحديد، والسَّيِّدُ أبو بكرٍ أَشْماس دفينُ زاوية أقرمود بسفحِ الجبل من جهةِ البحر، ووالِدُه السَّيِّد صالح بن أبي بكرٍ وسيِّدى عبد الله أَدْناس بالمَشْهد، والسَّيِّد عيسى بوخَابِيَةٍ على وادى تانسيفت أيضا، والسَّيِّدُ يَعْلَى دفين رباط شاكر، والسَّيِّد سعيد بن يَبْقَى [وهو جد الشوشاوى البوشوارى]". أنظر الكتَّاني محمد بن جعفر الحَسَّني الفاسي: "سلوة الأنفاس..." المطبعة الحجرية الفاسية 1316هـ: ثلاثة أسفارٍ اختصارُها سلوة. ج 3 ص 237.

الشُّوشاوي، إذ جعلَهُ نِدّاً لِواحِدٍ من كِبارِ العُلماء في تاريخ الإسلام، فقال عَنْ مُؤَلَّفِهِ "الفوائِدُ الجميلة": *"فقد طرق فيه المَواضِعَ التي طَرَقَها مُعاصِرُهُ جلال الدِّين السَّيُوطي، غيرَ أنَّ هذا الأخير فَصَّلَ، والأوَّلُ أوْجَزَ. فالشُّوشاوي هو سَيُوطي المَغْرِبِ في فَنِّ عُلُوم القُرآن."* [1] أجمعت كُتُبُ التَّراجِمِ على أَنَّ الشُّوشاوي توفِّيَ عام تِسعةٍ وتِسعين وثمانمائةٍ، أي في (899هـ/ 1494م)، وضريحُه مشهورٌ يُزارُ إلى الآن، وهو بِقَرْية عَيْنِ الشَّيْخ في أولاد بَرْحِيل بِقبيلة المْنَابْهَة، الواقعة بِرأسِ وادي سوس. وقد بُنِيَتْ عليْه قُبَّةٌ عاليةٌ بِأمرٍ منَ القائِدِ المَهْدِي، وهو من قُوَّاد السُّلطان العَلَوِي المولى الحسن الأوَّل، أو المولى عبد العزيز. كانت في رِجْلِ القائِدِ المذكور عِلَّةٌ لَمْ يَجِدْ لَها دواءً، وَنَذَرَ بِناءَ قُبَّةِ ضريحِ الشَّيخ الشُّوشاوي، راجياً مِنَ الله سُبحانَه شِفاءَهُ، ولقَدِ استجابَ الله دُعاءَهُ وجازاهُ على حُسْنِ نِيَّتِهِ، فَشُفِيَ تَماماً مع إتمام بِناءِ القُبَّةِ. وقيل إِنَّ سببَ موتِهِ هو سُقوطُ كُتُبِهِ عليه، تماماً كما وقع للجاحِظِ، وقد ذكر هذا العلاَّمةُ المختارُ السُّوسي في كتابه "خِلالَ جزولة".

---

[1] - عبد الله كنُّون: "جريدة الميثاق" عدد 237، 15 ذو الحجَّة عام 1396هـ ولِمَعرِفَةِ مكانة جلال الدين السيوطي، فقد أفرده العلاَّمةُ المرحوم الشَّرقاوى إقبال بِكتاب مَلِيءٍ فقط، بِعناوين السُّيوطي الخاصة بِمُؤلَّفاته، وهي غزيرةٌ جداً. لقد فتح الله على السُّيوطي فتحاً مُبيناً في العِلم، فبارك له في عُمُرِه.

الفصل الثاني
حَمْلُ المِشْعَلِ من لَدُنِ أولادِ أبي السِّباعِ

أوَّلاً: إسهامات القبيلة السِّباعِيَّةِ منذ (ق 8 هـ/ 14م):

تدخُلُ قبيلةُ أولادِ أبِي السِّباع في عِدَادِ القبائِلِ المتنقِّلَةِ؛ نزحَت من شَمالِي موريطانْيَا في الصَّحراء المغربية، إلى الحوز. كان لَها –على حَدِّ قول المختار السَّوسي–: *"تاريخٌ مَجيدٌ في الكَرَمِ والشَّجاعة، لا يَقبلون الضَّيمَ، ولا يَرضَخُونَ لَمَنْ يَسومُهُمْ الخَسْفَ، وهذا حالُهم لا في الصَّحراء، ولا في الحوز"* [1] استطاعتِ القبيلةُ السِّباعيَّةُ أن تَتكَتَّلَ، وتتماسَك فَأَوْجدت لِنفسها مَوضِعاً في الحوز، فكان دائماً مُحاطاً بالامتِدادِ الواسِعِ للقبائِل المصموديَّةِ الأمازيغيَّةِ حولَها.[2] وبذلك شكَّلت شذوذاً عَنِ الأُفول الصَّنهاجي السَّابِق في شخص المُرابطين أمامَ الهيمَنَةِ المَصموديَّةِ، فضَمِنت لِنَفسِها مَجالاً واسعاً داخِلَ الحوز.

يبدأُ مِنَ الجِهة الغربيَّة، مِنْ أقدام جبال الأطلس الكبير الغربِي. تَحدُّها مِنَ الشَّمال والشَّمال الغربِي قبائلٌ عربيَّةٌ مَعْقِلِيَّةٌ كَالزْرَارَات وهي قبائلُ احْمَر،

[1]– المختار السُّوسي: "المَعْسُولُ" مطبعة النَّجاح البيضاء ج15، ص265.

[2]– يؤكِّد المِلَفُّ الخاصُّ بالعقار الجماعي للقبيلة، بِأَنَّ هذا المجال يصل إلى 117910 هكتار. وهو مُثبَتٌ تحت رقم T.C151، في مصلحة الهندسة في مراكش.

وتَكْنَةَ مِنَ الشَّمال الشَّرقي، ثُمَّ مَجَّاط مِنَ الشَّرق، فيما تستند بِحُدُودِها جنوباً على دِيرِ جِبالِ الأطلس الكبير الغربي حيثُ المصامِدَةُ في كُلٍّ مِنْ دْوِيرَان، ونَفِّيفَةَ، وسَكْسَاوَةَ، أمَّا في الغرب فتمتدُّ قبائلُ الشْيَاظْمَةَ، وفي الجنوب الشَّرقي تَحُدُّها مْزُودَةَ، وأخيراً تَحُدُّها مِنَ الجنوب الغربي قبائلُ مْتُوكَّةَ.[1]

وعلى العُمُوم، يقسِّمُ وادي شِيشَاوَةَ القبيلةَ السِّباعيَّةَ إلى قِسمَيْن: واحدٌ في الجُزءِ الشَّرقي مِنَ الوادي ويَحمل اسْمَ بُوجْمَادَى، والآخرُ في جُزئه الغربِي ويَحمل اسْمَ تِغْسْرِيت، وهو القسم الذي يضُمُّ زاويةَ سِيدِي المُخْتَار. على أَنَّ بُوجْمَادَى يُوجد فوق سهلٍ واسعٍ يَنحدِرُ في اتِّجاه الشَّمال؛ فيما يَبدو تِغْسْرِيت في شكل هِضابٍ امتدَّت بين الشْيَاظْمَةَ ومُرتفعاتِ مْتُوكَّةَ. هذا وتُعتبرُ تُربةُ الطَّرفيْن فقيرةً تحتوي على قِشرةٍ كِلْسِيَةٍ وصَفَهَا الباحثُ الفرنسي إدْمُونْ دُوتِّي -خِلالَ رِحلَتِهِ إلى مجالاتِ الحوز عام (1324هـ/ 1906)- بالمجال: *"العقيم المَليء بالحجارة."*[2] وإذَا كان سكَّان المجال يُسمُّون الأراضي المُحاذية لِمرتفعاتِ دْوِيرَان بالحْرَش، فَإِنَّ الأراضي التي تصلُح للزِّراعة تنتشِرُ على ضِفاف الوادي، وفي بعض المناطق المحدودة، كَالمَجُّون في مِنطقة بُوجْمَادَى المُجاورة لِتَكْنَةَ، والنْكَايْر، والبَرْجَةَ في منطقة تِغْسْرِيت.

---

[1] – أنظر الصفحة 22 من بحثٍ لنيل دبلوم الدِّراسات العُليا في التَّاريخ المُعاصر تحت عنوان "قبيلة أولاد أبي السباع في ق19م" للأستاذ مولاى الحسن الكُفناني.

[2] – Edmond Doutté: « En Tribu » 1906 p 245. 1914.

لقد أوضح الأستاذُ الكُفْنَانِي في الأُطروحة التي خَصَّ بِها قبيلةَ أولاد أبِي السِّباع كموضوعٍ، أَنَّ القبائلَ الجبليَّةَ المُجاورةِ لَها في جِبالِ شيشاوَةَ، تتحكَّم في المياه المُنسابَةِ من مَجالات السَّكْسِيوِيِّينَ المستقِرِّين في مُرتفعات الأطلس الكبير الغربي، المُظاهِرة لِإِيمِي نْ تَانُوت. غير أَنَّ السِّباعيِّين، وإِنْ كانوا يَشْكُونَ قِلَّةَ الماء فإِنَّهم، على النَّقيض مِنْ ذلك، يتوفَّرون على مَجالٍ واسِعٍ يَستغلُّونَه في الرَّعي والانتجاع. وهنا تُطرح مُعادلةٌ مُثيرةٌ تَتمثَّل في مُعاناة القبائِل الجبليَّة بِدَوْرِهَا، مِنْ ضيق المجال الزِّراعي المنبسط، الشَّيء الذي حتَّم على الطَّرفيْنِ ربطَ علاقاتٍ بُنِيَت، في أغلبِ الأحيان، على التَّكامُل والتَّعايُش.

ثانياً: ظُروف قُدُومِها إلى شيشاوة:

لَمْ يَسَعِ الأستاذ الكُفنانِي، أمام الحَيْرة والغموض الَّذَيْنِ مَيَّزا رصدَ استقرار أولاد أبِي السِّباع في الحَوْزِ، إلاَّ أن يَطرح جُملةً مِنَ الأسئلة حول الفترة الزَّمنيَّةِ، وكذا الدَّوافِعِ التي حَمَلَتِ السَّبَاعِيِّينَ على الهجرة مِنَ الصَّحراء إلى المجالات الشِّيشاوية لِيَسْتَنِدَ، في الأخير، على المَرْوِيَاتِ الشَّفويَّة لِتبديدِ تلك الحيْرة، وفكِّ ذلكَ الغُموض. على الرَّغم مِنْ كونِها مَرْوِياتٌ مَشُوبَةٌ بالاختلاف في بعض الحقائق.[1] وعليه، فقد سلَّمَ بُونَافُوسْ - اعتماداً على الرِّواية الشَّفوية- بِوُجود سيدي عَامِرْ الهَامَل، وهو الجَدُّ

[1] - مولاى الحسن الكُفناني "قبيلة أولاد أبي السباع. في ق19" بحثٌ لنَيْلِ دبلوم الدِّراسات العُليا في التاريخ المعاصر 1987-1988 الرباط تحت إشراف الأستاذ احمد التوفيق. ص 109.

الأعلى للسِّباعيِّين، بين ظُهرانَي عددٍ مِنَ القبائل العربية والزَّنَاتِيَّةِ في الحَوْزِ، إبَّانَ أوْج حُكْمِ الدَّولة المرينيَّة. وأضاف أنَّ هذه القبائل كانت تستفيدُ مِن امْتيازاتٍ كثيرةٍ، لأنَّها كانت قبائل مَخزنيَّة في خِدمة المرينيِّين الذين كانوا يعتمدون عليها في تَحصيل الجِبَايَاتِ.[1]

وعلى العموم، فإنَّ المصادرَ التَّاريخيَّةَ الدَّفينةَ المُتَعَلِّقَةَ بِتاريخ المغرب قد أَقَرَّت بِقِدَمِ استقرار قبيلة أولاد أبِي السِّباع في منطقة شيشاوة.[2] كما أنَّ الباحث الفرنسي جاك بيرك ذكر أنَّ السِّباعيين مِنْ أصلٍ صحراوي، استقرُّوا في سهل الحَوْزِ في مجالات شِيشَاوَةَ منذُ القرن (ق8هـ/ 14م).[3] ويؤكِّد الأستاذُ الكُفْنَانِي في أطروحتِه على أنَّ: *"المُجاهدين السِّباعيِّين توجَّهوا مِنَ الصَّحراء إلى جبال الأطلس الكبير، يُحاربون العدُوَّ* (البُرتُغال)، *ويُحرِّضونَ السُّكَّانَ على المقاومة، قبل أن يذهب إليها الشَّريفُ السَّعدي محمَّدٌ القائمُ بِأَمْرِ الله، تلبِّيةً لنِداءِ قبيلتَي حَاحَّا والشْيَاظْمَةَ. وقَدِ اسْتُشْهِدَ سيدي عبد المَالِكِ بْنُ عَامِرٍ السِّباعي قُرب مَوْضِعٍ يُسَمَّى أَكَدِيْر الذْهَبْ:* Fort De L'or، *في قبيلة دَمْسِيرَة عام* (909هـ/ 1503م)، *ودُفِنَ بِمُحاذاة سِلاحِهِ، وهو المُسَمَّى بِالشَّفْرَة."*[4] تَجدُر الإشارةُ إلى وجود أضْرِحَةٍ فِي كُلٍّ

---

1 – Bonafos Copitainc: «Une tribu Marocaine en Mauritanie les oulad bou sbâa» Bull Trim Socio de géo et d'archèo Oran 52 Année TL 1929 p215.

2 – S.I.H.M por T1 : p764.

3 – Berque (J) « Antiquité seksaoua » Hesperis 1953 p 401.

4 – "قلعة الذَّهب: "توجد في مجالات دمسيرة" أنظر: ص 78 من أطروحة المرحوم الكُفناني.

مِنْ سَكْسَاوَةَ، نذكُرُ منها سيدي غَانْم في قرية بُولْعْوَان قُربَ دْوِيرَان في جِبالِ شيشاوةَ المُظاهِرَةِ لأِيمِي نْ تانُوت، وسيدي الغَزْوَانِي في حَاحَّا؛ ترمزُ دلالاتُ أسْماءِ أصحابِها إلى الدَّوْر الجِهادي الذي كان هؤلاء المجاهدون يقومون به في شِيشَاوَةَ، وفي ضواحيها.

وقد تَزامَنَتِ الظُّروف التي مهَّدت لِتوافُد السِّباعيِّين على سهل الحَوْزِ مَعَ اضطرابِ الأحوال السِّياسية العامَّةِ للبلادِ، ولا سِيَما في مَطلع (ق10هـ/ 16م). ففي الوقت الذي لَمْ يَتَعَدَّ فيه نفوذُ الوَطَّاسِيِّينَ فاسَ وضواحيها، برزت مَجموعةٌ مِنَ الإماراتِ دأَبَت على الاِستقلال عَنِ السُّلطة المركزيَّة؛ ولَمَّا لَمْ يستطِعِ الوطَّاسِيُّونَ المُنهارون أن يَبْسُطُوا نُفوذَهم على الجنوب، بقيت مَجالاتُ شِيشَاوَةَ في الحَوْزِ، مَفتوحةً أمام تَحرُّكات القبائِلِ المُهاجرة. وتزايدَ تكالُبُ البرتغاليِّين، أمام هذا الوضعِ، على السَّواحل المغربيَّة. نضيف إلى ذلك توالِي الكوارث الطَّبيعية خلال بداية (ق10هـ/ 16م)، والتي تَمَثَّلت في انتشار الأوبئة، وتوالي سنواتِ الجَفاف: *"وكان أن عَمَّ الغلاءُ المُفرِطُ في مَوارد العيش، وسقَطَتِ الأرواحُ من جَرَّاء المجاعات، وقَلَّ عدد السُّكَّان؛ بل بدت مَجموعةٌ مِنَ المناطقِ فارغةً مِنَ السُّكَّان إلى أن عُمِّرَتْ من جديدٍ، مع بِداية قيام السُّلطة السَّعديَّة التي اتَّخذت مُرَّاكُشَ عاصمةً للحكم"* [1] وقَدِ اضطرَّ السُّلطانُ السَّعدي أحمد

[1] – Rosenberger (B) et Triki (H) « Famines et Epidémies au Maroc aux 17s» op cité Héspéris 1974 pp 128-136.

أنظر ص 68 من أطروحة الأستاذ الكفناني.

الأَعْرَجِ، معَ قِيام السُّلطة السَّعديَّة الجديدة، إلى مُغادرة مدينة مُرَّاكُشَ حوالي عام (932هـ/ 1525م)، فاتَّجه إلى أَقَّا هارباً مِنَ الوباء، وهناك أشرف على استغلال منجَمِ تَمْدُولْت. وعاد، بعد سنتَيْنِ، إلى مُرَّاكُشَ مَصحوباً بقبائِلَ كثيرةٍ، من بينِها تَكْنَة، وحَرْبِيل، والأَدَارِسَة، والمَغَافِرَة، والسِّبَاعِيُونَ. فَعَمَّرَتْ –على حَدِّ قول صاحب "المَعْسُولِ"- هذه القبائلُ السُّهولَ الواقِعةَ شَمالَ الأطلَسِ الكبير.[1]

ثالِثاً: مسألةُ الشَّرَفِ بين الدّوْلَةِ السَّعديَّة وأولاد أبي السِّباع:

نُشير إلى أَنَّ الدَّولةَ السَّعديَّةَ النَّاشئةَ، وإِنْ كانت في حاجَةٍ ماسَّةٍ إلى السَّواعد، والأموال لِتَمويل مَشروعِها العسكريِّ الواسِعِ المُتمَثِّلِ أَوَّلاً في التَّصدِّي للوجود الإِيبِيرِي في السَّواحل المغربية، ثُمَّ التَّوسُّعِ على حساب نُفوذ الوَطَّاسِيِّينَ المُنهارين، ثُمَّ كَسْرِ شوْكَةِ الإمارات المُستقِلَّةِ، والقبائل الثَّائرة؛ إن كانتِ الدَّولةُ في حاجةٍ ماسَّة إلى القبائل والرِّجال، فإنَّها لَمْ تَعمل قَطُّ، على إِقحام السِّباعيِّين ضِمن الجيش النِّظَامِي السَّعدي. ويَعْزُو بَارِيتُو لُوِيزْ ذلك إلى كَوْنِ السِّباعيِّينَ يتمتَّعون بشرفِ النَّسَبِ بانتمائهم إلى الشُّرفَاءِ الأَدَارِسَةِ مِنْ جِهَةٍ، ولِقيامِهِمْ بدورٍ فعَّالٍ في التَّصدِّي للبُرتغال في الشَّواطئ المغربيَّة؛ وهُما مَعاً، الرَّكيزتان اللَّتان استندت عليْهِما الدَّولَةُ السَّعديَّةُ النَّاشِئَةُ، وهُما أيضاً، عُنصُران كافيان لِيَجعلانِنَا نفهمُ لِماذا حَرِصَ السَّعديون

[1]- محمد المختار السوسي "المعسول"، ج7 ص: 40-41-42.

على إبعاد أَولاد أبِي السِّباع عن مُرَّاكُشَ حاضرةِ حُكمِهِمْ، وإنزالِهم في مَجالاتٍ جافَّةٍ من شِيشَاوَةَ القليلةِ المياه والغِطاء النَّباتِي؟ بل وشَغَلُوهُم بالحروب مع قبائلِ ذُو بْلاَل، جيرانِهِمُ المُستقِرِّين على طول ضِفَّتَي وادي شِيشَاوَةَ لأجل الحصول على الماء؟[1] ويُوَضِّحُ لنا بُولْ بَّاسْكُون الأمرَ جَلِيّاً حين يُؤَكِّدُ على أَنَّ قبائلَ الجَيْشِ السَّعدي قَدِ استولَت على أَجْوَدِ الأراضي، وأَخْصَبِها بالقُرب مِنْ وادي تَانْسِيفْت، وعلى ضِفاف وَادَيْ شِيشَاوَةَ ونَفِّيس. فدفعتِ السِّباعيِّين إلى ناحية الحَوْزِ.[2]

ويُشيرُ بارِيتُو لْوِيز إلى رُدود فِعْلِ السُّلطة السَّعديَّة تُجَاهَ قبيلةِ أولاد أبِي السِّباع في شِيشَاوَةَ فيقولُ إِنَّ أعيانَهُم قد تَعرَّضوا إلى حَمْلَةِ قَمْعٍ حوالي عام (998هـ/ 1590م) على يد السُّلطان أحمد المنصور الذَّهَبِي، إِذْ أمر بِنَهْبِ ماشِيَتِهِم، ودُورِهِم، لإرغامِهِم على مُغادرة أراضيهم فصارت منطقةُ تِغْسْرِيت فارغةً. ولَمْ يَبْقَ منهم سوى فريقٍ عاش على الِانْتِجَاعِ في سهل بُوجْمَادَى. هذا، وقد عمَّتِ الفوضى في كُلِّ البِلاد بعد أن توفِّيَ السُّلطانُ أحمد المنصور، بِسبب النِّزاعِ المَريرِ على الحُكمِ بين أبنائِه الثَّلاثة: (المامون، وزيدان، والشَّيخ) فوجد السِّباعيون فرصةً في الزَّحف مِنْ جديدٍ، على مَجالات شِيشَاوَةَ؛ بل ووسَّعُوا مَجالاتِهم فتجاوَزُوا ضِفَّةَ وادي شِيشَاوَةَ في اتِّجاه الشَّرق، وضَيَّقُوا الخِنَاقَ على قبيلة ذُو بْلاَل، الَّذين اضْطَرُّوا إلى اللُّجوء

[1] – المصدر السابق ، ص20 ل Boritou Louis.

[2] – Paul Pascon « Le Haouz de Marrakech ... » T1 p191.

إلى منطقة تَافِيلاَلْت، ولَمْ يَبْقَ منهم إلاَّ عناصر استقرَّت في المَوْضِعِ المعروف في شيشاوةَ باسمِ هْذِيل، وتوجدُ فيه زَاوِيَّةُ بَلْمْقَدَّم في ما يُعْرَفُ اليوم بِبلاد احْمَر، وفي المكان المعروف أيضاً، في المنطقة نفسِها بسِيدِي بُوزِيدْ، على ضِفَّةِ وادي شيشاوة.

على أنَّ أحسنَ ما نُذَيِّلُ به هذه الشَّهادات ما أسعفنا بع الباحِثُ المغربِيُّ عبدُ الله العروي حول علاقَةِ الشُّرفاء، وهم في مَركَزِ القرار، بِالشُّرفاء المُلْتفِّين حول زواياهُم، أَوِ المُعرِضين حتَّى عَنِ الحُكم، وعن إنشاءِ الزَّاوية، إِذْ يقول: *" ... يوجَدُ في صميم الزَّاوِيَةِ، عِلاوَةً على روح الطَّاعةِ والانقياد، ما يَجعَلُها مُهَيَّأَةً لِقَبُول دعوة الأَشرافِ. إذا كان شيخُ الزَّاوِيةِ يدَّعي الاتِّصالَ في ظُروفٍ مَخصوصةٍ، وإنَّه يطَّلِعُ الغَيْبَ، فكَيْفَ يَحِقُّ لَهُ أن يُعانِدَ مَنْ هو أعلى مِنْهُ في كُلِّ حالٍ بالانتِسابِ، أي الالتِحامِ بصاحِبِ الوَحْيِ؟* [أيْ الإنتِسابُ إلى الرَّسولِ الكريم مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليْهِ وسلَّمَ]. *داخِلَ مَنطِقِ الزَّاوِيةِ لا مَناصَّ للشَّيْخِ، مهما وصل من درجةِ المُجاهَدَةِ، أن يتمنَّى الانتِسابَ إمَّا بالكشْفِ عن أصلٍ دائرٍ، وإمَّا بالبَيْعَةِ لِشريفٍ صريحٍ"* [1].

رابِعاً: بعضِ الحركاتِ الجِهادِيَّةِ لأَوْلاَدِ أبي السِّباع:

إذا كان البُرتغالُ قَدِ امتنَعوا عَنِ السَّلطة السَّعدية الناشئة، ووقفوا شَوْكَةً حادَّةً في زحف الجِهاد السَّعدي، ومَنَعُوهُم مِنَ الدُّخول إلى حَاحَّا،

[1]- عبد الله العروي: "مُجمَلُ تاريخ المغرب" ج 1 ص 455، المركز الثَّقافي العربي، الدار البيضاء

ولَمْ يَسمحوا لَهم بِتَجاوز وادي تَانْسِيفْت إلاَّ في حوالي عام (924هـ/ 1518م). بل توغَّلَتِ القُوَّاتُ البُرتغاليَّةُ في الأراضي الشِّيشَاوِيَّةِ إلى أن وقفت بِتَقْلِيعْت، وهي المُسَمَّاةُ بِتَمْلُّوكْت الموجودة في مَجال قبيلة مْتُوكَّة من شيشاوة،[1] وهي القلعةُ نفسُها المُسمَّاةُ عند الحَسَنِ الوَزَّانِ بِقَلْعَةِ المريدين.[2] ثُمَّ سُرعانَ ما سلك البُرتغالُ خُطَّةَ ضرب المَصالِحِ بين القبائل، إذْ حَمَلُوا قَبِيلَتَي عَبْدَة والشْيَاظْمَة على شَنِّ الهَجمات على جيرانِهما، ونصَّبوا شخصانِ لذلك الغرض، هُما: يَحْيَ أُو تَعَفُّوفْت من آسفي، وبُوجَمْعَة صاحبُ الشْيَاظْمَة؛[3] فإنَّ المَجالَ الشِّيشَاوِيَّ الغَنِيَّ بِمُحارِبِيهِ قد قدَّمَ، بالرَّغْمِ مِنَ التَّدبيرِ المُحكَمِ للبُرْتُغَالِ، الدَّعْمَ اللاَّزِمَ لِلدَّوْلَةِ السَّعديَّةِ النَّاشئة لِتحقيق مَشروعِها العسكرِيِّ المُتمثِّلِ في الجهادِ ضِدَّ البُرتغال، وعُمَلاَئِهِمْ. إذْ بالرَّغمِ من إرْسَالِ حاكِمِ مدينة آسفي المدعو نينو فيرناندِيز Nuno Fernandez De Ataide[4] لِكَتِيبَةٍ مِنَ الجيش في عام (921هـ/ 1515م)، تتكوَّنُ مِنَ الشْيَاظْمَة عَبْرَ جِبال الأطلس، إلى حِصْنَي أَكْلاَكَل الموجود في قبيلة دَمْسِيرَةَ، حسب خريطةٍ رسَمها جاك بيرك في كتابه "البِنْيَاتُ الإجتِماعِيَّةُ"، وأَغْبَالُو. ثُمَّ إرسالِ الحاكِمِ

---

[1] – Les sources Inédites de l'histoire Marocaine. T_I p 765.

[2] – الحسن بن محمَّد الوزَّان الفاسي "وصف أفريقيا" ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر منشورات الجمعية المغربية، الرباط 1980 ج1 ص: 84.

[3] – أحمد بوشرب: "دُكَّالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور"، ص365-367. دار الثقافة البيضاء، سنة 1984.

[4] – La chapelle (Fréderic de) « Esquisse d'une histoire du Sahara occidental » Héspris 1930 T_{II} p 75.

نفسِه لأَحَدَ قُوادِهِ، وهو المدعو D. Alonso De Noronha مع فرسانِ بُوجَمْعَة صاحبِ الشْيَاظْمَة، وعددُهُم ثلاثُمِائَةٍ وثلاثين مِنَ الرُّماة إلى ناحِيَّةِ تَادْنِسْت، وهي تقع اليوم في قبيلة مْتُوكَّةَ المُنتمية إلى مَجال شِيشَاوَةَ. برَغمِ كُلِّ هذا، فقد حصلَ في صفُوفِ هذه القوات العَمِيلَةِ للبُرتغال ارتباكٌ غيرُ مَسبوقٍ، أَدَّى بِها إلى التَّراجُعِ عن أهدافِها السَّابقة، وهو ارتِباكٌ فَسَّرَهُ الأستاذُ الكُفنانِي بِفَشَلِ مُهِمَّتِهَا، وانْهزامِها إِثْرَ أَوَّلِ صِدَامٍ ضِدَّ المُجاهدين المُرابطين في المجالات الشِّيشَاوِيَّةِ. ولعلَّ الرِّسالَةَ المبعوثَةَ إلى مَلِكِ البُرتغال إِيمَانُوِّيل، والتي تُحاوِلُ التَّخفيفَ مِنَ الآثار السَّلبية على حَمْلة البُرْتُغَالِ، لَدَلِيلٌ على فَشَلِهَا.

وعلى العموم، يَتَّضِحُ الدَّوْرُ الفَعَّالُ، الذي كان لِبعض الأولياء المُعتنقين للطَّريقة الجَزُولِيَّةِ، في استِقرار قبيلة أَوْلاَدِ أبِي السِّبَاعِ في مَجالات شِيشَاوَةَ. مع العِلْمِ أَنَّ الصُّوفِيَ الجليلَ سيدي أبو زيدٍ عبدُ الرَّحمن الزَّجْرَاجِي، وهو دَفِينُ قَريةٍ تَحمِلُ اسْمَهُ على بعد كِيلُومِتْرَيْنِ تقريبا من شيشاوة، في اتِّجاه إِيمِي نْ تَانُوتْ، كان شيخاً لِقُطْبِ الطَّريقَةِ الشَّاذلِيَّةِ سيدي محمَّدِ بْنُ سُلَيْمانِ الجَزُولي؛ الذي –على حَدِّ قول عبد الله العرْوي–: *"مثَّل حركَةَ الزَّوايا، وهو المَعروفُ بِمُؤَلَّفِهِ (دلائِل الخيرات في الصَّلاةِ على الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم) المتوفَّى على الأرجَحِ، وفي ظُروفٍ غامِضَةٍ عام* [870هـ/ 1456م]. *لَمْ يَنْفَكَّ يَجُوبُ سُهولَ الحَوْزِ وسُوسْ، داعياً إلى المُقاوَمَةِ، وإلى الانتِقامِ مِنَ المُتَنَصِّرينَ المُرتَدِّينَ الذين رضخوا لِحُكم الجيش البُرتُغالي"* [1]

[1] – عبد الله العروى: "المصدرُ نفسُهُ" ص 456.

إذِ انضمُّوا بِفِعْلِ ذلك، إلى الحركة الجِهادِيَّةِ فبرز منهم مُجاهدان ارتبط اسْمُهُمَا بِشِيشَاوَةَ أَشَدَّ ارتباطٍ وهُما: سِيدِي غَانْم بَنْ سْعِيد السْبَاعِي دفينُ مُرَّاكُش، وشَيْخُهُ سِيدِي عَبْدْ الله بَنْ سَاسِي السْبَاعِي، وهو مِنْ أَتْبَاعِ عبد الله الغَزْوَانِي. وقَدِ اشتهرَ السِّباعِيانِ مَعاً، بِتَحْمِيسِ السُّكَّانِ إلى هذه الحَرَكَاتِ، ومُساندة الدَّولة السَّعديَّة النَّاشِئَةِ. وقد أَسَرَ البُرتغالُ سِيدِي عَبْدْ الله بَنْ سَاسِي في ثَغْرِ أَزْمُّورْ عام (919هـ/ 1513م) في منطقة قبيلةِ دُكَّالَة.[1] وهو ما أكسبَه شعبيةً أوسَعَ مِنَ التي كانت لِعَبْدِ الله بَنْ حْسَايْن.

ونُضيفُ إلى الرَّجُلَيْنِ المُجاهِدَيْنِ، لكن بأهَمِّيةٍ أكثر، الوليَّ سِيدِي المُخْتَار بْنُ إِبْرَاهِيم بْنِ محمَّدِ بْنِ الكَسَّارِ بْنِ عُبَيْدٍ. وُلِدَ في إقليم شَنْجِيط في الصَّحراءِ المغربيَّة، في عام (1040هـ/ 1630م)، وفيه تلقَّى تعليمَهُ حتَّى صار فقيهاً، ومِنه انطلقَ لأداءِ فريضَة الحجِّ. حَطَّ الرِّحَالَ فِي الحَوْزِ بالقُرْبِ مِنْ سِيدِي السَّعِيدِ السَّابِقِ فِي منطقة الشْيَاظْمَة، وحَظِيَ بِإعجاب الفُقهاء الرَّجْرَاجِيِّينَ. ولَمَّا سَمِعَ به السُّلطانُ العلوي المَوْلَى إسْمَاعِيل (1083هـ/ 1672م)- (1140هـ/ 1727م)، جاء من فاس إلى عَيْنِ المَكان، وجالَسَهُ مُدَّةً مِنْ ثلاثَةِ

[1] - أحمد بوشارب: "دكالة والاستعمار البرتغالي..."، ص149. للإشارة: فإنَّ البرتغالَ قد أَعْرَضُوا عَنْ "أَزْمُور" ورحلوا عنها لأمرٍ غامضٍ؛ فطلب المجاهدُ السَّعدى محمَّد القائم بأمر الله مِنْ هذيْنِ المُجاهدَيْنِ أن يتوجَّها، ومَعَهُمَا المُجَاهِدُ المُرَّاكُشي عَبدُ الله الكُوشْ، إلى ثَغْرِ "أَزْمُور" للذَّوْدِ عنه، ولَمَّا عاد البُرتغال، لأمرٍ غامضٍ دائماً، إلى الحصْنِ أسَرُوا كُلَّ أُولئكَ المُجاهدين. وحين افتُدُوا مِنْ بعدُ، حَمَلَ الكُوشْ قُفَّةً مَليئةً بالكتب أعطتْهُ إيَّاها عجوزٌ برتغاليَّةٌ عَطَفَتْ عليه في أَسْرِه. وعبدُ الله الكُوشْ هذا هو وَالِدُ الوَلِيَّة الصَّالحَة "زَهْرَاءُ الكُوشْ" الدَّفينةُ بِمُحاذاة صومعة الكتبيَّة، في حَيِّ الكتبيِّين بِمُرَّاكش. تُوُفِّيَتْ عام (1019هـ/ 1610م).

أيَّامٍ سَوِيّاً، فأعطى السُّلطانُ الجميعَ ظَهائِرَ التَّوْقِيرِ والاحترامِ، كما سلَّمَ ظهيراً لِزَجْرَاجَةَ قَصْدَ التَّملُّكِ في أراضِيهِم. وقد أَهْدَى سيدي المُختارُ الخيْمَةَ التي أُجْرِيَت فيها المُذاكَرَةُ العِلْمِيَّةُ إلى رَكْرَاكَة، وهُمْ لازالوا إلى اليوم، يقومون فيها بِما يُسَمَّى عِندَهُمُ بِالدُّورْ في ناحية الصَّويرةِ. وقَدِ اشترى سيدي المُختار خِلاَلَ (ق11هـ/ 17م)، منطقة تِغْسْرِيت من قبيلة رَكْرَاكَة بِستٍّ وسِتِّينَ نَاقَةً. ولعلَّ صَفْقَةَ البَيْعِ قد تمَّت بِتَدَخُّلٍ من لدن سِيدِي عْلِي بَنْ نَاصَر أَحَدِ تلامِذَةِ سِيدِي احْمَاد أُو مُوسَى، وهو المنعوتُ بِشُعْلَةِ الحَوْزِ، ويُلَقَّبُ أيضاً، بِشَيْخِ الرُّمَاةِ، وهو المدفونُ، بِتَدْبِيرٍ من أبنائِهِ في زاويَّة النْوَاصَر، البعيدَةِ عَنِ المَرْكَزِ الإداري لِشِيشَاوَةَ (ب5كلم) جنوباً. كان يسكن بين ظُهراني قبيلةِ احْمَرْ على ضِفَّةِ وادي شِيشَاوَةَ.[1] وقد أَسَّسَ علومَ الدِّين في مَقَرِّ إقامته الأولى بالقُرْبِ من سِيدِي سْعِيد، ولَمَّا تُوُفِّيَ نقلَه أولادُه إلى حيثُ يوجدُ ضريحُه اليوم.[2]

يتَّضِحُ أَنَّ شيشاوةَ قد أعطتْ نَموذَجاً حيَّاً، وفاعِلاً في روحِ المُواطَنَةِ المَغربيَّةِ الحَقَّةِ، فجهَّزَت أبناءَها، على مدى عصورٍ، للتَّصَدِّي لِتَكالُبِ الغُزاةِ على الثُّغور المغربيَّة مَهما بَعُدَتْ بِهَا الشُّقَّةُ، وأنَّها تستحِقُّ أن تُتَّخَذَ مَرْجِعِيَّةً مُثْلَى للجِهاد وللمُجاهدين.

---

[1] – انظر ص72 من أطروحة الأستاذ الكفناني م الحسن.

[2] – في منطقة تِغْرْيِستْ على الطَّريق الرَّابط بين مرَّاكش والصَّويرة، يبعد عن مراكش بحوالي 97 كلم، وعن مركز شيشاوة ب25 كلم، وعن الصَّويرة بحوالي 75 كلم.

الفصل الثالث
قبيلة مْزُوضَة المُسْتَئْنِفَة

أوَّلاً: تأصيل:

لِنُعرِّجِ الآنَ، على قبيلة مْزُوضة الشِّيشاويَّةِ فنعودَ إلى نَصِّ البَيْدَقِ في *"كِتاب الأنساب"*؛ إذ يُسعفُنا بِمَعلوماتٍ عن هذه القبيلة، يقُول فيها: *"صودةُ الجبلِ، وهم فَخْذَانِ: وَنْغَاسَةُ، أو وَنْغَاسَةُ مَعَا؛ وبنو تَطِّيتْ، أو آيت تَطِّيتْ مَعَا؛ مَاغُوسَةْ، آين مَاغُوسْ مَعَا. ولَهُمْ لَصِّيفَةْ، أو آيت تَلْصِّيفِيتْ مَعَا؛ وبنوا وَمَاوْسْ، أو آيت أُومَاوْسْ مَعَا؛ وبنو يَكَّمْ، أو يَكَّمْ مَعَا؛ وبنوا عيسى، أو عيسى مَعَا؛ ورصيفَةْ، أو آيت ورصيف مَعَا"* [1] يظهَرُ أَنَّ هذه الشَّكْلَ مِنَ الأسْماء الأمازيغِيَّةِ في شيشاوة قد عرفَ نوعاً مِنَ التَّحريف منذُ أَنِ اقتحم التَّعريبُ مَجالاتِها السَّهلِيَّةِ والجَبَلِيَّةِ، أو أنَّها حُرِّفَتْ حينَ استُنسِخَتْ مِنْ أصلِها الأوَّلِ. فَفَقَدَت، أو كَسَبَت أحرُفاً شوَّشت، على كُلِّ حالٍ، على الأصلِ. ولِذا كانت لإعادةِ قِراءَةِ نُصُوصِ الكِتابات التَّاريخِيَّةِ، والجغرافِيَّةِ القديمة من لَدُنِ لِفِي بْرُوفَنْصَالْ أهَمِّيَّةٌ كبيرةٌ. إذ وضع خريطةً لِقبائِلِ جنوبِ مُرَّاكُشَ خِلالَ (ق6هـ/ 12م)، فأخرج كِتابَ "أخبار المهدي

[1] - أبو بكرٍ الصَّنهاجي، المُلقَّبُ "بالبيْدَق": "المُقْتَبَسُ من كتاب الأنساب في مَعرِفَةِ الأصحاب" اعتنى بإخراجِهِ وتصحيحِهِ لِيفِي بْرُوفَنْصَالْ 1928م بُولْ كُنْتَرْ الكُتْبِي بباريز ص 50.

بنُ تُومَرْت"، الَّذي ورد فيه اسمُ قبيلة مْزُوضَة بِصُودَة. وهو المَسْلَكُ نفْسُهُ الَّذي سَلَكَهُ الباحِثُ أحمد التَّوفيق، لَمَّا وضع خريطةً لأماكِنِ دفْنِ رِجالات التَّصَوُّفِ في إِحالات الكِتابِ الذي حقَّقه، وهو كِتابُ "التَّشَوُّف إلى رِجالِ التَّصوُّفِ".[1] ويُعلِّقُ الباحِثُ يُوسُف غَانْدِي على نَصِّ البيْدقِ فيقُول: *"فإذا تَمَعَّنَّا جَيِّداً في هذا كُلِّه، نُدْرِكُ أنَّ هذا الطَّرْحَ قد أفرزَ مُشكلاً جديداً، وهو حُدُودُ المعنى صُودَة [مْزُودَة]، إذ يُدخِلُ في اعتبارِهِ وَنْغَاسَة من صودة الجبل وبَنُو تَطِّيتْ، مِنْ عِداد مْزُوضَة اليومَ أيضاً، ولو أنَّ القبيلتيْن مْزُوضَة وكَدْمِيوَة تربطُهُما علاقةُ الجِوارِ، بل تتعدَّاها أحياناً، إلى المُصاهَرة بين أفخاد وفرق القبيلتيْن"* [2].

ثانياً: إسهامُ قبيلة مْزُوضَة في الثَّقافَةِ بشيشاوة:

ج- المدرسة النَّحليَّةُ: تَقَعُ مْزُوضَة في السَّفحِ الشَّمالي من جنوب الأطلس الغربي، بِمُحاذاة مَجالاتِ كَدْمِيوَة كِيك. وتُلامِسُ، عِند قَدَمِ الجبل،

---

[1] - ابنُ الزَّيَّات (أبو يعقوب يوسف التَّادلي): "التَّشَوُّفُ إلى رِجالِ التَّصَوُّف" تحقيق أحمد التَّوفيق. الرِّباطَ 1984: والخريطة المُرفَقَةُ بالكتاب في آخره.

[2] - يوسف غاندى: "الزَّاويةُ النَّحليَّةُ ومَدرَسَتُها قبيلةُ مْزُوضَةْ" المطبعة الوطنية بمُرَّاكُشَ عام 2011 ص 31. ملاحظة: أهل مزوضة يُسَمُّون الحدود التُّرابية بـــ "ازُونْ"، ويَرسُمُونَها بأحجارٍ يُسَمُّونَها "إيوُوتَا". وقد كانت مزوضة مَحطَّةً لبعض القوافِلِ التي كانت تُعرِّج عليها، عبر الطريق بين مُرَّاكُشَ وسوس الصَّحراء من خلالِ عُبور إيمي ن تانوت، وأركانة، وتارودانت في اتِّجاه أكادير. كما يمتدُّ منها أيضاً، طريقٌ آخر نحو تيزى نْ بيبَاوْنْ. أنظر: الخريطة الطُّبوغرافية لإيمي ن تانوت، مقياس 1/100000، عن مَصلَحة الخرائطِ في الرِّباط، عام 1974م. وانظر كذلك: المَرجعَ ذَاتَهُ. ص 40.

جُزءً من بسيط شيشاوة، وسَهْلِ أولاد أبي السِّباع. وتحتوي على زْناكَة بِدَواويرِها القريبة من سَبْت مْزُوضَة المُرتَفِعة ب (623م)، كما ترتَفِعُ ب (1640م) عند آيت تلاَّكَنْس، بين قِمَمٍ عاليةٍ هي باب السَّايْح (1713م)، وكاطُوسْ (1809م). وإلى شرق زْنَاكَة آيت تَضِّيت، وإلى غربِها نَجِدُ آيت بَيَعْقُوب، وإلى الشَّمال الزْناكي توجد فِرقَةُ آيت حْسايْن في قبيلة آيت كَضيض.

وقد أنشأَ السِّباعِيُّون في مَجالاتِهم بشيشاوةَ، خِلالَ القرن التَّاسِعِ عشر الميلادي في فترةِ حُكمِ السُّلطان العلوي مولاي عبد الرَّحمن، مَجموعةَ مِنَ المَدارِسِ العِلمِيَّةِ؛ أَنتجت مُدرِّسين سابقوا عُلماءَ مُرَّاكُشَ، وفاس، والسُّوس. ولا شَكَّ أَنَّ في مُقدِّمَةِ هذه المَدارِسِ المدرَسَةُ النَّحلِيَّةُ المْزُوضِيَّةُ، التَّابِعَةُ للزَّاويةِ النَّحليَّةِ في إقليمِ شيشاوة الآن. منذ أن أُنْشِئَت هذه المدرَسَةُ السِّباعِيَّةُ في شيشاوة بِمَوْضِعٍ يُسَمَّى العْوِينَة، مِن لَدُنِ مؤَسِّسِها محمَّد بن محمَّد الهِلالي الإِرْغِي، المُزدادِ في أوائِلِ (ق13هـ/ 19م) بِتَاغْزُوت، إحدى قبائِلِ إِذَا أُكْنِضِيف الكائِنَةِ بالسُّوسِ، وهي تستقبِلُ الطَّلَبَةَ الوافِدين عليْها من نواحي مُتعدِّدةٍ مِنَ المغرِبِ.

وعَنِ المدارِسِ التي كانت سائِدةً قبلَها في شيشاوة، يُنَبِّهُنا الأُستاذُ الكُفناني إلى: *"أَنَّهُ لَمْ يكُنْ في قبيلة أولاد أبي السِّباعِ، قبل القرن التَّاسِعِ عشر للميلاد، حسب عِلمِنا، أيُّ مَرْكَزٍ عِلْمِيٍّ، باستِثناء زاوِيَةِ سيدي المُختار."* [1]

[1]- الكُفناني: "المَرجِعُ عَيْنُهُ" ص 291.

ولعلَّ هذا الجَزْمَ المَشُوبَ بِشَيْءٍ مِنَ العَجَلَةِ هو ما جَعَلَنا نعمَلُ، قَدْرَ ما استطعْنا، على مُحاوَلَةِ التَّأصيلِ لِماضي الحركة الثَّقافيَّة بِنوعٍ مِنَ التَّسلسُلِ في شيشاوة.

مِنَ المعلوم أنَّ احتِضانَ قبيلة مْزُوضَة لِضَرِيحِ الوليِّ سيدي احْمَاد أُو عْلِي، المُتوفَّى عامَ (1155هـ/ 1742م)، قد جعل مِنها مَرْكَزاً ثقافيّاً، وتِجارِيّاً، وطُقُوسِيّاً ضَمِنَ لَها، على الجِهةِ الغربيَّةِ مِنَ الأَطلَسِ الكبير الغربي، وأيضاً على السُّهولِ المُواليَّةِ لِسُفوحِه الشَّماليَّةِ منذُ النِّصفِ الثَّاني مِنَ (ق12هـ/ 18م)[1] نفوذاً كبيراً داخِلَ المَجالِ الشِّيشاوِي. وقَدِ ازداد نُفُوذُ القبيلة المْزوضِيَّةِ، وبلغت دائِرَةُ إشعاعِها الآفاقَ حين بُنِيَت فيها المدرسةُ العِلمِيَّةُ التي تُعتَبَرُ وبِحقٍّ، أُمَّ العديد مِنَ المدارِسِ في شيشاوة. حاربَتْ هذه المدرسةُ -مِنْ خِلالِ أساتِذَتِها- الَّذين يَعُجُّ بِأَسْمَائِهِمُ البحثُ المَذكورُ للباحِثِ يوسف غاندي، كُلَّ أنواعِ البِدَعِ، وأسهمت في تنظيم العلاقات بين السُّكَّان، بِتنفيذِها لأحكام الشَّريعة الإسلاميَّة، عِوَضَ اتِّباعِ منهَجِ الحُكْمِ بالأَعرافِ التَّقليديَّة.

ب)- مدرسةُ السْعِيدات: يُخبِرُنا العلاَّمَةُ المُختارُ السُّوسي أنَّ الفقيه محمَّد بن عليٍّ هو الَّذي قام بِتَأسيس مَدرسةِ السْعِيدات في قرْيَةِ السْعيدات في شيشاوة عامَ (1260هـ/ 1844م)، بعدَ أن أنْهى دِراسَتَهُ في الزَّاوية النَّحليَّة، في قبيلة مْزُوضَة. اشتَهَرَتْ بِتَدريسِ اللُّغة العربيَّة، والأدبيَّات. وكانت تُقامُ

[1] - المُختار السُّوسي: "المَعسول" ج 15 ص 282.

في قرية السْعِيدات عِدَّةُ أُمسِياتٍ في مُناسباتٍ مُتنوِّعةٍ، يأتي إليْها بعضُ فُقهاءِ النَّاحية، فيتباهَوْنِ بِقَوْلِ الشِّعرِ، ويتنافسون في استِحضارِ الأُمورِ الشَّاذَّةِ في اللُّغة العربيَّة، والصَّرفِ، والنَّحْوِ. شَدَّ الفقيهُ العلاَّمَةُ المُختارُ السُّوسي الرِّحالَ إليْها، فوصَلَ إليْهَا مع حُلُولِ عام (1337هـ/ 1918م)، ومكثَ فيها عاماً كامِلاً. فشهِدَ بعدَ ذلك، أنَّ تعليمَه فيها كان بِمثابَةِ بِدايةٍ لِرِحلةٍ جديدةٍ في حياتِهِ، عبَّرَ عنها بِقَوْلِهِ: *"أَوَّلُ رِحلَتي الكُبرى التي استمرَّتْ نحوَ عِشرينَ سنةً، تَحَوَّلْتُ فيها من حالٍ إلى حالٍ"* [1].

ج- مدرسة بُوعَنْفِير: أسَّسها سيدي احْمَاد بن مبارك الرَّسْمُوكي عام (1277هـ/ 1860م). كانت عائِلَتُهُ من قَبْلُ، تسكُنُ في قبيلة رَسْمُوكَة في السُّوس، في دُوَّارٍ يُسَمَّى الآنَ، دُوَّار وَعْرَاب؛ فانتقلت إلى تَرْغَنْت في مُزُوضَة. ويَذْكُرُ أحفادُهُ أنَّهُم سِباعِيُّون، ينحدِرون من فَخْذِ أولاد عَزُّوز. نَهَلَ سيدي احْمَد بِدَوْرِهِ، العِلمَ مِنَ مَشارِبِ الزَّاويةِ النَّحلِيَّةِ. كان زاهِداً وَرِعاً، يعيشُ عيشةً مُتواضِعةً. ويُدْرِجُ الأستاذ الكُفناني شهادةً في حَقِّ هذا العالِمِ، أدلى بِها الهُوَّاري في مَخطُوطِهِ قائِلاً: *"سيدي احمد بَنْ مُبارك الرَّسموكي أَصْلاً...قرأ على شيخِهِ القُطْبِ سيدي محمَّد من أَوَّلِ الأمر إلى آخِرِهِ. ليس له شيخٌ سِواهُ، حتَّى تفقَّهَ وأدرَكَ درجَةَ المَشْيَخَةِ، فأرسَلَهُ إلى العُناقرة. وبنى هُنالِكَ مدرسَةً. وأقبلَ عليه النَّاسُ من كُلِّ ناحيَةٍ، طلباً*

[1] - المُختار السُّوسي: "الإلْغِيات" ج 2 ص 220. وأيضاً: "المعسول" ج 15 ص 285.

للعِلْمِ الشَّريفِ. وصار سِراجاً في تِلْكَ النَّواحي، وشيخاً، وقُدرةً لأهل ذلكَ القُطْرِ...حتَّى ضربوا به المَثَل في العِلْمِ والصَّلاحِ. ومن عجيب أمْرِهِ أنَّهُ يأتي لحَمْلِ القُفَّةِ على رأسِهِ، حين كان الشَّيْخُ يبني دارَهُ بزاويةِ أبي النَّحلِ؛ يتْرُكُ طلَبَتَهُ بالعُنافَرة، ويصعَدُ إلى زَاوية الشَّيْخِ حتَّى يَسْتَوْفِيَ نَوْبَتَهُ. وهذا خُلُقٌ قَلَّ مَنْ يتَّصِفُ به إلاَّ أهلُ الخيْرِ والوَلاَيَةِ" [1].

تُوُفِّيَ سيدي احْمَد عام (1312هـ/ 1894م). وتخرَّجَ بعد وفاتِهِ، من هذه المَدرسة فُقَهاءٌ كثيرون، أسَّسوا مَدارِسَ في قبائِلِهِم؛ من بينِهِم سيدي عبدُ المُعْطِي السِّباعي، الَّذي أسَّسَ مَدرسةَ أولاد عبد المَوْلَى في القبيلة السِّباعِيَّةِ في شيشاوة. وعلى العموم، حافظَ فُقهاءُ مدرسةِ بُوعَنْفِير على ختمِ صحِيح البُخاري في كُلِّ سنةٍ. ولذلك عَكَفُوا على تنظيم مَوْسِمٍ تِجاري يُدعى البُخاري، على غِرارِ بُخاريِّي سيدي احْماد أُو عْلِي بِمْزُوضَة الشِّيشاويّة. وقد تعدَّدت وظائِفُ أساتِذةِ هذه المَدارِسِ، وكذا وظائِفُ طَلَبَتِها، وتقلَّبَتْ بين الوظيفةِ التَّعليمية، والتَّربوية، وزِيارَةِ الأشياخِ في مُحاوَلَةِ إحياءِ العلاقَةِ بين الطَّلَبَةِ وأساتِذَتِهِمُ السَّابِقِين المُتَوَفِّينَ، وقضاءِ مَصالِحِ الأشياخِ الأَحْياءِ، وتلطيفِ العلاقات بين سُكَّان القبائِلِ الشِّيشاوية، وتَصْفِيَةِ النِّزاعات بين الأفراد، وحِمايَةِ اللَّاجِيءِ، ومُحاوَرَةِ الرِّجالِ المحَلِّيِّين للمَخزَنِ لِتَلْطِيفِ الأجواء بينَهُ وبين المَطلوبين من لَدُنْهُ.

---

[1] - أنظر: المُختار السوسي: "المعسول" ج 18 ص 274-275. أنظر كذلك: الكُفناني: "المرجع عينه" ص 296.

الباب الخامس

شيشاوةُ مَوْطِنُ زِرَاعَةِ وصِناعَةِ قصب السُّكَّر في مَغرب (ق 10هـ/16م)

(986هـ/ 1578م)-(1012هـ/ 1603م)

الفصل الأول:

بعض جوانِبِ النَّشاط الإقتصادي في شيشاوةُ (ق16م)

الفصل الثَّاني:

مصادرُ الميـاه ومُشكِلُ التَّزوُّدِ بِها في شيشاوةُ

الفصل الثالث:

مَـرَاحِلُ تَصنيعِ قَصَبِ السُّكَّرِ في شيشاوةُ

الفصل الأول

بعضُ جوانِبِ النَّشاط الإقتصادي في شيشاوة (ق16م)

أوَّلاً: صعوبَةُ البحثِ:

لا نستطيع هنا أن نَدَّعِيَ أَنَّنا بِصَدد استحضار جوانب النَّشاط الاقتصادي، الذي كان سائداً في شيشاوة خلال (ق10هـ/ 16م)؛ لأنَّ مُحاولةَ القِيامِ بذلك قد لا تُصادف ارتياحاً في أوساط البحث التاريخي، إِذْ أَنَّ المصادرَ المتوفِّرَةَ لا يُمكن أن تُزوِّدَنا بِمادَّةٍ يُمكِن أنْ نَعتمِدَهَا لِوحْدِها، لِكِتابَة تاريخٍ اقتصادي. فَقَدِ انشغل جُلُّهَا بالأساسِ، بالتَّأْرِيخِ للبطولات الشَّخصيَّة، وتاريخ السَّلاطين، والحروب فَعِشْنَا عَبْرَهَا، مُجتمعَ الأُمراء، أَوْ عالَمَاً بدون مُجتمعٍ.[1] وإذا كان المغربُ كَكُلٍّ، يُعانِي من نُدْرَةِ الكِتابة التَّاريخيَّة ذَاتِ الاهتمامِ الاقتصادي، فَإِنَّ شِيشَاوَةَ لَمْ تُشَكِّلْ شذوذاً، أَوِ استثناءً عَنِ القاعدة. وعليه، فَإِنَّ إِلقاءَ الضَّوء على النَّشاط الاقتصادي في شيشاوة خلال (ق10هـ/ 16م)، يُرغِمُنَا على الاستعانة بِدِرَاسَةٍ أَرْخِيُولُوجِيَّةٍ كان قد قام بِها، في ستِّينيات القرن الماضي، الباحثُ الفرنسيُّ[2] بُولْ بِيرْتْيِي حولَ المَعاصِرِ السُّكَّرِيَّةِ الموجودة في شيشاوة، والتي كانت قد شُيِّدتْ في فترة حُكم

---

[1] – الدُّكتور عبد الرَّحيم بنحادَّة "ندوة أكادير الكبرى" السنة 1986.

[2] – Paul Berthier « Les Anciennes sucreries du Maroc et leurs Réseaux hydrauliques »

السُّلطان أحمد المنصور السَّعدي، الذي حكم المغربَ في ما بين عامي: (986هـ/ 1578م)- (1012هـ/ 1603م). وعزَّزنا ذلكَ بنصوصٍ تاريخيةٍ لَمْ يَتمكَّنِ الباحِثُ نفسُهُ مِنَ الإطِّلاَعِ عليْها، ونعني بذلك نُصُوصَ المُؤَرِّخِ الرَّسْمِي للسُّلطان المنصور، عبدُ العزيز الفَشْتَالِي؛ وهي التي كانت آنَئِذٍ، في طَوْرِ التَّحقيق من لَدُنِ العَلاَّمَةِ المغربي المرحوم سيدي عبدُ الله كَنُّونْ.[1] ثُمَّ أَرْدَفْنَا ذلك بِمُعطياتٍ جغرافيَّةٍ تُبُّونِيمِيَّةٍ، ومُقتطفاتٍ مِنَ الرِّواية الشَّفويَّةِ المَحَلِّية في شيشاوَةَ. وأخيراً اعتمدنا على بَحثٍ مُوجَزٍ استَخْلَصَه صاحِبُه، الباحِثُ عبد الرَّحيم بن حادَّة مِنْ بَحْثِهِ القَيِّمِ الأصلي، حول زراعة وصِناعة قصب السُّكَّرِ في مَغرب (ق10هـ/ 16م)، نال -من خلالِه- شهادة دِبْلومِ الدِّراسات العُليا في جامعة اظْهَر المَهْرَاز في فاس.

وقبل أن نتطرَّق للموضوع الشَّائِكِ هذا، لا بأس أن نُبْدِي مُلاحظةً استرعت انتباهَنَا، تَمَثَّلت في رَدِّ فِعْلِ السَّعديِّين تُجَاهَ قبيلة أولاد أبِي السِّباع في شيشاوة. فإذا كان السُّلطانُ السَّعْدِي أحمد المنصور قد عَمِلَ على إبعاد السِّباعيِّين عن حاضرة حُكمِه مُرَّاكُشَ، ودَفَعَهُمْ بقبيلة ذُو بْلاَل إلى المجالات الجَافَّة من شيشاوة؛ إذ حرِص على أن تتوغَّلَ هذه القبيلةُ السِّباعيَّةُ باتِّجاه الغرب: الصَّوِيرَةِ حالياً، أو باتِّجاه الجنوب الغربي عند مَشارِفِ الأطلس الكبير الغربي، إمَّا لِكون الدَّولة السَّعديَّة النَّاشئة كانت تَتوجَّسُ

[1]- عبد العزيز الفشتالي: "مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا" نشرَه عبد الكريم كريم، جامعة محمد الخامس، الرباط.

من مُنافَسَة القبيلة السِّباعيَّة في مَسْألَتَي الشَّرَف والجهَاد، باعتبارهما العُنصران اللَّذان قامت على أساسهما دولةُ الشُّرفاء السَّعديِّين، وإمَّا لحرْصه على إبْعادهمْ عَن المَوْضع الذي اختارَه لتَشْييد مَعْصَرَتَي السُّكَّر في شيشاوة. وهو ما يَجعَلُنَا نُساندُ رَأيَ الأستاذ الكُفناني في أنَّ السِّباعيِّين كانوا يُحْرجون المَخْزَنَ السَّعدي، ولذا فضَّلَ هذا الأخيرُ أن لاَ يُقْحمَهُمْ في جهاز الجُنديَّة حتَّى لا يَتَقَوَّوْا، ويَتَجَبَّرُوا. فلم يعودوا إلى المجالات القريبة من مَوْضع المَعْصَرَتَيْن في زاوية بَلْمْقَدَّم إلاَّ بعدَ أن تُوُفِّيَ المنصور الذَّهَبي، وانقرضت دَوْلَةُ السَّعديِّين منْ بعد الخلافات التي حَدَثَت بين أبنائه المتنازعين على الحكم. بل عادوا إلى الانتشار بعد ذلك، في فترة حُكم العَلَويِّينَ، حينما قام الوليُّ الصَّالح سيدي المختار في (ق11هـ/ 17م) بشرَاء منطقة تغْسْريت بستٍّ وستِّين جَمَلاً. كيفما كان الحال، سَنُلقي الضَّوْءَ على هذا الموضوع، بمزيد منَ التَّوضيح والاهتمام حين نكونُ على علْم بطُرُق اشتغال وحدات التَّصنيع، أو الإشراف على المَعَاصر السُّكَّريَّة في شيشاوة.

ثانياً: مُقَوِّمَاتُ زراعة قصب السُّكَّر في شيشاوة:

قبل أن نُقَدِّمَ المشروعَ السَّعدي في شيشاوة، يَجدُر بنا أنْ نُبيِّن أهَمَّ العَوامل التي أثَّرت في النَّشاط الزِّراعي:

ج- التَّساقُطاتُ: فيما يَخصُّ نصيبَ منطقة شيشاوة منَ تساقطات (ق10هـ/ 16م)، لا تُفدينا الخريطةُ المُتعلِّقةُ بمَقاييس الأمطار، ولاَ الإشاراتُ الطَّفيفةُ للإسْتُغْرَافيَا المغربية في شيءٍ، برَغْمِ احتياجات المنطقة

للمياه. فَباستثناء شَمال البلاد، فَإنَّ زراعةَ قصب السُّكَّر لَمْ تُشكِّل اهتماماً لدى سُكَّان المناطق التي تَهطُل فيها الأمطارُ بغزارة.

ب- الجفافُ: منَ الملاحَظ أنَّ شيشاوة تنتمي إلى المناطق الجافَّة بالمغرب، الواقعة بين درجتَيْ 40 و50 حسب Thornwaite.

ج- الحرارةُ: يُلاحَظُ أنَّ عُنصرَ الحرارة هو الذي سيلعبُ الدَّوْرَ الحاسمَ في زراعة قصب السُّكَّر، وكذا في استعمال تقْنيات الرَّيِّ؛ غير أنَّ عمليَّةَ الرَّيِّ تلك، وإن كانت قد قَلَّصت منْ الآثار السَّلبيَّة للجفاف، فإنَّها لَمْ تستَطع أن تحولَ دون انْعكاسات تَفَاوُت المَدَى الحَراري على هذه الزِّراعة. (نُسجِّل هنا أنَّ التَّفاوتَ الحاصلَ في الحَرَارَة، يُلحقُ الأضرارَ بزراعة قصب السُّكَّر، إذ يُصيبُ الأقصابَ بالاكتحال). وعلى العُموم، تبقى هذه الزِّراعَةُ مُلائمَةً للنِّطاقات المدارية الحارَّة والرَّطبة، وانتشارُها في منطقة شيشاوة خلال (ق10هـ/ 16م) يُفَسَّرُ بأنَّ السَّعديِّين حاولُوا تَعويضَ الرُّطوبة المُحيطيَّة البعيدة عَن المنطقة بتَطويرهمْ لأساليب الرَّيِّ في شيشاوة، فيما تبقى الحرارَةُ عُنصراً هامّاً. وإذا ما تَمَثَّلنا خريطةَ توزيع زراعة قصب السُّكَّر في مَغرب (ق10هـ/ 16م)، فَإنَّنَا نَجدُها تتمركز في المناطق القارِّية الدَّاخلية التي تتميَّزُ بحرارة مُرتفعة: أي أنَّها تبعدُ عَنِ التَّأثيرات المحيطيَّة الرَّطبة:

* شيشَاوَة؛
* تَارُودَانْت؛
* تيزنيت.

د- التُّربَةُ: يُمكن لهذه الزِّراعة أن تنتشرَ في جَميع مناطق المغرب على اختلافها، فَبرَغْم أنَّ الجغرافيين انْتَهَوْا إلى أنَّ هذه الزِّراعة تتناسبُ مع النِّطاقات الرَّطبة، فَإنَّ الحصولَ على مَرْدُودٍ مُرتفعٍ يَتطلَّب تَوَفُّرَ شروطٍ، منها:

- صلابةٌ متوسِّطةٌ للأرض؛

- تربةٌ عُضويَّةٌ.

هكذا سَتُساعد الظُّروفُ الطَّبيعيَّةُ: عنصُرُ الحرارة خاصَّةً من جهَة، والبَشَريَّةُ من جهَة أُخرى على تَنامي هذه الزِّراعة في المنطقة، لكن هل هذه الزِّراعةُ تَرتبطُ بالقرن (10هـ/ 16م) فقط؟

ثالثاً: مُؤَشِّراتُ ظُهُورِ زراعَة وصناعَة قصَبِ السُّكَّر:

امتدَّتْ فترةُ انتشار زراعَة قصب السُّكَّر في المغرب، حسب النُّصوص التَّاريخية، ما بين (241هـ/ 895م)-(1025هـ1615م) أي حوالي ثمانية قُرون. وعليه، إنَّ أوَّلَ إشارة لزراعة قصب السُّكَّر في المغرب، تعودُ إلى (ق3هـ/ 9م). إذ يُعتَبَرُ أبو حنيفة الدِّينَوَري، المتوفَّى عام (241هـ/ 895م)، أوَّلَ من أشار إلى وُجود السُّكَّر في المغرب في مُؤَلَّفه "كتابُ النَّبات". تَطرَّقَ فيه إلى وُجُود زرَاعَة قَصَب السُّكَّر في طَنْجس. أَمَّا الأنواعَ السُّكَّرية التي استعْرَضَها، فهي إمَّا سُكَّرٌ أبيض، أو أسود. وعن وَصْفه للقوالب، فقد ذكر أنَّها كانت عَريضَةَ الحجم، تَعجزُ اليدان عَن احتواء واحد منها؛ وقد سَمَّى السَّوائلَ المُستَخْرَجَةَ بوساطة الطَّحْن منَ الأقصاب، بِعَسَلِ السُّكَّر. وبهذا

نَخْلُصُ إلى القول: إنَّ دخول السُّكَّر إلى المغرب قد تَزامن مع التَّوسُّع الإسلامي. فهل كان قصبُ السكر يقتفي أثر انتشار الإسلام؟

أمَّا ثاني إشارة للسُّكَّر في المغرب، فتعود إلى (ق4هـ/ 10م)، حيثُ نَبَّهَ ابْنُ حَوْقَل في كتابه "صورةُ الأرض"، إلى وجودها في السُّوس الأقصى، غير أنَّهُ لَمْ يُحدِّد مَوطنَها بالضَّبط، ممَّا حَدَا بالبعض إلى القَوْل بانتشارِهَا في سِجِلْماسَّةَ.

أمَّا الرَّحَّالَةُ البكْري، فقد أشار إلى هذه الزِّراعة في (ق5هـ/ 11م): أي فيما بين عامي: (419هـ/ 1028م)-(486هـ/ 1094م) في كتابه "وصفُ أفريقيا الشَّمالية"، وساهم في إجلاء غُموض وعُمُوميَّة سابقيه، منْ حيثُ تحديدُهُ لمَوْطنِهَا في بَني مَاغُّوس التي تَفْصلُها مَسيرةُ يومٍ واحدٍ عَنْ إيجْلي.

وعَنِ الشَّريف الإدريسي في كتابه "نُزْهَة المُشْتاق في اختراق الآفاق" (494هـ/ 1100م)-(601هـ/ 1166م)، فقد أشار إلى وُجُود مَزارِع قصب السُّكَّر في ضواحي مدينة تارودانْت، وفي مدينة سبتة، ثُمَّ في تِنْمَل مَعْقِل قِيامِ المُوحِّدين.

أمَّا البَيْدَقُ في (ق6هـ12م)، فقد أشار بدقَّة إلى وُجودها في منطقة سُوس في كتابه "أخبارُ المهدي بْنُ تُومَرْت"، حيثُ ذَكَرَ في مَعرض حديثه عن مَعركة دارت بين المُرابطين المُنهارين والموحِّدين المُطالبين بالحُكْم، كيفَ أنَّ هذه المَعْرَكَةَ قد تسبَّبت في إتلاف مَزَارِعِ السُّكَّر بإيكْلي.

فيما أشارت بعض النُصُوصُ المُنْتَثَرَة في كتاب الفازاري منْ بَعْده: (532هـ/ 1138م)-(549هـ/ 1154م) إلى وُجُود مَزارِع قصب السُّكَّر في ضَواحي مُرَّاكُشَ على عهد السُّلطان المُوحِّدي عبد المومن بْنُ علي الكُومي.

أشارَ أيضاً، أبو حامد الأندلُسي في مُؤَلَّفه "عَجَائبُ المخلوقات" إلى أنَّ أقصابَ سُكَّرِ سوس لا مَثيلَ لَها في الطُّول، ولا في النُّعُومَة.

وفي الفترة ما بعد انْهيار الموحِّدين وقيام المرينيِّين، أشارَ مُؤَلِّفٌ مَجهولٌ في "كتاب الاستبصار"، إلى وُجود زِراعة قصب السُّكَّر على ضِفاف وادي سوس.

فيما أشار ابْنُ الوَرْدي في خريطة العجائب إلى وجود هذه الزِّراعَة في منطقة السُّوس الأقصى.

ثُمَّ وضَّحَ ابنُ سعيد، المُتوفَّى عام (672هـ/ 1274م) تلك الإشارة في "كتاب البديع"، بتحديد وجود هذه الزِّراعَة في وادي نُون بالسُّوس، يُنتَجُ منها سُكَّرٌ مُمتازٌ.

وهي الإشارةُ نفسُها التي زكَّاها بعدَهُ، إبراهيم واطواط، المُتوفَّى عام (718هـ/ 1318م) بذكْر منطقة السُّوس الأقصى.

ويذكُرُ ابنُ فَضْل الله العُمَري، المُتوفَّى عام (749هـ/ 1348م) في مُؤلَّفه "مَسالك الأبصار"، وُجودَها في سوس، وفي ضواحي مدينة مُرَّاكُشَ.

إنَّ كُلَّ هذه النصوص لَتُؤَكِّدُ على أنَّ زراعةَ قصب السُّكَّر كانت مَوجودةً في المغرب خاصَّةً في السُّوس، وكانت تُستَغَلُّ ضمنَ المَوارد الغذائيَّة حيثُ يذكرُ البكْري أنَّ أكثرَ شَرابهم مَاءُ السُّكَّر. وقد ثبت أنَّ أوَّلَ امتحان عَرَفَتْهُ هذه الزِّراعَةُ في مَغرب (ق10هـ/ 16م)، كان بعد وفاة السُّلطان السَّعدي عبد الله الغالب، حيثُ أدَّت الصِّداماتُ العسكَريَّةُ بين ابنه محمَّد المُتوكِّل منْ جهَة، وعَمَّيْه عبدُ المَلك المُعْتَصم وأحمد منْ جهَة ثانيَة، إلى إتْلاَف مَزارع السُّوس.[1] ويذكُرُ الفشتالي، وهو المؤرِّخُ الرَّسمي للسُّلطان أحمد المنصور، في كتابه "مَنَاهلُ الصَّفَا"، جُهودَ المنصور السَّعدي في توسيع مَزَارع السُّكَّر في المغرب. إذْ إلى حدود عهد المنصور كان يُعتَقَدُ أنَّ زراعةَ قصب السُّكَّر لا يُمكن أن تَنتشرَ سوى في منطقة سُوس، لاختصَاص تُربتها بها. فيقول: *"ومنْ أعْظَم آثاره [أي المنصور] أيَّدَهُ الله تعالى التي يَتَقَاصَرُ فيها أهْلُ الدُّول العظام، عن فَتْرَة وَمسْبَار عَوْرَة، حاشا مَولانا الإمامُ المَهدي رَضيَ الله عنه وقدَّسَهُ، يعني محمَّد الشَّيخ، المَعَاصرُ السُّكَّريَّةُ التي ابْتَدَعَ رُسومَهَا، واخْتَرَعَهَا ببلاد حَاحَّة، وشُوشَاوَة منْ عَمَل مُرَّاكُش. وعلى مَسَافَة القصَر منْهَا، وهي منَ الأُمور التي انْفَرَدَ بتَدبيرها، فجاء للنَّاس منْهَا بآيَات الإعجَاب والغَرَابَة؛ إذْ يَرَوْنَ ذلكَ ممَّا تَختَصُّ به تُرْبَةُ بلاد السُّوس، التي اخْتَرَعَهَا بها مولانَا المَهْدي وَالدُهُ"*[2].

---

[1] - M. Abitbol « Tombouctou et les Armas » P : 43.

[2] – الفشتالي عبد العزيز، "مناهل الصفا في ذكر موالينا الشُّرفا" ص209.

ولعلَّ جَوْدَةَ هذا السُّكَّر هي ما أدى إلى ارتفاع أثْمانه، ففي سنة (975هـ/ 1567م) لَمْ يكن ثَمَنُ La livre يتعدى المبلغ المالي[1] 10 Pende، فيما ارتفع الثَّمَنُ سنة (997هـ/ 1589م) إلى 14 Pence.[2] هذا، وقَدْ أَوْكَلَ المنصورُ السَّعدي الإشرافَ على مَزَارِعِ السُّكَّر إلى اليهود؛ هكذا يَذكُرُ الفَشْتَالِي أنَّ المَخْزَنَ السَّعدي قَد اكْتَرَى المَزَارِعَ لطَائفَة من أهل الذِّمَّة، إذ يقول: "*وقد قُطعَتْ مُعاقَدَةُ الكرَاء فيها اليَوْمَ لطَائفَة مِنْ أهل الذِّمَّة بمقْدَار* ( ) *عَنْ كُلِّ سَنَة.*"[3] غيرَ أنَّ الإشرافَ على مَزَارِعِ السُّكَّر سُرعانَ ما يتحوَّلُ في كَثير منَ الأَحيان، منَ الدَّولة واليَهُود مَعاً، إلى التُّجَّار الإنجليز، حيثُ أَوْكَلَ إليهمُ الإشرافَ عليها فترةَ جَمْعِ المَحاصيل كَمُقَابلِ للسِّلَع التي يُزَوِّدون بها الشَّريفَ السَّعدي. ولعلَّ ذلك التحوُّلَ قد تَمَّ بسبب المشاكل التي أَوْجَدَهَا إشرافُ اليهود على المَزَارِع نفسها، إذْ كان اليهودُ مُعَرَّضين أَكْثَرَ للمُصادرات، التي كانت تُؤَدِّي إلى إفلاس التُّجَّار الإنجليز.[4] ومنْ تَمَّ كانت مُطالَبةُ هؤلاء بالحصول على مداخيل المَزَارِع، غير أَنَّهُ غالباً ما كان يُرْجَأُ الاستغلاَلُ إلى مَوْسِمٍ مَا، الشَّيءُ الذي يَنْتُجُ عنه تجميعُ ديونٍ كبيرةٍ على

---

1 – «Les sources inédites d l'histoire du Maroc» serie Anglaise T I. p 90.

2 - « S.I.H.M série Angl.TI P : 524 ».

3 - حَرَمْنَا بياضُ النَّصِّ في مَخْطُوطِ "الفشتالي"، مِنَ الوُقُوفِ على مِقْدَارِ الكِرَاءِ؛ أنظر: "مناهِلُ الصَّفَا" ص210.

4 - « S.I.H.M série Angl.TI P : 537 ».

الشَّريف السَّعدي: "*هكذا كان تاجران يَدينان بمَبْلَغ 11.000 أُوقيَّة، مُقابل مَبالغَ سَدَّداها للمَخْزَن السَّعدي في الفترة الواقعة ما بين سنتَيْ* (1004هـ/ 1595م) (1009هـ/ 1600م)."[1]

إنَّ الإنتاجَ الضَّخمَ والمردودَ المُرتفعَ،[2] اللَّذَيْن حاولَت الدَّولةُ السَّعديَّة المُحافظة عليْهِمَا، تطلَّبا منها توفيرَ بعض الموادِّ الأوَّليَّة، واليَد العاملَة بكَثْرَة؛ فقد كانَت الدَّولة في حاجَة إلى الأخشاب لتَعْليب السُّكَّر. وارتفاعُ إنتاج السُّكَّر زادَ منَ إقبال العُمَّال على اجتثاث الأخشاب لأجل تَعليب القوالب المُوجَّهة نحو التَّصدير، وهو ما أدَّى إلى اسْتنْزَاف الغابة المغربية، ممَّا دفع الشُّرفاء إلى استيراد الخشَب منَ الخارج. وتُشيرُ وَثيقةٌ منْ وثائق محاكم التَّفتيش المتعلِّقة بالبُرتغال إلى المسألَة مُنْذُ خَمْسينيَات القرن (10هـ/ 16م)[3] إلى أنَّهُ في عهد المنصور، كان التُّجَّارُ يَحتكرونَ تجارَةَ الخشب المُستَوْرَد منْ جزر مَاديرَا، والجُزُر الأطْلَسيَّة الأُخرى. ولمَّا لَمْ تكن إنْجلترَّا قادرةً على تَلبيَّة طَلبات الشُّرفاء السَّعديِّين، فَقَد اضطرَّ هؤلاء إلى اللُّجوء إلى هُولَنْدَا.[4] أمَّا بخُصوص اليَد العاملة، فقد كانت كثيرةً جدّاً؛ وقد ترك لنا الفَشْتَالي وصفاً

---

[1] – تذكر وثيقةٌ انجليزيّةٌ أنّ تاجراً انجليزياً أفلس نتيجةً لذلك بِقَدْرٍ لا يَقِلُّ عن 40.000. « S.I.H.M Angl. TI ».

[2] – يُمكِنُ فهم ذلك من خلال ما يُورِدُهُ المجهول الإنجليزي H.C منْ أنّ مَداخيلَ تجارة السُّكّرِ كانت تُقدّر في المغرب خلال ق16م، بحوالي 600.000 أوقية سنويّاً.

[3] – أحمد بوشرْبْ: "محضر محاكمة بحّارَة برتغالي" ص257 حيث تذكر الوثيقة أنّ المُتّهَم كان قد نقل 100 صندوقٍ منَ الخشب الّذي يصلُح لتَعليب السُّكّر.

[4] – « S.I.H.M Angl.Ti P: 394 ».

لكَثرة اليَد العاملة، إذْ يقول: "... *فإذا ألْقَيْتَ عَصَا التِّسْيَار بمَعصرة منهُما* [وهو يَقْصدُ مَعْصَرَتَيْ حاحَّةَ وشُوشَاوَةَ] *رَأيْتَ مَجمَعَ الوَرَى، وأوَّلَ الحَشر، وقَريَةَ النَّمل، وَكُورَةَ النَّحْل، ومَدْرَجَ الذَّرِّ. لكَثْرَة مَا ضَمَّتْ منَ العَمَلَة وحَشَرَتْ منَ الخَلْق. ولا تَسألْ عن هولها، ولَغْط الأصوات بها تَدُلُّ على عَظَمة شأنها، وضَخَامة أحوالها*" [1].

وعن نوعيَّة اليَد العاملة المُسْتَخْدَمَة في هذه الزِّراعة، انتهى الباحثُ الأرخيولوجي بُولْ بيرْتْيي، بالاعتماد على التُّوبُّونيمْيَا، إلى القول بأنَّ العبيدَ قد شَكَّلُوا أغلَبيَّتَها. ويُوحي نَصُّ المؤرِّخ الإسباني مَارْمُول كَارْخَال حول زراعة قصَب السُّكَّر في تيِيُّوت، بأنَّ اليَدَ العاملةَ كانت مُشكَّلةً أساساً من أَسْرَى سَانْتَاكْرُوز،[2] وهو رأيٌ يُدافع عنه بقُوَّة الباحثان الفرنسيَّان هنْري دُو كَاسْتْري[3] وسليْيي. وقَد اعتمد السَّعديُّون، بالإضافة إلى هذه اليد العاملة الأجنبية، على تقنيِّينَ وخُبراءَ أجانب. هكذا تُشيرُ وثيقةٌ بُرتغاليَّةٌ تَرجعُ إلى سنة (961هـ/ 1554م)، إلى خبيرَيْن قَضَّيَا مُدَّةَ أربعة أشهر في سُبوس،[4] وهو طرحٌ يَدفعنا إلى التَّساؤُل عَن السِّرِّ وراءَ وُجود بقايا السَّكَن الخَاصِّ بقُصُور العُبيد في شيشاوة، وبالضبط في زاويَّة بَلْمْقَدَّم.

---

[1] – الفشتالي: "مناهل الصفا" ص210.

[2] – مارمول كاربخال: « De l'Afrique ».

[3] – « Le Maroc Pays de sucre et de l'or ». In L'Afrique Française 1923.

[4] – أحمد بوشرب: "مَحْضَرُ مُحاكمة بَحّارةٍ بُرتغالي".

رابعاً: تَطَوُّرُ هذه الزِّراعة:

فيما يَخُصُّ تطوُّر هذه الزِّراعة، يُسعفنا الحسنُ الوزَّانُ بإشارات تتعلَّق بالقرن (ق10هـ/ 16م)، حيثُ تحدَّث عَن السُّكَّر، وأكَّدَ على سوء استعْماله منْ لَدُن بعض السُّكَّان في المغرب. كما أكَّد على عدم جَوْدَته، حيثُ يقول: *"إنَّهُ سُكَّرٌ أسودٌ لجَهلهم بطريقة طَبْخه وتَصْفيَّته."*[1] وكأنَّ الوزَّانَ يُصوِّر فترة رُكود هذه الزِّراعة. ومصداقُ ذلك يَظهرُ لنا جَليّاً فيما كان ابْنُ فَضْل الله العُمَري قد أورَدَهُ منْ أوصاف تَخُصُّ زراعةَ وصناعةَ السُّكَّر في كتابه "مَسَالكُ الأبْصَار"؛ وهي إشاراتٌ جاءت قبل الحَسَن الوزَّان بحوالي قرنَيْن منَ الزَّمان، أي في فترة حُكْم المَرينيِّينَ. أمَّا عن فَحْوَاها، فَإنَّ الأمرَ يتعلَّق بما يلي. كانت زراعةُ السُّكَّر مُتَرَكِّزَةً بنواحي مُرَّاكُشَ وهو يَقصد، بدون شَكٍّ، شيشاوة. ويُضيفُ وكذا بوادي نَفِّيسَ. وفي مُرَّاكُشَ كان يُوجَدُ أربعون مَعْمَلاً، وأكثرُ زيادةً على ما كان بسُوس، وهي تُنْتجُ سُكَّراً في غاية البَيَاض، وصلابَة الذَّوْق يُقَاربُ سُكَّرَ مصْرَ إنْ لَمْ يكن مثْلَهُ. وإذا ما كان فعلاً، الحسنُ الوزَّانُ يُريد أن يُصوِّرَ رُكودَ هذه الزِّراعة، فَإنَّنَا نتساءَلُ عن مَدى إسهامِ الدَّولة السَّعديَّة في النُّهوض بها؟

إذا كانت النُّصوصُ القُرُوسْطيَّةُ لا تَذكُرُ أيَّ شيء عن تنظيم هذه الزِّراعة، فَإنَّ نُصوصَ (ق10هـ16/ م) تُوفِّر مُعطيات تُمكِّن منَ الوقوف على

---

[1] – الحسن الوزّان: "وصف أفريقيا".

تنظيماتها. ولعلَّ في كثرة المُعطيات ما يُؤكِّد فعْلاً، على الاهتمام الَّذي أوْلَتْهُ الدَّولةُ لهذه الزِّراعة. هكذا كانت زراعة قَصَب السُّكَّر أوَّلَ مَشروعٍ سَعْديٍّ في كثيرٍ من مناطق السُّوس، ومن بَعْدُ في شيشاوة، وفي ضاحية الصَّويرة، وفي سيدي شيكَر. وكان هذا المشروع يدخلُ في إطار سياسة اقتصادية وضعتْها الإمارةُ السَّعديَّةُ لتعضيد مشروعها العسكري.

وإذا كان المؤرِّخُ الإسباني دْييكُو دي طُورِّيس يَذكُر أنَّ السُّلطانَ محمَّد الشَّيخ السَّعْدي عَملَ على شَقِّ القنوات لجَلْب الماء إلى مَزارع السُّوس،[1] وأنَّ جُهودَ ابنه السُّلطانُ عبدُ الله الغالب بالله منْ بَعده، لَمْ تكن تَقلُّ أهَمِّيةً عن جُهُود سَلَفه، إذْ أنشأ –على حَدِّ قول المؤرِّخ نفسه– مدينةً جديدةً Gared وسطَ مَزارع السُّكَّر، بالقُرب منَ المصدر المائي في سُوس. فَإنَّ هذه الزِّراعة قد عرفت امتحاناً كبيراً بعد وفاة السُّلطان عبد الله الغَالب، حيثُ أدَّت الصِّداماتُ العسكريَّةُ بين المتوكِّل من جهَة وعبد المَلك من جهة ثانية إلى إتلاف هذه المزارع.[2] ويَذْكُرُ الفَشْتَالي جهودَ المنصور السَّعدي في توسيع مَزارع السُّكَّر، وإتْقَان تشييدها في فترة ما بعدَ أخيه الغالب فيقول: *"فكان كُلُّ مَنْ تولَّى الخلافةَ مِنْ ذُرِّيته* (أي محمَّد الشَّيخ السَّعدي) *الخلفاءُ الكرامُ منه، إلى مولانا الإمامِ أمير المُؤمنينَ* (يعني المنصور) *أيَّدَهُ الله نَجْلُهُ، يَقْطَعُ بأنَّ*

[1] – Diego De Torrées: « Histoire des chérifs »

[2] – M. Abitbol: «Tombouctou et les Armas » P. 43.

ذلكَ لا يتأتّى من جهَة الإمكان في غير أرض السُّوس، ويَعْتَقدُونَهُ مَذهباً، وُقوفاً منهُم رحمهُمُ الله في ذلك وفي غيره، معَ المألوف منَ الأُمور، والمُشاهَد منَ الأحوال... إلى أن جاءت دَولةُ أمير المؤمنين أيَّدَهُ الله، فردَّ التقليدَ...وشأنُ هذه المعاصر شأنَ الخَوارق الخارجَة عن طَوْق البَشَر جَفَاءً، وعظمةً، وتشييداً؛ ما شئْتَ منْ بَرك، وجفَان كالجوابي، وقدُور راسيَات، وكَوالب. أنْفَدَ إليْها العُرَفَاءَ بأمور المَعاصر، وتَصَاريفَها، ومَقَاييسَها، ومَقَاديرَها"[1].

[1] – عبد العزيز الفشتالي: "مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا" ص210.

الفصل الثاني
مَصادرُ المياه ومُشكلُ التَّزوُّد بها في شيشاوة

أوَّلاً: صبيبُ وادي شيشاوة والسَّواقي الحافَّة من حوْله:

يبدو أنَّ مُزارعي (ق10هـ/ 16م) في شيشاوة، قد حاولوا أن يَضُمُّوا كمِّيات المياه التي يُوفِّرها وادي شيشاوة منْ جهَة، إلى كمِّيَات المياه التي تُوفِّرُها العيونُ المسمَّاةُ: رَاسْ العين، آبَايْنُو وبُوعَنْفير من جهَة ثانية. على أنَّ هذه المَصادر تُوفِّر في مُجْمَلهَا ما يُقاربُ 800 لتْر إلى 815 لتر في الثَّانية أثناء الصَّبيب. وبرَغْم كُلِّ هذا يبقى مَنْسُوبُ وادي شيشاوة ضعيفاً، إذ لا يكادُ يتعدَّى 1.5م إلى 3م، حتَّى في الأشهر المُمْطرَة. ولكي نكشفَ عَن القَنوات التي كانت تتزوَّدُ عَبْرَهَا المَعصرتان السُّكَّريتان في شيشاوة منذ (ق10هـ/ 16م)، فإنَّنا نُسجِّل ما يلي:

أ)- السَّاقيَّةُ الجَعْفَريَّةُ: كانت تُعرف بساقية آيت زيد، تجري على بُعد خَمْسِ كيلُمترَات بين شيشاوة وطريق مُرَّاكُشَ.

ب)- السَّاقيَّةُ العَلَّويَّةُ: تتقاطَعُ في بعض الأحيان مع الجَعْفَريَّة؛ ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى نُقطة التقاء بينهما أثناء التَّزوُّد بالمياه. تُعتبر السَّاقيَّةَ الوحيدةَ التي تتَّجه نَحو النُّقطة الجنوبيَّة منَ السُّور لتَصُبَّ مياهَها في القناة، التي تعْلُو

السُّورَ نفسَهُ حتَّى تَصلَ إلى النُّقطة الأُخرى حيثُ تُدَفِّقُ القناةُ المذكورةُ مياهَها فوق النَّاعورة التي تُديرُ أرْحَاءَ المَعْصَرَة. وسنُفَصِّلُ في كُلِّ هذا في حينه.

ج)- السَّاقيَةُ المَخْزَنيَّةُ: أصلُها، أو مَنْبَعُها واضحٌ بالمقارنة مع السَّابقَتَيْن، إذْ تنقلُ المياهَ على بُعْد ثلاثة كلُمترَات شَمالَ التَّجمُّع السَّكني في شيشاوة؛ وتنقَسمُ إلى شطريْن: شطرٌ يتَّجه نحو الشَّمال حيثُ زاوية بَلْمْقَدَّم، لكي يُزَوِّدَ سُور العْبيد، ذلك التَّجَمُّعُ السَّكنيُّ القَريبُ منَ المَعصَرتيْن الشِّيشاويَّتيْن مَعاً، وكذا البنايات الهامشيَّة المحيطَةُ به. وشطرٌ آخرُ يتَّجه نحو الشَّرْق حيثُ توجَدُ بنايتان.

وعلى العموم، فَإنَّ سواقي المَعْصَرَتَيْن في شيشاوة، تكاد تصل في عَدَدهَا إلى عشرين ساقيَّة، منها ما يأتي منَ الوادي، ومنها ما يأتي منَ العُيون؛ وهي كُلُّها تُحقِّقُ صبيباً يصل إلى 2000 لتْر في الثَّانية. على أنَّ السَّواقي الرَّئيسَة التي تَهُمُّنا تتمثَّل في أَبَايْنُو، تَاجُّوجْت، دْرَن، عَيْنْ أجْدَال، تَامْرْزُوقْت، تَمْليلْت، الجَعْفَريَّة، المُحَمَّديَّة، العَلَّويَّة، المَخْزَنيَّة؛ دون أن نُنْقصَ من أهَمِّية السَّاقيَتَيْن: الرْكيكيَّة والبُوكَسُّوليَّة... فالأمر يتعلَّقُ إذاً، بصبيب هامٍّ يُمكن أن يُديرَ أرْحَاءَ مَعصرتَي شيشاوة خلال (ق10هـ/ 16م). كما بإمكانه أن يَسقي الأراضي التي زَرَعَ فيها الشِّيشَاويُونَ قصبَ السُّكَّر في (ق10هـ/ 16م). كيفما كان الحالُ، فالصَّبيبُ والجَريانُ لازالاَ نشيطيْن إلى الآنَ، يُسهمان في سَقْي بعض الزَّياتين، ومَحاصيلِ القمحِ والشَّعير في شيشاوة.

ثانياً: مُونُغْرَافِيَّةُ المَعاصِرِ السُّكَّرِيَّة:

أ)- المَوْضِعُ: منَ المعلوم أنَّ شيشاوة تتوفَّرُ الآن، على ثلاث مَعَاصِرَ للسُّكَّر. اثنتان بالقُرب من زَاوِيَّة بَلْمَقَدَّم، وواحدةٌ في سيدي شِيكَر، وهو المعروف بربَاط شَاكر. غير أنَّ الذي يَهُمُّنَا الآن، هو المعصرتان الشِّيشَاوِيَتَان. تَقَعان بالقُرب منَ الضِّفَّة اليُمنى للوادي، على حافَّة المُثَلَّث المُكَوَّن منَ الطُّرق المؤدِّية منَ الصَّويرة إلى مُرَّاكُشَ، ومن شيشاوة إلى الشَّمَّاعية، ثُمَّ إلى آسفي. على أنَّ زاويةَ بَلْمَقَدَّم تبقى العلاَمةُ الوحيدةُ التي بوساطَتها يَهْتَدي المرءُ إلى المَعصرتيْن. تبعد هذه الزَّاويَّةُ عن مَركز شيشاوة بحوالي 5كلم، على أنَّهُ يُمكن التَّسَلُّلُ إلى المعصرة الجنوبية -من خلال- الانعراجِ يَميناً، بُعَيْدَ مركز نسج الزَّرابي على الطَّريق الموجود عن يَمين الدَّاخلِ إلى شيشاوة من مراكش.

ب)- التَّبْنِيمْيَا: اعتادَ سكَّانُ شيشاوةَ أن يُطْلقوا اسمَ سُور العْبيد على المَعصَرَة القَريبة الآن، من طريق مُرَّاكُشَ-شيشاوة، وسُور الغَابَة على المَعصرة التي شُيِّدتْ عن يَمين الطَّريق المؤدِّية من شيشاوة إلى الشَّمَّاعيَّة. أمَّا نحنُ فَقَد اخترنا، تبعاً للمَنطق الجغرافي،[1] اسمَ المَعصرة الجنوبيَّة للأُولى، فيما أطلَقْنَا اسمَ المَعصرة الشَّماليَّة على الثَّانية.

[1] - أنظر الجزء الأول منَ البحث عَيْنِهِ للباحث الفرنسي بولْ بِيرتِي.

ثالثاً: التَّعريفُ بمَعْصَرة السُّكَّر الجنوبيَّة في شيشاوة:

أ)- التَّعريف: تعتبرُ المَعصرةُ الجنوبيَّةُ أكثرَ المَعاصر سُهولةً من حيثُ الاكْتشَافُ، لكَونها تتمتَّع بكُلِّ العلامات اللاَّزمة لذلك؛ فهي تقع على حدود السُّور المُعْتَمَد كَوَسيلَة لإدارة النَّاعورة، وأيضاً للرَّيِّ. لازال سورُها على ما كان عليه خلال (ق10هـ/ 16م)، باستثناء بعض الانْهيارات في بُوَيْبَاته؛ طولُه حوالي 800م، أُقيمَ لتسهيل تَدَفُّق المياه من فوقه على النَّاعورة الواقعة في الطَّرَف الأقصى من امتداده. لا زالت هذه المَعصَرَةُ تحتفظ بجُزء منَ السُّور المحيط بقاعات التَّصنيع.

ب)- الوصف: يُعتبرُ سورُ المَعْصَرة الجنوبيَّة من بين أَهَمِّ المَعالم التي خلَّفَتْهَا الصِّناعةُ السُّكَّريَّةُ في مَغرب (ق10هـ/ 16م) بشيشاوة؛ طولُهُ حوالي 750 متر إلى 800م، ينحَدرُ بالتَّدريج، من نقطة استقبال مياه السَّاقيَّة داخلَ قناة، إلى أن يصُبَّ مياهَها على النَّاعورة في آخر نقطة من طوله، بمُعَدَّل انحدار يَصلُ إلى (1.3مم) بالنِّسبة إلى كُلِّ مترٍ. تَعلوه ساقيَّةٌ على شكل قَنَاة، لازالت هي الأُخرى مُحتفظةً بشَكلها المتكوِّن من مادَّة الطِّين المكسوِّ بالجير، حتَّى لا تَرْشَحَ بالمياه التي كانت تحملُها؛ يَصلُ عَرْضُهَا إلى (0.55 متر)، ويَصلُ عُمقُها إلى (0.60 متر). وعلى العموم، فالسُّورُ مُكَوَّنٌ منَ الطِّين Pisé، وهو منَ النَّوع الجَيِّد، أَحْمَرُ اللَّوْن. أَمَّا السَّاقيَّةُ التي تَعْلُوهُ فهي مُشَيَّدَةٌ مِنَ الجير، وهو ما جعلها تَصمُد ما يُقاربُ أكثر من 400 سنةً.

ج)- هندسَةُ المُخَلَّف: تقع المَعْصَرَةُ على تصميم مُحكَم جدّاً؛ فقد فضَّلَ السَّعديون أن يُشيِّدوا السُّورَ قطَعاً قطَعاً ليُثَبِّتُوا بالطِّين كُلَّ قطعة فوق الأُخرى فيما بَعْدُ، مُكوِّنين بذلك سُوراً طويلاً، ومُتماسكاً. وإذا كان هذا الأخيرُ يَفتقدُ إلى الجماليَّة، فَإنَّ الَّذي تبقى له الكَلمةُ الأخيرةُ هو التَّماسُكُ. فيما يَخصُّ أقصى نُقطة في ارتفاع السُّور عَن الأرض، أي عنْدَ تَدفُّق مياه ساقيَّته، فَإنَّ أقصى عُلُوٍّ لنُقْطَة التَّدفُّق يَصلُ إلى ما بين (6.50) و(7 أمتار).

د)- تَدَفُّقُ المياه فوق النَّاعُورَة: منَ المعلوم أنَّ السُّورَ قد أُقيمَ خصِّيصاً لضَمان تَدفُّق المياه فوق ناعورة، على أنَّ هذه الأخيرة تبقى لَصيقَةً بجدار منَ الجُدران الأربعة التي تُحيط بقاعات التَّصنيع. وهو الجِدارُ الذي يَحمي القاعةَ التي تَضُمُّ الأرحاء الثَّلاث.

تعترضُنا مُلاحظةٌ: مَفادُها أنَّ الجدَارَ الذي شُدَّتْ إليه النَّاعُورَةُ لا يُوجد في المَسَار الطُّولي نفسه، الَّذي للسُّور، بل يَتفاوَتُ الجدارُ عَن السُّور شيئاً ما إلى اليَسار تَبَعًا لاتِّجاه المياه، بحوالي (1.40متر). لذَا، وأمامَ عدم وجود النَّاعورة الآنَ، فَإنَّ السَّاقيَّةَ تظهرُ اليَوْمَ، وكأنَّها كانت تُدَفِّقُ مياهَها في الفَرَاغ. وفيما يَخُصُّ استعمالَ هذه النَّاعورة، نعرف أنَّها كانت توجدُ بالقرب منَ الجدار المُحاذي للسُّور، وأنَّها كانت تَدُورُ بوساطَة المياه المُتدفِّقة عليها منَ السَّاقيَّة، على محْوَر طُولي يَرتفعُ عن سطح الأرض بحوالي (0.50 متر). أمَّا المحْوَرُ الَّذي بمُحَاذَاته كانت تَدُورُ النَّاعورةُ، فَإنَّهُ كان يَخترقُ

الجدَارَ نحو داخل القَاعَة الأُولى، المسمَّاة قاعةُ التَّصنيع لِيُديرَ الأرْحَاءَ الثَّلاثَ: الرَّئيسَة والثَّانَويَّتَيْن.

وعلى العموم؛ نلاحظ أنَّ المحْوَرَ يَرتفعُ عن سطح الأرض بحوالي (0.50م)، وهو عُلُوٌّ ضعيفٌ. لكنَّه يُمكِّنُهُ منْ أن يكونَ في المُستوى نفسه الَّذي عليه الأرْحَاءُ، غير أنَّ المُتَفَرِّسَ في هذه المَعصَرَة لا يَسَعُهُ إلاَّ أنْ يَتساءَل عَن الكيفية التي كان يَتمُّ بها دَورانُ النَّاعورة!؟ في هذه الحالة، قام المُؤسِّسونَ لهذه المعصرة بحفْر الأرض تحتَ النَّاعورة حتَّى يتحقَّقَ الدَّورانُ. وتجدُر الإشارةُ إلى أنَّ أُولئكَ المؤَسِّسينَ أنفُسَهُم، كانوا قد وضعوا للمياه التي تتدفَّقُ على النَّاعورة، تنظيماً جدَّ مُعَقَّد ومُحكَم، يتمثَّل في حفر قناة على شكل بُلْعوُم، بين أسفل أَسَاس قاعَة التَّصنيع والسُّور، دون أن يُلْحقُوا بالأساسَيْن أضراراً. وتعتَبرُ هذه القناةُ بمثابة الأداة الوحيدة لتَصريف المياه خارجَ أسفَل النَّاعورة، باتِّجاه صهريجٍ يقع على بُعْد ستَّة أمتار، تتجمَّعُ فيه تلك المياهُ لتُسْتَغَلَّ، فيما بعدُ، في سقي المَزَارِع السُّكَّريَّة المُحاذيَّة للمَعْصَرَة. ولصهْريج الماء هذا وظيفةٌ أُخرى، تتمثَّلُ في غطْس الصُّنَّاع-العبيد، وكذا الشِّيشاويِّين للأقصاب المُقتلَعَة منَ المَزارِع في الماء، إلى أن يَصلَها دَوْرُها في أن تُطْحَنَ في قاعة الأرحاء، في اليوم المُوالي لجَنْيهَا، حتَّى لا تتعرَّضَ للاكْتحَال. ولذلك كان سُكَّرُ مَعَاصر شيشاوةَ عاليَ الجودة، شديدَ البياض. على أنَّنا سنُبَيِّنُ أسباباً أُخرى لَها ارتباطٌ بالأفران، كانت تُسْعفُ الصُّنَّاعَ

الشِّياويِّين بإنتاجِ سُكَّر أبيَض ناصعٍ وجيِّد. أمَّا مَقاييسُ هذه القناة المُمْتَدَّة مِنْ أساسَي القاعة والسُّور إلى الصِّهْريج، فهي كالتَّالي:

- الطُّولُ: حوالَيْ 6 إلى 7 أمتار؛
- العَرْضُ: من (1.40) إلى (1.50) متر؛
- العُمْقُ: (2.50) متر.

فيما يَخُصُّ قياسَ قُطْرِ النَّاعورة: نُسجِّلُ أوَّلاً أنَّ هذه النَّاعورة، ومع مُرور الوقت، واتِّساعِ حَجْمِ الثُّقْبِ الَّذي كان يقْبِضُ على محْوَرِها، بدأت تَميلُ جهَةَ اليسار، لتَتَّكِئَ في الأخير، على الجدار الَّذي كان يضُمّ الثُّقْبَ الماسكَ بالمحْوَر؛ لذَا تركَتْ عليْه آثاراً نَحتَها احتكَاكُها بالجدار. وعليه، فَإنَّ الانتقالَ مِنَ المحْوَرِ –منْ خلاَل– الثُّقْبِ الَّذي في وسَطه، إلى أسفل هذا الأخير، وبالضَّبط إلى أسفلِ النُّقْطَة التي تَمَّ عنْدَهَا الاحتكاكُ. توصَّلنا –يقولُ الباحثُ الأرخيُولوجي بُولْ بيرْتْيي– إلى تحديد قياسِ القُطْرِ في مُجْمَله، وهو ما أعطى 5 أمتار. أمَّا فيما يَخُصُّ عرضَ النَّاعورة، فَإنَّها كانت تشغل العرضَ نفسَهُ الَّذي للمَخْرَجِ المائي قبلَ أن يَلِجَ القمْعَ: أيْ ما يُقَاربُ (1.40 متراً).

- نُقطةُ التَّدَفُّق: كانت النَّاعورةُ تَعْلُو عَلى الأرض بحوالي ثلاثة أمتار: أي هناك عُلُوُّ المحْوَر (0.50م)، يُضافُ إلى قياس الشُّعاعِ (2.50م). وبمَا أنَّ عُلُوَّ السُّور يَصلُ إلى ثَمانيَّة أمتار، نَنْقُصُ منها علُوَّ المحْوَر (0.50م) وقياسَ الشُّعاع (2.50م)، فَتصيرُ الأمتارُ المُتبقِّيَةُ لتَدفُّق المياه أربعةَ أمتار، كانت تُمَرَّرُ

بوَساطَة قمْعٍ، يَشْغَلُ هو الآخرُ متراً واحداً، لئلاَّ يُضَيِّعَ البُطْءُ الماءَ المُتدَفِّقَ على النَّاعورَة، أو تَجْعَلُهُ سُرعَةُ التَّدفُّق يتعدَّى مُستوى أوعيتها المستقبلة للمياه المتدفِّقة. وعليه، فَإنَّ الماءَ المُتدفِّقَ عبر السُّور، يَصلُ إلى القمْعِ، ومِنْهُ يتدفَّق على النَّاعورة دون أن يَضيعَ بعضٌ منه.

ومِمَّا لاشَكَّ فيه أنَّ هذه النَّاعورة كانت مَصنُوعةً منَ الخشب والحديد، يظهرُ ذلك من بعض المُخلَّفات التي وُجدت على هوامش المَعصَرة الجنوبية في شيشاوة. ويَجبُ أن لا ننسى أنَّ المَعَاصرَ السُّكَّريَّةَ قد نُهبَت على مدى 400 سنة خَلَت، أي منذ السِّتَّة أشْهُر الأُولى التي أعْقَبَت وفاةَ السُّلطان أحمد المنصور الذَّهبي، نتيجَةَ صراعات داميَّة نشبت بين أبنائه الثَّلاثة بُعَيْد وَفاته، فامتدّت إليها الأيدي بالنَّهب، والتَّهديم. زدْ على هذا أنَّ المَعصَرتيْن الشِّيشاويَّتَان كانتا تنتميَان، منذ التَّقسيم الأوَّل للحدود الإقليميَّة للمغرب، إلى إقليم آسفي على الحدود بين قيادَة هذا الإقليم المَذكور وقيادَة شيشاوة، التي كانت تابعةً في السَّابق إلى عمالَة مُرَّاكُشَ. ووُجودُهُما على الحدود الفاصلَة بين القيادتيْن قد حَرَمَهُمَا، ولفَتْرَة طويلة جدّاً، منَ حيْلُولَة السُّلُطات الوصيَّة دون امتداد فُؤُوس الرُّعاة، ومُقْتَفي آثار الكُنُوز إليْهما للعَبَث بوَحَدَاتهما التَّصْنيعيَّة، ظنّاً منهم أنَّ كُنُوزَ الأوَّلينَ مطمورةٌ تحتَ أنقاضهما، وأنَّ الموادَّ التي صُنعت منها النَّاعورةُ والأرْحَاءُ لَمْ تَسْلَمْ هي الأخرى، من ذلك التَّخريب.

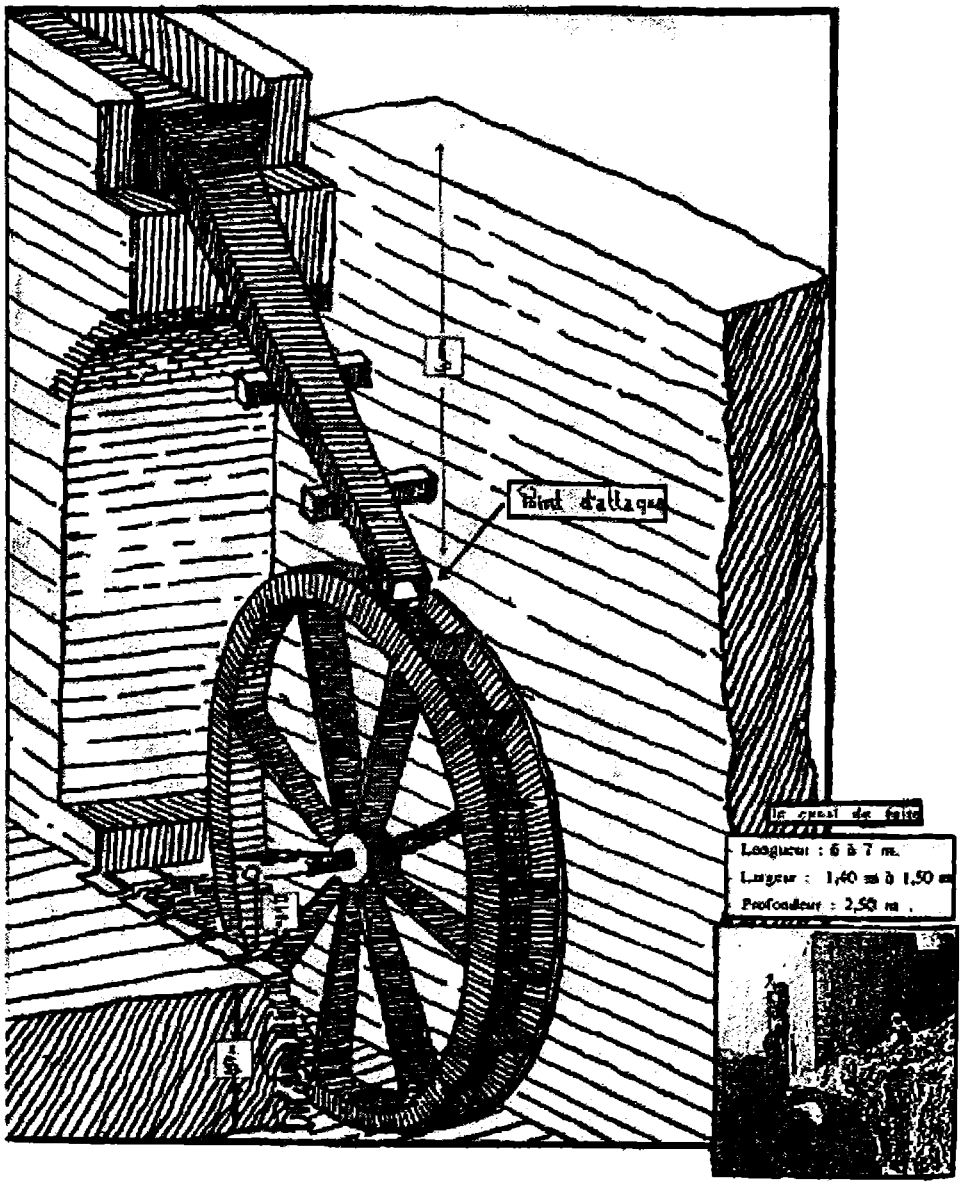

نقطة تدفق المياه من آخر نقطة في السور عبر قَمْعٍ باتجاه الناعورة المعلقة إلى الجدار المُسَيِّجِ للمعصرة الجنوبية في شيشاوة. كما جسدها الباحث الأرخيولوجي "Paul Berthier".

الفصل الثالث
مَرَاحِلُ تَصنيعِ قَصَبِ السُّكَّرِ في شيشاوة

أوَّلاً: عمليَّةُ الطَّحنِ:

تتمُّ هذه العمليَّة داخل أهَمِّ القاعات التي في المَعْصَرَة، ونعني بذلكَ القاعةَ المُحاذيَةَ للجدار، الذي عُلِّقَتْ إلَيْه النَّاعورةُ لتكونَ في المُستوى نفسه من تَوَجُّه السُّور؛ بعبارة أُخرى، القاعةُ التي تحتَوي الأرحاءَ الثَّلاث. تجدُر الإشارةُ إلى أنَّه للقاعاتِ أبعادٌ قياسيَّةٌ؛ إذْ مكَّنتْنا أُطروحةُ الأرخيولوجي بُولْ بيرْتْيي من أن نتعرَّفَ على المساحة التي كانت هذه القاعاتُ تشغَلُها، بعد أن اقتفى آثارَ بقايا الجدار المُحيط بها، والذي صمدت منه ثلاثُ واجهات إلى حدود السِّتِّينيات منَ القرن الماضي. أمَّا المساحةُ فهي (x31 40,13 متر) تُغَطِّي المساحةَ الإجْماليَّةَ للقاعات كُلِّها، والواقعة بين (375 و415 متر مُرَبَّع). وعليه، فالأمرُ يتعلَّق بقاعات واسعة، مع العلْم أنَّهَا كانت فيما قَبْلُ، أي في أيَّام السَّعديِّين، مُغَطَّاةً بسقفٍ واحدٍ انْهَارَ ليَطْمسَ، ويُغَطِّي كُلَّ وحداتها التَّصنيعية.

تنتشرُ هذه القاعاتُ فوق شكلٍ رُباعيٍّ quadrilatères، وقد كانت مُغطَّاةً بأطرافَ كبيرة منَ الطِّين المُنهار منَ السَّقف، أوْ بالتُّربة التي جَرَفَتْهَا الزَّخَّاتُ المطريَّةُ طِيلَةَ 380 سنةً. غير أنَّ حَفريات السِّتِّينيَات كانت قد

تَمكَّنت من نَزْعِ تلكَ الأطراف، وإبعادها لتَكْشفَ عن مَعالِم القاعة الأُولَى بشَكلها الحالي. للإشارة، فالقاعةُ الأُولَى هي التي لا يَفصلُها عَن النَّاعورة سوى الجدار، إذْ مرَّرَ مُؤَسِّسو المَعْصَرَة عبر ثُقْبٍ فيه، العَمُودَ الماسكَ للنَّاعورة منْ وسَطها. أمَّا العمودُ، فهو محْوَرُ النَّاعورة يدورُ بفعْلِ دورَانها، ويُديرُ بدَوْره الرَّحَى الرَّئيسَة المُحاذيَّة للرَّحاتيْن الثَّانويَّتَيْن. على أنَّ المسافةَ التي فصلَتْ بين الأرحاء الثَّلاث داخلَ قاعة التَّصنيع هي بين (2و3 أمتار).

وتَنطلقُ من كُلِّ رَحَى منَ الأرحاء الثَّلاث قناةٌ مُحَمَّلَةٌ بالعصير، الذي أفْرَزَهُ طحنُ الأرحاء للْقَصَب، لتُوصلَهُ إلى صهْريجٍ صغيرٍ، ومنهُ يَغْرفُ الصُّنَّاعُ العبيدُ والشِّيشاويُّون بطاساتهمُ العصيرَ المطْحونَ منَ القصَب ليَصُبُّوهُ في قناة يبلُغُ طولُها (32 مترًا)، فتَحملُهُ القناةُ، عبر انحدارها الطَّفيف، إلى الطَّرف الثَّاني منْ وحدات التَّصنيع في المَعصرَة ألاَ وهُوَ قاعةُ المَزْج. لنَعُدْ إلى الأرْحَاء الثَّلاث فنُسَجِّلُ أنَّها كانت تتَّخذُ شكلَ مُستطيلٍ مُشَيَّدٍ منْ مادَّة كالسِّيمَا، ممْزوجة بالجير، وهو على وضعيَّة مُعقَّدَة شيئاً ما.

خلاصةُ القول: لَمْ يُعْثَرْ أثناءَ تَنقيب الباحث الأرخيُولُوجي الفَرَنْسي بيرتيي على الأرحَاء الثَّلاث خلالَ حَفْريَّات السِّتِّينيَات من القرن الماضي، وإنَّما الذي عُثرَ عليه منها هو فقط، الإطارُ الذي كان يَحملُها، إضافةً إلى بعض البقايا المُصَنَّفَة ضمْنَ خَشَب العَرْعَار: Bois d'arrar :Thuya مُحاطَة من أضلاعهَا الأربعة بوساطَة جُيُوبٍ للتَّجميع.

ثانياً: مُعالجَةُ وطَهْوُ عصير قَصَب السُّكَّر:

برَغْم الخراب الذي طَالَ مَعَالِمَ المَعْصرةَ الجنوبيَّةَ في شيشاوة، فقد كان بإمكاننَا -يقولُ بُولْ بيرْتْيي- أنْ نُراهنَ على وجود أفْرَان مُصطفَّة في خَطٍّ واحد داخلَ القاعة الثَّالثَةَ. وعلى النَّقيض من ذلك، لا يُمكنُ أن نطمَحَ إلى أكثرَ من هذا. فكيف كانت تَتَمَوْضَعُ تلك الأفرانُ؟ قبل أن نُجيبَ؛ أشرنا في السَّابق إلى أنَّ عصيرَ السُّكَّر كان يَخْرُجُ منَ الأرحاء الثَّلاث ليتَّجهَ عبر قنوات، على مَسَافَة قصيرة من قاعة الأرحاء، إلى الصِّهْريج في القاعة الثَّانيَّة ليَتَجَمَّعَ داخلَه، قبلَ أن يتَّجهَ عبرَ القناة الطَّويلة إلى قاعة المُعالجَة، أو المَزْج. لنَتَتَبَّع المَسلكَ كُلَّهُ منَ الأوَّل إلى حدود الطَّهْو. ولكن مع تسجيل سؤال: هَل الأمرُ يتعلَّق بمُعالجَة أوَّليَّة قبلَ الطَّهْو؟ لا يظهرُ على أنَّ الأمرَ كان كذلك، على الأقلِّ بالنِّسبة إلى مَجموعة منَ المَعاصر؛ لكنَّه يَختلف بالنِّسبة إلى المَعصرة الجنوبية في شيشاوة، فالمراحلُ التي أُسِّسَت على ضوئها المَعصرةُ تُوضِّحُ ذلك بجَلاء. تجدُر الإشارةُ إلى أنَّهُ منْ غير المُستبعَد أنَّ تَموينَ هذه القَناة الطَّويلة ممَّا يَحْويه الصِّهريجُ من عصير، كان يَتمُّ بالأيْدي الحاملَة للطَّاسات، نتيجةَ وجود بِرْكَة، أو ما أسْمَيْناهُ بالصِّهريج، صغيرة شُيِّدَت خصِّيصاً لاستقبال العصير الآتي من الرَّحى، بعد أن طَحَنَت هذه الأخيرةُ بدَوَرَانها الأقْصَابَ، ومنها يتَّجه العصيرُ تَبَعاً للانْحدار الضَّعيف إلى القناة المتَّجهَة، على مَدىً طولي يصلُ إلى 32 متر، نحو جَفْنَتَيْن من نُحاس حيثُ

يتجمَّعُ من جديد. على أنَّ هناكَ ثَلاث حُفَر مُقعَّرة منَ الآجُر والطِّين المَطْهُوِّ حُفرَت بمُحاذَاة الجفْنَتَيْن للقيَّام بعَمليَّة المَزْج، أو الخَلْط الأوَّلي. منَ المُلاحَظ أنَّ قَعْرَ الجَفْنَتَان صُنِعَ منَ النُّحاس الصَّافي، أمَّا وزنُ كُلِّ واحِدَة منهُما فقد يصلُ إلى ما بين (80 و100 كلغ).

- لنُفَصِّلْ بعضَ الشَّيء في المَزْج الأوَّلي: إنَّ القاعةَ الثَّانيَّةَ هي التي كانت مَنُوطةً بهذه العمليَّة. تَفْصلُها عَنِ القاعة الأولى، كما أشرنا إلى ذلك، قناةُ تَدَفُّق يصلُ طولُها إلى حوالي (32 متر). يرفَعُ الصُّنَّاعُ العصيرَ منَ الصِّهريجِ يَدَوِيّاً، ويَسْكُبُونَهُ في القناة فيَجْري مُتتبِّعاً انْحدارَها في اتِّجاه الجفْنَتَيْن النُّحاسيَّتَيْن، الموضوعَتَيْن على إطَارَيْهما، المُشَيَّدَيْن منَ الآجُر والجير المَطْلِيَّيْن بالدِّهان. وهناكَ يَمزجُونَ العَصيرَ بما يُنكِّهُهُ، ثُمَّ يَحْملُونَ الجَفْنَةَ ويتَّجهون بها مَملوءةً بالعَصير نحو القاعة الثَّالثَة ليَسْكُبُوا العصيرَ المُنكَّهَ هُناكَ في أوَّل قدْر منَ القُدور السِّتِّ، كما سنرى بعد ذلك. فيما يَضَعُونَ الجَفْنَةَ الثَّانيَّةَ مَكانَ السَّابقَة كيْ تُمْلأَ هي الأخرى بما يُدَفِّقُهُ العُمَّالُ يَدَوِيّاً، منَ العصير المَحْمول منَ الصِّهريجِ في القناة الطَّويلة، ريثَما تُفْرَغُ الجفنَةُ الأُولى. ولَمَّا يَمُرُّ العصيرُ منَ الأفران السِّتَّة التي تَغْلي فوق نارها القدورُ المَليئَةُ بالعَصير المُنكَّه، يَعودون بالعصير المتخثِّر إلى القاعة الثَّانيَّة، وقد سَكَبُوهُ داخلَ قَوالبه ليُولجُوا القَوَالبَ في فُرْن منَ الفُرْنَيْن المُقابلَيْن للجفنتيْن، حتَّى إذا جَفَّت القوالبُ، وتصلَّبَت داخلَ الفُرن يُخْرجُونَها، ويضَعونَها فوق

مَصْطَبَة عن يمين الفُرْنَيْن، شُيِّدَت من حَصىً شُدَّ بعضها إلى بعض بما يُشبهُ الإسْمنتَ، ناعمة كالإسفلت، مُحاذيَّة للفُرنيْن. تَجْدُرُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ الفُرنَيْن المذكورَيْن يُمَوَّنَان بالحطَب منْ خارجِ المعصَرَة، من خلال فَتْحَتَيْن مُقوَّسَتَيْن شُيِّدَتا منَ الآجُر المطهُوِّ الحامل للجدار، لئلاَّ يتَعَرَّضَ العُمَّالُ للاختناق داخلَ مَعْصَرَة افتُرِضَ فيها أنَّها كانت مُغَطَّاةً بسَقْف واحد. والغريبُ أنَّ الفَتْحَتَيْن المقوَّستَيْن تَرفَعان الجدارَ الخارجي فوق قَوْسَيْهِمَا. ما وُضِعَتْ جَفْنَةٌ بالقُربِ منَ الأُخرى في القاعة الثَّانية إلاَّ لئلاَّ يَنْقَطِعَ العمَلُ بين الصِّهْريجِ والجفْنَتَيْن: إذْ تُسْتَبْدَلُ الفارغَةُ بالَّتي مُلئَتْ بمُحاذاتها؛ فيما تُحْمَلُ المليئَةُ بالعصير في اتِّجاه الأفران السِّتَّة في القاعة الثَّالثة. وما شُيِّدَت المَصْطَبَةُ بمُحاذاة الفُرنَيْن إلاَّ لتُصَفَّفَ عليْها القَوالبُ المملوءَةُ بالعصير الممزوجِ والمُغَلَّى في الأفران السِّتَّة، والمجفَّف في الفُرْنَيْن المُحاذيَّيْن للمَصْطَبَة، لتُنْزَعَ بعد وقت، القوالبُ عَنِ السُّكَّرِ المُتَماسك المَتين فلا تبقى إلاَّ عمليَّةُ تَعليب القوالب السُّكَّريَّة وسط صناديق الخشب الموجَّهة نحو إيطاليا، وإنجلترَّا.

لاحظ الباحثُ الفرنسي بُول بيرْتيي أنَّ هاتيْن الجَفْنَتَين قد تَمَّ نقلُهُما إلى مدينة الرِّباط، ويبدو أنَّني أبْصَرْتُهُما حين الْتَحَقْتُ بالسِّلك الثَّالث لاستكمال تعليمي هناكَ في العاصمة عامَ (1407هـ/ 1987م)، تُزَيِّنَان المَبنَى الخارجي الواقعِ أمامَ مبْنَى الخزانَة العامَّة سابقاً، قُرب جامعة محمَّد الخامس، كلِّية الآداب والعلوم الإنسانية. غير أنَّني زُرْتُ الرِّباطَ في صيف

عام (1412هـ/ 1992م)، خصّيصاً لغَرَض أن أتحقّقَ من بقائهما، فلم أجد لهُما أثراً!؟ كانت الجَفْنَتَان قد وُضعَتَا من لدن المؤسِّسين لهذه المَعصرة فوق إطارَيْن شُيِّدَا منْ ما يُشْبهُ السِّيمَا، يَقعَان على عُمْق (20 سم) وقُطْرُ كُلِّ واحِدَةٍ يَصِلُ إلى (80سم).

بعد هذه المرحلة تأتي مرحلةُ المَزْجِ، والتَّصفيَّة، والتَّنْكيه، والغَلْي، والتَّجفيف؛ وهي عمليَّاتٌ أقام لَها المُؤَسِّسُونَ ستَّةَ أفْرانٍ في المَعصرة الجنوبية في شيشاوة. تصطفُّ كُلُّها على جانب واحد منَ القاعَة الكبيرة، التي تصل مساحتُها إلى (35م) طولاً، مَضروبَةً في (20 متر) عَرْضاً لتُعطينا حوالي (700م²). انتُشلَتْ هذه الأفرانُ إلى جانب ستٍّ قدور. وكانت وظائفُهَا كالتَّالي:

ثالثاً: وظيفَةُ الأفران السِّتَّة في المَعصَرَة الشِّيشاويَّة:

الفُرنُ الأوَّلُ: كان أكبرَ الأفران السِّتَّة؛ يستقبلُ عصيرَ القَصب الواصلِ إلى أوَّل جفْنَة عبر القناة. سُمِّيَ بالفُرن الكبير.

الفُرنُ الثَّاني: يوجدُ بمُحاذاة الفُرْن الكبير. سُمِّيَ بالنَّقيِّ نظراً لكَونه يَستقبلُ العصيرَ نَقيّاً، أي بعدَ أن تَتمَّ تصفيَتُه في الفُرن الأوَّل بوساطَة الرَّمَاد: La cendre والجير. إذْ يُصَبُّ في القدْر الذي كان يُغَلَّى فوق الفُرن الأوَّل، ويُغْطَسُ قماشٌ في القدْر نفْسه، ثُمَّ يُسْحَبُ ليُصَفِّي العصيرَ منَ العَوالق. وهي تقْنيَّةٌ تختصُّ بها المَعاصرُ التي تُنتجُ فقط، السُّكَّرَ الأبيضَ. هكذا يتخلَّصُ

العصيرُ منَ الإرساباتِ المُسَوِّدَة، أوْ منَ العوالق. لذَا كان الفُرنُ الثَّاني أكثرَ نقاوَةً منَ الأوَّل.

الفُرنُ الثَّالثُ: ويُسمَّى الغَاسلُ، أو المُنظِّفُ، وفيه يُلقى بمادَّة غاسلة وقويَّة، تُنظِّفُ العصيرَ ممَّا بَقيَ من أوساخٍ، إذْ تَطْفُو العوالقُ على سطحِ العصيرِ السَّائل، فَتُجْمَعُ بعد ذلك بوساطَة ملْعَقَة تُسمَّى بالفرنسية: Écumoire؛ سَطحُها دائريٌّ، تتخلَّلُها ثُقُبٌ كثيرةٌ تلعبُ دَوْرَ المِصْفَاة.

الفُرْنُ الرَّابع: ويُسمَّى المشْعَلُ. وفيه تزداد تَصفيَّةُ العصيرِ الذي نُقلَ إليه منَ الفُرن الثَّالث السَّابق. وبذلك تَتقَلَّصُ كمِّيَةُ العَصيرِ نظراً لتَخَلُّصه منَ العوالق، غير أنَّه يَصيرُ أكثرَ نَقاوَةً وصفاءً، وتتميَّزُ النَّارُ المُوقَدَةُ تحتَهُ بكوْنها أكثرَ حدَّةً منْ نار الأفران الثَّلاثة السَّابقة.

الفُرنُ الخامسُ: ويُسمَّى فُرْنَ الشَّراب، وفيه يُخْلَطُ العصيرُ بالشَّراب لِيُعطي نكهةً خاصَّةً لعَصير السُّكَّر، وهو ما يَزيدُ منْ وَزْنه.

الفُرنُ السَّادسُ: ويُسمَّى آلَةَ النَّقْر، وفي هذا الفُرن تَصلُ عمليَّةُ طَهْو العصيرِ إلى أقصى مَدَاها. وتُنْزَعُ فيه أيضاً، كُلُّ العوالقِ التي بَقيَت لَصيقَةً به عن طريق الغَسْلِ والتَّنظيف بوساطَة سَكْب شيء من ماء الجير، وقليل من حَجَر (الشَّبَّة) المدقوق. وحينَ يُطْهى تَعلُوهُ فُقَّاعاتُ الغَلَيَان، وتتجمَّعُ إلى أن تتدفَّقَ على جوانب الفُرن، فيضطرُّ العُمَّالُ إلى تَهويَة القدْر حتَّى لا يتدفَّقَ كُلُّ العصير. التصَقَت بالفُرن تَسميَّةُ آلة النَّقْر هذه، نتيجةَ ما تُحْدثُهُ عمليَّةُ

الغَلَيَان من فَرْقَعَات. وهو الفُرنُ الذي يَتكَفَّلُ صَخَبُهُ ببعث الإحساس في كُلِّ من يقترب منَ المَعْصَرَة أثناء اشتغالها آنذاك في (ق10هـ/ 16م)، أنَّهُ قريبٌ منْ مَعْمَلٍ ضخْم. ما بَقيَ منَ مساحَة القاعة الضَّخْمة، المَرفوعِ سَقْفُها وسقفُ باقي المعصَرَة فوق 84 عَمُوداً، فقد خُصِّصَ لتَخْزين الصَّناديق المليئَة بقَوالب السُّكَّر، في انتظَار أن تحملَها القوافلُ عبرَ مَمَرٍّ تيزي نْ أوماشُو، في اتِّجاه ميناء أكَادِيرْ، لتُشْحَنَ من هناكَ بَحراً نحو الدَّولتيْن الأوروبِّيَتَيْن المذكورتيْن.

أَلَمْ يُحرِّر السَّعديُّونَ أكادير في عام (947هـ/ 1541م) إلاَّ لهذا الغرض؟

هكذا نكُونُ قد ألقينا نظرةً على بعض المراحل التي كان يَمُرُّ منها تَصنيعُ قَصَب السُّكَّر في مَعْصَرَتَي شيشاوةَ. ولَنَا الآنَ، أنْ نُدْلِيَ ببعض الآراء، والأحكام حول التِّقنيات الصِّناعيَّة الرَّئيسَة.

رابعاً: مُلاحظاتٌ حول آليات العمَل في المَعْصَرَة:

فلنَبْدَأْ بإبْدَاء المُلاحظات التَّالية:

- فيما يَخُصُّ التِّقنيات المائية: نُسجِّلُ كقائم أساس أنَّ أكثرَ ما يَسْتَأْثرُ بالاهتمام هو السُّورُ، الذي تَعلُوهُ السَّاقيَّةُ. فهو، وإنْ كان يُضفي جَماليَّةً على هذه المَعصرة، فَإنَّهُ إلى جانب ذلك يتميَّزُ بدَوْرٍ هامٍّ داخل كُلِّ مَراحِلِ التَّصنيع.

- فيما يَخُصُّ وجودَ النَّاعورة: نُسجِّلُ أنَّهَا كانت تَدورُ بفعْلِ القُوَّة المَحسُوبَة لتَدَفُّق المياه عليها عبرَ السَّاقية العَلَّويَّة: (أي التي تَعْلُو السُّورَ أثناءَ جريانها)، فتتوغَّلُ في القمْعِ المُتَدَلِّي عن أقصى نُقْطَة منَ السُّور (أي نُقطَةُ التَّدفُّق). وهي عمليَّةٌ لا تَخلو بدورها من أهَمِّيَّة. إذ إلى جانب كونها تَفوقُ في دورانها قُوَّةَ الدَّوران التي يُمكنُ لقُوَّة الثِّيران، أو الجياد، أو القُوَّة العَضَليَّة للإنسان أن تُحَقِّقَهَا، فَإنَّها بفضْلِ توفُّر المياه، وتَدَفُّقها المُستمرِّ لا تتوقَّفُ أبداً عَن الدَّوران، وهو ما كان يُعطي للأرْحَاء المَبَّتَة لأجلِ طحنِ قصب السُّكَّر قُوَّةً كبيرةً ودائمةً.

ملاحظة: بإمكان ناعورة واحدة أن تُديرَ ثلاثَ أرحاء مَرَّةً واحدةً.

- فيما يَخُصُّ مَراحلَ التَّصنيع: لا يُمكننا بأيِّ حال أن نُحدِّد هَويَّةَ، وشَكْلَ الأرحاء، أو المَطاحن بشكلٍ دَقيق. ويُسعفُنا في هذا الإطار، الباحثُ الأرخيولوجي الفرنسي بُولْ بيرْتْيي بالمُلاحظة التَّالية: *"بعد تَصفُّحنا للمسألة، انتهينا إلى الافْتراض الذي مَفادُه أنَّ الأرحاءَ كانت على شَكْلِ Cylindre: أُسطوانَةٌ، وهي الوَحْدَةُ التَّصنيعيَّةُ الأكثرُ تقدُّماً، وتعقيداً في مَغْرب (ق10هـ/ 16م)."*[1] وعليه، فإنَّ العلاقَةَ التي ربطَت الرَّحى الرَّئيسَة بالرَّحاتيْن الثَّانويَّتَيْن، المُحاذيَتَيْن لَها، قد قامت على ما يُسَمَّى بنظَامِ التَّرَادُف: Système de scellement وهو النِّظامُ الشَّبيهُ باشتغالِ وحداتِ

1 - Paul Berthier: « Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux Hydrauliques ».

السَّاعات السْويسْرِيَّة القديمة منَ الدَّاخل، يقُومُ على إدَارَة لَوْلَب للَوْلَب آخرَ مُحاذي له للحصول على دوران في اتِّجاه مُغاير لاتِّجاه اللَّوْلَب الأوَّل. ففي مَعْصَرَة شيشاوة؛ تدورُ النَّاعورةُ بفعْلِ تدفُّق الماء عليها من خلال القمْع، فتُديرُ المحْوَرَ الماسكَ بوَسَط قُطْرها، ليُديرَ بدَوْره، قُرْصاً دائريَّاً وُضعَ على شكل عموديٍّ توجَدُ في أطرافه مُسنَّناتٌ من خشب، تُديرُ هي الأُخرى النِّصْفَ الأسفَلَ منَ الرَّحى، منْ خلال تشابُك مُسَنَّناته بمُسنَّنات النِّصْف الأسْفَل منَ الرَّحى، الواقعَ تحتَ النِّصف الأعلى الثَّابت، المُخَصَّص لإقحام الأقصاب تباعاً، عبرَ ثُقْب، أو ثُقْبَيْن، أو أكثَرَ نحو أسفَلها، كي تَحْتَكَّ الأقصابُ بالدَّوران السَّريع للرَّحى السُّفْلَيَّة فتُطْحَنَ، وتتحوَّلَ إلى عصير سائل يتدفَّقُ منَ الرَّحى السُّفليَّة، عبرَ فوَّهة، نحو قناة من مِتْرَيْن باتِّجاه الصِّهريج الصَّغير.

مَنْ يَفهَمُ هذا التَّرادُفَ المُعقَّدَ، ويُمَحِّصَهُ في مَعْصَرَتَي شيشاوة، يستغْربُ استغراباً كبيراً من إعراض المغرب عَن الاستمرار في التَّصنيع في مَيادينَ أُخرى بالاعتماد على هذا النَّوع منَ الآلات. ويَأْسَفُ أشدَّ الأسَف عن توقُّف المغرب عَن اقتفاء آثار أوروبَّا، المنفتحة في العهد نَفْسه (ق10هـ/ 16م) على النَّهضَة، من خلال ثوراتها اللَّافتة.

- فيما يُخُصُّ الطَّهْو، أو التَّجْفيف: كانت عمليَّةُ تجفيف العصير تَتمُّ داخل أفران تَقليديَّة، وهي عمليَّةٌ لَمْ تُشكِّل المَعاصرُ المَغربيَّةُ الإثْنَى عشر، المُعاصِرةُ لمَعْصَرَتَيْ شيشَاوَةَ، عنهما شُذُوذاً، أو استثناءاً.

- مَرحلةُ المُعالجَة القَبْليَّة: كانت هذه العمليَّةُ تَتمُّ قبل أنْ يَصلَ العصيرُ إلى الأفران السِّتَّة، وهي عَمليَّةٌ تُوضِّحُ إصرارَ مُؤَسِّسي هذه المَعصرة الشِّيشاويَّة على أن تَمُرَّ مراحلُ التَّصنيع في ظروف تضمَنُ لَهُمْ سُكَّراً جَيِّداً، يَحظى بإقْبَال من لَدُن الإيطاليِّينَ، أو الإنْجليز.

- نُذَكِّرُ مَرَّةً أخرى بأنَّ القاعَةَ الثَّالثَةَ التي تضُمُّ الأفرانَ السِّتَّة، هيَ القاعَةُ نفسُها التي كانت تَحْملُ سَقْفَ المَعْصَرَة فوق حوالي (84 عَمُوداً)، أو سَاريَّة. تَهدَّمَت الأعمدَةُ فسقط السَّقفُ على باقي الوحدات التَّصنيعيَّة، فَطُمِسَت المَعَالِم.

خامساً: مَصْدَرُ طاقَة المَعَاصِر السُّكَّريَّة:

بَقيَ أنْ نُبيِّنَ المَصْدَرَ الطَّاقي الذي اعتمَدَت عليه مَعاصرُ السُّكَّر الأربعةَ عشَرَ، التي خلَّفَها السَّعْديُّونَ في مَغْرب (ق10هـ/ 16م). فَخلافاً لَما اعتَقَدَهُ بعضُ الدَّارسينَ، ممَّن انْكَبُّوا على البَحْث في وحدات تصنيع المَعاصر السُّكَّريَّة السَّعديَّة، أوْ أُولئكَ الذين تحدَّثوا عنها في مُداخلات شتَّى؛ واعتَبَروا خَطَأً وجزافاً، أنَّ الطَّاقَةَ التي كانت تُديرُ أرحاءَ هذه المَعاصر السُّكَّرية كُلِّها هي الأخشابُ المَحْرُوقَةُ، وهو ما أدَّى -على حَدِّ تعبيرهِمُ المُتَسَرِّع- إلى استنْزَاف الغابة المغْربيَّة. والغريبُ أنَّهُم دعَّموا مَقولاتهُمُ الخاطئَة بالاستدلال بنُصوص، أخَذُوها عَن المصادر الدَّفينة المتعلِّقَة بتَاريخ المَغرب: S.I.H.M أوْضَحَتْ أنَّ المَغْربَ السَّعدي كان قد أبرَمَ صفقات مع

الهولَنْديِّينَ لجَلْب الأخشاب منْ هولندا. ولَمْ يُمَحِّصُوا بالشَّكْل، الذي يُسْعفُهُمْ بإدراك أنَّ تلْكَ الأخشاب إنَّما اسْتَوْرَدَهَا السَّعديُّون لتَعْليب السُّكَّر المُوَجَّه إلى إيطاليا: *"وَزْناً لوَزْنٍ مَعَ الرُّخام"* على حَدِّ قول الزَّياني.

خلافاً لهذا الطَّرح الخاطئ، النَّاتج عَن اكتفاء جُلِّ هؤلاء الدَّارسين بالبَحث فقط، في المَعاصر السُّكَّريَة السَّعديَّة، دون التَّرَدُّد عليها مراراً في زيارات مُمَحِّصة أغلبُ الظَّنِّ أنَّها كانت ستَكْشفُ لَهم عن سرِّ تلْكَ الطَّاقَة التي كانت تُديرُ أرحاءَ وآليات هذه المَعامل العَتيقَة.[1] فَإنَّ الصَّوابَ، هو أن نقولَ: إنَّ الطَّاقَةَ، التي كانت تُديرُ أرحاءَ المَعَاصر السُّكَّريَّة، كان مَصْدَرَاهَا [الماءُ والانحدارُ]. فالماءُ يَجْري في ساقيَّة فوق ظَهْر السُّور، مُقْتَفياً انْحداراً طفيفاً: لا هُوَ بالانحدار القويِّ الذي يُمْكنُ أن يَقْتَلعَ القمْعَ منَ النُّقْطَة الأقصى في السُّور؛ ولا هو بالضَّعيف الذي يَعجزُ عَن الوُصُول إلى النَّاعورة الضَّخمَة المُعَلَّقَة إلى الجدار لمَلْء، وإدَارَة أوعيَتها المقَعَّرَة الواقعَة أسفَلَ القمْع المذكور. إنَّما هُوَ انْحدارٌ وَسَطٌ، اكتَشَفَهُ المُصَمِّمُون في (ق10هـ/ 16م) باكتشافهمْ للانْحدار نفسه، الذي يتْبَعُهُ جَرَيَانُ وادي شيشاوةَ في اتِّجاه

---

[1] - (لَعَلَّ عُزُوفَ الدَّارسينَ عَنِ التَّرَدُّد على المَعاصر راجعٌ بالأساس، إلى وجود أغلَبها في البوادى النَّائيَة. إذ تبدو في مُحْمَلها أَخْرِبَةً تسكُنُها البوم، كما أنَّ حَلَّها يقع في الحدود بين قيادتيْن، أو جماعتيْن غالباً ما تنتميان إلى عمالتيْن مُسْتَقلَّة الواحدةُ عَنِ الأُخرى. فلا تَدْفَع عنها أىُّ قيادَة أيدى العابثينَ بمَعالمها، إمَّا لبُعْد المعصرَة عن إدارَتها، وإمَّا لانتمائها إلى قيادة تابعة لعمالة أُخرى مَرْكَزُها أبعَدُ مِنْ مَرْكَزِ العمالَة الأقْرَب إلَيْها، ولو كانت المعصرةُ المعنيَّة أقرَبَ إلَيْها مِنَ القيادة التي تقع تحت نفوذها.)

الشَّمال؛ فجعَلوا قِبْلَةَ جريان السَّاقيَّة العَلَّويَّة التي تعْلو السُّورَ في الاتِّجاه نفسه الذي عليه جريانُ الوادي. ثُمَّ اختلَقوا للقنوات الحاملَة للعصير المُسْتَخْرَج منَ القصَب المَطحون داخلَ أرحاء المَعْصَرَة، انْحداراً آخَرَ وسط المَعصرة، يضْمَنُ له التدفُّقَ الوسَطَ من صِهْريجِ التَّجمُّعِ إلى الجفْنَتَيْن على بُعْد (32 متراً).

وعلى العُموم؛ فإنَّ الاكتشافَ الأرْخيُولُوجي الذي قام به الفرنسي بُول بيرْتْيي بين خَمسينيات وستِّينيات القرن الماضي، على مدى سبعِ مراحلَ منَ المَسْحِ، والحفر، والتَّنقيب ابتداءً من شَهْرَيْ أبريل-ماي (1385هـ/ 1965م) إلى شهري أبريل-ماي (1388هـ/ 1968م)، في المَوْضع المعروف بزاوية بَلْمَقَدَّم منْ عَمَلِ شيشاوةَ، قد أسفَرَ عن النَّتائج التَّالية: تَمْتدُّ بقايا المَعصَرَتان الشِّيشاويَّتان على ما يقرُبُ من أربَعِ هكتارات، وهُما الآنَ، خرابٌ تسكُنُهُ البومُ. تسرَّبَ إليْهما النِّسيانُ، وامتدَّتْ إليْهما الأيدي بالنَّهْب، والحفْر، والتَّشويه. تَنْتَثرُ منْ حولهما مَعاً، بعضُ الشَّقَفَات التي بَقيَت عَنَ القوالب الخزَفيَّة المُكَسَّرَة، إنْ في وسط بعض القاعات، أو حولَ صهْريجِ الماء المُحاذي للمعصَرَة الجنوبيَّة على الخُصوص، أغلَبُها منْ أوعيَّة منَ الطِّين المطْهُوِّ. تَمكَّنَ الباحثُ الفرنْسي -من خلال جَمْعِ أطراف بعضها إلى البعض الآخَر وقياسها- من أن يُعيدَ تركيبَ بعضها ليَحْصُلَ في الأخير، على الشَّكْل الذي كان عليْه قالَبُ السُّكَّر في شيشَاوَةَ (ق10هـ/ 16م). وعليه، كان عُلُوُّ

قالَب السُّكَّر يَصلُ إلى (0.53 متر)، الشَّيءُ الذي يُزَكِّي أنَّ هذه الأشكالَ الضَّخمَةَ كانت مُوَجَّهَةً بالفعل، نحو التَّصْدير: *"وزناً لوَزْن مع الرُّخام"* الإيطالي. فيما كان قُطْرُ قالَب السُّكَّر يَبْلُغُ منْ أسفَله حوالي (0.32 متر)، وهو المقاسُ نفسُهُ الذي عليْه عُلُوُّ قالَب السُّكَّر في مَغْرِب اليوم.

أمَّا فيما يتعلَّقُ بداخل المَعصَرَة (المَعْمَل)، فقد تَمَّ الكشْفُ عن بقايا كانت وظائفُها تتمثَّلُ في تَثْبيت بعض الوَحَدات التَّصنيعيَّة على الأرض. وتتكوَّنُ تلْكَ البقايا منْ مَجموعة من قطَع الخَشَب، رُكِّبَت بوساطَتها بناءاتٌ عدَّةٌ داخلَ المَعْصَرَة، وأُخرى كانت تعمَلُ على تَثْبيت الأرحاء، والصُّمود بها في وَجْه الاهتزازات، التي كان يُحدثُها دورانُ النَّاعُورة. وهي اهتزازاتٌ تصلُ إلى الأرحاء في الوقت نَفْسه.

الفصل الرابع
مسألة الإشراف على المعاصر السُّكَّرِيَّة

أوَّلاً: الدَّولة السَّعديَّة واستغلالُ المعاصر:

سبق وأكَّدنا أنَّ الحسنَ الوزَّانَ أشار في كتابه "وصفُ أفريقيا" إلى سُوء استعمال بعض سُكَّان المغرب للسُّكَّر، بلَ وإلى عدم جَوْدَته؛ وهي إشاراتٌ أتتَ في العقد الثَّاني منَ (ق10هـ/ 16م)، أيْ في حُدود زيارة الوزَّان للمغرب خلال (918هـ/ 1512م). ويُعتبر تأكيدُ الحسن الوزَّان على: "...*جَهْلهمْ بطريقة طَبْخه وتصفيَّته.*" دليلاً على عدم إتْقَان المُؤسِّسين لتشييد المَعاصر السُّكَّرية في زَمَنه. ومَصداقُ ذلك يَظهَرُ لنا جَلَيّاً، في تزامُن الفترة التي نَقل فيها الوزَّانُ هذا الوصف مع سيادة الفتَن في المغرب، ما بين انْهيار الوَطَّاسيِّينَ وقيام السَّعديِّين. فإلى أيِّ حَدٍّ شكَّلت المَعاصرُ الشِّيشَاويَّةُ شُذُوذاً، واستثْناءاً عَن هذا الطَّرح؟ منَ المعلوم أنَّ المعصرتيْن الموجودتان في شيشاوةَ بالقُرْب من زاويَّة بَلْمْقَدَّم، قد شُيِّدَتَا مَعاً، منْ لدن السُّلطان السَّعدي أحمد المنصور الذَّهبي، الذي دامَ حُكْمُهُ للمغرب من: (986هـ/ 1578م)-(1012هـ/ 1603م). وهو الذي ارتقى إلى الحكم ابتداءً مِن انْهزام البُرتغال أمام المغاربَة في مَعركة الملوك الثَّلاثَة، بوادي المخازن سنة (986هـ/ 1578م). ويُرجَّحُ أنَّ تَشييدَهُ للمعصرتيْن الشِّيشاويَّتيْن قد تَمَّ في حدود ثَمانينيَّات العام نفسه منَ (ق10هـ/ 16م).

وإذا ما تصفَّحنا البَراعَةَ التي استخدمَها المؤَسِّسُون في تشييد هاتيْن المعصرتيْن، وكذا الطَّريقةَ التي تَمَّ بها تجهيزُهُما بالمياه؛ وإذا ما أضفنا إلى ذلك مَزارعَهُمَا السُّكَّريَّة القريبة منْهُمَا، ونَاعُورَتَيْهِمَا، وتَسلْسُلَ وحداتِهِمَا التَّصنيعيَّة. فَإنَّنَا نُدرك حَقَّ الإدراك، أنَّ مَعْصَرتَي شيشَاوَةَ تَأْتيَان في مُقدِّمة قائمة مَعَاصِرِ السُّكَّر في مَغرب (ق10هـ/ 16م) من حيثُ الإتقانُ، وانْسجَامُ الوحدات، ومن حيثُ التَّماسُكُ. ومَرَدُّ ذلك راجعٌ إلى أنَّ تَشييدَهُمَا كان مَسبوقاً بتَشييد غَيرهما منَ المعاصر في السُّوس، على عهد السُّلطان محمَّد الشَّيخ السَّعدي، والِد السُّلطان أحمد المنصور الذَّهبي: (955هـ/ 1548م)- (965هـ/ 1557م)، وكذا في عَهْد السُّلطان عبد الله الغالب بالله: (965هـ/ 1557)-(982هـ/ 1574م)، وعدَدُها عشرةٌ.[1] وإذا ما أخذنا بعين

[1] - على أنّ المعاصرَ العشرة التي خلّفها السعديّون هي: 1) معصرةُ أولاد مَسْعُودْ على الضفّة اليُسرى لوادى سوس في تييوت. 2) ثُمّ معصرةُ تازمّورت 1 في تييوت، وتعني تسميتُها زياتين الخَلاء. 3) ثُمّ معصرةُ تازمّورت2 وبينهُمَا دوار أولاد عبّو، وبمحاذات الثانية تجمّع سكنيّ يُدعى بولَحْلاطْ. 4) ثُمّ معصرة سيدى موسى على الضفّة اليُمنى لوادى سوس وهي خراب الآن. 5) ثُمّ معصرة سبْتْ الكَرْضانْ على الضفّة اليُسرى لوادى سوس غرب تارودانتْ. 6) ثُمّ معصرة أولاد تَايْمَةْ المعروفة بالكلم 44 على طريق تارودانت. 7) ثُمّ معصرة كَرُونْ تيوزنيكين قرب دوّار يحملُ الاسمَ نفسَه. ثُمّ معصرةُ الشنينات المُحاذية للطّريق المؤدية إلى تارودانت. 8) ثُمّ معصرةُ عين صَدُوقْ شمالَ طريق تارودانت. 9) ثُمّ معصرة أولاد علي جنوب طريق تارودانت. 10) ثُمّ معصرة أَظّادَسْ في الواجهة الشّمالية للأطلس الصّغير.

وإذا ما أضفنا إلى هذه المعاصرِ العشرة المَعَاصرَ الأربعةَ الباقية وهي: معْصَرَتَيْ شيشاوة قرب زاوية بَلْمَقَدّمْ، ومعْصَرَةُ سيدى شيكَرْ، ومَعْصَرَةُ وادى القَصْبْ في الصّويرة، فسيُصبحُ العددُ 14 معصرةً خلّفها السّعديون في المغرب منذ ق16م. الشّيءُ الّذى مكّنَ المُؤسّسينَ منَ الاستفادَةِ منَ الأخطاءِ التي سَقَطَ فيها سابِقُوهُمْ.

الاعتبار المَهارةَ والإتقانَ الَّذَيْن تَمَّ بهما تشييدُ المَعْصَرَتيْن الشِّيشَاويَّتيْن، وإذا ما اعتبرنَا الطَّريقةَ التي تَمَّ بها جَلْبُ المياه لتُديرَ ناعورتَيْهِمَا، وتَسقي مَزارعَهُمَا. إذا ما اعتبرنا كُلَّ هذه الوَحَدَات التَّصنيعيَّة الضَّخمة والمُعقَّدَة، فَإنَّهُ يَحقُّ لنا أن نتساءَلَ عَمَّنْ كان يَقْبَعُ وراءَ الإشراف والتَّسيير لهذا المشروع الصِّناعيِّ الضَّخم خلالَ فتْرَة اشتغاله؟ هل هي السُّلطةُ السَّعديَّةُ؟ لَمْ يكن بإمكان القُدُرَات الشَّخصيَّة في مَغرب (ق10هـ/ 16م)، ولا الجَماعيَّة المُتَجَسِّدَة في القَبيلَة أن تُغَطِّي كُلَّ تكاليف هذا المشروع الضَّخْم؛ لذا أَوْلَتْهُ الدَّولةُ السَّعديَّةُ عنايةً كبيرةً فَتمكَّنت بذلك منَ السَّيطرة على أَهَمِّ مَصادر المياه، بما فيها وادي شيشاوة، وخصَّصت أَخْصَبَ وأَوْسَعَ الأراضي لزراعة قصَبِ السُّكَّر، كما سخَّرت لذلك أَيْدي عاملَة مُختلفة ونشيطة.

ثانياً: إشارات كتابات (ق10هـ/ 16م):

– على مستوى التُّبُونيمْيَا: تَجدُر الإشارةُ إلى أنَّ إحدى السَّواقي الرَّئيسَة التي تُزَوِّدُ المجالَ المُسْقَى بالمياه تَحملُ اسمَ السَّاقيَّة المَخْزَنيَّة، وهي تَسميَّةٌ لَها دلالاتٌ حول طبيعة الاستغلال، أو مَدى ارتباط ذلك الاستغلال بالمَخْزَن السَّعدي. نُضيف إلى هذا أنَّ المجالَ، الذي تُوجَدُ فوقَه المَعصرةُ الجنوبيَّةُ تابعٌ إلى أراضي الكيشْ؛ وهي أراضي مُنحَت للقبائل الشِّيشاويَّة نتيجة إسهام شُبَّانها في جيش المَخْزَن السَّعدي، ومن بعده العَلَوي.

– على مُستوى النُّصُوص التَّاريخيَّة الأجنبية: يَظهَرُ أنَّ المؤَرِّخَ الإسباني Diego de Torres كان يَتعجَّبُ منَ الأهَمِّيَّة التي أوْلاها بعضُ السَّلاطين السَّعديِّينَ لتجارة السُّكَّر؛ إذْ يُشيرُ إلى أنَّهُ: "*بعد انْتصار السَّعديِّين، في سَانْتَ كْرُوز*، وهو يعني مدينة أكَادير، في عام (947هـ/ 1541م)؛ *كتب الشَّريفُ* (يقصدُ محمَّد الشَّيْخ السَّعدي) *إلى أخيه* (أبُو العبَّاس الأعْرَج) *بأنَّ اللهَ والرَّسولَ مَنَحَاهُ انتصاراً يُمكِّنُه منْ أن يُؤَمِّنَ كُلَّ الأقطار، إذ هو بدايةٌ سَعيدَةٌ لتَدَاوُل السُّكَّر، وبَقيَّة بَضائع المَمْلكَة.*"[1] حاول نَصُّ المؤرِّخ الإسباني هذا أن يَكشفَ لنا أنَّ استرجاعَ السَّعديِّين لمدينة أكَادير من قَبضَة البُرتُغال، لَمْ يكن بدافع الجهاد فقط، أو بدافع الغَيْرَة على الدِّين؛ وإنَّما كانت هُناك دوافعُ اقتصاديَّةٌ ترتبطُ بالبحث المُستَمرِّ للسَّعديِّين عن فُرصة تُمكِّنُهم من استرْجاع تلك المدينة، باعتبارها المَنْفَذَ الأقْرَبَ إلى تَارُودَانْت وتيِّيوت، اللَّتَيْن كانتا تُشَكِّلان مَجالات خصبة لزراعة قصب السُّكَّر وصنَاعَته، حتَّى يتمكَّنوا منْ تصدير السُّكَّر بنَقْل أقَلَّ كُلْفَةً، إلى الإيطاليِّين والإنجليز، لقصر المَسافَة بين أكَادير، صاحبَة الميناء المخَصَّص لشَحْن قوالب السُّكَّر في صناديقها المُعَلَّبَة، وتَارُودَانْت وتيِّيوت، المنطقتَيْن ذَواتَيْ المَعاصر العَشْر ومَزارعها الخاصَّة بقَصَب السُّكَّر، قبل أن يُشَيِّدَ المنصورُ السَّعدي مَعصَرتَيْ شيشاوَةَ، ومعصرَة سيدي شيكَرْ، والمعصَرة التي في وادي القَصَبْ في ضواحي الصَّويرة.

---

1 – Diego de Terrés « Histoire des Shérifs ».

وعَن الظُّروف التي استُرجعت فيها مدينةُ أكَادير، يقول الباحث المغربي عبدُ الله العَرْوي: "*في ذلكَ الوقت* [947هـ/ 1541م] *ظهرت على شواطئ سوس مَراكبُ تجاريَّةٌ ابريطانيَّةٌ، في مُحاولة لفرض حُرِّيَّة التِّجارة، وكسر طَوْق الاحتكار الإيبيري. فاقتنى محمَّدٌ الشَّيْخ بعضَ المَدَافع، ثُمَّ تَمْرْكَزَ في الجبل المُطِلِّ على المَرْكَز البُرتُغالي في حِصْن فُنْتي (سَانْتَ كْرُزْ)، وبدأ يُطلقُ عليه النَّارَ. وبعد حصار دامَ أقلَّ من شهر استَسْلَمَ قائدُ الحِصْن.*"[1]

ثالثاً: علاقَةُ السَّعديِّين بمَزَارِع ومَعاصِر السُّكَّر:

تُسعفُنا المصادرُ الأصليَّةُ لتاريخ المغرب: S.I.H.M بمعلومات مَفادُها أنَّ السُّلطانَ السَّعدي المولى عبدُ المَلك: (984هـ/ 1576)-(986هـ/ 1578م) توجَّه برسالة إلى التُّجَّار الإنجليز، سُقْنَا منها العبارَةَ التَّالية: "... *اليَهودُ الَّذين يُشْرِفُونَ على مَعَاصرنَا.*"[2] وفي رسالة أُخرى وُجِّهَتْ منْ لدُن السُّلطان أحْمد المنصور الذَّهبي من مُرَّاكُش العاصمة إلى إليزَابيث مَلكَة إنجلترا، يتحدَّثُ فيها عَن اليهود قائلاً: "...*على هؤلاء اليهود الَّذين يَشْتَغلُون كَمُزارعينَ وَوُكَلاَءَ في مَعَاصرنَا.*"[3] أنْ يُؤَدُّوا ما عَلَيْهِمْ من دُيون للتُّجَّار الإنجليز. بالرَّغم من كُلِّ هذا، يَظهر لنا أنَّ اليهودَ لَمْ يَصيروا قَطُّ، أرباباً أو أصحاباً لهذه المعاصر، ولَمْ يَشْتَرُوهَا قَطُّ، منَ المَخْزَن السَّعدي؛ وإنَّما

---

1 - عبد الله العروى: "مُجمل تاريخ المغرب" ج 1 ص 457 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء

2 - « S.I.H.M série Angl.TI P : 232 ».

3 - « S.I.H.M série Angl.». نشير إلى أن هذه الرِّسالةَ مُؤَرَّخَةٌ ب 18 يونيو 1579م.

بَقُوا فقط، كَوُكَلاَء، أو أُجَرَاءَ فيها. هكذا يَذْكُرُ الفَشْتَالي وهو المؤرِّخُ الرَّسْمي للسُّلطان المنصور، أنَّ المخزنَ السَّعدي قَد اكْتَرَى المَزارِعَ لطائفة من أهل الذِّمَّة: "... *وقد قُطعَتْ مُعَاقَدَةُ الكرَاء فيها اليَوْمَ، لطَائفَة من أهْلِ الذِّمَّة بمقْدَار* ( ) *عن كُلِّ سنة.*" غير أنَّ الإشرافَ على مَزَارِعِ السُّكَّر يَتَحَوَّلُ في كثير منَ الأحيان، منَ الدَّولة واليَهود مَعاً، إلى التُّجَّار الإنجليز. حيثُ أَوْكَلَ السُّلطانُ إلَيْهمُ الإشرافَ عليْها فترةَ جَمْعِ المحاصيل، كَمُقابل للسِّلَع التي يُزَوِّدُونَ بها الشَّريفَ السَّعدي. ولعلَّ ذلكَ جاءَ نَتيجةً للمشاكل التي أَوْجَدَهَا إشرافُ اليهود على هذه المزارع. إذْ كان اليَهودُ مُعَرَّضينَ أكثَرَ للمُصادَرَات التي كانت تُؤَدِّي إلى إفْلاَسِ التُّجَّار الإنجليز.[1] ومن ثَمَّ كانت مُطالبةُ هؤلاء بالحصول على مَدَاخيلهمْ منَ المزارع، غير أنَّه غالباً ما كان يُرْجَأُ الاستغلالُ إلى مَوسم ما، الشَّيءُ الَّذي يَنتُجُ عنه تجميعُ دُيون كبيرة على الشَّريف السَّعدي. (هكذا كان المخزَنُ يدينُ لتاجرَيْن إنجليزيَّيْن بمبلغ 11000 أُوقيَّة، مُقابل مَبالغَ سدَّداها له في الفترة ما بين (1004هـ/ 1595م)-(1009هـ/ 1600م).[2]

يتبيَّنُ أنَّ المَغربَ قَد اعتمد على إنتاج السُّكَّر وتصديره إلى الخارج، وفي مُقدِّمته سُكَّرُ شيشَاوَةَ؛ ولكن دون أن تكون هناك أيَّةُ علاقة بين هذا

---

[1] - حرَمنا بياضُ النَّصّ ( ) في مَخطوطِ المؤرِّخِ الفشتالي مِنَ الوقوف على مِقدار الكِرَاءِ. "مَناهِلُ الصَّفا" ص 210.

[2] - تذكر وثيقةٌ انجليزيَّةٌ أنّ تاجراً انجليزياً أفلس نتيجةً لذلك، بقدرٍ لا يَقِلُّ عن 40.000.
« S.I.H.M Angl. T1 P 537».

النَّشاط والسُّكَّان، سواءٌ في شيشاوة، أو في غيرها من مناطق الإنتاج في تيُّوت، وتَارُودَانْت، ووَادْ القْصُبْ، وسيدي شيكَرْ. كان العاملون في المعاصر الشِّيشاوية منَ الأَسْرَى الأوربِّيين، وكان المُلتَزمون بالبيْع تُجَّاراً منَ الإنجليز. ولهذا ناصَبَ السُّكَّانُ العداءَ لهذا المشروع. إذ انْقَضَّ الشِّيشاويُّونَ على المعصرتَيْن بُعَيْدَ وفاة المنصور بستَّة أشهُر فخُرِّبت المَزَارعُ السُّكَّريَّةُ، ومَعاصرُها، وانْهارت السُّلطةُ السَّعديَّةُ، وانْهارَ حَتْماً، النَّشاطُ الاقتصادي في شيشاوة، كما لو كان من وَرَق. ثُمَّ جاءَ دَوْرُ مُزاحَمة سُكَّر البرازيل، وتناقُصُ كمِّيات التِّبْرِ المَجْلُوب منَ السُّودان، وانعَدَمَت الحاجَةُ إلى تحالُف الآخَر مَعَ المَغْرب بعد الضُّعف، الَّذي لَحَقَ الإسبانَ والتُّرْكَ مَعاً، في مَطْلَع (ق11هـ/ 17م)، بعد أن نزَعَ المحيطُ الأطلنتكي التَّاجَ من رأس البحر الأبيض المتوسِّط، على حَدِّ قول فيرْنَانْ بْرُوديلْ في كتابه البحرُ الأبيضُ المتوسِّط والعالَمُ المتوسِّطيُّ في عهد حُكم فيليبْ الثَّاني.

رابعاً: بعضُ الظُّروف المُحيطة باختفاء هذه الزِّراعَة:

هل يُمكن الحديثُ عَن اختفاء زراعة قصب السُّكَّر في المغرب بعد نهاية (ق10هـ/ 16م)؟ إنَّ النُّصوصَ اللاَّحقَةَ لا تخلو من إشارات لزراعة قصب السُّكَّر في المغرب؛ فقد أشار الرَّحَّالَةُ الإنجليزي جَاكْسُونْ، الَّذي زار المَغربَ في بداية (ق13هـ/ 19م)(1219هـ/ 1805م)، إلى أنَّ زراعَة قصب السُّكَّر كانت تلْقَائيَّةً.[1] ونَصُّ الرَّحَّالة الإنجليزي هذا حول تلْقَائيَّة زراعة

1 - JACKSON : « An Account Of The Empire Of Morroco » P : 19.

قصب السُّكَّر يُبَيِّنُ عدمَ الاهتمام بهذه الزِّراعة. لقد أُثيرَ نقاشٌ بين مُختلف الباحثين حول الأسباب وعوامل ما سُمِّيَ بالاختفاء، فرأى بعضُهُم أنَّ ذلكَ ناتجٌ عن[1] قلَّة الطَّلب الأُوربِّي على هذه المادَّة، خاصَّةً بعد اكْتشاف المَجالات الصَّالحة لهذه الزِّراعة في البرازيل، وفي بعض الجزر الأطلسيَّة، كجزيرة مَاديرَا. حيثُ ارتفع إنتاجُ السُّكَّر في Saothomé في البرازيل بشكل مُذهلٍ بين عامَيْ: (936هـ/ 1529م)-(961هـ/ 1554م).[2] كما كانَ سُكَّرُ البرازيل هو الآخرُ، قد شَهدَ ارتفاعاً كبيراً في مردوديَّة الإنتاج ما بين عامَيْ: (978هـ/ 1570م)-(1009هـ/ 1600م).

ويرى المُؤَرِّخُ البُرتُغالي كُودينْهُو أنَّ ارتفاعَ الإنتاجِ في البرازيل كان بمثابَة مُتنَفَّس لأزمَة عالَميَّة، كان منْ بين أهَمِّ نَتائجهَا: *"تَحَوُّلاتٌ بنَيويَّةٌ وجغرافيَّةٌ، كانَ سُكَّرُ المغرب، وضمنَهُ [شيشاوَة] منْ بين ضحاياها."* فيما يرى البعضُ الآخَرُ أنَّ زراعةَ قصب السُّكَّر في بعض المناطق منَ المغرب كانت تَعرف تَدَهْوُراً خطيراً قبل (ق10هـ/ 16م)؛ إذْ سُرْعانَ ما يُفْهَمُ من خلال كلام الباحث الفرنسي مُونْبي أنَّ الدُّخولَ العربيَّ المَعْقلي كان مَسْؤُولاً عَنِ انْهيارها،[3] وأنَّ الدَّولةَ السَّعديَّةَ في (ق10هـ16/ م)، إنَّما عَملَتْ على

---

1 - P. Berthier « Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques ».

2 -Godinho (Von) « Crises et changements géographiques et structuraux » P 107 in économia 1958.

3 - Godinho (Von) « Crises et changements géographiques et structuraux » P 107 in économia 1958.

- J. Meunier « Le Maroc saharien »

انتشالها من وهَادهَا المُنْحَطَّة، وسُرعان ما عَصفت بها في النِّهاية، المَشاكلُ الهَيْكَليَّةُ للدَّولة السَّعديَّة بعد وفاة السُّلطان أحمد المنصور. غير أنَّ الأمرَ يُمكنُ أن يُفسَّرَ من جانب آخرَ يتجاوزُ عاملَيْ المُنافسة الخارجيَّة، والانْهيار القبَلي؛ فيُمكنُ أنْ تُزوِّدَنَا الرِّوايَةُ الشَّفويَّةُ، التي يُوردُها الباحثُ الأرْخيُولُوجي الفرنسي بُولْ برْتْيي حول سيدي ابْراهيمْ أو عيسَى، ببَعض العناصر التي يُمكن أن نُفَسِّرَ منْ خلالها، هذا الاختفَاءَ، ونَصُّ الرِّواية هو: *"إنَّ النَّحْلَ كان مُؤَثِّراً على مَحاصيل قَصَب السُّكَّر، ولذلكَ قَرَّرَ السُّلطان تَهديمَ كُلِّ أجبَاحِ النَّحْل، ومنْ بينها وَاحدٌ في مِلْك هذا الوَلِّي. فَلَمَّا بدأ المَخْزَنِيُّونَ عَملَهُمْ هذا، خرجتْ أفعَى والْتَوَتْ على عُنُق ابْنِ السُّلطان، فكان أن تَوَسَّلَ لسيدي أبراهيمْ أو عيسَى الَّذي أنْقَذَ ابْنَ السُّلطان مُقابلَ إلْغَاء هذه الزِّراعة."*[*] ولعلَّ هذا يَعني أنَّ مَرحلةَ الاختفاء قَد ارتبطت بوضعٍ داخليٍّ، يتمثَّل في مُعارضة بعض فئات المجتمع التي كانت تَستَمدُّ قُوتَها، وغذاءَها من أجْبَاحِ النَّحل، أو من أيِّ شيءٍ آخرَ (كالحبوب مثلاً).

إنَّ الدَّولةَ السَّعديَّةَ بتركيزها على زراعة قصَب السُّكَّر في المغرب في شيشاوة، أو في غيرها منْ مناطق السُّوس، وحاجَّا، لَمْ تُسْهمْ في حَلِّ المُشكلة التي ظَلَّ يَتخبَّط فيها المَغربُ منذ نهاية (ق9هـ/ 15م)؛ بل عملت على

(*)- ملاحظة: نتوجّه بالشُكر والتّقدير إلى الدُكتور عبد الرّحيم بن حادّة: "أستاذ التاريخ الحديث" بجامعة اضهْرَ المَهْرَاز بفاس سابقاً، وعميد جامعة محمد الخامس حالياً بالرباط؛ على المعلومات القيّمَة التي أغنى بها هذه المُحاولة.

تعميقها إلى جانب عوامل أُخرى، وبذلك فَإنَّ ما أَسْمَتْهُ بعضُ الكتابات بالازدهار الاقتصادي، كانت الدَّولة السَّعديَّة قد وضعَتْ له أساساً هَشّاً، كان بإمكان أيِّ تحوُّل اقتصاديٍّ عالَميٍّ أنْ يَعْصفَ به. لذا يُمكن أن نقولَ إنَّ مسألةَ الإنتاج الفلاحي قد ظلَّت مُرتبطةً بعواملَ خارجة عن إرادة السَّعديِّين، أو غيرهم. غير أنَّهُ عندما نقولُ: إنَّ الدَّولةَ السَّعديَّةَ قد أسهَمت في تعميق الأزمة الغذائيَّة، فإنَّنا نَقصدُ أنَّها حُرِمَتْ من ادِّخار فائض الإنتاج، الَّذي بإمكانه مُجابَهةُ أيَّة أزمة غذائيَّة عابرَة، وهو ما كان يُضْفي على بعضها طابَعاً مَأساويّاً صوَّرتْهُ بعضُ النُّصوصِ في كتُبِ التَّراجِم، والرَّحلات، والنَّوازل، والكرامات، والحِسْبَة.

وإذا ما سَمحتُم، فَإنِّي أُسعفُكم ببعض الإشارات حول هذا الموضوع حيثُ يُشير التَّمَنَارْتي[1] في "فوائده"، إلى أزمات الحبوب قائلاً: "*جاءت سنَةُ جَلْبٍ عُدِمَ فيها الزَّرْعُ ببلاَدنَا.*" ونُشيرُ أيضاً، إلى أنَّ الإحدى عَشَرَ سنةً منَ الجفاف التي كانت قد تَعرَّضت لَها البلادُ خلالَ (ق10هـ/ 16م)، كان لَها أبْلَغُ الأثَر على الإنتاج الفلاحي، إذْ أجْبَرَت العديدَ من فُقهاء (ق11هـ/ 17م) على حَثِّ النَّاسِ على التَّقشُّف والزُّهْد. وهو ما يُمكنُ أنْ

---

[1] – عبد الرّحمان التّمنارتي "الفوائد الجَمّةُ بإسناد علوم الأمة" ص66 وتوجد إلى جانبه وثيقةٌ بُرتغاليّةٌ، تُوثّقُ ما كان قد أشار إليه، حين تُفْصِحُ عن أنّ الجفافَ قد ضربَ المغربَ زُهاءَ سنتيْن، ما بين 1540م-1542م، وتذكر الوثيقةُ ذاتُها أنّ في مرّاكش وحنبات أُمّ الرّبيع؛ ليس هناك لا مَراعي ولا حقولَ مَحروثة، بسبب هذا الجفاف. I.H.M série POR T 1et3 s.P :313.

نَلْمَسُهُ من خلال قراءَة لبعض أدَبيَّات عبدُ الله بْنُ محمَّد بْن أبي بكْر البُوشْوَاري (المتوفَّى عام (1071هـ/ 1660م) إذ يَقول: *"فقد مَرَّتْ علينَا سنُونٌ جَمَعَ الله فيها كُلَّ محْنَة، منْ جُوعٍ، وجَرَاد كَثير، وَوَبَاء. فَأَكَلَ الوَبَاءُ الأَشجارَ الخُضْرَ، ثُمَّ غَارَقَ المَيَاهَ في الآبار والعُيُون. ومَنَعَ الوباءُ النَّاسَ منَ الأَسواق الكُبرى. فَقَسَت القُلوبُ، ولَمْ تَجِدْ مَنْ يَسقيكَ شُرْبَةَ ماء، فَضلاً عَنْ غَيْرِها. فَرَأَيتُ كُلَّ مَنْ عنْدَهُ إِدَامٌ يُبَدِّلُهُ بالدُّخن، ويَبيعُ منْهُ، ومَنْ عنْدَهُ جلْبانٌ، فَهُوَ إِعَانَةٌ...ومَنْ لَمْ يَدَّخرْ، فَالوَيْلُ لَهُ"*[1] يُمكنُ لهذه الإشارَة أن تُسعفَ بفَهْم ما يُمكنُ أنْ تُؤَدِّي إليه سَنَةٌ منْ سنوات الجفاف؛ فعدَمُ الادِّخار يَجْعَلُ من تَعطُّل الأمطار، أو انْعدامها مَصدَرَ رُعْب للسُّكَّان، ومنْ تَمَّ باتَت الحاجَةُ مُلحَّةً للرَّبْط بين المُناخ والإنتاج الزِّراعي. وإذا ما أضفنا إلى كُلِّ هذا أنَّ زراعَةَ قَصَب السُّكَّر، وتَصنيعَهُ في مَغْرب (ق10هـ/ 16م)، كانا مُوجَّهَيْن بالأساس إلى التَّصدير. وعبارةُ الفشتالي، ومن بَعْده الأفْرَاني، حول "تَبادُل السُّكَّر وزناً لوَزْن مَعَ الرُّخام."[2] لَتَحْملُ عدَّةَ دلالات؛ منْ جهَة، هناكَ خَسارَةٌ في العَمَليَّة التِّجاريَّة، كالسُّكَّر الذي أُنْفقَتْ عليْه أموالٌ طائلَةٌ يُبَادَلُ مع مَوَادَّ كَماليَّة؛ ومن جهَة ثانيَّة، يُمكنُ أن نَتَساءَلَ عن أوْجُه

---

[1] – عبد الله بن محمد بن أبي بكر البوشواري: وهو واردٌ في "المعسول" لصاحبه المختار السوسي ج 17 ص 257.

[2] – الفشتالي عبد العزيز: "مناهل الصفا" ص 209. الأفراني "نزهة الحادى في أخبار ملوك القرن الحادى" ص182 .

صَرْف عائدات التِّجارة في هذه الموادِّ !؟ لَعَلَّ في وَصْف زينة قَصْر البَديع بالرُّخام والذَّهب عِنْدَ المُؤَرِّخِ الفَشْتَالِي ما يُجيبُ عن هذا التَّساؤُل.[1] إذ يُخصِّصُ لذلك الوصف صفحات طوال. لعلَّ ما يَستوقفُ القارئَ منها ما يلي: "... *وقد بَلَغَت المَنَارَةُ*، (ويعني منارَةَ قصر البديع) *التي عَرَّجَ بها المُعَلِّمُونَ إلى السَّماء، وتسنَّمُوا ذِرْوَتَها...إلى سَبْعمائَة حَمْلٍ، هو كُلُّ زَوْجٍ من أفراد الخشب الأَرْزيَّة الضَّخمة... ومنَ الحديد المُؤَلَّف لأَجْرامِها مائَةُ قِنْطَار*..." هذا في وقت كانت فيه زراعةُ قصب السُّكَّر تتوسَّع على حساب مَزارِع الحبوب التي اعتُبرت الغِذاءَ الأوَّلي لِسُكَّان مَغرب (ق10هـ/ 16م).

[1] – الفشتالي "مناهل الصفا".

خُلاصَة:

إنَّ الزَّائرَ لِمُرَّاكُشَ في (ق6هـ/ 12م) منَ الشَّرق، أو منَ الأندلُس، يُدركُ في الحين ما تَمتازُ به الكتبيَّةُ مَثَلاً، من عظمة ورصانة، منْ بَهاء وبساطة؛ فتعودُ به الذَّاكرةُ إلى لُغة الزَّعيم الرُّوحي لِبُناتها الموحِّدين ابْنُ تُومَرْتْ، وما غَلَّفَهَا من عفَّة وبلاغة، منْ صرامة وإيجاز. الكُتُبيَّةُ وبحَقٍّ، آيةُ الموحِّدين؛ وَلَئِنْ بَاتَتْ قِمَّةَ الفنِّ المغربي، فَلأنَّ الدَّولَةَ الموحِّديَّةَ التي شيَّدتْها كانت حقّاً، ذاتَ هِمَّةٍ وطموحٍ.

أمَّا الزَّائرُ لشيشاوةَ في (ق10هـ/ 16م) منَ الشَّرق، أو منَ الأندلس، أو من بلاد النَّصارى: إنجلَترَّا، هولندا، أو فرنسا، أو إيطاليا، أوْ منَ البُرتُغال... يُدركُ في الحين حالَما تقعُ عيناه، عن قُرْب، على المَعْصرتيْن اللَّتيْن شُيِّدَتَا في فترة حُكْم السُّلطان المنصور السَّعدي، أنَّهُما مَعاً، آيَتَا السَّعْديِّين. فقد أنْشَأهُما مُتأخِّرَتَيْن عَن المَعاصر الإثْنَيْ عَشَرَ الأُخرى، فباتتا نَموذَجاً في التَّنسيق المُحكَم بين وَحَدَاتهما التَّصنيعيَّة. وما اخْتيارُهُما في ستّينيَّات القرن الماضي منْ لَدُن الباحث الأرْخيُولُوجي الفرنسي بُّولْ بيرْتْيي لأجل التَّنقيب عن بقايا وحداتهما التَّصنيعيَّة لفَهْم ميكَانيزْمات باقي مَعَاصر مَغْرب ق16م، إلاَّ لكونهما بَاتَتَا أكثَرَ المَعاصر الأُخرى احتفاظاً بوَحَدَاتهمَا التَّصنيعيَّة، برَغْم مُرُور حوالي 430 عاماً عن تشييدهما. صُمِّمَتا بشكل غريب، كأنَّهُما مَتاهَتَيْن، تَماماً كَبَانيهمَا السُّلْطَان المنصور في تدبيره المُناور إزَاءَ القُوَى التي هَدَّدَتْ

كيانَهُ في (ق10هـ/ 16م)، فاتَّهَمَتْهُ بالغُموض والمُخاتَلَة، فبلغت به شُهْرَتُهُ الآفاقَ فكان، بالرَّغْم من ذلك، نافذَةً فيها بين بلاد النُّوبَة والبحر المُحيط من ناحية الغرب. وتلْكُما معصَرتان شيشَاويَّتَان لَمْ يُكتَبْ لأيٍّ مَعْصَرَة منَ المَعاصِر السَّابقَة عنهُما في سُوسْ أن تحظى بالنَّظر إلى سَلامَة المعالِم نفسها التي احتفظَتَا بها للنَّاظر إلَيْهما في شيشاوةَ.

لإيلاف أهل شيشاوةَ وهُمْ يَحتَفُونَ بضُيوفهمْ منذ ق16م، إيلاَفهمْ كَسْرَ قُنَن قوالب السُّكَّر، ورَمْيَهَا جانباً منْ قُعُور الزَّنابيل المُخَصَّصَة لحفْظ القطَعِ المُكَسَّرَة عَن القَوالب على عَمْد. لإدراكهمْ أنَّ تلْكَ القُنَنَ بالذَّات كانت تترسَّبُ فيها -أثناءَ تصنيع عَصير قَصَب السُّكَّر في مَعْصَرَتَيْ شيشاوةَ (ق16م)- العوالقُ وهي داخلَ قوالبها الطِّينيَّة، المُتَّكئ بَعضُها على بعض في وضع مَقْلُوب، كَيْ يَتَصَلَّبَ العَصيرُ وسَطَ فُرن التَّجفيف. فَتَسيلُ عَوَالقُ العَصير في القَوالب على مَهْل، من خلال الثُّقُب الصَّغيرَة التي في أسافلها المَقلُوبَة، وتتجمَّعُ حيثُ توجَدُ القُنَنُ المَقلُوبَةُ. فَقُنَّةٌ قالَب السُّكَّر في أذهان أهل شيشاوةَ منذُ ذلكَ الحين إلى الآنَ، غيرُ صالحَة لإعداد الشَّاي المُعَتَّق لضُيُوفهمُ الكرام، ولذا يَعْرِضُونَ عنها، ويُحَلُّونَ الشَّايَ بقطْعة سُكَّر يأخُذونَهَا ممَّا بَقيَ منَ القالَب، حتَّى لا يتأثَّرَ ذلك الشَّرابُ السَّاخنُ اللَّذيذُ بما يظُنُّونَهَ عوالقَ.

البابُ السَّادِسُ

رَصْدُ بعضِ الأحداثِ في شيشاوة في ظِلِّ حُكْمِ العلويِّين: من (1041هـ/ 1631م) إلى الآن...

الفصل الأوَّل:

شيشاوة في عهد السَّلاطين: مُولاي إسماعيل، مولاي عبد الله، سيدي محمَّد بن عبد الله، مُولاي سُليمان

الفصل الثَّاني:

شيشاوةُ في عهدِ السُّلطان العلوي المولى الحسنُ الأوَّلُ

الفصل الأوَّل

شيشاوة في عهد السَّلاطين: مُولاي إسماعيل، مُولاي سُليمان، مُولاي عبد الله، سيدي مُحمد بن عبد الله

أوَّلاً: نصيبُها من أوضاعِ المغرب بعد وفاة المولى إسماعيل:

يبدو أنَّ شيشاوة لا تُذْكَرُ كَثيراً إبَّان حُكْمِ السَّلاطِينِ العَلَوِيِّين، إلاَّ حينَ يَصِلُ التَّمَرُّدُ في صُفُوفِ بعض قبائِلِها إلى أقصى مَداهُ؛ ولكن ماذا لو أنَّ هِبَةَ هذا السُّلطان العلوي الذي دامَ حُكْمُهُ من (1083هـ/ 1672م) إلى (1140هـ/ 1727م) قد دفعت بِأهلِها إلى التِزَامِ الهُدنة، فعَمِيَتْ عَلَيْنا أَخْبارُها؟ ! أو ماذا لو أنَّنا بِكُلِّ بَساطَةٍ، قَصَّرْنا في اقتِفاءِ آثار بعض أحداثِها أيَّامَ حُكمِ المولى إسماعيل؟ كيفما كان الحالُ، فَقَدِ اهتمَّ السُّلطانُ العلوي المولى إسماعيل بِأخبارِ بَانِي مَعْصَرَتَيْ شيشاوة وقَصْرِ البديعِ السُّلطان أحمد المنصور الذَّهبي؛ حتَّى أنَّهُ أمرَ المُؤرِّخَ الوُفْرَانِي بِأَنْ يَكتُبَ دقائِقَ التَّفاصِيلِ في تدبير ذلك السُّلطانِ السَّعدي لأمور دولَتِهِ السَّعديَّة من قَبْلُ. وهو ما عكف عليه الوُفْرَانِي اعتِماداً على عبد العزيز الفَشْتَالِي كاتِبِ المنصور السَّعدي، مُتَوَخِّياً الاعتِدالَ في أحكامِهِ. لِمَاذا؟ هل أفلَحَ السُّلطانُ العلوي في إحداثِهِ لِقطيعةٍ مع بَعْضِ الهَفَوَاتِ الحاصِلَةِ في أيَّامِ حُكْمِ سابِقِهِ السُّلطان السَّعدي؟ أو أنَّ تاريخَ المغرِبِ قد عَرَفَ ظاهِرَةَ الاستِمرار في أيَّامِ حُكْمِ المولى

إسماعيل، بالرَّغمِ من تَمكُّنِ هذا السُّلطان –على حَدِّ قوْلِ العروي– من إحياءِ، بالوسائِلِ المُتوافِرَةِ لَدَيْهِ، ما أسماه *المَغْرِبَ التَّاريخي*؟ يُجيبُ الباحِثُ نفسُهُ عن ذلك قائِلاً: "*لأنَّه يَعرِفُ*، أي المؤَرِّخُ الوُفْرَاني، *أنَّ سُلطانَ عصْرِهِ المولى إسماعيل، يَوَدُّ أن يَستَفيدَ من تَجارِبِ المنصور حتَّى يتفادى أخطاءَهُ في الدَّاخِلِ والخارِجِ. بل إنَّ نَقْلَ قَصْرِ البديعِ مِنْ لَدُنِ المولى إسماعيل حَجَرَةً حَجَرَةً، من مُرَّاكُش، العاصِمة السَّابِقة للسَّعديِّين، إلى مَكْنَاس، العاصِمة* الجديدة للمولى إسماعيل العلوي، *أحسَنُ شاهِدٍ على هذه التَّبعيَّة.*"[1] ويُلخِّصُ العروي سِياسَةَ المولى إسماعيل العلوي في النِّقاط الثَّاليَّة، فيقُول: "*أ)– بِناءُ جيشٍ من نوْعٍ جديدٍ. ب)– تقليصُ، إن لَمْ نَقُلِ اجْتِثاثُ نُفوذِ الزَّوايا. د–) الإكثارُ مِنَ الجِباياتِ. كان الباعِثُ على كُلِّ هذا الوَضْعِ المَأساوي الذي خلَّفَهُ السُّلطان المنصورُ، أن تفرَّقَ الجيشُ، وفقد الصُّلحاءُ والمُجاهِدون رؤوسُ الزَّوايا، هَيْبَتَهُمْ بعد أن تورَّطُوا في علاقاتٍ مَشْبُوهةٍ مع الغُزاةِ، والتُّجَّارِ، والنَّصارى..ثُمَّ جاءتِ الضَّرْبَةُ القاضِيَةُ عِندما قام الجَيْشُ الإسماعِيلي الجديد بِواجِبِ الجِهادِ، واستطاعَ في أقَلَّ من عشرِ سنواتٍ، أن يُحقِّقَ ما عجَزَ عنهُ المُجاهِدون طوالَ عُقُودٍ مِنَ الحِصارِ المُتواصِلِ. فظهر للجميع أنَّ ما كان يُرَدِّدُهُ الفُقهاءُ –لا جِهادَ إلاَّ مَعَ إمامٍ– هو الأصلُ، وأنَّ ما سِواهُ هو استِدراجٌ مِنَ الشَّيْطان. حَرَّرَ الجيشُ الإسماعيلي بِمُساعَدَةِ المُتطوِّعَةِ، على التَّوالي، مدينةَ المعمورة في الشمال*

[1] – عبد الله العروى: "مُجمَلُ تاريخ المغرب" ص 497.

الغربي، المهديَّة حالياً، *عام* (1092هـ/ 1681م) *من يَدِ الإسبان، ثُمَّ مدينة طنجة مِنْ يَدِ الإنجليز عام* (1095هـ/ 1684م)، *ثُمَّ مدينةَ العرائِش في الشمال مِنَ يَدِ الإسبان أيضاً، عام* (1101هـ/ 1689م)، *ثُمَّ حرَّروا مدينةَ أصيلة مِنْ يَدِ البُرتُغال عام* (1103هـ/ 1691م)."[1] وفي أعقابِ كُلِّ ذلك، تبيَّنَ - من خِلالِ رَسائِلَ منشورة في مجلَّة هِسْبِّريس- أنَّ السُّلطان المولى إسماعيل قد سعى إلى تَحالُفٍ حَذِرٍ مع عُلماء فاس، أفضى إلى مُحاصَرَةِ المُجاهِدين لِسبتةَ، وتضييقِهِمُ الخِناقَ عليْها دون أن يستَطِيعوا اقتِحامَها.[2]

بِالرَّغْمِ من كُلِّ هذا، فَمِنَ الوارِدِ إذَنْ، أن يَشُكَّ الباحِثُ في ما أَوْرَدَتْهُ الرِّوايَةُ الرَّسْمِيَّةُ من أنَّ المغرِبَ عاش -على حَدِّ قَوْلِ فقيهٍ سِباعِيٍّ شيشاوي- في السِّنينَ الأخيرة مِنَ الحُكم الإسماعيلي: *"في أَمْنٍ وعافيةٍ... تَخْرُجُ المرأةُ والذِّمِّيُّ من وَجْدَةَ إلى وادي نُولْ، فلا يَجِدانِ من يسأَلُهما من أَينَ وإلى أَينَ... مع الرَّخاءِ المُفْرِطِ."* والرِّوايَةُ هذه، هِيَ لِلفقيهِ، والمؤَرِّخِ السِّباعِي محمَّد السِّباعي في كِتابِهِ "البُستانُ الجامِعُ"، من قبيلة أولاد أبي السِّباع في شيشاوة. ولعلَّها تشهَدُ شهادةً مُضْمَرَةً على الأمنِ والهُدنَةِ التي التزمت بِها قبائِلُ شيشاوة في عهد هذا السُّلطان العلوي. ولعلَّ ذلك ما غَيَّبَ ذِكْرَ قبائِلِ شيشاوة من لدن المؤرِّخين في عهدِهِ !

---

[1] - المَرجِعُ نفسهُ ص 497.

[2] - « Aperçu bibliographique sur la vie et le règne de Moulay Ismaél » (établi avec le concours de la bibliothèque Générale de Rabat) H.T 1962 N suppl. pp 87-92.

وكما طالَ عُمُرُ المولى إسماعيل طالت وِلايَتُهُ، سبعاً وخمسينَ عاماً، وطالَتِ الفِتْنَةُ التي تَلَتْ وفاتَهُ فدامت ثلاثينَ عاماً. إذ شهِد المغربُ بَعْدَ وفاتِهِ، أزمةً خطيرةً، خاصَّةً بعدما أَفَلَتْ سُلطةُ المخزن، قَلَّ فيها الأمنُ والاستقرارُ، وانتشرت على غِرارِهِمَا الفوضَى واللُّصُوصِيَّةُ. وقد تَمَثَّلتِ الأسبابُ في صِراعِ أبناء السُّلطان على الحكم، وتَـمَرُّد جَيْشِ البُخاري، وتَسَلُّطِهِ على خَيْرَاتِ النَّاس، فواكبَ ذلكَ سنواتٌ مِنَ المَجاعة، والفقر، والجدب، والأَوْبِئَةِ. وقد أسعفنا في هذا الصَّدَدِ، صاحبُ كتاب نَشْرِ المَثَانِي بالمعلومات التَّالية: *"وقَوِيَتِ الفِتَنُ، وارتفعتِ الأسعارُ، وانْحَبَسَتِ الأمطارُ، وعانَى النَّاسُ الشَّدائِدَ مِنَ الغَلاَءِ، وقَلَّ الإِدَامُ، وانْقَطَعَ اللَّحْمُ، وهَلَكَتْ رِقَابٌ كَثِيرَةٌ..."* [1] وإذا كانتِ الأزمةُ قَدِ اكتسبَت طابعاً عُمومِيّاً في المغرب، فَإِنَّ شِيشَاوَةَ لَمْ تَسْلَمْ مِنْ ذلك؛ فقد كان لَهَا هِيَ الأُخرى، نصيبٌ مِنَ الأضرارِ والأحداثِ في هذه الفترة. إذ نتج عن ضُعف المَحاصيلِ الزِّراعيةِ أَنِ ارْتَفَعَتْ أَثْمَانُ الحُبوب، حيثُ بلغَ ثَمَنُ المُدِّ مِنْ حُبُوبِ الشَّعير في قبيلة مْزُوضَة مَثَلاً، سبعَ أَوَاقٍ. فباتَتْ سَنَةُ (1190هـ/ 1776م) تُعْرَفُ عندَ السُّكَّانِ الشِّيشَاوِيِّينَ بِعام سَبْع أَوَاق. واضطرَّ النَّاسُ على -حَدِّ قولِ الضُّعَيِّفِ- إلى أَكْلِ: *"المَيْتَةِ، والخِنْزِيرِ، والآدَمِي"* [2].

---

[1] - الناصري: "الاستقصا" ج7 ص140.

[2] - "تاريخ الضُّعَيِّف" تحقيق العمّاري ص178.

ولا يَقتصِرُ حُضُورُ شِيشَاوَةَ في الأحداث المَريرَةِ التي شهِدَهَا المغربُ، من خِلالِ مُعاناتِها مِنْ تَبِعاتِ تلكَ الأحداثِ في مُزُوضَة فقط، بل تَعَدَّتِ الأضرارُ هذه القبيلة إلى غيرِها مِنَ القبائِلِ الشِّيشَاوِيَّةِ. وقد أشارَ الأستاذُ الكُفْنَانِي إلى أَنَّهُ كانت للسِّباعيِّين مُشاركَةٌ في صِرَاعِ القبائل، التي كانت إِمَّا تُناصِرُ هذا الأمير المُدَّعِي، أو ذاكَ من أولادِ السُّلطانِ العَلَوي المُتَوَفَّى المولَى إسْماعيل.[1]

ويَبْدُو أَنَّ تلكَ الأوضاع المُزرِيَّةِ لَمْ تَهْدَأْ إلاَّ بعدَ أَنْ جَمَعَ المولى عبدُ الله العَلَوِي: (1142هـ/ 1729م)-(1171هـ/ 1757م) كَلِمَةَ العرَبِ، والبَرْبَرِ حولَهُ. وهي عَمَلِيَّةٌ مَكَّنَتْهُ مِنْ أن يُحقِّقَ انتِصاراً على أخيه المُسْتَضِيءِ في مُواجهاتٍ كثيرةٍ بينهُما، بين عامَيْ (1151هـ/ 1738م)-(1153هـ/ 1740م). ومَكَّنَتْهُ في الوقتِ نفسِهِ، من أَنْ يَسْتَمِيلَ العَبِيدَ المُتمرِّدينَ إلى صَفِّهِ.

لا يُمكنُ بِأَيِّ حالٍ أن نَغْفَلَ الأعوامَ، التي قضاها السُّلطانُ العلوي الجديد سيدي محمَّد بْنُ عبدِ الله في سَهْلِ الحوز، في الوقت الَّذي حكم فيه المغرِبَ ما بين (1171هـ/ 1757م)-(1204هـ/ 1790م)؛ إذ كان في السَّابِقِ خليفةً على هذه المنطقة بِما فيها شيشاوة، في أَيَّامِ حُكْمِ أبيهِ. كان هذا السُّلطانُ مُصْلِحاً حقّاً، لكن في مُحيطٍ جِدٍّ محدودٍ، وبِأهدافٍ مُتواضِعَةٍ. وعن هذا يقُولُ العروي: *"كان الهاجِسُ الجِبائي أساسَ اهتمامِهِ المُستمرِّ... عقد*

[1]– م الحسن الكفناني "قبيلة أولاد أبي السباع في ق19م" ص92.

سنة (1171هـ/ 1757م) مع الدَّانْمارْك، وهي دولةٌ صغيرةٌ لا طَمَعَ لَها في التَّوسُّعِ الاستعماري، اتِّفاقيَّةً احتكرت بِمُوجِبِها تجارَةَ ميناءِ آسفي مُقابِلَ أتاوَةٍ سنويَّةٍ. اتِّفاقيَّةٌ جدَّدَها سنة (1181هـ/ 1767م)، مُضيفاً إليها بُنُوداً تُساعِدُ على تَموينِ الخَزينة. ثُمَّ سنة (1178هـ/ 1765م) قَرَرَ وضْعَ حَدٍّ للفوضى التِّجارية، التي كان يستَفيدُ منها الأجانِبُ والرُّؤساءُ، فاختارَ مَوقِعَ الصَّويرة لِقُربِهِ النِّسبي من مُرَّاكُش عاصِمة الجنوب. وأمر بتخطيط مَدينةٍ على النَّمَطِ الأوروبِّي، وهذا ما قام به المُهندِسُ الفرنسي كُورْنُو. ثُمَّ طلب من قناصِلِ الدُّولِ، ومُمَثِّلي دُورِ التِّجارَةِ الإقامَةَ بها." [1] منذ ذلك التَّاريخِ وإلى مَطْلَعِ (ق14هـ/ 20م) كوَّنَتِ الرُّسومُ الجُمرُكِيَّةُ أهمَّ، وأضمَنَ مَوْرِدٍ لِخَزينة الدَّولةِ المغربيَّةِ؛ وهذا يعني أنَّ ازدِهارَ التِّجارَةِ بين مُرَّاكُش والصّويرة، قد كان تحتَ رَحْمَةِ الأمنِ الرَّديفِ في تَحَقُّقِهِ لازدِهارِ التِّجارَة، وفي غِيابِهِ لاندِثارِها. فهل آلَتِ القبائِلُ التي أَلِفَتِ التَّمرُّدَ في شيشاوة إلى الارتِكانِ إلى الهُدنةِ؟

إذا كان النَّاصري[2] قد أشارَ إلى أَنَّ الأميرَ المُستَضيءَ قَدِ الْتَجَأَ إلى مَسْفِيوَةَ لِاسْتِنْفَارِ قبائِلِهَا، لِقِتَالِ أخيه السُّلطَانِ المولَى عَبْدِ الله، فَإِنَّ الِاصْطِدَامَاتِ بينَهُما قَدِ امتدَّت بِشَرارَتِها إلى سَهْلِ الحَوْزِ. ففي الوقت الَّذي انضمَّت فيه قبائلُ أولاد أبي السِّباع في شِيشَاوَةَ، ثُمَّ الرْحَامْنَة، ودُكَّالَة إلى المُستضِيءِ؛ كانت قبيلةُ الزْرَارَات في شِيشَاوَة، ثُمَّ عَبْدَة، والسْرَاغْنَة،

[1] - المَرجعُ نفسُهُ ص 504.
[2] - الناصري: "الاستقصا" ج7، ص167.

وَحَرْبِيل، والشْيَاظْمَة قد شَيَّعَتْ لِمَوْلاَي عَبْدِ الله.[1] فاندلَعَتْ بين الأمِيرَيْنِ مَعَارِكُ طاحِنَةٌ خلالَ سنة (1158هـ/ 1745م)؛ انتهت بِمُبايَعَةِ السُّلطان المولَى عَبْدِ الله في الحَوْزِ، فاستخلفَ ابنَهُ مُحَمَّداً على مدينة مُرَّاكُشَ وأَحْوَازِهَا. وقد كان السِّباعِيُّونَ خِلالَ تِلْكَ النَّكباتِ، يَشُنُّونَ الغَارَاتِ على القبائِلِ الشِّيشَاوِيَّةِ المُجاوِرَةِ لِمجالاتِهِمْ، وخاصَّةً منهُمْ قبيلةُ ذُو بْلاَل لأَجْلِ توسيع أراضيهم، وأيضاً لأَجْلِ حِيَازَةِ كمِّياتٍ كبيرةٍ مِنَ المياه. فأثارت سُلُوكَاتُهُمْ حَفِيظَةَ السُّلطانِ المَوْلَى عَبْدِ الله. فما إِنْ مَرَّتْ سنواتُ الجَفاف حتَّى أَعَدَّ العُدَّةَ لِتَأْدِيبِهِمْ. وقد نقل لنا الزَّيَانِي كيف قام السُّلطانُ المذكورُ بتدبير ذلك قائلاً: *"وفي عام (1157هـ/ 1744م) مَطَرَ المغربُ، وحَرَثَ النَّاسُ، وبَلَغَ الزَّرْعُ، ورَخَصَتِ الأسعارُ، واشْتَغَلَ أمير المُؤْمنِينَ بِتَمهيدِهِ. فوجَّهَ العَسَاكِرَ لأَوْلاَدِ أبِي السَّبَاعِ لِعِيثِهِمْ في البِلادِ، وظُلمِهِمْ في الحَوْزِ، فَحَارَبُوهُمْ، ونَهَبُوهُمْ، وأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الحَوْزِ إلى السُّوسِ. وقَتَلُوا مِنْهُمْ عَدَداً كَثِيراً، وقَبَضَ السُّلْطَانُ على كَثِيرٍ مِنْ أعيانِهِمْ. فَسَجَنَهُمْ في مَكْنَاسَةَ إلى أن مَاتُوا بِسِجْنِهَا... ثُمَّ أَنْقَلَ قبيلةَ زَمْرَان بعد نَهْبِهِمْ، مِنَ الحَوْزِ إلى بلادِ أولاد أبِي السَّبُعِ... ثُمَّ أَنْقَلَ أهلَ تَكْنَة، ومَجَّاط، وذُو بْلاَل مِنْ شِيشَاوَة للغرب، فَنَزَلُوا بِفَاسَ الجَدِيد وأَحْوَازِهِ"*.[2]

---

[1] – الضَّعِيفُ الرِّباطي، محمد بن عبد السلام: "تاريخ الضُّعَيف"، تحقيق وتعليق العمَّارى أحمد نشر دار المأثورات الرباط 1986، ص149.

[2] – الزياني أبو القاسم: "الرَّوْضَةُ السُّليمانيَّة في مُلوك الدَّولة الاسماعيلية". م.خ.ع الرباط رقمه كـ 658 ص125.

ويُضِيفُ الضُّعَيِّفُ القولَ إنَّ السلطانَ نفسَهُ قد رحَّل قَبيلَةَ ذُو بْلاَل إلى الغرب، ووزَّع أراضي قبائِلِ أَوْلاَدْ الدْلِيم على زْرَارَة، والشْبَانَات كَعِقَابٍ لَهُمْ. وبذلك دَانَ له الحَوْزُ بِما فيه شِيشَاوَة، وانقادت قبائِلُهَا إلى الطَّاعة والإذعان. فَأُمِّنَتْ بذلكَ الطُّرُقُ التِّجاريَّةُ الرَّابطةُ بين مُرَّاكُشَ والصَّوِيرَةِ، المَارَّةُ من مَجَّاط وأَوْلاَد أبِي السِّبَاع. ولِضَمانِ ذلك أَنْزَلَ السَّلاَطِينُ العَلَوِيُّونَ بعضَ أفخاذِ زَمْرَان بين قريَةِ بُوعَنْفِير في رُبُوعِ شيشاوة، وأَمْسَكْسْلاَن على الطَّرِيقِ المؤدِّيةِ إلى الصَّويرة.[1] وقد وَسَّعَ السُّلطَانُ العَلَوي المولى عبدُ الله أيضاً، مَجَالَ قريَةِ بُوعَنْفِير في شِيشَاوَة على الضِّفَّةِ الشَّرقِيَّةِ من واديها، وفي شَمالِهِ. ونَخْتِمُ الإشارات إلى فَتْرَةِ حُكْمِ المولى عبدِ الله العلوي بالقول: إنَّ التَّدخُّلَ البَيِّنَ للجيشِ المُنْحَلِّ بعد وفاة المولى إسماعيل قد عزَلَ السُّلطانَ الشَّرْعي المولى عبد الله، ثُمَّ أعادَهُ إلى العرْشِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وحاربت كُلُّ فِئَةٍ من هذا الجيشِ المُنْحَلِّ فِئَةً أُخرى، أو هاجمت مدينةً، أو منطقةً، دون أن يستطيعَ الدَّارِسُ اكتِشَافَ أيِّ خَطٍّ مَنْطِقِيٍّ في هذه السِّلسِلَةِ مِنَ الأحداثِ المُتكَرِّرَةِ، المُمِلَّةِ، المُزرِيَّة، مِمَّا دعا عبد الرَّحمن بْنَ زيْدان إلى كِتابَةِ هذه السُّطُور في نِهايَة عَرْضِهِ لِسيرَةِ المولى عبد الله: *"هذا مَلِكُ البِلادِ، وهو رأسُ السَّلْطَنَةِ، يَضطَرُّ لتَحَمُّلِ إهاناتٍ شنيعةٍ من زَعانيفَ صَعَاليكَ، بعد تَجَرُّعِ أنواعِ المَضضِ من سوء المَسيرة، وأنباء الفِتَنِ، وحوادِثِ الاضطِرابات، وآفاتِ التَّفرُّقِ..."*[2]

---

[1] – بَارِيتُو لُويزْ مصدر سابق ص31.

[2] – عبد الرَّحمن بْنُ زيدان: "إتحافُ أعْلاَمِ النَّاسِ" ج 4 ص 476.

ثانياً: شِيشَاوَةُ في عَهْدِ السُّلطانِ المولَى سُليمان العَلَوِي:

ما إن توفي السُّلطانُ العلوي المولى عبد الله، الذي حكم بين عامي: (1206هـ/ 1792م)-(1238هـ/ 1822م) حتَّى عادت هِيفُ إلى أديانِها؛ إِذْ حَنَّتِ القبائِلُ الشِّيشاوِيَّةُ إلى سابِقِ عهدِها مِنَ المُطارداتِ وشَنِّ الغارات، دون مُراعاةٍ للجِوَارِ، أَوِ التَّعايُشِ. وانقادَت أَغلبُها وراء الرَّغبة في تصفِيَةِ الحِسابات. ويُفيدنا الضُّعَيِّفُ[1] في ذلِكَ بِمعلوماتٍ حول صِراعاتٍ بين قبائِلِ زَمْرَان والرْحَامْنَة ومَسْفِيوَة، ومُحاوَلَةُ أَوْلاَدِ الدْلِيم استرجاعَ مَجالاتِهم من أيْدِي تَكْنَة، والزْرَارَات، والشْبَانَات. الشَّيْءُ الَّذي أَدَّى إلى انْدِلاَعِ مَعارِكَ ضَارِيَّةٍ بين هذهِ القبائِلِ، وصَفَهَا المؤَرِّخُ نَفْسُهُ بِالسِّيبَة. وبذلك هاجَرَت قبائلُ زَمْرَان مَوَاقِعَها التي كان السُّلطانُ المولَى عبدُ الله قد أَنْزَلَهُمْ فيها، في شِيشَاوَة لأجْلِ حِراسة الطَّريقِ التِّجاري بين مُرَّاكُشَ والصَّويرة، وبقوا هناك على عهد ابنِهِ المولى محمَّد بن عبد الرَّحمن. فتسلَّلَ إِلَيْهَا أَوْلاَدُ أَبِي السَّبَاع على عَهْدِ السُّلطانِ العلوي المولَى اليَزِيد، الذي حكم بين عامي: (1204هـ/ 1790م)-(1206هـ/ 1792م). ويُحَدِّثُنا الضُّعَيِّفُ عن ذلكَ فيَقولُ: *"وأَمَّا أَوْلاَدُ أبِي السَّبَاعِ لَمَّا سَمِعُوا بِمَوْتِهِ*، أي المولى اليَزِيدُ، *نَهَبُوا بِغَالَ السُّلْطَانِ، وهَرَبُوا لِتِغْسريت."*[2]

---

[1] - "باريتو لويز" مصدر سابق ص 31.

[2] - "تاريخ الضعيف" تحقيق العمارى ص 660-271.

ولَمَّا تَوَلَّى السُّلطَةَ السُّلطانُ العلوي المَوْلَى سُليمانُ، الذي حكم بين عامَيْ (1206هـ/ 1792م)-(1238هـ/ 1822م) قَابَلَهُمْ بِاحْتِرَامٍ، وأَرْجَعَهُمْ إلى عِزِّهِمْ، لِكَوْنِ السُّلطان المذكور اشْتَهَرَ بِتَبْجِيلِهِ للعِلْمِ والعُلَمَاءِ، ومُهَادَنَتِهِ للقَبَائِلِ. فعادَ الأَمْنُ إلى مَجالاتِ شِيشَاوَة بعد أَنْ هَدَأَتْ ثَائِرَةُ قبائِلِهَا. غير أَنَّ الشَّرَارْدَة، وهم سِبَاعِيُّونَ من أهل شِيشَاوَة، لَمْ يَسْتَأْنِسُوا بالاِسْتِقْرَارِ قَطُّ. إذ سُرعان ما اشْتَدَّتْ شَوْكَتُهُمْ على المَخْزَنِ العلَوي أَيَّامَ حُكْمِ السُّلطان المولى سُلَيْمان، فشَرَعُوا يتوسَّعون في المجالاتِ الشِّيشَاوِيَّةِ إلى أن بَلَغَ بِهِمُ الأمرُ إلى الانتشار في دِيرِ أَدْرَارَن دَرَن. ويُؤَكِّدُ النَّاصري[1] على أن غَيَّهُمْ قد بلغ بِهِمْ إلى السَّطْوِ على الصَّاكَةِ، وهيَ الأعشارُ التي كانت تَحمِلُها القافلةُ الآتيةُ مِنَ الصَّويرة. فَحَازُوا كُلَّ خَيراتِها بِتَوَاطُإٍ مع الشْيَاظْمَة المُرافقين لَهُمْ. وقد أثار ذلكَ اغتياظَ السُّلطانِ، الذي قضى نَحْبَهُ إِثْرَ مَرَضٍ أَلَمَّ به.

ومهما يَكُنْ من أمرِ هذه التَّمرُّدات، التي كان يتسبَّبُ فيها إمَّا رئيسُ زاويةٍ، أو قائِدُ قبيلةٍ، أو حِرَفِيُّو مدينةٍ فإنَّها كانت في الغالِبِ لا تتعدَّى نِطاقَها الأصلي. وهذا النِّطاقُ كان يتضايَقُ باستِمرارٍ، ولا يُهدِّدُ أبداً وحدةَ البِلاد، أو شرعِيَّةَ السُّلطةِ. وعليه، فما دُمنا بِصَدَدِ الحديثِ عن السُّلطة المركزيَّة، التي تراجعت هي نفسُها، عن كثيرٍ من طُموحاتِها، ورضِيَتْ أن تَكونَ في بعضِ الحالاتِ مُجَرَّدَ إمامَةٍ شرعِيَّةٍ؛ فَإِنَّنا نأبى إلاَّ أن نُدرِجَ هذه

[1] – الناصري: "الاستقصا" ج8، ص165.

المُقارَبَةَ المُخْتَصَرَةِ التي خَلُصَ إليها العروي، لِيَمِيزَ بين السَّلاطين العلويِّين الثَّلاثة الَّذين شهِدت شيشاوةُ في عَهْدِهِم تَمَرُّدَ بعض قبائِلِها، إذ يقول: *"إذا كان إسماعيلُ سُلطاناً قبل كُلِّ شيءٍ، وسُليمانُ إماماً، فَإِنَّ محمَّداً*، أي محمَّد بْنُ عبد الله، *حاول أن يكون في آنٍ، وبِكَيْفِيَّةٍ مُتساوِيَةٍ، سُلطاناً وإماماً وسيِّداً وشريفاً. يعتمِدُ حسب الظُّروف، مَرَّةً على الشَّوكَةِ، ومَرَّةً على الهَيْبَةِ"* [1].

ثالِثاً: شيشاوة في عَهْدِ السُّلطانِ مولاي عبد الرحمن بْنُ هشام:

كَثُرَتْ أعمالُ التَّخريبِ التي قام بِها الشَّرَارْدَة في عهد هذا السُّلطان، الذي حكم بين: (1238هـ/ 1822م)-(1276هـ/ 1859م) وامتدَّت أَيْدِيهِمْ إلى قوافِلِ النَّاس، ورفضوا العُمَّالَ الخَمْسَةَ، الَّذين عُيِّنُوا من لَدُنِ السُّلطان على مَجالاتِهم في شِيشَاوَة. وقد أَدَّى بِهِمُ التَّمادي إلى التَّحمُّسِ إلى ادِّعَاءِ صاحِبِ الزَّاوِيَةِ الشَّرَّادِيَّةِ أَنَّهُ المَهْدِي المُنْتَظَر. وقد جَرَّ عليهِم كُلُّ ذلكَ زَحْفَ السُّلطان المولى عبدُ الرَّحمنِ إلى شِيشَاوَة، واستنفارَهُ لِقَبائِلِهَا كَيْ تُعِينَهُ على كَسْرِ شوكَتِهِم. وقد أَكَّدَ النَّاصِري على أَنَّ مُطارَدَةَ السُّلطان لِلشَّرَارْدَة قد دامَت أُسْبُوعاً كاملاً، إلى أَنْ تشتَّتَتْ جُموعُهُمْ، وتَفَرَّقَتْ تَحالُفَاتُهُمْ.[2] ويُفيدُنا الأستاذُ الكُفْنَانِي في هذا الصَّدَدِ بِمعلوماتٍ لا تَسْتَبْعِدُ إمكانِيَّةَ مُشاركَةِ سِباعِيِّي شِيشَاوَة في عَمَلِيَّةِ رَدْعِ السُّلطان للقبيلة الشَّرَّادِيَّةِ. ويُضيفُ[3]

---

[1] - عبد الله العروي: المَرْجعُ نفسهُ ص 505.

[2] - النَّاصري: "الاستقصا" ج9، ص17-18-19.

[3] - م الحسن الكُفناني: "قبيلة أولاد أبي السِّباع في ق19"، ص103.
للإشارة: فالرِّوايةُ الشفويَّةُ ساقَها الأستاذُ الباحثُ من خلال "بَارِيتُو لُوِيز" مصدر سابق.

الأستاذُ نفسُهُ، مُعتَمِداً على الرِّواية الشَّفويَّةِ السَّائِدَةِ في شِيشَاوَة، أَنَّ أولادَ أَبِي السِّبَاعِ قَدِ احتلُّوا منطقةَ بُوجْمَادَى من عَمَلِ شِيشَاوَة عندما أَجْلَوْا عنها قبيلَةَ ذُو بْلاَل. وكرَدِّ فِعْلٍ لذلكَ، أنعم عليْهِمُ السُّلطانُ المَولَى عبدُ الرَّحمن بِمَنْحِهِمْ منطقةَ المَجُّونْ: وهي الأراضي، التي تَخلَّتْ عنها قبيلةُ تَكْنَة، الحليفةُ السَّابِقَةُ لِقبيلة الشْرَارْدَة، وهي من بين أخصَبِ الأراضي الشِّيشاويَّة اليوم، بفضل فُرشَتِها المائية الغنيَّة، وخصوبة تُربَتِها. ويُشيرُ ابْنُ زَيْدَان إلى أَنَّ السُّلطانَ مولاي عبدُ الرَّحمن قد قام بِرِحلةٍ إلى الصَّويرة ونواحِيهَا، لِيَتَفَقَّدَ أحوالَ الرَّعِيَّةِ هنالِكَ. كان ذلك خلالَ (1242هـ/ 1827م): *"فطافَ على تِلْكَ القبائلِ وأصلَحَ خَلَلَهَا، وأقامَ الحدودَ، ورتَّبَ الأُمورَ، ثُمَّ رجع إلى مُرَّاكُش."* [1]

يتَّضح - من خِلال هذه الأحداث- أَنَّ شيشاوة كانت خلال فترة القرن 19م، مَجالاً ساخناً يتأجَّج بتحرُّكاتٍ قَبَلِيَّةٍ تُغِيرُ فيها القبائلُ القويَّةُ على الَّتي آلت إلى الضُّعف، إمَّا بسبب نقص أعدادِها، أو لِمَوْقِفِ المخزن مِنها، أو لِمُجرَّدِ حدوث نقصٍ في المياه الآتيّةِ إلى القبيلة المُغِيرَةِ مِنَ مَجالات القبيلة الأُخرى، أو لِنقصٍ في أعشاب المَراعي المُسخَّرَةِ لرعي الماشِيَّةِ. وقد كانت هذهِ الأحداثُ غالِباً ما تستدعي الحضورَ الفِعلِي لقُوَّاتِ السَّلاطين العلويِّين، إمَّا لِتهدئَةِ الأوضاع عن طريق إصلاح أحوال القبائل المُتضَرِّرَةِ، أو للضَّرب وبِقُوَّةٍ على أيدي القبائل لأجلِ كَسْرِ شوكَتِهَا، ورَدْعِهَا. إلاَّ أنَّهُ غالِباً ما تكونُ عمَلِيَّاتُ الرَّدعِ ظَرفِيَّةً ليس إلاَّ.

---

[1] – ابن زيدان "إتْحَافُ أَعْلاَمِ النَّاسِ"، ج5 ص22.

رابِعاً: شيشاوة في عهد السُّلطانِ محمَّد بن عبد الرَّحمن:

بِمُجرَّدِ ما عُيِّنَ السلطانُ العَلَوِي محمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحمن خَلَفاً لأبيه (1276هـ/ 1859م)-(1290هـ/ 1873م) انشغل بِحربِ تِطْوَانَ التي أغار فيها الإسبانُ على هذه المدينة المغربية. فعادتِ القَبَائِلُ الشِّيشاوِيَّةُ في السهولِ والجِبالِ إلى الفوضى والإضطرابات، التي دامت حوالي خمسَةِ أعوامٍ نَعَتَهَا رُوبِيرْ مُونْتَانْيْ بِالسِّيبَةْ.[1] ولِتطويعِ القبائِلِ الثَّائِرَةِ استنفرَ القائِدُ الحَاجِّي عبدُ الله أبْهَايْ كُلَّ قبائِلِ حَاحَّا، وهجم على قبيلة مْتُوكَّة الواقِعة في شيشاوة، وخرَّبَ دارَ عامِلِهَا مُحَمَّدٍ وَلْد مُوسَى بعد أن طَرَدَهُ. وأَذَاقَ المْتُوكِّيِينَ كُلَّ أنواعِ التَّعذيب والتَّنكيل، بعد أن أَلْحَقَ بِهِمْ مَجموعةً مِنَ الهزائم. فلم يَجِدِ المْتُوكِّيُونَ الفَارُّون بُدّاً مِنَ الإلتجاءِ إلى السِّباعيِّين للإحتماء بِهِمْ.[2] وقَدِ استمرَّ عبدُ الله أَبْهَايْ الحَاجِّي في تَطويعِ القبائِلِ الشِّيشاوِيَّةِ إلى أن بَسَطَ نُفوذَهُ على قبائِلِ: *"حَاحَّا، ودَمْسِيرَة، ونَفِّيفَة، وإِدَاوْزِيكِي، وبعضِ قبائِلِ الدِّيرِ"*[3].

ومِمَّا يُثيرُ الانتباه هنا، هو عودَةُ مدينة القَاهِرَةِ الشِّيشَاوِيَّةِ خلال هذه الفترة السَّاخِنة من جديدٍ، إلى واجِهَةِ الأحداث. إذ خِلاَلَ سنة (1280هـ/ حوالي 1865م)؛ أي بعد خمسَةِ قرونٍ وعِقْدَيْنِ على تشييدِها من لَدُنِ بني مَرينَ، وجَّه السُّلطانُ أخاه المولى عبدُ القادر على رأس كَتِيبَةٍ مِنَ

---

[1] -Montagne (R) « Les berbères et le Makhzen » P 110.

[2] - م الحسن الكفناني "قبيلة أولاد أبي السباع" ص113.

[3] - "كُنَّاشُ بْلِيمْبِي": الخزانة الحسنية الرباط رقم 933- ص10.

الجيش قَصْدَ استخلاصِ الوَاجِبَاتِ المَخْزَنِيَّةِ مِنْ قبائِل الدِّيرِ. وقد خَيَّمَتِ المَحَلَّةُ في وادي القِهْرَا[1] عامَ (1280هـ/ 1865م). وعن ذلك يقولُ أَكَنْسُوس: *"فَنَزَلَتِ المَحَلَّةُ هُنَاكَ نَحْوَ سنةٍ كامِلَةٍ، فكان ذلك مِنْ أَكْبَرِ وُجُوهِ المَكِيدَةِ، فَكُلُّ قبيلةٍ من تلك القبائِل تَظُنُّ أَنَّهَا هي المقصودة. فَتَسَارَعُوا إلى أَدَاءِ مَا وُظِّفَ عَلَيْهِمْ مِنَ المَغْرَمِ، وهُوَ شَيْءٌ كبيرٌ، ولَمْ يُثْقِلْ عَلَيْهِمْ ذلك، لأَجْلِ الخَوْفِ الَّذي خامَرَ أَجْوافَهُمْ، مع كثرةِ المُؤَنِ واللَّوَازِمِ لتِلْكَ المَحَالِّ الكَثِيرَةِ، والعَسَاكِرِ المُظَفَّرَةِ الخَطِيرَةِ. فَلَمْ تَقُمْ عَنْهُمُ الجُنودُ حَتَّى أَضْعَفُوا أَقْوَاهُمْ، وَأَوْهَنُوا مَسْعَاهُمْ. فَرَجَعَتِ المَحَلَّةُ سَالِمَةً بَعْدَ المُدَّةِ المَذْكُورَةِ"*

يتبيَّنُ أَنَّ القَبائِلَ التي كانت من قبلُ ثائرةً مُضطربةَ الأحوال، قد سارعت تَستجيبُ لِتأدِيَّةِ الكُلَفِ، ودَفْعِ ما تَقَلَّدَ بِذِمَّتِهَا مِنْ زكاةٍ وأعشارٍ، خوفاً من سَطْوَةِ المَخْزَنْ. يتَّضح أيضاً، أَنَّ اختيارَ مَحَلَّةِ السُّلطان لِوَادِي القِهْرَا، كَموضعٍ حطَّت فيه الرِّحالَ لِجبايةِ تلكَ الضَّرائِبِ لَمْ يكن أَمْراً عَبَثاً. إِذْ للمَوَاقِعِ المُتاخِمَةِ لِبَادِيَّةِ المغربِ دَوْرٌ إِسْتْرَاتِيجِيٌّ يَحْفَظُهُ لَهَا التَّاريخُ، من خِلالِ تدوينِهِ للأحداثِ التي شَهِدَتْها تِلكَ المواقِعُ من قبلُ. لعلَّ تِلْكَ الأحداث، هي ما قدَّمَتْ مَوْضِعَ القِهْرَا الشِّيشَاوِيَّةِ، كمجالٍ إستراتيجي يَتوافَقُ والمُواصفاتِ الدَّقيقةِ، التي كُنَّا اسْتَعْرَضْنَاهَا صُحْبَةَ ابْنِ خلدون في مُستَهلِّ هذا البحث، والتي تَشتَرِطُ المَنَاعَةَ، والإشرافَ على مَجالات مَجموعةٍ مِنَ القبائِلِ، والتحصينَ الطَّبيعِي، كوجودِها بِاسْتِدَارَةِ وَادِي، أو فوقَ هضبةٍ

[1] – أَكَنْسُوس: "الجَيْشُ العَرَمْرَمُ" ص268.

مُتَوَعِّرَةٍ مِنَ الجبل، حتَّى لا يُوصَلَ إِلَيْهَا إِلاَّ بعدَ عَصَبِ الرِّيقِ... هذا، ولَمْ تقتصِرِ القبائِلُ الشِّيشاوِيَّةُ على إثارَةِ هذا النَّوعِ مِنَ العِصْيَانِ غَدَاةَ حَرْبِ تِطْوَانَ بينَ المغرب وإسبانيا، وانشغالِ السُّلطان بِها، دون غيرها. بل عَمَدَ سِبَاعِيُّو شِيشَاوَةَ إلى التَّمرُّدِ على القائدِ الحَبِيب، عامِلِهِمْ مِنْ قِبَلِ السُّلطان، فقتَلُوا ابنَهُ وَوَصِيفَهُ، ونَهَبُوا دارَهُ، واسْتَجَارُوا بعد ذلكَ، بِقَبِيلَةِ مْتُوكَّة. في حين، توجَّهت مَجموعةٌ منهم إلى ضريح سيدي بَلْعَبَّاس في مُرَّاكُشَ. ولَمَّا بلغَ الاِضْطِرَابُ إلى قَبيلَتَيْ مْتُوكَّة ومْزُوضَة الشِّيشاوِيَّتَيْنِ، أمر السُّلطانُ خَديمَهُ عبدُ الله أَبْهَايْ الحَاجِّي بِتَأديب تلك القبائِل، وهو ما يُبَيِّنُ أَنَّ السُّلطانَ قد فضَّل أن لاَ يَتَنَقَّلَ بِجَيْشِهِ النِّظامي لِسَبَبَيْنِ اثْنَيْنِ: إِمَّا لانْشغالِهِ بِحَرْبِ تِطْوَانَ ضِدَّ الإِسبان، أو لِرَغبتِهِ في إعطاءِ القبائِلِ الثَّائِرَةِ مُهْلَةً عَلَّهَا تَهْدَأُ، وتَتَلَذَّذُ بِالاِسْتِقْرَارَ.

يتبيَّنُ أَنَّ شِيشَاوَةَ قد عانت، إلى جانب كُلِّ أقطارِ المغرِبِ، مِنَ السَّنوات العِجَافِ؛ بل إِنَّ الأَوضاعَ، التي تَسَبَّبَ فيها النِّزَاعُ القَبَلِي في مَجالاتِها، قد زادَتِ الطِّينَ بَلَّةً، إِذْ وصَلَتِ النِّزاعاتُ بين القبائِلِ الشِّيشاوِيَّةِ إلى أقصى مَداها، ودارتْ رحى الحُرُوبِ بين الأهالِي حول المراعي، والمَسَارِحِ، والمِياه، والأَعشاب، وكذا حول عَصَبِيَّاتٍ سِيَّاسِيَّةٍ كانت قد دخلت في مُطارداتٍ، ومُواجَهاتٍ دامِيَّةٍ لَمْ تكن تنتهي إلاَّ لِتَبْدَأَ مِنْ جديدٍ. والواقِعُ أَنَّ تلك الظُّروف القَبلِيَّةِ التي سادت في شِيشَاوَةَ في عهد السُّلطان المولى عبد الرَّحمن، لَمْ تَخْدُمِ اقْتِصادَها في شيءٍ، إذ عانَى هذا النَّشاطُ الحيوي في المجال الشِّيشاوِي على مُستوياتٍ ثلاثةٍ:

أ)- لَمْ تكن شِيشَاوَة تُشكِّلُ شُذوذاً أَوِ استثناءً عَمَّا كان قد عانَى منهُ المغربُ كَكُلٍّ، فِي حرب تِطْوَانَ التي فُرِضَتْ عليه؛ إِذْ بِموجِبِها أَدَّى غراماتٍ مالِيَّةٍ فاقت طاقَةَ الموارِدِ العادِيَّةِ للمخزن. الشَّيءُ الذي أَدَّى إلى حُدوثِ نَزيفٍ مالِي في الخزينَةِ المغربيَّةِ.

ب)- كانتِ اصْطِداماتُ القبائِلِ الشِّيشاويَّة تَحْدُثُ حالَمَا ينشَغِلُ المخزنُ المغربِي بِمِثلِ هذه المشاكِلِ: التَّعرُّض للتَّوغُّلِ الأجنَبِي، فتُضافُ هي الأُخرى إلى الإكراهاتِ التي تُلحِقُ أضراراً وخيمةً باقتصاد المجال الشِّيشاوِي. والحالةُ هذه، تَتَشَوَّفُ بعضُ القبائِلِ الشِّيشاويَّةِ إلى خَيْرَاتِ القبائِلِ المجاوِرَةِ لَهَا، فَتُغيرُ عليها بِحملاتٍ كَيْ تَسْلُبَهَا مِيَاهَهَا ومجَالاتِها. فتَنسِفُ الزُّروعَ، وتُخَرِّبُ العُمرانَ، وتنشُرُ الرُّعبَ في النُّفوس بِإسقاطِها للأرواحِ التي غالباً ما كانت بِمثابة قِوَى فاعِلَةٍ في الاقتصاد الشِّيشاوي والمغربي كَكُلٍّ، خصوصاً وأَنَّ الزِّراعَةَ هيَ المُحَرِّكُ الأَسَاسُ للاقتصاد. فتبقى الأَراضي الزِّراعيَّةِ عارِيَّةً دون استغلال. وتبعاً للمعادلة التي أَلِفْنَاها في تاريخ المغرب، والتي تَنْبَنِي على أَنَّ انْعِدَامَ الأَمْنِ يُساوِي الأَضْرَارَ في الاقتصاد؛ فَإِنَّ المَمرَّاتِ والمسالِكِ التي كانت مُخصَّصةً للتِّجارة بين مُرَّاكُشَ والصَّوِيرَةِ، أو بين مُرَّاكُشَ والسُّوسَ كانت تُهْجَرُ لِخَوْفِ التُّجَّارِ مِنَ المُتلصِّصينَ، وقُطَّاعِ الطُّرُقِ.

ج)- أَمَامَ احتياجِ المَخْزَنِ للأَموال فَإِنَّهُ كان يُثْقِلُ كاهِلَ القبائِلِ الشِّيشاويَّة بالجِبَايَاتِ، التي إِمَّا أَنْ يُقدِّمَهَا كَغَرَامَاتٍ للإسبان المُجْتَاحِينَ

لِتطْوَانَ، أو يُمَوِّلَ بوساطَتِها مَشْرُوعَهُ العَسكري الذي يرغَبُ في أَنْ يُسَخِّرَهُ للتَّصدِّي لذلكَ الاِجتِيَاحِ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ يتعمَّدُ إضعافَ القبائِلِ الثَّائرة، المدفُوعَةِ بِصِيتِهَا، وتَسَلُّطِهَا، وعَصَبيَّتِها إلى إثارَةِ الفوضى بِمُصَادَرَتِهِ لِمَوَاشِيهَا، أو لِبعضِ أراضيها، أو بِتَرْحِيلِهَا، وإحْلاَلِ غَيْرِهَا مِنَ القبائِلِ مَحَلَّهَا.

وإذا ما أضفنا إلى كُلِّ هذا أَنَّ المغربَ كان عُرضةً لانتشارِ الجَرَادِ بين عامَيْ (1283هـ/ 1866م)-(1285هـ/ 1868م) الذي كان قد أَتَى على الأخْضَرِ واليَابِسِ، وانْحَبَسَتِ الأمطارُ؛ فَإِنَّهُ لا يُمكِنُ إلاَّ أن نُقِرَّ بِأَنَّ تلكَ الظَّرْفِيَّةَ قد خلَّفت أَرْضِيَّةً لانتشارِ الأوبِئَة الفتَّاكَةِ في شيشاوة، وفي غيرِها مِنَ البوادي. هذا، ولَمَّا آنَسَ السُّلطانُ المولَى مُحَمَّدُ بْنُ عبدِ الرَّحمن في خليفَتِهِ مولايَ الحسنِ الأَوَّلِ، دِرَايَةً بِتَدْبيرِ أُمورِ القبائِلِ الحَوْزِيَّةِ، فَوَّضَ إليه الإشرافَ على بعضِ أُمورِهَا. وفي ذلك، يُدْرِجُ الأستاذُ الكُفْنَانِي مُلَخَّصَ رِسالةٍ جوابِيَّةٍ مِنَ السُّلْطَانِ المولى محمَّدِ بْنِ عبدِ الرَّحمن إلى المولَى الحَسنِ، نقتَصِرُ منها على ما يَلِي: *"التَّفويضُ لمولانا نَصَرَهُ الله، الخليفةُ مَوْلاَيَ الحَسَنِ، في مُباشرةِ الكلام مَعَ جَميعِ العُمَّالِ، في الأُمور المَخْزَنِيَّةِ مِنْ قِبَلِ مولانا المُقَدَّسِ*، السُّلطان سيدي محمَّد الرَّابع."[1] وقَدِ اتَّضح خِلالَ هذه الفترة بالذَّاتِ، أَنَّ المَخْزَنَ المغربِي قد نَهَجَ سِياسَةً خاصَّةً مع القبائِلِ الشِّيشاوِيَّةِ ارْتَكَزَتْ بالأساسِ، على دَعْمِ العُمَّالِ، وتعزيزِ بَعْضِهِمُ البَعْضُ، والضَّربِ

[1] – ملخص من رسالة بتاريخ (جمادى الثانية 1287هـ/ شتنبر 1870م) ك: 47.

بِعُنْفٍ وصرامةٍ على المُناوِئِينَ لَهُمْ. وقد كان المخزنُ -يَقُولُ الأستاذُ الكُفنانِي-[1] يَحُثُّ عُمَّالَهُ على التَّعاضُدِ، والتَّآزُرِ.

إلاَّ أَنَّ تلكَ التَّدابيرَ كانت تُعَرْقَلُ في غالِبِ الأحيانِ، بِفِعْلِ التَّعاضُدِ والتَّضامُنِ التِّلقائِي مِنْ لَدُنِ العامَّة في شيشاوةَ، والتي كان أغلَبُ الأهالِي فيها يُناصِرُونَ كُلَّ من يَأْوِي إليهِمْ مِنَ القبائِلِ المُجاوِرَةِ فِرَاراً من بَطْشِ قائِدٍ مَخزنِي، أو شَيْخٍ. وهو ما وقع للقَبيلَتَيْنِ الشِّيشاوِيَّتَيْنِ مَعَ أَولاد أبِي السِّباعِ، مرَّتَيْنِ متتاليَتَيْنِ: عندما رفضَ الشُّرفاءُ السِّباعِيُّونَ طَرْدَ المُتَوكِّيينَ المُناوِئِينَ، الفارِّينَ إِلَيْهِمْ، من بَطْشِ قبائِلِ الشْيَاظْمَة؛ وهو ما جَرَّ على أُولئكَ الشُّرفاء السِّباعيِّينَ صِراعاً مَريراً مع قائِدِ الشْيَاظْمَة عبدُ الله أبْهَايْ. وقد تكرَّرتِ العَمَلِيَّةُ نفسُها بين السِّباعيِّينَ وقبيلةِ مْزُوضَة، ثُمَّ بينَهُمْ وبين قبيلة احْمَرْ المُجاورةِ لِمَجالاتِهِمْ. ولَمَّا رفض أهلُ احْمَرْ أن يُسلِّمُوا الشُّرفاءَ السِّباعِيِّينَ إليه، اصطدم القائدُ معهُمْ في مُواجهاتٍ مُسلَّحَةٍ. فساند أهلُ زَاوِيَة بَلْمْقَدَّم مِنْ اهْذِيل أولئِكَ المُحارِبِينَ للقائِدِ.[2]

وفي قبيلةٍ حَمْرِيَّةٍ مُجاورةٍ لِشيشاوة، ثار بعضُ سكَّان هذه القبيلةِ على قائِدِهِمْ هَدِّي بْنُ الضُّو الحَمْرِي، لَمَّا مَنَعَهُمْ من مُناصرَةِ الثَّائرين على القائِدِ السَّابِقِ. وقد ضَمَّنَ الأستاذُ الكُفناني أُطروحَتَهُ حولَ أَوْلاَدِ أبِي السِّباع مُلَخَّصَ رِسالةٍ وَرَدَتْ عَنِ المَخْزَنِ إلى شيشاوة، تتضمَّن: *"كِتَاباً في شَأْنِ ما*

---

[1] - انظر الصفحة 132 من أطروحة الأستاذ م الحسن الكُفناني "قبيلة أولاد أبي السباع في ق 19م".

[2] - لا تبعد زاويةُ بَلْمْقَدَّمْ عَنِ المَرْكَزِ الإِدارى الحالي لِشيشاوةَ سوى بثلاثةِ كِلُومِتْرَاتٍ شمالاً.

أَخْبَرَ به القائدُ محمَّدُ بْنُ عبدِ السَّلامِ الحَمْرِي، مِنْ قَبْضِهِ على بعضِ إخوانِهِ، الَّذين عِنْدَهُمْ فَسادُ أَوْلادِ بُو السْبَع. فَتبِعَهُ إخوانُهُم بالبارودِ، ولَمْ يَجِدُوا لذلك سبيلاً. وأَنَّ أهلَ زَاوِيَةِ بَلْمْقَدَّم الهْدِيلي أَعَانُوا الفَسادَ، كما أعانَهُمْ إخْوانُ هَدِّي بْنُ الضُّو..." [1] نُشيرُ إلى أَنَّ هذه التَّحالُفات، وما كانت تَجُرُّهُ مِن اصطداماتٍ قد نَشِطَتْ داخلَ المجالِ الشِّيشَاوي إلى حدودِ عام (1289هـ/ 1874م). ولَمْ تقتَصِرْ فقط، على قبائِلِ السَّهل في شيشاوة، وإنَّما امتدَّت شرارتُها إلى أَدْرَارَن دَرَن، لِتُحدِثَ نِزاعاً بين قَبيلَتَيْ دْوِيرَان ومَاغُوسَة. فَكَثُرَتْ على إثْرِهَا جرائِمُ المتلصِّصين الَّذين عاثُوا في تلكَ الجِبالِ بالفساد، والفِتَنِ، والسَّطْوِ على الماشِيَّةِ. وقَدِ امتدَّت نارُ الفِتْنَةِ بِشرارتِها إلى قبيلةِ حَاحَّا، وهي القبيلةُ التي عُرفت فيما قبلُ، بِوَلائِها للمَخْزَنِ، خصوصاً على عهد قائِدِها عبدُ الله أَبْهايْ. إِذْ بِمُجَرَّدِ ما تُوُفِّيَ هذا الأخيرُ ثار الحاحِيُّونَ على ابْنِهِ، ونَهبُوا دِيَارَهُ بِأَزَغَار آيت زَلْطَن. وقد شاعَ فسادُهم وذَاعَ فأدَّى – على حَدِّ قولِ الأستاذِ الكُفنانِي- إلى تَخَوُّفِ رجالِ الدِّبْلُومَاسِيَّةِ الأَنْجَلِيزِيَّةِ التي اضطرَّت إلى إرسالِ باخرةٍ إلى الصَّويرَةِ: *"بَقصدِ تَفَقُّدِ من بِها من رَعِيَّتِهِمْ."* [2] ولَمْ تَهدأِ الأُمورُ في حَاحَّا إلاَّ بعدَ أن خرجت حَرْكَةٌ مَخزنِيَّةٌ إلى عَيْنِ المكان، أرسلَها الخليفةُ مَوْلايَ الحَسَنُ نَفْسُهُ أَواخِرَ عهدِ حُكم أبيه. وفي ذلك يُسعفنا ابنُ زَيْدَانَ بِمعلوماتٍ قائلاً: *"... في ثَامِنِ عَشَرَ ربيعِ*

---

[1] – مُلَخَّصُ رِسالةٍ بتاريخ 23 محرم 1289هـ (2 أبريل 1872م) ك: 47.

[2] – مُلَخَّصُ رسالةٍ بتاريخ 18 جُمادى الأولى 1988 (غشت 1871م) ك: 47.

النَّبوِي (1290هـ/ 1875م) وجَّهَ المَحَلَّةَ لقَبائلِ حَاحَّا، لرَتْقِ مَا فَتَقُوا، هُجومِهِمْ على عاملِهِمْ وهَمِّهِمُ الإيقَاعَ بِهِ، حتَّى خَلُصَ نَاجِياً بِنَفْسِهِ وعِيَالِهِ... وبَقِيَتِ القبيلةُ المذكورةُ فوضَى لا رَئِيسَ لَهَا، ولَمْ يَزَلِ المُتَرْجِمُ، مَوْلاَيَ الحَسَنُ، يُعالِجُ أُمورَهُمْ طِبْقَ ما تقتضِيهِ الظُّروفُ مِنْ شِدَّةٍ ولِينٍ، إلى أَنِ انْقَادُوا كُلُّهُمْ، ودَخَلُوا في سِلْكِ الطَّاعَةِ." [1] وقد مَرَّتِ المَحَلَّةُ المَخزنِيَّةُ من مَجالاتِ شِيشَاوَةَ فِي طريقِ إخضاعِها لِحَاحَّا، وخَيَّمَتْ بِها إلى حينِ الْتَحَقَ بِها قُوَّادُ مْزُوضَة، وأَوْلاَد أَبِي السِّبَاع، ومَجَّاط. ثُمَّ انتقلتِ المَحَلَّةُ إلى سِيدِي المُخْتَارِ حيثُ بَاتَتْ هُناكَ، ومنهُ استأْنَفَتْ زَحْفَهَا إلى تَفْتَّاشْت في منطقة الشْيَاظْمَة، ومِنها إلى مَسْكَالَة، وأَبِي رِيقِي.[2]

يتبيَّنُ أنَّ الجِهازَ الذي حكم البِلادَ في عهد هؤلاء السَّلاطين العلويِّين، قَدِ اعتادَ أن يُعَيِّنَ على رأسِ كُلِّ مُقاطعةٍ واسِعَةٍ في الغالِبِ، قائِداً يُوكِلُ إليْه الحِفاظَ على الأمن، ومُؤازرة العامِلِ المسؤول على جِبايَةِ الأَعْشَارِ، والوَظَائِفِ، واسْتِقبال المَحَلَّةِ السُّلطانيَّة كُلَّما مرَّت بِساحتِهِ. ويأتي التَّعينُ في الغالِبِ، مُتأرْجِحاً بين الاختِيارِ والتَّزكِيَّة. لا يَفْرِضُ المَخْزَنُ شخصاً لا تَرْتَضِيهِ الجماعةُ، ولا تَخْتارُ الجماعةُ فرْداً يُسْخِطُ السُّلطانَ. ويَحْدُثُ أن تَجتمِعَ الثَّروةُ والهيْبَةُ معاً، للقائِدِ فيتطلَّعُ إلى أن يستقلَّ بِشُؤونِهِ، ويُرضي نزواتِهِ الطَّائِشَةِ، ولذا يَجِبُ تأديبُهُ من لَدُنِ الجِهازِ الحاكِمِ الَّذي عَيَّنَهُ.

---

[1] – ابن زيدان "إتْحَافُ أَعلام النَّاس" ج2، ص122-123.

[2] – ملخص رسائل مؤرخة ما بين 11 ربيع II 1290 (8 يونيو 1873) 29 ربيع II (26 يونيو) ك: 47.

الفصل الثَّاني
شيشاوةُ في عهدِ السُّلطان العلوي
المولى الحسنُ الأَوَّلُ

أوَّلاً: إجراءاتٌ أوليةٌ تُجاهَ التَّمَرُّدِ:

تلقَّى السُّلطانُ العلوي المولى الحسنُ الأوَّلُ، الذي حكم المَغربَ بين عامي: (1290هـ/ 1873م)-(1312هـ/ 1894م) نَبَأَ وفاةِ أبيهِ محمَّدِ بْنِ عبدِ الرَّحمن، وهو عائِدٌ مِنَ المهمَّة التي أناطَهُ بِها في حَاحَّا، وفي غيرِها مِنْ قبائِلِ سَهْلِ الحَوْزِ. حَصَلَ ذلك في تاريخِ 18 رجب من عامِ (1290هـ/ 1873م)، فشاع خبرُ وفاةِ السُّلطان وخَليفَتُهُ المولَى الحَسَنُ لَمْ يَدْخُلْ إلى مُرَّاكُشَ بَعْدُ. وقد كان طَبِيعِيّاً أَنْ تَعُودَ هِيفُ إلى أَدْيَانِهَا، إِذْ سُرعانَ ما حَنَّتْ بعضُ القبائِلِ إلى التَّمرُّدِ إِمَّا على بَعضِها، أو على قُوَّادِهَا، وشُيوخِهَا. ولَمَّا تَلَقَّى المَوْلَى الحسنُ الأَوَّلُ البَيْعَةَ في مُرَّاكُشَ انتقلَ إلى فَاسَ، دون أَنْ يُعِيرَ كَبِيرَ اهْتِمَامٍ إلى تَحَرُّكاتِ القبائِلِ المُنْتَفِضَةِ. كانت أُولى الأُمور التي انْصَرَفَتْ إليها هِمَّتُهُ أَنْ عزم على اسْتِبْدَالِ سياسةٍ أُخرى بِسِيَاسَةِ أبيه تُجاهَ القبائل.[1] وبذلك عَدَلَ عَنِ الإكثار من تعويض القُوَّادِ بآخرِينَ على رأس القبائِلِ، التي كانت نَزَّاعَةً

[1] - يُحْذَفُ، دائماً القولُ المُرتبطُ بحرف الباء إذا ما جاء بعد كلمة استَبْدَلَ. بدليل قولِهِ تعالى: "أتستبْدِلون الذى هو أدنى بالذى هو خَيْرٌ." سورةُ البقرة آية 59.

للتَّمَرُّدِ، والفوضى. وفي ذلك يقولُ صاحبُ البُستان الجَامِع: *"فلَمَّا أَلْقَتْ إِلَيْهِ الإِمامَةُ الزِّمَامَ. ومَنَحَهُ الله سَعَادَةَ الأَيَّامِ...كان من جُملة ما صَحَّحَ عليه إِبْطَالُ تلكَ العادة، لأَنَّها إِنْ لَمْ تَنْحَسِمْ مَادَّتُها تَرامَتْ للزِّيَادَةِ. وبِسَبَبِ ذلكَ، أَعْرَضَ عَنْ طَيْشِهِمْ، وطَوَى عَلَيْهِ كَشْحاً... واقْتَضَتِ السِّياسَةُ إِذَّاكَ الإِعْرَاضَ عَمَّا ذُكِرَ مِنْ طَيْشِ مَنْ ذُكِرَ، والتَّغَافُلَ عَنْهُ، والتَّغَابِي، لِكَمالِ سِيَادَتِهِ، وَوُفُورِ سِيَاسَتِهِ"* [1] وتبعاً لِهذِهِ السِّياسةِ المَبْنِيَّةِ على إِعادة القُوَّادِ إلى مَناصِبِهِمُ السَّابِقَةِ؛ أعادَ السُّلطانُ المولَى الحَسَنُ الأَوَّلُ القَائِدَ عُمَرَ المْتُوكِّي على رأسِ قبيلَتِهِ مْتُوكَّة، وتشبَّثَ بِعَبْدِ الله بْنِ بَلْعِيد كَقَائِدٍ على أولادِ أَبِي السَّبَاعِ: *"وكان رُجوعُهُمَا سبباً لازْدِيادِ الطَّيْشِ، وبِهِ دَامَ حَتَّى كانَ فيه حَتْفُهُمْ"* [2] والغريبُ أنَّ أخباراً وردت على السُّلطانِ، وهو في طريقِهِ إلى فاس، أطلَعَتْهُ على قِيامِ مْتُوكَّة، وقبيلةِ أَوْلاَد أَبِي السَّبَاعِ على قائِدَيْهِمَا المُنَصَّبَيْنِ مِنْ قِبَلِهِ، وكِسْوَةُ التَّعيينِ لَمْ تُدفَّئْ بعدُ كَتِفَيْهِمَا.

ثانياً: نَصِيبُ بعض قبائِلِ شيشاوة مِنَ التَّمَرُّدِ:

وعن نصيبِ سِبَاعِيِّي شِيشَاوَةَ مِنَ المَسؤُولِيَّةِ في التَّمرُّدِ والفوضى يتحدثُ الأستاذُ الكُفْنانِي في أُطروحَتِهِ عن مُلاقاةِ القَائِدِ بَنْ بَلْعِيد لِعِصْيَانٍ عَنِيفٍ، آلَ إلى نُشُوبِ قِتَالٍ لَمْ يَنْتَهِ إِلاَّ بِفِرَارِ القائِدِ المَذكور، والْتِحَاقِهِ بِفَاسَ بالسُّلْطَانِ الَّذي نَصَّبَهُ. في حين أَضْرَمَ المُتَمَرِّدونَ السِّباعِيُّونَ النِّيرَانَ في

---

[1] – محمد ابن ابراهيم السباعي "البستان الجامع" ص73.

[2] – المصدر السَّابق، الصَّفحة نفسُها.

عْزِيب القَائد، وَأَفْنَوْا كُلَّ مَنْ كانوا فيه. ولَمَّا تَدَخَّلَ القائِدُ عُمَرُ المْتُوكِّي لِتَدَارُكِ المَوْقِفِ طَرَدُوهُ من قَبِيلَتِهِمْ، إلى أن بَلَغَ الحدودَ بين مْتُوكَّة والقبيلةِ السِّباعيَّةِ: *"فَسَلَبُوهُ جَمِيعَ ما كان مَعَهُ."* [1] وعن تَمَادِي السِّباعيِّينَ في تَمَرُّدِهِمْ في المَجالاَتِ الشِّيشاوِيَّةِ يُحَدِّثُنا النَّاصري قائلاً: *"وكانُوا، أي السِّباعِيُّونَ، قد عاثُوا في ذلكَ الحَوْزِ على عادَتِهِمْ، وعَظُمَ ضَرَرُهُمْ، واستطَارَتْ شُرُورُهُمْ؛ وخَرَجُوا على عَامِلِهِمُ السَّيِّد عَبْد الله بْنُ بَلْعيد، وصَالُوا على القَائِدِ أبي حَفْصٍ عُمَرَ المْتُوكِّي..."* [2] ولَمْ يَجِدِ السُّلطانُ المولى الحسَنُ الأَوَّلُ بُدّاً مِنْ تَسْخِيرِ قِوَى أُخرى للضَّرْبِ بِعُنْفٍ على رُؤوس الفِتْنَةِ. ولِذلكَ الغَرَضِ سَخَّرَ قبيلةَ مْزُوضَة لِنَهْبِ جِيرَانِهِمُ السِّبَاعِيِّينَ. وفِي ذلك يُدرِجُ الأستاذُ الكُفنانِي رسالةً وجَّهها السُّلطانُ المولى الحسنُ إلى أخيه يقول فيها: *"الأَعَزُّ الأَرْضَى مَوْلاَيْ عُثْمان... وبعد؛ فقد وَجَّهْنَا حَامِلَهُ نَحْدِيمَنَا القَائِدُ عَلِّي المْزُوضِي بِقَصْدِ الوُقوف على ما قَدَّمناهُ لَكَ مِنْ جَمْعِ الحَرْكَةِ لِحَزْبِ الفَسَادِ أَوْلاَدِ أَبِي السَّبُعِ، ومَنْ شَايَعَهُمْ، والسَّعْيِ فِي فَلِّ حِزْبِهِمْ، وتَمْزِيقِ شَمْلِهِمْ، فلاَ بُدَّ تُفَاوِضَ مَعَهُ، وساعِدْهُ فيما يُشيرُ عَلَيْكَ بِهِ، والسَّلاَمُ."* [3] يُلاحَظُ حِرْصٌ شَدِيدٌ من لَدُنِ السُّلطانِ من خِلال الصِّياغة التي اعْتَمَدَهَا في خطابِهِ لأخيه، والمُعتمدةِ على الاخْتِصَارِ، والتَّذكير المُتَعَاقِبِ، عِوَضَ الإطنابِ،

---

[1] – م الحسن الكفناني "قبيلة أولاد أبي السباع في ق19م"، من خلال رسالة السلطان الحسن الأول إلى أخيه مولاى عثمان، بتاريخ 6 رمضان 1290هـ (1873/10/28م) 3 خ.م الرباط.

[2] – الناصرى "الاستقصا" ج9 ص148.

[3] – رسالة مؤرخة ب 22 قعدة 1290هـ (يناير 1874) 3 خ، ح.

والسَّجْعِ المألُوفَيْنِ في الرَّسائِلِ السُّلطانيَّةِ. لعلَّ ذلكَ راجِعٌ إلى رَغبةٍ تَقُضُّ مَضْجَعَ السُّلطان في كَسْرِ شوْكَةِ التَّمرُّدِ.

وقد وظَّف القائدُ عُمَرُ المْتُوكِّي كُلَّ طاقاتِهِ، ودَهائِهِ كَيْ يُسَخِّرَ التَّناقضاتِ، التي كانتِ القبائِلُ السَّهْلِيَّةُ، والجَبَلِيَّةُ في شيشاوَةَ تَتَخَبَّطُ فيها. فرأى في رَفْضِ قائِدِ تِنْمَل الكُنْدَافِي الدُّخُولَ في دائِرَةِ حُكْمِ أَحْمَدْ أَمَّالْك، بَاشَا السُّلطانِ على القَصَبَة بِمُرَّاكُشَ، وما ترتَّب عن ذلكَ مِنِ اتِّهام البَاشَا للقائِدِ الكُنْدَافِي بالحَنِينِ إلى استِرجاع نُفوذ المُوحِّدينَ، الَّذين كانوا قَدِ اتَّخذوا تِنْمَل مُنطَلَقاً لِحَرَكَاتِهِمْ، ودَعْوَتِهِمْ منذ (ق6هـ/ 12م)، ومُحاوَلَةِ استقلالِهِ بالمنطَقَةِ، وفَصْلِهَا عَنِ المَخْزَنِ المغربِي. غيرَ أَنَّ الباشا المَذْكُورَ، وَإِنْ تَوفَّقَ في اسْتِنْفَارِ العامَّةِ لِرَدْعِ الكُنْدَافِي، وتَهْيِيجِ المَخْزَنِ ضِدَّهُ، فَإِنَّ هذا الأخيرَ قد أَظْهَرَ مِنَ الشَّجاعة والبَأْسِ ما أَهَّلاهُ إلى هَزْمِ الجُيوش السُّلطانِيَّةِ مَرَّتَيْنِ مُتتالِيَتَيْنِ.[1] وقد رأى القائِدُ عُمَرُ المْتُوكِّي في هذا الصِّراعِ، فُرصةً لِمُؤازَرَةِ البَاشَا أَحْمَدْ أَمَّالْك، فانْحَاشَ إلى آرائِهِ مُقابِلَ أَنْ يَبْسُطَ نُفوذَهُ على المَجالِ الشِّيشَاوِي، فيما بَعْدُ.

أَمَّا فيما يَخُصُّ السِّباعِيِّينَ، فقد أَقَرَّتِ الرِّوايَةُ الشَّفَوِيَّةُ لِبَارِيتُو لْوِيزْ بِأَنَّهُمُ انْحازُوا إلى صُفوف الكُنْدَافِي، مُحاولين كَسْبَهُ لِجَانِبِهِمْ، واتِّخاذَهُ حليفاً لَهُمْ في مُواجهة مَخاطِرِ المْتُوكِّي.[2] ولَمْ يقتصِرْ عُمَرُ المْتُوكِّي على التَّحالُفِ مع البَاشَا

---

[1] – الناصري "الاستقصا" ج9، ص 146-147.

[2] – باريتو لويز مصدر سابق ص37، أنظر ص154 من الأطروحة السَّابقة للكُفْناني.

أَمَّالْك، وإِنَّما تعدَّى ذلك إلى التَّكثيفِ مِنَ الرَّسائِلِ التي كان يَرفَعُها باستمرارٍ إلى السُّلطانِ بفاس، مُستغِلاًّ أَيَّ خَطَإٍ، أَوْ حَدَثٍ يَتَسَبَّبُ فيه أعداؤُه السِّباعيون في شيشَاوَةَ. ولَمَّا علِم بِعَزْمِ السُّلطان المَوْلَى الحَسَنِ على توجيهِهِ لِحمْلةٍ إلى قبائل بَنِي يَزْنَاسَنْ في شرقِ المغرب، لأجلِ تأديبِهِمْ، أرسل مَجموعةً مِنَ الرَّسائِلِ إلى السُّلطان أَوْهَمَهُ فيها بِرَغْبَةِ قبائِلِ الحَوْزِ كُلِّهِ في التَّواطُأِ ضِدَّ السُّلْطَانِ، وَعَزْمِهِمْ على مُبَايَعَةِ عَمِّهِ مَوْلاَيْ عْلِي عِوَضاً عنه. ونَفَثَ في ذلكَ المكائِدَ، بِأَنْ جعلَ طَيَّ خِطَابَاتِهِ المُوجَّهَةِ إلى السُّلطانِ، شهادَاتِ بعضِ القُوَّادِ عَضَّدَ بِوَسَاطَتِها مَزَاعِمَهُ.

وَعَنِ انطِلاَءِ حَبَائِلِ الحِيَلِ المَنْسوجَةِ من لَدُنِ المُتوكِّي على السُّلطانِ المولَى الحَسَنِ، يقولُ السِّباعي: *"فَأَوْغَرُوا صَدْرَهُ، وَظَنَّ صِدْقَهُمْ، فَرَجَعَ عَنْ عَزْمِهِ، وَحَشَدَ جُيُوشَهُ مُتَوَجِّهاً لِمَرَاكُشَ يَطْوِي بِهَا البِيدَ طَيّاً"* [1] وبِذَلِكَ أَعطى السُّلطانُ المولَى الحَسَنُ الأَوَّلُ الأَوْلَوِيَّةَ إِلَى إِخْضَاعِ قبائِلِ الحَوْزِ، وعَدَلَ عَنِ التَّوَجُّهِ إلى الشَّرْقِ لِكَسْرِ شَوْكَةِ بَنِي يَزْنَاسَنْ.

ثالِثاً: ردودُ فعلِ السُّلطانِ الحَسَنِ الأَوَّلِ:

غادر السُّلطانُ المولَى الحسن الأَوَّل مَدينَةَ فاسَ في مُنْتَصَفِ شهر رمضانَ (1292هـ/ 1877م). وقبلَ أن يَصِلَ إلى الحَوْزِ عَرَّجَ نَحوَ الرْحَامْنَة فَأَغَارَ على سُكَّانِهَا، وأَخْضَعَهُمْ للتَّأديب، ثُمَّ فرضَ عليهِمُ الجِبَايَاتِ التي

[1] – المصدر السابق ص108.

أَثْقَلَتْ كاهِلَهُمْ، وَأَوْهَنَتْ مِنْ تَعَنُّتِهِمْ وَطَيْشِهِمْ. وقَدْ تَحَمَّلُوا مُؤَنَ الجُيُوشِ السُّلطانِيَّةِ التي لَمْ تَقُمْ عَنْهُمْ -على حَدِّ قولِ النَّاصِري- حتَّى تقدَّم للشَّفَاعَةِ فِيهِمْ أَعْيَانُ مُرَّاكُشَ وشُرَفَاؤُهَا.[1] ومِنْ زَاوِيَّةِ ابْنِ سَاسِي، القريبَةِ مِنْ مُرَّاكُشَ، ومَقَرِّ رَبْطِ مَحَلَّةِ السُّلطانِ، كَتَبَ هذا الأخيرُ إلى قبيلةِ أَوْلاَدِ أَبِي السِّبَاعِ في شِيشَاوَةَ، أَنْ يَسْتَنْفِرُوا لَهُ المُقاتِلِينَ استعداداً لِلزَّحْفِ على الكُنْدَافِي. فَأَحْرَجَ ذلِكَ المَوْقِفُ السِّباعِيِّينَ؛ وبعدَ تَرَدُّدٍ وحَيْرَةٍ امْتَثَلُوا للأَوامِرِ، فتوجَّهُوا إلى مُرَّاكُشَ حيثُ رَبَطُوا قُبَالَةَ بَابِ الرُّب. ويُلخِّصُ لنا النَّاصِري المَشْهَدَ الكَاشِفَ لِتَصَرُّفِ السُّلطان الحسنِ الأَوَّلِ حُيَالَ المُقاتلينَ المُسْتَنْفَرِينَ مِنْ خِيرَةِ شُبَّانِ أَوْلاَدِ أَبِي السِّبَاعِ قائلاً: *"جاءَ أَوْلاَدُ أَبِي السِّبَاعِ العَرْضَ، فَلَمَّا تَوَسَّطُوا المِشْوَرَ المَذْكُورَ أُغْلِقَتِ الأَبْوَابُ. وَقُبِضَ عَلَيْهِمْ، وَجُرِّدُوا مِنَ السِّلاَحِ، وحُمِلُوا إِلَى السِّجْنِ، وكَانُوا مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ... ثُمَّ وَجَّهَ السُّلْطَانُ أَعَزَّهُ اللهُ، إِلَى حُلَّتِهِمْ*، أي مُقامِهِم في شيشاوة، *القَائِدَ العَرْبِي الرَّحْمَانِي مَعَ كَتِيبَةٍ مِنَ الجَيْشِ، فَنَزَلُوا عَلَيْهِمْ، وَأَغْرَمَهُمْ سِتِّينَ أَلْفَ رِيَالٍ. فَأَدَّوهَا فِي الحَالِ، بَعْدَ بَيْعِ مَاشِيَتِهِمْ بِأَبْخَسِ ثَمَنٍ. وَحِينَئِذٍ بَعَثَ السُّلْطَانُ إِلَى عَامِلِهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ بَلْعِيد، فَاسْتَدْعَاهُ مِنْ فَاسَ، وَقَدِمَ وَوَلاَّهُ عَلَيْهِمْ، فَاطْمَأَنُّوا وَأَطَاعُوا"*[2] وهُناكَ شَهادَةٌ أُخرى تُفِيدُ أَنَّ شِيشَاوَةَ كانتْ على جانبٍ كبيرٍ مِنَ الخطورَةِ بسببِ نَعْرَةِ قبائِلِهَا؛ إلى درجةِ أَنْ يَعْدِلَ السُّلطانُ

[1] – الناصرى "الاستقصا" ج9، ص147-148.

[2] - المرجع نفسهُ، ج9 ص148.

عَنْ حَرْكَةٍ كان قد أَعَدَّ لَهَا الجُيُوشَ للزَّحفِ على بَنِي يَزْنَاسَنْ في الشَّرْقِ، فيُغَيِّرَ الوِجْهَةَ لِيُوَجِّهَ الحَرْكَةَ نفسَها إلى شِيشَاوَةَ. والشَّهادَةُ هي لِصَاحِبِ البُستان الجامع إذ يقول: *"فَوُقُوعُ الأَمْرِ الَّذي ليسَ له مِنْ دَافِعٍ، أَنَّ مولانا السُّلطانُ المُؤَيَّدُ مَا ثَنى عِنَانَ عَزْمِهِ عَنْ شَأْنِ القَضِيَّةِ اليَزْنَاسِيَّةِ إلاَّ لإِخْمَادِ فِتْنَةِ أَوْلاَدِ أَبِي السِّبَاعِ مَعَ جِيرَانِهِمْ لَيْسَ إلاَّ. وَلَوْلاَ ضَيْقُ الزَّمَانِ، وضَيْقُ الصَّدْرِ بِمَا تَرَاكَمَ؛ لَوْ تَوَسَّعَ في الفَحْصِ وَاتِّبَاعِ القَرَائِنِ لَعَلِمَ يَقِيناً، أَنَّ جُلَّ مَا تَوَاطَأَ عَلَيْهِ العُمَّالُ الوَاشُونَ بِهِ مَحْضُ افْتِرَاءٍ مَا فيهِ مِنْ مِرَاءٍ..."*[1]

وعلى العُموم، فقد تفاقَمَتْ ظاهِرَةُ الهِجرةِ في المغرب كُلِّه، واتَّسع مَجالُها خِلاَلَ القرن التَّاسِعِ عَشَرَ الميلاَدِي؛ سِيَما بعدَ وفاة السُّلطان مَوْلاَيَ الحَسَنِ. إِذْ كانتِ الجُمُوعُ مِنَ القبائِلِ تَفِرُّ من مَجالاتِها الأَصلِيَّةِ، فَتَتِيهُ في الأرضِ تَمَلُّصاً مِنَ الضَّرائِبِ التي أَثْقَلَتْ كَاهِلَهُمْ، وإِعْرَاضاً عَنْ تَأْدِيَةِ الكُلَفِ والجِبَايَاتِ.[2] والواقِعُ أَنَّ شِيشَاوَةَ لَمْ تَكُنْ تُشَكِّلُ شُذُوذاً، أَوِ اسْتِثْنَاءً عَنْ تلكَ القاعِدَةِ؛ إِذْ عرفَت هِيَ الأُخرى، هِجرةَ قبيلَةِ سَكْسَاوَةَ إلى السُّهول الشَّمالِيَّةِ، وكذا السَّاحِلِيَّةِ. وهو ما أَكَّدَ عليْهِ جَاكْ بِيرْك، مِنْ أَنَّ أَرْبَعَةَ سَكْسِيوِيِّينَ مِنْ سِتِّينَ، استقرُّوا في القبيلَةِ السِّباعِيَّةِ.

---

[1] - "البستان الجامع"، ص95.

[2] – محمد المنوني "مظاهر يقظة المغرب الحديث" مط الأمنية، الرباط 1973 ج1 ص76-77.

الباب السَّابع

إسْهامَاتُ الدَّوابِّ في الحياة اليَومِيَّةِ لِشِيشَاوَةَ

الفصل الأوَّلُ:

فسحُ المجالِ لِتَقْدِيمِ الحيوانات المُقتَرَحَةِ

الفصل الثَّاني :

صمودُ شيشاوة في وجهِ النِّسيان

الفصل الثَّالِثُ:

حركة الدَّوابِّ وسط حركةِ النَّاسِ في شيشاوة

الفصل الرَّابِعُ:

مُثَابَرَةُ الدَّوابِّ والتَّرخيص لِلمُرُور

الفصل الأوَّلُ

فسحُ المَجَالِ لِتقدِيمِ الحيوانات المُقتَرَحَةِ

أوَّلاً: عودٌ على بَدْءٍ:

يبدو أَنَّ الدَّوافِعَ التي تَحكَّمت في اهْتمامِنَا بالمِحوَرِ المُعَنْوَنِ أمامَكُمْ قد جاءت نتيجةَ تراكُم مَجموعةٍ مِنَ القَنَاعَاتِ المُلِحَّةِ؛ نُدرِجُهَا فيما يلي. أوَّلاً: لابُدَّ أن نُشير إلى شِبْهِ غِيَابٍ لِمِثْلِ هذه المَوضُوعاتِ، التي اهتمَّت بالدَّوابِّ اهتِماماً اقتِصادِيّاً داخِلَ إطارٍ تاريخِيٍّ في كِتاباتِنَا، وبُحوثِنا المَحَلِّيَّةِ؛ خُصُوصاً تلكَ التي اختارت أسلوبَ البَحْثِ المُنْغَرِافِي. ثانياً: لَمسنَا أيضاً، أَنَّ شِيشَاوَةَ تُقَدِّمُ لنا مَشْهَداً فريداً للدَّوابِّ في علاقاتِها مع حركَةِ بعض العناصِر البشرِيَّةِ، ومع مُعطياتٍ طبيعيَّةٍ، ومادِّيَةٍ. ثالثاً: لاحَظْنا أَنَّ شِيشَاوَةَ، وإِنْ حَظِيَتْ بِمَرتبَةِ عَمَالَةٍ عِوَضَ تَبَعِيَّتِهَا لِمُرَاكُش، كَقِيَادَةٍ على مُستوى التَّقْسيمِ الإداري السَّابِقِ، فإنَّها لَمْ تتخلَّصْ بَعْدُ، من كُلِّ الملامِحِ التي تُضفي عليْها صِفَةَ البَادِيَّةِ. فما هي حُظُوظُهَا في التَّوسُّعِ والارْتِقَاءِ إلى مَرتبَةِ المدينة؟ مِنَ المعلوم أَنَّ أغلبَ المُدُنِ الكُبرى في المغرب، لَمْ تبدأ فِي التَّوسُّع إلاَّ مع بِدَايَةِ (ق13هـ/ 19م)؛ نتيجةَ الاِتِّصالِ التِّجاري المُتواصِلِ مع أوربَّا. في هذا الباب، يُسعِفُنا رائدٌ من رُوَّادِ كِتابَةِ الحَوْلِيَّاتِ في حقْلِ التَّارِيخِ بفرنسا، بِمَعلوماتٍ قائلاً: *"كَانَتِ السَّواحِلُ دائماً تُشَكِّلُ الطُّرُقَ الرَّئِيسَةَ، في حين*

"يبقى ما بِدَاخِلِ بُلْدَانِ البَحْرِ المُتَوَسِّطِ فارغاً، لا يكادُ يَتعدَّى بعضَ المَسالِكِ ذَاتِ مَرْدُودٍ أَقَلَّ مِنَ الَّذي علَيْهِ طُرُقُ السَّواحِلِ. وبِرَغْمِ ذلكَ، تُوجَدُ في الدَّاخِلِ مُدُنٌ عَتيقَةٌ كَبيرَةٌ، تُعْتَبَرُ مَحَطَّاتٍ رَئيسَةٍ لأَهَمِّ الطُّرُقِ التِّجارِيَّةِ، نتيجةَ اعْتِيادِ التُّجَّارِ على حَطِّ الرِّحَالِ فيها، منذُ زَمَنٍ." [1] ففي المغربِ مثلاً، والَّذي يُعَدُّ بَلَداً مُهِمّاً في الضِّفَّةِ الجنوبيَّةِ للبحر الأبيض المتوسِّطِ، فَإِنَّ الأمرَ ينطبِقُ على كُلٍّ من فَاسَ، ومُرَّاكُشَ، ومَكْنَاسَ؛ وهي العواصِمُ التي خلَّف فيها تاريخُها شبكاتٍ هامَّةٍ مِنَ الطُّرُقِ، والمَمَرَّاتِ، والمَسالِكِ.

وعن شِيشَاوَةَ، موضُوعُ بَحْثِنَا هذا فهي، وإِنْ لَمْ تَحْظَ بِتَبَوُّءِ مَكانة العاصِمة في زَمَنِ أَيِّ دولةٍ مِنَ الدُّوَلِ التي تعاقَبَتْ على حُكْمِ المغرب؛ فَإِنَّ مَوْضِعَهَا لا يَخلو من أَهَمِّيَةٍ، بِرَغْمِ مجموعةٍ مِنَ السَّلبيَّاتِ تتمثَّل في ما يلي:

- كونُها تَتَمَوْضَعُ خارِجَ الخَطِّ الطُّولِي المُتَحَكِّمِ، في مِحْوَرِ فَاسَ مُرَّاكُشَ، أَوِ الأطلسِ المُتَوَسِّطِ.

- كونُها لَمْ تستَمِلِ المرابطينَ لأَنْ يَختاروها مَوْضِعاً يُشيِّدون فوقَهُ عاصِمَتَهُمْ بِمِثْلِ ما اسْتَمالَتْهُمْ به مُرَّاكُشُ، على الرَّغْمِ مِنْ توفُّرِها على مُعطياتٍ طبيعِيَّةٍ تُؤَهِلُها إلى تِلْكَ المَرْتَبَةِ.

مَكَّنَتْنَا الفترةُ الواقِعةُ بين الأَلْفِيَّةِ الثَّانِيَّةِ قبل الميلاد والقرن السَّابِعِ الميلادي من أَنْ نُسجِّلَ إِمْسَاكَ أَكْثَرِ الدِّراسات المتطرِّقَةِ لِهذه الفترة، عَنِ

1 - Fernand « la Méditerranée et le Monde Méditeranéen à l'époque de Philip II » Tome I ville Paris 1985 page 184.

الاهتمام بِشِيشَاوَةَ. ولِسَدِّ هذا الفَراغ لَمْ نَجِدْ بُدّاً مِن استعراض بعضِ نتائِجِ البحوثِ التي اهتمَّت بالمغرب كَكُلٍّ، في مُحاوَلَةٍ للإسقاطِ غيرِ المُبالَغِ فيه. وعَنِ الفترة المذكورةِ، يُحدِّثُنا الباحثُ المغربي عبدُ الله العَرْوِي قائلاً: *"استَقَرت، خلالَها بالمغربِ وتسرَّبتْ داخلَ أراضيهِ، أفواجٌ مِنَ الفينيقيِّينَ، واليُونان، والرُّومان، والوِندال."* [1] وقَدِ اسْتَنَدْنَا على ضَوْءِ هذا القوْلِ، على افتِراضاتٍ قدَّمَها الباحِثُ الأَرْخِيُولُوجِي الفرنسي بُولْ بِيرْتِيي، عِندما كان بِصَدَدِ حَفرِيَّاتِهِ المُتعلِّقة بِمَعاصِرِ السُّكَّرِ الشِّيشاوِيَّةِ؛ خَلُصَ فيها إلى الإعلانِ عن عُثُورِهِ على بعضِ المُخلَّفاتِ الأَثَرِيَّةِ في واحِدَةٍ مِنَ الدَّارَيْنِ القديمَتَيْنِ، المُحاذِيَتَيْنِ للمَعْصَرَتيْنِ،[2] إمَّا أَنَّها تعود –على حَدِّ قولِه– إلى فترةِ الوجود الرُّومَانِي في المَغرِبِ، أو أَنَّ مُخَلِّفيها كانوا قد تَأَثَّرُوا بالفَنِّ الرُّومانِي فشَيَّدُوا على نُولِهِ. والمُخلَّفاتُ عِبارةٌ عن: *"سُقُفٍ، وأَشْكَالِ مِدْخَناتٍ كانت مُخَصَّصَةً لِتَصْرِيفِ الدُّخَانِ، وكذلِكَ على بعضِ الأَثْوابِ..."* [3]

لكن، إذا كانت أكثرُ الدِّراساتِ المَحَلِّيَةِ المُتعلِّقَةِ بالتَّاريخ المَغْرِبِي القديم تُؤَكِّدُ على أَنَّ السَّيْطَرَةَ الرُّومانِيَّةَ على المغرب لَمْ تتعدَّ المُثَلَّثَ الواقِعَ بين (سلاَ، طنجةَ ومَكناسَ)، فإلى أَيِّ حَدٍّ يبقى المُتَشبِّثُونَ بِتحديدِ هذا المُثَلَّثِ

---

[1] – عبد الله العروى، "تاريخ المغرب محاولة في التَّركيب".

[2] - للإشارة، فقد عثر "بول بيرتيي" على مُخلَّفاتِ بِنايَتَيْنِ، سَمَّى إحداهُما: دار الزَّياتين؛ وسَمَّى الأُخرى: دار السَّهلِ.

[3] – Paul Berthier « En Marge des sucreries Marocaines : La maison de la pleine et la maison des oliviers àChichaoua » H.T 1962 Vol III Fase I pp75-77.

على صوابٍ؟ هَلِ الأمرُ يتعلَّقُ بالحدود التي وضعها الرُّومانُ لابتزاز خيرات المغربِ آنذاك؟ لا بُدَّ لنا من أن نُذكِّرَ هُنا، بِإشارة المؤرِّخِ الرُّوماني بْلِين الشَّيخ إلى رحلة رومانِيَّيْنِ باتِّجاه الجنوب المغربي وهُما: سِيتُونْيُوسْ بُولِينْيُوسْ ودُوسُوديُوسْ جِيتَا؛ فهل بَلَغَا بِرِحْلَتِهِمَا إلى مَجالاتِ شيشاوةَ، أو أنَّهُما مَرَّا بِمُحاذاتِها؟ على أَنَّ الحَسَنَ بْنَ محمَّدٍ الوَزَّانَ يذهبُ إلى القولِ: إنَّ سِجِلْمَاسَّةَ قد شُيِّدَتْ مِنْ لَدُنِ قُبطانٍ رُوماني تَخليداً لِمَا ترك هذان الرُّومَانِيَّيْنِ المَذكوريْنِ. يَجِبُ أن لا ننسى أَنَّ سِجِلْمَاسَّةَ تُوجدُ على مَسافَةٍ بعيدةٍ من شِيشَاوَةَ. وعليه، نتساءلُ من جديدٍ، هَلِ الرُّومانُ –على حَدِّ قول الوَزَّانِ– قد تَجاوَزُوا شِيشَاوَةَ لِيَصِلُوا إلى سِجِلْمَاسَّةَ؟ نشير هنا إلى أَنَّ سِجِلْمَاسَّةَ قد رُمِّمَتْ فيما بَعْدُ، من لَدُنِ بَرَابِرَ مِنَ الخوارِجِ الصُّفْرِيَّةِ عامَ (140هـ/ 757م)، على يَدِ زَعيمِهِمْ عِيسَى بْنُ يَزِيدِ الأَسْوَدِ.

وتَعْتَرِضُنَا هنا مُلاحظةٌ، تتمثَّلُ في ما أَفْصَحَتْ عنه حَفْرِيَّاتُ دِيسْ جَاك وَبُول كُوبَرْلِي، في الصَّويرة (مُوكَادُورْ القديمة). كانت لِهذه الحفرياتِ نتائِجُ تَمَثَّلَتْ في العُثور على مُخَلَّفاتٍ رومانِيَّةٍ بالجزيرة المقابِلَةِ لِشاطئ الصَّويرة، يرجع تاريخُها إلى ما بين القرن الأوَّلِ قبل الميلاد والقرنِ الثَّانِي بعده. فهل كان للوجود الرُّوماني في الصَّويرة تَوَغُّلٌ نحوَ الشَّرقِ، أي في اتِّجاه شِيشَاوَةَ؟ يَجب أن نضع في الاعتبار أَنَّ شيشاوةَ لا تبعدُ عَنِ الصَّويرة إلا بِمائةِ كلم؛ وهي مَسافةٌ كان الرُّومانُ، على بَساطة مَطاياهُم، يقطعونَها في

ظرف ثلاثة أيّام. وعن ورثةِ الرُّومان في المَغربِ، يُسْعِفُنا الباحِثُ عبدُ الله العروي بِمَعلوماتٍ، إذ يقول: *"كان الوِنْدالُ بالفِعْلِ، بِزَعامَةِ جِيزْرِيشْ (429م-477م)، الَّذي اجتازَ مَضْيقَ البُوغازِ عامَ (429م)، يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَرَثَةَ الرُّومِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. لَمْ يَتَخَطَّوْا حُدودَ أفريقيا الرُّومانيَّةِ، ولَمْ يُغَيِّروا شيئاً من تنظيماتِها."* [1] أمَّا الجيشُ البيزنطي، يُضيفُ الباحِثُ نفسُهُ، فَقَدِ: *"اجتازَ البَحْرَ عامَ (533م)، وانتصَرَ انتِصاراً لَمْ يَكُنْ يتوقَّعُهُ حتَّى قائِدُهُ بْليزَار...حصلَ أثناءَ هذا الغزوِ ما حصَلَ أثناءَ الغزوِ الوِنْدالِي؛ حَلَّ الغالِبُ، البِيزَنْطِيُّونَ، مَحَلَّ المَغلوبِ، الوِنْدَالُ، في ضيْعَتِهِ، وبين أزواجِهِ، وخَدَمِهِ"* [2].

وتأتِي فترةُ التَّوسُّع الإسلامي لِتُسَجِّلَ تَوَغُّلَ المسلمين في المغرب، ومنه في شيشاوةَ، بالدِّينِ الإسلامي، وباللُّغَةِ، وبالتَّقاليد، والعادات. فقد حَطَّ عُقبةُ بْنُ نافِعٍ الرِّحالَ في مدينة نَفِّيس، غير بَعيدٍ عن شيشاوةَ؛ غيرَ أَنَّ نَفِّيسَ أَعْيَتِ الأَرْخِيُولُوجِيِّينَ مِنْ كثرةِ البَحث عن أنقاضِها، فلم يَستطيعوا للكشف عنها سبيلاً. ويُخْبِرُنَا البكري أَنَّ نَفِّيس كانت تُدافِعُ عن نَفْسِهَا بِوَساطَةِ الرُّومِ. ونأبَى إلاَّ أن نُعزِّزَ خَبَرَ البَكْرِي بِقَوْلِ العَرْوِي إذ يُسَجِّلُ: *"عندما استجابَ الجيرانُ الجنوبيُّونَ للرُّوم، أي العَرَبُ، إلى دَعوَة الإسلام، وتوحَّدوا في نِطاقِ دولةٍ فَتِيَّةٍ، وخرجوا مِنَ الجزيرة، فإنَّهُم انتظموا،*

---

[1] - عبد الله العروي: "مُجمَلُ تاريخِ المَغرِبِ" ص 106.

[2] - المَرجِعُ نفسُهُ: ص107.

بِدَوْرِهِمْ، في سِلْكِ الوَرَثَةِ. دخلوا المغربَ بِصِفَتِهِمْ فاتحِينَ، مُنتصِرينَ على الرُّوم، وخلائِفِهِمْ، على ما بأَيْدِيهِمْ. تَحَكَّمَ من جديدٍ، مَنْطِقُ الوِرَاثَةِ في مَجرى الأحداثِ، فاضطَرَّ العربُ، بعد المُمارَسَةِ، إلى تقليدِ سِياسةِ الرُّومِ، وواجَهوا الصُّعوباتِ نفسِها." [1]

ثانِياً: تقديمُ الحيوانات المُقترَحَة:

الحِمَارُ: لا نريدُ هنا أن نَقتفِيَ آثارَ هذا النَّوع مِنَ الدَّواب، ولا تَحديدَ الفصائِلِ التي انحدر منها؛ لأَنَّ ذلك لا يَخلو من مَشاكِلَ. ولا نستطِيعُ أيضاً، أن نُحدِّدَ بدايةَ وُجُودِهِ هنا، في الحَوْزِ، وفي شيشاوةَ زمانِياً. لكنَّ ذلك لن يَمْنَعَنَا من أن نُلاحِظَ أَنَّ التُّرابَ الشِّيشاوِي –انطلاقاً مِنَ المَركَزِ الإداري– يُعتبَرُ في مُجمَلِهِ سَهْلِيّاً، فيما لا يَعْتَرِضُ الارتِفاعُ السَّائِحَ فيهِ إلاَّ ابتداءً مِنْ إيمِي نْ تَانُوت.

نُلفتُ النَّظَرَ أيضاً، إلى أَنَّ الحيوانَ الَّذي سجَّل حُضوراً كبيراً داخل المجالَيْنِ، خُصُوصاً المجالَ السَّهلي هُوَ الحمارُ، فيما حضر البَغْلُ في المُرتَفَعاتِ الأشدِّ مَناعةً عنِ الحِمار. وهو مَطِيَّةٌ معْرُوفَةٌ بِتَطَوُّعِها للمُهِمَّاتِ الجِسامِ، مَعروفٌ كذلكَ، بِمُقاومةٍ كبيرةٍ، وبِتَحمُّلٍ شديدٍ، وإن كان يظهر على عِنادٍ

---

[1] - المَرجِعُ نفسُهُ: ص108. للإشارة فإنَّ الباحثَ نفسَهُ يذكِّرُنا بالقول: إنَّ الذين تعاقَبُوا على حُكْمِ المغرب، بعد الرُّومان هُمْ: الوِنْدالُ من: (529م-533م)؛ ثُمَّ البِيزَنْطِيُّونَ من: (533م-649م)؛ ثُمَّ العربُ من: (649 إلى ثورةِ الخوارِجِ عامَ 741م).

غريبٍ في بعضِ الأحيان. قادرٌ على أن يَشُقَّ مَسلَكَهُ بين أَذْرُعِ النَّاس، ومَناكِبِهِم. لا يُمكنُ لِسُكَّانِ شيشاوةَ أَنْ يَستَغْنُوا عن خَدماتِهِ بِأَيِّ حالٍ مِنَ الأَحْوَالِ؛ يَحمِلُ داخِلَ خُرْجَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ: مَوَادَّ البِنَاءِ، فَوَاكِهَ، خُضَراً، لُحُومَ المَجاسِرِ، تِبْناً، نباتاً، وأيضاً الإنسان. يَحْمِلُ كُلَّ ذلكَ من خارِجِ شيشاوة إِلَيْهَا. كما أَنَّه يحمل النُّفايات، والمهملات، والقادورات خارجَها. ولنا هُنَا، أن نَقِيسَ على إشارَةٍ لابْنِ عبدِ الرَّؤُوفِ بِوُجُودِ هذا الأُسلوبِ في الأندلس، في أَيَّامِ حُكْمِ الموحِّدينَ، في (ق6هـ/ 12م) إذ يقولُ: *"يُمْنَعُ القَرَّانُونَ من حَرْقِ ما يُحتَطَبُ مِنَ الأَزِقَّةِ، والمَواضِعِ القَذِرَةِ، التي لا تؤَمَّنُ من نَجاسَتِها وإضرارِها بالمَطبوخِ."* [1] وقد يَتعذَّرُ بدونِ الحِمارِ، نَقْلُ أشياءَ كثيرةٍ، وقد يتعطَّلُ في غِيابِهِ، التَّواصُلُ بين مجموعةٍ مِنَ المُنتجين والمُستهلكين. وبِرَغْمِ كُلِّ ذلكَ، فَهُوَ مَهضُومُ الحقوقِ.

الجَمَلُ: تَتَّفِقُ الأُطروحاتُ المُقَدَّمَةُ من لَدُنِ الأجانب على ما يلي:

- بالنسبة إلى سْتِيفَان كْزِيل،[2] يرى أَنَّ الرُّومانَ قَدِ اضطرُّوا الأمازيغَ إلى اللُّجوء إلى الجنوب؛ وأَنَّ هؤلاء بدورهم، قد أَرْغَمُوا الأَنْيُوبِيِّينَ على

---

[1] - ابنُ عبد الرَّؤُوف: "ثلاثُ رسائلَ أندلُسيَّة" ص91. "ومن باب الاستئناس فقط، لوحظَ أنَّ موادَ تسخينِ مياه الحَمَّامات في المَدينة العتيقَة في مُرَّاكُش، وإلى عهد قريب؛ كانت تتكوَّنُ، بشكلٍ يكادُ يكونُ كُلِّيّاً، من محروقات مُستَخلَصَة من أزبال المدينة." أنظرْ: الدُّكتور محمَّد رابطَةُ الدِّين "مُرَّاكُشُ زمن الموحِّدين جوانب من تاريخ المَجال والإنسان". ج 2 ص83. المَطبعة والوراقة الوطنية مراكش.

[2] – ST. Gsell « Histoire ancienne de l'Afrique du Nord » T_1 p 40.

التَّوغُّل في الغابات المَطِيرَة. وأنَّ الرُّومانَ كانوا مُدَعَّمِينَ في دفعِهِمْ للبربر، بالقادِمِ الجديد: الجَمَلُ، الذي –حسب كْزِيل– جِيءَ بِهِ إلى المغرب ابتداءً مِنَ (ق1م).

– بالنسبة إلى غُوتْيِي، يرى أَنَّ الرُّومانِي قد عَمِلَ على تعميرِ المغرب بالإنسان والحيوانات، والتي مِنْ بينِها الجَمَلُ الَّذي خَلَّفَ –على حَدِّ قولِهِ– الرُّحَّلَ المُخَرِّبِينَ.

– بالنسبة إلى شَارْل كُورْتْوَا، فهو يَرفُضُ الأُطْرُوحَتَيْنِ مَعاً؛ ويَنفِي غِيَابَ الجَمَلِ عَنِ الصَّحراء المَغْرِبِيَّةِ خِلالَ هذه الفترة.

بالرَّغم مِنْ تَدَاوُلِ هذه الأُطروحاتِ الثَّلاَثِ، لا يُمكِنُنَا أَنْ نَعرف لِماذا اختفى الجَمَلُ مِنَ المنطقة، خلالَ العَصْرِ النْيُولِيتِي؟ هذا إذا كان قَدِ اختفى بالفِعْلِ، ولا في أَيِّ تاريخٍ عَادَ؟ ولا يُمكِنُنا أن نَعْرِفَ أيضاً، الأَعْدَادَ التي عاد بِها. في هذا الباب، نُقَدِّمُ رَأْيَ المُؤَرِّخِ عبدِ الله العَرْوِي إذ يقولُ "*يمكنُ أن يكونَ الجَمَلُ قَدْ وُجِدَ دائماً بِالوَاجِهَةِ الشَّمالِيَّةِ لِلصَّحْرَاءِ، دون أَنْ يَستعْمِلَهُ الرِّجَالُ، وذلك لِمُدَّةٍ طويلةٍ.*"[1] فلنُوَسِّعِ النِّقاشَ أَكْثَرَ، حتَّى نتمَكَّنَ من تقديم الجَمَلِ بِما يَلِيقُ به. في هذه الحالَةِ، نُسَجِّلُ أَنَّهُ مِنَ المَعلوم أَنَّ العالَمَ المُتَوَسِّطِي –حسب كْزَافْيِي دُو بْلاَنْول– قد شَهِدَ تَوَسُّعَيْنِ هائِلَيْنِ: التَّوسُّعُ

1 - Abdallah Laroui: « Histoire du Maghreb un essai de synthèse » François Maspero Paris p 36 .

الأَوَّلُ قَادَهُ الإِنسانُ العربي الفاتِحُ منذ (ق1هـ/ 7م). والتَّوسُّعُ الثَّانِي سُجِّلَ للعُثْمَانِيِّينَ منذ (ق4هـ/ 10م)؛ انطلَقَ مِنَ الصَّحاري البَارِدَةِ في آسْيَا الوُسطى، مُعتمِداً الجَمَلَ ذَا الحَدَبَتَيْنِ كَمَطِيَّةٍ رَئِيسَةٍ. فيما كان التَّوسُّعُ العربِي قَدِ انْطَلَقَ مِنَ الصَّحاري السَّاخِنَةِ، في شِبْهِ الجزيرة العربيَّةِ، مُعتمِداً على الجَمَلِ ذي الحَدَبَةِ الوَاحِدَةِ كَمَطِيَّةٍ.

وعلى العُموم، يتَّضِحُ أَنَّ الحَيَوَانَيْنِ يَخْتَلِفانِ مَعاً، مِنْ حيثُ البَيْئَةِ. وهو ما دفعَ الباحِثَ الكبير فِيرْنَان بْرُودِيل إلى لفتِ الانتباهِ، إلى لَبْسٍ كبيرٍ بِقَوْلِهِ: *"لَقَدِ الْتَبَسَ الأَمْرُ عَلَى الغَرْبِ بِشَكْلٍ لاَ يَشْفَعُ لَهُمْ فيهِ أَيُّ اسْتِسْمَاحٍ. فهذا سَافَارِي في مُعْجَمِهِ التِّجَارِي، الصَّادِرِ سَنَةَ* (1759)، *يُعَرِّفُ* Le Dromadaire *بِأَنَّهُ الجَمَلُ ذُو الحَدَبَتَيْنِ؛ مَعَ العِلْمِ أَنَّ الأَمْرَ يَخْتَلِفُ عن ذلك."* [1] لِماذا؟ لأنَّ الجَمَلَ ذا الحَدَبَتَيْنِ المُسَمَّى Le chameau لا يَخشى البَرْدَ، ولاَ الإِرْتِفَاعَ. فيما الجَمَلُ ذُو الحَدَبَةِ الوَاحِدَةِ، المُتَمَرِّسُ على الصَّحاري السَّاخِنَةِ، والرِّمَالِ اللَّافِحَةِ، لا يَقْوَى على التَّوغُّل في الارتفاعَاتِ، ولا يَتَحَمَّلُ دَرجاتِ الحرارة الدُّنْيَا. إِذْ في اللَّيالِي البارِدَةِ، في الصَّحاري الحارَّةِ، يَضْطَرُّ رَبُّ الجَمَلِ إلى أَنْ يُولِجَ رقَبَةَ مَطِيَّتِهِ في الخَيْمَةِ، ويَتْرُكَ بَقِيَّةَ الجِسْمِ في الخارِجِ، لأَنَّهُ مَكْسُوٌّ بِالوَبَرِ الَّذي يقيهِ لَفْحَ البرْدِ. اتَّخَذَ الإنسانُ العربِي الجَمَلَ ذا الحَدَبَةِ الوَاحِدَةِ، وهو المسمَّى: Le Dromadaire خِلالَ تَوسُّعاتِه في كُلٍّ من إِيرَانَ، والهِنْدَ، وبِلاَدَ

1 -Fernand Braudel "La Méditerannée et Le Monde Mediterranéen à L'épauque de Philippe 2 T Paris 1990, p182.

فَارِسٍ. وهي المناطقُ التي تكونُ غالِباً بارِدَةً في فصلِ الشِّتاء. فإذا كانَتْ هِضَابُ الأنَاضُولِ، وكذا بلادُ فَارِسٍ قَدِ اسْتَعْصَتْ على الفَتْحِ الإسلامي في كَثِيرٍ مِنَ الأحيان، فَإِنَّ ذلكَ راجِعٌ، حسب كُتُبِ الحَوْلِيَّاتِ، إلى ضُعف تَأَقْلُمِ هذه المَطِيَّةِ مع طبيعَةِ تلكَ المناطِقِ القاسِيَّةِ. ويَختصِرُ فيرنان بْروديل رأيَهُ في ذلك إذ يقول: *"لَمْ يَكُنِ الإسلامُ مُرتاحاً في توسُّعه في الهضاب الباردة في بلاد فارس، إلاَّ لِكونِهِ اعتمد مَطِيَّةً غير مُعتادةٍ على تَحمُّلِ البرد القارس"* وهو يعني بذلك الجملَ ذا الحَدَبَةِ الواحدة.

ثالِثاً: حضورُ الجَمَلِ في شيشاوة بين الفتح الإسلامي والمُرابِطين:

لِنَعُدْ إلى شيشاوةَ، فَنُسَجِّل أَنَّ تَوَغُّلَ الفاتِحِينَ المُسْلِمِينَ بِهذه المَطِيَّةِ المُعتادَةِ على الصَّحاري السَّاخِنَةِ في مَجالاتِها قد تَمَّ، لا مَحالَةَ، إِبَّانَ اقْتِحَامِ عُقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ لِمَجالاتِ الحَوْزِ إلى حدودِ نَفِّيس، وغيرِها –على حَدِّ قولِ صاحِبِ "المسالك والممالك"–[1] وقد كان ذلك خلال (62هـ/ 681-682م).

وتأتِي الفترة المرابطية: وخلالَها، نزح المُرابِطِيُّ مِنَ الجنوب الكبير مَصحوباً بالجملِ ذي الحَدَبَةِ الواحِدة. وحَمَلَ معهُ تقالِيدَهُ كي يتمركز بِها في مجالاتِ الحوزِ التي من ضِمنِها شِيشَاوَةُ. وعن ذلك، يُسعفنا صاحبُ "رَوْضِ القِرْطَاسِ" بِمعلوماتٍ يُؤَكِّدُ فيها أَنَّ أبا بَكْرِ بن عُمَرَ اللَّمتونِي قد: *"فَتَحَ أيضاً، بِلادَ رُودَةَ، وفَتَحَ مدينَةَ شيشاوَةَ بالسَّيْفِ، ثُمَّ فتح بِلادَ النَّفِّيس*

[1] – أبو عبيد البكرى "المسالك والممالك".

وسائرِ بِلادِ كَدْمِيوَة، وأَتاهُ قبائِلُ رَجْراجَة وحَاحَّة فَبايَعُوهُ، وارْتَحَلَ إلى مدينةِ اغْمَاتَ." [1] وإذا ما أخذنا بِعَيْنِ الاعتبار أَنَّ الحَوْزَ كان مَفتوحاً للتِّرحال، فَإِنَّهُ قد باتَ كذلِكَ خِلالَ ق13م، قِبْلَةً لِتَوافُدِ قبائِلَ مِنَ الصَّحراءِ المغربيَّةِ، خُصوصاً مِنَ السَّاقِيَّةِ الحمراءِ، وصحراءِ شَنْكِيط في مُورِيتَانْيَا. وقد عُرِفَتْ هذه القبائِلُ بِأَوْلادِ أبِي السِّبَاعِ. أتت هذه القبائِلُ إلى شيشاوة بِخِيامِها، وأَهْلِهَا، وعوائِدِها، وأنعامِها التي ضَمَّتِ الجَمَلَ بِشَكْلٍ لافِتٍ، كما أتت بِماعِزِها وزَرَابِيها. انتشرَتْ، كما أَسْلَفْنَا، في شيشاوةَ على ضِفَّتَيْ وادِيها، في ما عُرِفَ بِتِيغْسْرِيت وبُوجْمَادَى، وأثَّرت بِشَكْلٍ كبيرٍ في أَهْلِ هذه المنطقة. وهو ما جعل دُوتِّي، وهو يَجُوبُ أَطْرَافَ سهلِ الحَوْزِ عامَ 1906م، يُلاحِظُ قائلاً: "في هذهِ اللَّحظة، عَبَرْنَا مَجالاً جَبَلِيّاً يَنْتَشِرُ على طُولِ وادِي إِيمِي نْ تَانُوت، ومَرَرْنَا أَمَامَ مُخَيَّماتٍ للرُّحَّلِ الصَّحراوِيِّينَ، الَّذين أَتَوْا يَنْتَجِعُونَ في هذهِ المَجالاتِ صُحْبَةَ جِمالِهِمْ. فلاحَظْنَا أَنَّ الرِّجالَ والنِّساءَ قد لَبِسُوا الخِنْتَ الأَزْرَقَ. وهُمْ بِدُونِ شَكٍّ، قبائِلُ أَولادِ أَبِي السِّبَاعِ." [2] ما يُعْرَفُ عن هذِه القَبَائِلِ، هُوَ خِبْرَتُهَا الواسِعة في التِّجارة القَوافِلِيَّةِ. فقد تعوَّد السِّباعِيُّونَ على تنظيم قوافِلِ الجِمَالِ، على أَنَّ هذه الأَنعامِ الصَّحراويَّة تَنْقَسِمُ –على حَدِّ قَوْلِ الباحِثِ المغربي الطَّالِبُ بُويَا لَعْتِيكْ- إلى: "المَرْمُورِي والكرِزْنِي؛ فالمَرْمُورِي يَمْتَازُ بِجَمالِ الخِلْقَةِ، ووَفْرَةِ اللَّبَنِ، وقِلَّةِ الصَّبْرِ على التَّحَمُّلِ، خُصُوصاً على

[1] – ابن أبي زرع الفاسي: "الأنيس المطرب بروض القرطاس" الرباط 1973.

[2] – Edmond Doutté « En tribu » Paris librairie Paul Genthner 1914 p244.

الأرضِ الصَّخْرِيَّةِ ذاتِ الأَخاديدِ والجِبالِ الوَعْرَةِ. أَمَّا الكرِزْني، فَيُقالُ إِنَّهُ قويٌّ، وصَبُورٌ على التَّحَمُّلِ، يَمتازُ لَبَنُهُ بالجَوْدَةِ، بِرَغْمِ قِلَّتِهِ، يَنْفَعُ القَصِيلَ (لِحْوَارْ: ابنُ النَّاقَةِ)، ويُكْسِبُهُ صلابَةً وقُوَّةً. ولَهُ خِلْقَةٌ مُتميِّزَةٌ تحتاجُ إلى جَمالٍ، حسب ذَوْقِ أهلِ الصَّحراءِ، كَكِبَرِ الأُذُنَيْنِ والرَّأْسِ، وخُشُونَةِ اللَّوْنِ." [1] يُعتبرون أيضاً، أهلَ مِراسٍ في طَيِّ المسافات الطَّويلة، ويترصَّدون كذلكَ، المسافات القصيرة. كما أنَّهم أهلُ مِراسٍ بِالآبارِ السَّخِيَّةِ بالماءِ، وبالتَّجمُّعات البشريَّة المُحاذِيَّةِ لِبعضِها، والأسواق المُعتَمَدَةِ لأجلِ التَّبادُلِ. وعليه، تَمكَّن سَهلُ الحَوْزِ بِفَضْلِ هذه القبائِلِ، مِنْ أَنْ يُصْبِحَ شريكاً للجبلِ (الأطلس الكبير الغربي).

[1] - الطَّالب بُويا لَعْتيكْ: "شَذَراتٌ مِنَ الأدبِ الحَسَّاني" الصَّادِر سنة 1999 عن مركز طارق بن زيَّاد

الفصل الثَّاني

صمودُ شيشاوة في وجهِ النِّسيان

أوَّلاَ: شيشاوةُ المُقاوِمةُ:

مِنَ المعلوم أَنَّ الحَسَنَ الوَزَّانَ يُعطينا صُوَراً كثيرةَ جِدّاً عن مَظاهِر الدَّمار العُمرانِي، والاقتصادي، والاجتماعي، وكذا النَّفسي، والأَخلاَقِي لِمجموعةٍ مِنَ المُدُنِ، والمداشِرِ، والقُرى في مَغْرِبِ (ق10هـ/ 16م). لكنَّه في المُقابل، يُذَكِّرُ بالمُدُنِ والمَواقِعِ التي لَمْ تَنَلْ مِنها الحُروبُ، ولا المجاعاتُ، ولا الأَوْبِئَةُ بِمِثْلِ ما نالت بِهِ مِنْ غَيرِها. ولَعلَّنا نتمادَى، إذا نَحْنُ أَقْحَمْنَا شِيشَاوَةَ ضِمْنَ المَحطَّاتِ التي صَمَدَت في وَجْهِ التَّفوُّقِ، الَّذي حقَّقتْهُ عليها المُدُنُ المُحيطةُ بِها، وهي المُدُنُ الغَنِيَّةُ بالمجال، وبالسُّلطَة، وبالمَوْقِعِ، والتَّاريخِ. كَمُرَّاكُشَ (المدينةَ-الامبراطورية)، والصَّويرة (جزيرة موكادور القديمة)، وآسفي، وأَكَادِير التي سجَّلت حُضوراً في السُّوسِ منذُ أَنِ اسْتَرْجَعَهَا السَّعديُّونَ مِنَ البُرتغال عامَ (947هـ/ 1541م). بل إِنَّ شيشاوةَ تَمكَّنت خِلالَ القرن الثَّالِثِ عَشَرَ الميلادي، من أَنْ تُحْرِجَ السُّلطَةَ المركزِيَّةَ في فاس، عِندما -على حَدِّ قول جَاكْ بِيرْك-: *"قَدَّمَتْ دَعْمَهَا إِلَى السَّكْسِيوِّيِينَ الثَّائِرِينَ على السُّلْطَةِ المَرِينِيَّةِ."* [1]

---

[1] – Jaque Berques « Antiquité Seksawa » Hésperis 1953 pp 359-417.

يتَّضِح أَنَّ شيشاوةَ الإِقليمَ الفَتِيَّ، قد جَرَّتْ وراءَها ماضياً هامّاً وغنِيّاً، وإن كان يَصعُبُ اقتفاؤُهُ في كُلِّ آثَارِهِ مِنْ خِلالِ النُّصُوصِ؛ كما تَحتَضِنُ اليوم، أشياءَ ثَمينة جدّاً: بِنْيَةٌ بَشرِيَّةٌ شابَّةٌ في مُجمَلِها، مَعْدِنُ الفوسفاط، فُرْشَةٌ مائِيَّةٌ غنِيَّةٌ في جَوْفِ الأرضِ، تَمَرُّسٌ بِنَسْجِ الزَّرابِي ذاتِ الصِّيتِ العالَمِي، منجمٌ هامٌّ للسِّيما، ومناجمُ منتشرةٌ للبارِتِين. لا شَكَّ أَنَّها سَتُصْبِحُ قِبْلَةً للاستثماراتِ مُسْتَقْبَلاً. الكُلُّ يَتَنَبَّأُ بِذَلِكَ!؟ وعليه، سَتَحْتَكُّ أكثرَ من ذِي قبلٍ، بِعالَمِها الخارجي.

ثانِياً: مَوْقِعُ الدَّوابِّ من ذلك الصُّمود:

أين موقع الدَّوابِّ من كُلِّ هذا؟ على العُموم لا تُوجَدُ مُدُنٌ بِدون أسواقٍ، أو طُرُقٍ؛ وشيشاوةُ لا تُشَكِّلُ شُذوذاً عن هذا الطَّرْحِ. إذ تتغَذَّى المُدُنُ بالحرَكَةِ، والحَرَكَةُ في شيشاوةَ يَعُجُّ بِها أَزْيَدُ من عِشْرينَ سوقاً. تتمركزُ هذه الأسواقُ في أغلَبِهَا، إِمَّا بعيداً عَنِ التَّجمُّعات السَّكنِيَّةِ، أَوْ حَوْلَها، وقليلاً ما تكونُ داخِلَها. وبذلك نَخْلُصُ إلى المُعادَلَةِ التَّالِيَّةِ:

- شيشاوةُ = أسواقاً، وطُرُقاً، ومَسَالِكَ، ووسائِلَ نَقْلٍ مُخْتَلِفةٍ.

- الأسواقُ = التَّمَوْضُعَ المَوجودُ خارجَ التَّجمُّعاتِ السَّكَنِيَّةِ، وهِيَ في الوقتِ نَفْسِهِ النِّهايَةُ المُؤَقَّتَةُ للحَرَكَاتِ المُتَعَدِّدَةِ.

سوقُ إِيمِي نْ تَانُوت؛ سَنَكْتَفِي باستعراضِ سوقَيْنِ مَشْهُورَيْنِ في شيشاوةَ وهُما: سوقُ إِيمِي نْ تَانُوت البَعيد عَنِ المَرْكَزِ الإداري للعمالَةِ

بِحوالي 47 كلم. ثُمَّ سوقُ سيدي بُوزِيد، الذي لا يبعدُ عَنِ المركَزِ المَذْكُورِ إلاَّ بِحوالي كِيلُومِتْرَيْنِ. مع العِلْمِ أَنَّ سوقَ أَرْبِعَاءِ سِيدِي المُخْتَارِ، البَعيد عَنِ المَرْكَزِ نَفْسِهِ بِحوالي 25 كلم، أو أكثَرَ، لا يَخلُو من أَهَمِّيَّةٍ.

يَتَمَوْضَعُ سُوقُ إِيمِي نْ تَانُوت عند قَدَمِ الأَطلسِ الكبير الغربي، في وسط الزَّياتِينِ، وعلى مَدْخَلِ مَمَرٍّ تِيزِي نْ أُومَاشُو: المَمَرُّ الواصِلُ بين سهلِ الحَوْزِ وسَهل السُّوسِ، عَبْرَ الأَطْلَسِ الكبير الغربي.[1] لا يُعرَفُ شيءٌ عن أَصْلِهِ، ولا لِماذا حَمَل اسْمَ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ؛ ولا نعرفُ أيضاً، لِماذا يُقامُ يوم الاثنين بالضَّبْطِ. شُيِّدَتْ فيهِ مَحلاَّتٌ تِجارِيَّةٌ قارَّةٌ، حوانيتٌ منذُ (1328هـ/ 1910م). فيما لَمْ يُشَيَّدِ السُّوقُ الحالِي إلاَّ في حدودِ (1345هـ/ 1926م)، فوق مَجالٍ قريبٍ مِنَ السَّابِقِ، على هامِشِ المَسْلَكِ المُؤَدِّي إلى مَمَرِّ تِيزِي نْ أُومَاشُو. وعلى العُمُومِ، يَقَعُ على شكل مُستطيلٍ يَضُمَّ أكثر من 324 مَحَلاًّ، إِمَّا من طَابَقٍ، أو مِنْ طابَقَيْنِ. مع مَسجدٍ يُستخدَمُ أحياناً، كَمدرسةٍ لِحِفْظِ القرآنِ الكَرِيمِ. على أَنَّ الرَّحْبَةَ هِيَ المَوْضِعُ المُخصَّصُ لاستعراض المنتوجات، ويبقى الأَمينُ هو رئيسُ الرَّحْبَةِ. أَمَّا

[1] - عندَمَا يخترقُ الرَّاكبُ إلى أَكَادِيرْ الأَطلَسَ الكبيرَ الغربي – من خلال مَمَرِّ تِيزِي نْ أُومَاشُو- يُدْرِكُ جَيِّداً مَدى مُطابَقَة دلالَة التَّسْمِيَّة الأمازيغيَّة التي لإيمي نْ تَانُوتْ داخلَ اللِّسان العربي: أي فَمُ البِئْرِ. إذ تتراءى لَهُ الطَّريقُ بِضيقِهَا وانْعِرَاجَاتِهَا تَمَاماً، كأنَّها بالفعْلِ بِئْرٌ لَهُ فَمٌ، هُوَ ذلكَ المَمَرُّ المُبتدئُ مِنْ إيمي ن تانوت، والمُنتهي عِنْدَ أَمْسْكْرُودْ، أو أَكَادِيرْ حيثُ البحرُ الَّذي يرمُزُ إلى الماءِ في قَعْرِ البِئْرِ.

الوسيلَةُ لإيصالِ كُلِّ تلكَ المنتوجاتِ، أَوْ جُلِّهَا، فكانَتْ ولا زالت هي الدَّوابُّ، بِرَغْمِ مُزاحَمة مُختَلِفِ وسائِلِ النَّقلِ لَها. فالدَّوابُّ تُغذِّي السُّوقَ، سواءً بِحمْلِ البِضاعَةِ، أو بِجَرِّها. وتأتِي، في غالِبِ الأحيانِ، إلى السُّوقِ عَشِيَّةَ الأَحَدِ. أو في الصَّباحَ الباكِرِ لِيَوْمِ الإِثْنَيْنِ. وتبدأُ الحركَةُ في السُّوق قبلَ الفجرِ، لِتَنتهي غالباً، بعد الزَّوال. تُستَهَلُّ بِتِجارةِ الماشِيَّةِ، ثُمَّ الدَّوابِّ، لِتَتْبَعَهَا تِجارَةُ الخُضَرِ، فالحبوبِ بين الحادي عَشْرَةَ والثَّانِي عَشْرَةَ زوالاً.

ويعودُ الفضلُ للدَّوابِّ: الحِمَارُ، البَغْلُ، الحِصَانُ، وفي بعض الأحيان لِلْجَمَلِ في تَجْمِيعِ هذِهِ الموادِّ بِالدِّقَّةِ المُتَجَدِّدَةِ، وأيضاً بالسُّرعة المَرغوبِ فيها. وبِفضلِ الدَّوابِّ نفسِها يَجتَمِعُ أعضاءُ مُختلِفِ القَبائِلِ الشِّيشاوِيَّةِ للنِّقاش، أو لِتداوُلِ الأَخبار، أو لِلْفُرجَةِ، أو للاِستفادَةِ من خَدمات المَصَحَّةِ. والنَّتيجَةُ بالنِّسبَةِ إلى البَعْضِ هيَ:[1]

---

[1] - استرعى انتباهَنَا إثْرَ زيارَتِنَا للسُّوق المذْكُور، شخصٌ تَحلَّقَ مِنْ حولِهِ آلُ مَازِيغَ، ظهرَ عليْهِمْ أَنَّهُمْ يَتحيَّنونَ الفُرْصَةَ وسط زِحامٍ مُطبِقٍ، لإلقَاءِ نَظْرَةٍ على آلَةٍ صغيرةٍ فيها ثُقُبٌ يُمكِنُ للمَرْءِ أَنْ يَطَّلِعَ -من خلالِها- على صُوَرٍ شبيهَةٍ بالَّتِي يُسلِّطُها المُسلِّطُ العاكِسُ. ولكي يَستميلَ ذلك الشَّخْصُ العَامَّةَ إلى آلَتِه، يُرَدِّدُ في لَحْنٍ شَجِيٍّ العبارَةَ التَّاليَّةَ: "تْعَالَوَا تْشُوفْ تحجَّيتْ بْلاَ السَّرْوَالْ"؛ وهو يُسْمِعُهُمْ رَنِينَ النُّقُودِ. للإشارة فَإِنَّ فاطمةَ تحيحِّيتْ تبقَى المُغَنِّيَةُ الأمازيغِيَّةُ المُفَضَّلَةُ لدى مُحْمَلِ سُكَّانِ إِيمِي نْ تَانُوتْ. تسلَّلْتُ بين المناكِبِ حتَّى حَظِيتُ بالسَّبْقِ، ولَمَّا أَلْقَيْتُ نَظْرَةً داخلَ الآلَةِ مُقابِلَ دِرْهَمٍ واحد، لَمْ أُعايِنْ سوى صُوَرٍ لِبَعْضِ الحيوانات، وللمسْجِدِ الحرامِ...!؟ هَممْتُ بِأَنْ أُسائِلَهُ عن فاطمة فنزَعَ مِنِّي الآلَةَ، وأعطاها للَّذي يَلِيني.

عبد العزيز آيت بنصالح: زيارةُ اطِّلاعٍ إلى سوق الاثنين في إيمي نْ تانوت عام 1991م.

أصبحت إيمِي نْ تَانُوت، بِفَضْلِ هذا السُّوقِ، مَركزاً للتَّبادُلِ؛ وتَمَكَّنَتْ، بِفَضلِ الدَّوابِّ، من أن تربطَ بين السَّهلِ الشِّيشاوِي والجبلِ، وبينَهُما وبين السُّوسِ. وهي التي كانت تَحمِلُ بِضاعَةَ السُّوسِيِّينَ منذُ القديم

- السُّـوقُ= الجريدةُ + المِذْياعُ + السِّينما + المَصَحَّةُ.
- الوَسِيلَةُ = الدَّوابُّ.

إلى المجال الشِّيشاوي: كالحِنَّاءِ، والتَّمْرِ، واللَّوْزِ، والجَوْزِ...

إلى جانب كُلِّ هذا فَإِنَّ الدَّوابَّ تُكَمِّلُ عَمَلَ الهاتِفِ حالِيّاً؛ لكن كيف؟ عندَما يَتَّصِلُ تُجَّارُ الجُملَةِ في السُّوق منذُ الصَّباح الباكِرِ بِتُجَّارِ، أو بِمُنْتِجِي مدن الصَّويرة، مُرَّاكُشَ، أَوِ الدَّارِ البيضاءَ مِنْ أجل تَحديدِ نوعِ البِضاعة، وأثْمِنَتِها، إمَّا بِوَساطَةِ الهاتِفِ، أو بِوَساطَةِ السَّماسِرَةِ؛ فَإِنَّ الكَلِمَةَ الأخيرةَ تبقَى للدَّوابِّ، التي عادةً ما تَحمِلُ البِضاعةَ المَتروكةَ من لَدُنِ أرباب الشَّاحناتِ، نتيجةَ رغبةِ سائقيها في العَوْدَةِ الفَوْرِيَّةِ إلى مَخازِنِهم، إمَّا لإعْراضِهِمْ عَنِ اقتحامِ الأَزِقَّةِ الضَّيِّقَةِ، أو لِرَغبةٍ سريعةٍ في العَودَةِ، ورِبْحِ الوقتِ. إذَنْ، فالدَّوابُّ هي التي تُكَمِّلُ الخدماتِ التِّجاريَّةِ بين هامِشِ السُّوقِ وداخِلِهِ. وبِفَضْلِهَا لَمْ تَحْكُمِ الأزماتُ، ولا الظَّرفِياتُ الإقتصاديَّةُ على إيمِي نْ تَانُوت، ولا على سُوقِها بالعُزْلَةِ.

سوقُ سيدي بُوزِيد: استمدَّ السُّوقُ اسْمَهُ مِنَ الوليِّ الصَّالِحِ سيدي أبو زَيْدٍ، يبعُدُ عنه بِحوالي كيلُومِتْرَيْنِ ونِصْفٍ إلى اليمين عَنِ الطَّريق المُؤَدِّيَةِ من شِيشَاوَةَ إلى أَكَادِيرْ. وعَنِ الدَّفينِ هناكَ، يُحدِّثُنا صاحبُ "دَوْحَةِ النَّاشِرِ" في أَسْطُرٍ تُفِيدُ أَنَّ الفقيهَ يُوسُفَ بْنِ عِيسَى الشَّرِيفِ، أخذَ العِلْمَ عَنْ مَجموعةٍ مِنَ المَشَايِخِ والعُلماءِ، مِنْهُمْ: *"أَبو عُثْمانَ الَّذي أخذ بِدَوْرِهِ، عَنْ شَيْخِهِ أَبِي زَيْدٍ عَبْدُ الرَّحْمنِ الرَّكْراكي؛ وكان مُقيماً بِمَكَّةَ، مُجاوِراً عِشْرِينَ سَنَةً، وهُوَ المَعروفُ عِنْدَ العَامَّةِ، بِأَبِي زَيْدٍ وَالْيَاس. وقَبْرُهُ بِوَادِي شِيشَاوَةَ مِنْ عَمَلِ مُرَّاكُشَ. وقَدِ انْتَهى مَقَامُهُ إِلَى القُطْبَانِيَّةِ، وأَخَذَهُ أَبو زَيْدٍ عَنْ شَيْخِهِ أَبِي الفَضْلِ الهِنْدِي..."*[1] وعَنِ المَوعِدِ المضروب لِهذا السُّوق، فَهُوَ يومُ الخميس، وهو الاسْمُ نَفسُهُ الذي حَلَّ مَحَلَّ سيدي بُوزِيد. على العموم، فالسُّوقُ يبعُدُ بِحوالي كيلومِتْرَيْنِ عَنِ المَركز الإِداري لِشيشاوَةَ، ويَنْفَتِحُ على ثَلاثَةِ أبوابٍ تُقْتَحَمُ من لَدُنِ الدَّوابِّ، ومُختَلِفِ وسائِلِ النَّقل، وكذا العارضين، والمُكتالينَ.

وإذا كان المغربُ قد غطَّى إلى حَدِّ الآن، حوالي أَلْفَين وخمسمائة كلم، أو يَزيدُ، مِنَ الطُّرُقِ الجديدة. فإنَّه، في إطار انكبَابِهِ على تفعيلِ ما يُسمَّى بِمُسلسلِ التَّنميَّة، مُطالبٌ بإضافة أَكْثَرَ من ثَمانٍ وأربعين أَلْفاً أُخرى من الطُّرُقِ المُعبَّدَةِ، على أن تَربطَ بين البوادي والمداشر والقُرى، خُصوصاً تلكَ التي تَقَعُ خارجَ الطُّرق، أَوْ تِلْكَ التَّجمُّعات السَّكنيَّةِ التي تبدو للمُسافِرينَ

---

[1] – ابن عسكر، محمد الحسني الشفشاوني: "دوحة الناشر لِمَحَاسِنِ مَنْ كان بالمغرب مِنْ مَشايخ القرن العاشِرِ" تحقيق محمد حجي الرباط 1977 ص ص 3-4.

مُوغِلَةً عن يَمينِهِم، أو عن يسارِهِم.[1] والواقِعُ أَنَّ المغربَ لا يستطيعُ أن يُحقِّقَ سوى 200 كلم سنوِيّاً. وعليه، فهو مُلزمٌ أَنْ يَنتظِرَ حوالي مِائَةٍ وأربعينَ عاماً لِكي يحقق الإنجازَ نفسَهِ. إلى أن تصيرَ التَّنمِيَّةُ في حاجةٍ إلى هذه العمليَّات، وإلى غيرِها، وربَّما في حاجةٍ إلى أشياءَ لا يَعلمُها إلاَّ اللهُ تعالى. وفي غياب التّحقيقِ الفوْرِي لِهذه البِنْيَاتِ، فَإِنَّ الكَلِمَةَ الأخيرَةَ في الرَّبْطِ بين مُخْتَلِفِ المَداشِرِ والدَّواوِيرِ والتَّجمُّعات السَّكنِيَّةِ المَعزولَةِ، الضَّارِبَةِ في ثُخوم الجِبَالِ، والغابات، والبَراري تبقى للدَّوابِّ. فالدَّوابُّ هي الكَفيلَةُ بِإِخْرَاجِ كُلِّ هذه المَواقِعِ من عُزلَتِها الآن؛ وهي بالتَّالِي، الواصِلَةُ بينها وبين أُمَّهات المُدُنِ المَغربِيَّةِ.

[1] – من خلال تتبع مختلف التَّصريحات عبر بعض وسائل الإعلام، [عام 1990] لمسؤولين عن قطاعات لَها علاقةٌ بوسائل النَّقل، تبيَّنَ حينذاك، أَنَّ إضافَةَ هذه المسافات المُعَبَّدَةِ كان يُعتبر ضرباً مِنَ المُستحيل.

الفصل الثَّالث

حركة الدَّوابِّ وسط حركةِ النَّاسِ في شيشاوة

أوَّلاً: نَهْجُ بعض قبائِلِ شيشاوة لأُسلُوبِ نِصْفِ التِّرحال:

فيما يَخُصُّ شيشاوة، لابُدَّ أن نَستحضِرَ هُنا مُلاحظةَ باحِثٍ فرنسيٍّ كَلَّفَتْهُ الإِقَامَةُ العَامَّةُ الفرنسيةُ المُستَوْطِنَةُ للجزائِرِ، خِلاَلَ عام (1324هـ/ 1906م)، بالقِيام بِرِحلةٍ في المغرب لِجَمْعِ مَعلُوماتٍ على شكلِ تقاريرَ لا تَخلُو من رغْبَةٍ في التَّجَسُّسِ. وتَخُصُّ الملاحظةُ: *"قَبِيلَةَ دْوِيرَان، وهي التَّابعةُ لِشِيشاوةَ، والتي تنهجُ أسلوبَ أنصافِ التُّرَحلِ بين السَّهْلِ الشِّيشاوي والجَبَلِ."* [1] وإنْ كانت إشارَةُ إدْمُون دُوتِّي هذه غيرُ صريحةٍ فيما يتعلَّقُ بالدَّوابِّ، فإنَّها تُضمِرُ تلميحاً إلى دورِها داخلَ هذا الأُسلوب المُتَّبَعِ بين السَّهلِ والجبلِ الشِّيشاوِيَّيْنِ. ذلك أَنَّنا تَعوَّدْنا كُلَّما تركنا الأطلسَ في اتِّجاه السَّهل، أن نُلاحِظَ سواءً عن يَمينٍ، أو عن يَسارِ الطُّرُقِ، دابَّةً، أو دَوَابَّ، تقومُ بأعمالٍ شاقَّةٍ ومُضْنِيَةٍ. قليلاً ما تَخلُد إلى الرَّاحة.

كُلَّما غادر الرُّعاةُ سهلَ الحوز لأَجْلِ بُلُوغِ سُهول الجبال الأطلسيَّة إلاَّ وفسَّر الفَراغُ الإنساني أهَمِّيَّةَ الدَّوابِّ. يُفَصِّلُ فِيرْنَان بْرُودِيل هذا الطَّرْحَ

---

[1] – Edmond Doutté « En tribu » p 245.

فيقولُ: *"بما أنَّ المَجالَ يبقى على ما هُوَ عليهِ، دون تغييرٍ، فإنَّهُ يتوجَّبُ أن نَتخيَّلَ خلال تلكَ الفترة، ساكنَةً قليلةَ النَّسَمَةِ، تنتشُر داخلَ مَجالٍ يصعُب جِدّاً إخضاعُه، أو التَّحكُّم فيه."* [1] يتبيَّنُ أنَّ هذا الأُسلوبَ المُسَمَّى أنصافَ الرُّحَّلِ يُسْهِمُ في نقصٍ في السُّكَّان. على أنَّ ما يَبْقى مِنَ المُسْتَقِرِّينَ، لا يُمكِنُهُ أن يتغلَّبَ على احتياجاتِ الفِلاحة إلاَّ بِمُساعَدَةِ الدَّوابِّ لَهُمْ. إذا أَسْقَطْنَا هذا الطَّرحَ على شيشاوة، فإنَّنا سنجِدُها بِدَورِها، قليلةَ الغِطاءِ النَّباتِي بالمُقارنَةِ مع اتِّساعِ مَجالِها التُّرابِي. إذَّاكَ، لا نَملِكُ إلاَّ أن نقولَ: إنَّ شيشاوةَ قليلةَ الغِطاء النَّباتِي، لأنَّها قليلةُ السُّكَّانِ. ولِدَعْمِ هذا القولِ، نستعينُ بِمُلاحظةِ إِدْمُون دُوتِّي، إذ يقولُ: *"في هذهِ الفترةِ نفسِها*، أي في 1906م، *تُوجدُ صَحاري بالقُرب من شيشاوة، تتخلَّلُها بعضُ نباتاتِ الخلاءِ، التي لا تَبدو منها سِوى الرُّؤوسِ"* [2].

ما العملُ إذن؟ تتوفَّرُ شيشاوة على تعاوُنِيَّاتٍ تابِعةٍ لِوِزارَةِ الفِلاحة والإصلاح الزِّراعي، كما تتوفَّرُ على ضَيْعاتٍ لِفَلاَّحين يَعتمدون بشكلٍ أساسٍ، على دوابِّهم. وهنا تُطرحُ بعضُ المشاكِلِ المُتعلِّقَةِ بالفلاَّح الشِّيشاوي، إذ يَجدُ نفسَهُ يعيشُ داخِل ثُنائِيَّةٍ: إمَّا مالِكٌ كَبيرٌ يتوفَّرُ على مَجموعةٍ مِنَ الضَّيْعات؛ أَوْ بَدَوِيٌّ فقيرٌ مَغلوبٌ على أَمْرِهِ. وهي ثُنائِيَّةٌ عامَّةٌ

1 - « Fernand Braudel » Ibid p192.

2 –Edmond Doutté « En tribu » 1906 p 244.

انتبَهَ إِلَيْها رُوبِيرْ مُونْطَانْيْ فعبَّر عنها بالقول: *"في السَّهلِ تَتَّسِعُ الهُوَّةُ بِسُرْعَةٍ مُذهِلَةٍ بين الأغنياءِ والفُقراء؛ فالأَوَّلُونَ يَملِكون البساتين، والآخرون يَفْلِحُونَها. ثُمَّ إِنَّ الضَّيْعاتِ المَسقيَّةِ تُعطي الحُبوبَ بِسخاءٍ، كما تُعطي الخُضَرَ والفَواكِهَ. أَمَّا الزَّياتينُ فَتُشكِّلُ ثَروةً أُخرى تُخَزَّنُ في القُدُورِ. ومُوازاةً مع ذلكَ، تبقَى حياةُ الخُدَّامِ (الخَمَّاسَةِ) داخِلَ تلكَ الضَّيْعاتِ مائِلَةً، مِنْ حينٍ إلى آخَرَ، إلى البُؤْسِ. يَتعلَّقُ الأمرُ إِذَنْ، بِهُوَّةٍ واسِعَةٍ تَفصِلُ الأغنياءَ عَنِ الفُقراء. الأغنياءُ يَزدادون غِنىً والفُقراءُ يَزدادُونَ فقراً."* [1] فَهَلِ الدَّوابُّ تُشكِّلُ استِثْناءً عَنْ هذه الوَضعيَّةِ؟ يَقودُنا السُّؤالُ إلى المُعادَلَةِ التَّالِيَّةِ. الفلاَّحُ الغَنِيُّ=كثرةَ الحَمِيرِ، والبِغَالِ، والجِيَادِ+خُلُودَ بعضِها للرَّاحة أثناءَ نشاطِ البعض الآخر. فيما الفلاَّحُ الفَقيرُ يُعِدُّ حِمَارَهُ لِلقِيام بِكُلِّ شيءٍ: الحرثُ، الدَّرْسُ، نقلُ الماء، الجَرُّ، والحَمْلُ؛ إلى أن يُنْهَكَ.

ثانِياً: مَكانَةُ الدَّابَّةِ لدى الأُسَرِ الفقيرة في شيشاوة:

تنتَشِرُ داخل بعضِ الدُّورِ الشِّيشاويَّةِ أُسَرٌ تَحلُمُ بالحصول على أدنَى موادِّ الاستهلاك؛ قِطْعَةُ الزُّبْدَةِ، أو قِطْعَةُ خُبْزٍ. وهي لا تُأْكَلُ إلى حَدِّ رَدْعِ الجوع؛ إلى درجة أَنَّ هذه الأُسَرِ أَنْتَجَتْ مُصطلحاتِها الخاصَّةِ بِها (كْسِيرَةْ الخُبْزْ). وهي أُسَرٌ فقيرةٌ بِدُونِ مالٍ، ولا أَرْضٍ، ولا مَاشِيَّةٍ باستثناء الدَّابَّةِ (الحِمار). وهي لا تَملكُ في غالِبِ الأحيانِ، شيئاً آخرَ غيرَ الحِمار، فتعتَبِرُهُ

[1] – Robert Montagne : « Les bérbères et le Makhzen dans le sud du Maroc » Alean Paris 1963 p 56.

رأسَ مالِها الغالي. وهيَ، وإنِ اضطرَّتْ لِبَيْعِ مُمتلكاتِها الصَّغيرةِ لأَجْلِ العَيْشِ، فَإِنَّها لا تُفكِّرُ أبداً في بَيْعِهِ. وخلال المواسِمِ الحارَّة في الأصْياف، عِندما تَنالُ الحرارةُ مِنَ الإنسان والدَّوابِّ على حَدِّ السَّواء، يَلجأُ بعضُ المُسنِّينَ الشِّيشاويِّين إلى التَّلَذُّذِ بالرَّاحة، فَيَزْحَفُونَ من ظِلٍّ إلى آخر، وهُم يتحاشَوْنَ لَفحاتِ الشَّمسِ الحارَّةِ؛ يَسْتَرْخُونَ إلى درجة أنَّهم يَكْتَفون فقط، بِهَزِّ الرُّؤُوسِ تعبيراً عَنِ الرَّدِّ على كُلِّ مَنْ بادَرَهُمْ بِتَحِيَّةِ السَّلام. في هذا الوقت بالذَّات، تكون الحرارةُ مُرتفعةً إلى درجة أَنَّ النساءَ اللاَّئِي يَتَّصِفْنَ بالحِذْقِ والحَرَكَةِ الذَّائِبَةِ، لا تَستَطِعْنَ اقتحامَ أبْهاءِ دِيارِهِنَّ مِنَ الغُرفة نحوَ الغُرفَةِ المُقابلة، لِسُخُونَةِ أرضية الأبْهَاءِ.

مَنْ يعملُ في هذا الوقت في الحُقول؟ إنَّهُمُ الشُّبَّانُ والدَّوابُّ. لأَنَّ المُسنِّينَ مِنْ فلاَّحي شيشاوةَ لا يَحْلُمُونَ للرَّاحَة والاسترخاءِ إلاَّ بعد أن يَبلُغَ أَكْبَرُ أبنائِهِمْ، أو حَفَدَتِهِمْ أَشُدَّهُ. والحمارُ هنا، يُلازِمُ صاحِبَهُ في الحقل أثناء ما يَهوي بِمِعْوَلِهِ على الأرضِ العطشانة، يُقَلِّبُهَا كي تتنَفَّسَ. ثُمَّ يُساقُ إلى المنزِلِ للإتيانِ بالفَطور، ومن بَعْدِهِ بالغِذَاءِ. ويَستَغِلُّ بعضُ هؤلاء الشُّبَّان طول النَّهار كي يَحطِبُوا الأعوادَ الكَثَّةَ لأجلِ أفرانِ المَطَابِخِ، أو لتزويد الحَمَّامات. وتتكرَّرُ العمليَّةُ تقريباً في كُلِّ يومٍ. وإذا ما ارتفعتْ حُمُولَةُ الحَطب، يُفكِّرُ الشُّبَّانُ الحاطِبون في بَيْعِ ما بَقِيَ في الأسواق القريبة والمُرَوَّجَةِ. أَمَّا المُشتَرون فيبيعون بِدَوْرِهم الحَطَبَ، للأفران الجماعيَّةِ الموجودةِ في الدَّواوِيرِ الأُخرى،

وللحمَّامات، سواءٌ الشَّعبيَّة، أَوِ الخاصَّة. كُلُّ هذه الأشياء تُغذِّي الحركةَ في شيشاوة. فما أكثرَ مَنْ يَعيشُ مِنْ عائِدات هذا الحَطَبِ. وعلى العُموم، يتنوَّعُ أُسلوبُ الحياة، ونَمَطُ عَيْشِ السُّكَّان من سَهْلِ شيشاوةَ إلى جَبَلِها. ففي الوقت الَّذي تكونُ فيه فصولُ الشِّتاء قاسيةً راكِدةً بالنِّسبة إلى الجَبَلِيِّينَ، المُعتمدين على عائِداتِ الحطب إلى درجةِ أَنَّ الحركةَ تُصبِحُ شِبْهَ مُتَوَقِّفَةٍ لديهم؛ فَإِنَّ الأمرَ يَختلِفُ تَماماً، بالنِّسبة إلى دَوابِّهم، إذ يُسَخِّرُها فَلاَّحُو الجَبَلِ لِفِلاحَةِ الأرضِ، وللحرث، والجَرِّ، والحمل، وما شابهَ ذلك.

الفصل الرَّابع
مُثَابَرَةُ الدَّوابِّ والتَّرخيص لِلمُرُور

أوَّلاً: تنقُّلات الحمير والبِغالِ في المجالِ الجبلي الشِّيشاوي:

كانتِ التنقُّلاتُ داخِلَ الأطلسِ الكبيرِ الغربِي تتطلَّبُ دائماً، تنظيماً مُحْكَماً للوَسائِلِ، ومن خِلالِهِ، تنظيماً أَمْنِيّاً للطُّرق. وإذا تتبَّعنا على سبيل المِثال، المسافات الموجودة بين سَكْسَاوَةَ وتَاسَّاوْت داخِلَ الأطلسِ الكبير الغربي؛ فَإِنَّنَا نَجِدُ أَنَّ المَجالَ آهِلٌ بالسُّكَّان إلى درجة أَنَّ الرَّحَّالَةَ الأجانِبِ قد غَالَوْا في تحديدِ هذه السَّاكِنَةِ في ثُلُثِ سُكَّان المغرب. وتَشهدُ تلك المَسالِكُ مُناخاً قاسِيّاً جِدّاً، خُصُوصاً في فصل الشِّتاء. أراضيها الزِّراعيَّة قليلةٌ، لا تتعدَّى بعضَ المُنحدراتِ، غيرَ أنَّها في المُقابِلِ، كثيرةُ المياه العَذْبَةِ الصَّافِيَةِ. وهو ما يستميلُ المُهاجرين إليها، لأنَّ المَرءَ يرتَبِطُ دائِماً بالمجال الَّذي يتطلَّبُ منه المزيدَ مِنَ المَجْهُودِ. أَمَّا عن شُروط التَّنقُّل في هذه المجالات، فَإِنَّ الباحِثَ الأنتربُّلُوجي سِيلِرْيِي يُسعفُنا بِرَأيٍ يقضي بِأَنَّ: *"أمازيغَ الأطلسِ الغربِي يكونون دائماً أسياداً في مَجالِهِمْ، فلا يَسمَحُونَ بالمُرور إلاَّ لَمَنْ راقَ لَهُمْ."* [1] ويَدخُل الأطلسُ الكبيرُ بِدَوْرِهِ ضِمْنَ المَنظومة

[1] - Célérier (J) « L'Atlas et la circulation au Maroc » Hésperis 1927 T VII 4ème T$_I$ pp 447-497.

القاضِيَةِ بِأَنَّ التِّجارةَ تَرتبِطُ، في ازْدِهَارِهَا، بِمَدى تأمينِ الطُّرق التي تَمُرُّ منها. ولذا نَجِدُ كُلَّ فَخْذَةٍ مِنَ القبيلة تَخضَعُ إلى سيطرة الجماعة داخِلَ تنظيم بَّاتْرِيَّارْكِي، أي أَبَوِيٍّ. وهو تنظيمٌ يُدَبَّرُ شأنُهُ غالباً، من لَدُنِ الشَّيخ المُسِنِّ، والذي غالباً ما يَنْهَجُ أُسلوبَ التَّحايُلِ تارةً، أَوِ القُوَّةِ في أُخرى مُستغِلاً تعضيدَ المَخْزَنِ لَهُ، وتَضارُبَ مَصالِحِ الأفخاذِ. فَيُوَسِّعُ بذلك نُفوذَهُ، ومَجالَهُ تَماماً كما يفعلُ المخزَنُ بالقبائِلِ الثَّائِرَةِ، وبذلكَ يَستفيدُ مِنَ العائِداتِ لِوَحْدِهِ. وفي هذا يُضيفُ سِيلِرْيِي قائِلاً: *"فيما يَخُصُّ الجانب الاقتصادي، فَإِنَّ النَّتيجةَ هِيَ هِيَ: لا يُسمحُ بالمرور في الجبال إلاَّ بترخيصٍ مِنَ السُّلطات المحلِّيَّة"* [1] ذلك أَنَّ القبيلةَ صاحبةَ المَمَرِّ الإستراتِيجِي: *"تُحاول ما أمكنها، أَنْ تستفيدَ من عائِداتِ المُرور من مَجالاتِها، أو عبر فِجاجِها. فَإِمَّا أَنْ تتقاسَمَ والتُّجَّارَ المَارِّينَ المَنْتُوجَ المَحْمُولَ."* [2] وإِمَّا أن يَقُومَ التُّجَّارُ بِكِرَاءِ خِدْمَةٍ ما يُسَمُّونَهُ الزَّطَّاطَا مُقَابِلَ مَبْلَغٍ مِنَ المال لِتَأْمِينِ مُرُورِهِمْ بِتِجارَتِهِمْ. وقد تطوَّرت هذه العمليَّاتُ فَأُقِيمَتْ لَهَا القصباتُ من لَدُنِ الأَفخاذِ المُستفيدَةِ، لِيَتحكَّم أَهْلُهَا أكثرَ في الممرَّاتِ، ثُمَّ أُضيفَتْ إليْها النُّزالاَت، خُصُوصاً في المَجال المُتَعَلِّقِ بِشِيشَاوَةَ. وهو ما يُفَسِّرُ أَنَّ المتحكِّمين في الممرَّات الهامَّةِ في الأطلس الكبير قَدِ اغْتَنَوْا، فَتَبَوَّؤُا مَكانةً هامَّةً على المستوى السِّياسِي: كالقُوَّادِ المُتُوكِّي، والكْلاَوِي، والكَنْدَافِي.

---

1 – Célérier (J) « L'Atlas et la circulation au Maroc » Hésperis 1927.

2 – لاحظ "سِيلِرْيِي" هذه العملية بوادى أغبار بِنفِّيسَ العُليا التي استغلت مَمَرّ تِيزِي نْ تِسْتْ. المرجع نفسه.

لَمْ يَعُدِ الأمرُ هنا يَتَعَلَّقُ بالقبائِل، التي تُلاحِقُ العُشْبَ في تنقُّلاتِها، كما هو مَعروفٌ في السُّهول الشِّيشاويَّةِ. لا يُمكن للمُتَنَقِّلِ أن يُطْلِقَ العنانَ لِحَدْسِهِ فقط، خُصُوصاً في الجبالِ، ويَتجوَّلَ بِحُرِّيةٍ؛ لأَنَّ ذلك سَيُعَرِّضُهُ لا مَحالَةَ، لأخطارٍ كثيرةٍ. خاصَّةً إذا ما اقتحم مَجالَ غيرِه، دون سابقِ إعلانٍ. بل إنَّ المُتنقِّلَ يرتَبِطُ دائماً، باقتفاء آثار المَسالِكِ المُؤدِّيةِ إلى المَسارِحِ الخِصبة، أو إلى مَنابعِ المِياه. فهل مِنَ الضَّرُورِي اخْتِيَارُ أَسْهَلِهَا، وأَقْرَبِهَا؟ من أجل تَسْطِيرِ مَسالِكِ الجبال، فَإِنَّ الأمرَ لا يتوقَّفُ فقط، على الاعتماد على آثار حوافِرِ الماشِيَّةِ، والرَّاجلين، كما هو الحالُ في السُّهول؛ لأَنَّ تضاريسَ الجَبَلِ لَيْسَت هي تضاريسُ السَّهل. ففِي الجبال، ومن أجل أَنْ تَمُرَّ الدَّوابُّ (الحميرُ والبِغالُ)، لابُدَّ أن تتحمَّلَ عَنَاءَ الممرَّاتِ. أمَّا فيما يَخُصُّ المسالكَ الجبليَّةَ الشِّيشاوية، لا نُنْكِرُ أنَّ إصلاحاتٍ قد أُجرِيَت على بعضِها،[1] لكنَّها

---

[1] - كنتُ قد قدَّمتُ طلَباً لدى عَمالَة شيشاوة فورَ تَحوُّلِ هذه القيادة إلى عَمالَة، مضمُونُهُ أن أَحُوبَ الجبالَ الشِّيشاوية في إطارِ بحثٍ "أنْتْرْبُولُوجي، إِثْنوغرافي، إِثْنولُوجي..."؛ عامَ 1992م. وانتظرتُ رَدّاً مُدَّةً تَزيدُ عَنِ السَّنَة، إلى أن كادت الرَّغْبَةُ في القيامِ بذلكَ البحث، تَخْمَدُ في نفسي. ولَمَّا جَاءَنِي الرَّدُّ! طلبتُ من رَجُلٍ كَرِيمٍ في شيشاوةَ أن يُمدَّني بسيَّارة، فلبَّى طلَبي، وجعل رهْنَ إشارتي سائقَهُ الخَاص؛ والرَّجُلُ هو السَّيِّدُ "آيت حَمُّو"، وإنِّي لأُجدِّدُ شُكرِيَ الجزيلَ لَهُ. توغَّلْتُ في الجبلِ من دْوِيرَانْ أتعقَّبُ آثارَ المدينة المَرينيَّة "القهْرَا"، عبر واديها "القهْرا"، وكُلَّما حللْتُ بدُوَّارٍ يأتيني بعضُ الأمازيغِ مُتَلَهِّفِينَ، ضانِّينَ أَنِّي أتعقَّبُ آثارَ خزائنِ الأوَّلين. في طريقي التقيْتُ بباحث إنجليزي مُسِنٍّ وزوْجِه، فعرفْتُ منه، بعدَ أَنْ فُوجِئَ باطِّلاعي على كتاب الباحث الفرنْسي "إِميلْ لاَوُوسْتْ": "إسهاماتٌ في تُوبُونِيمِيَا الأطلس الكبير الغربي" أَنَّهُ مُهتمٌّ بِحقْلِ اللِّسانيات. إلى درجة أَنَّهُ قالَ لي: "إنَّنا نحن الباحثون=

تقادمت، وتلاشت لِبساطَتِها بفعل تَرَادُفِ عوامِل التَّعرية عليْها، خُصُوصاً بين دْوِيرَان وللأَعْزِيزَةَ.

في هذا الباب، تتبَّعَ سِيلِرْيِي التَّنَقُّلاتِ في الجِبالِ فسجَّلَ مُلاحَظَتَهُ قائِلاً: *"إنَّ المَسالكَ تَهدِفُ إلى اختصار المسافاتِ، وليس إلى تَجَنُّبِ الحواجِزِ."* [1] في هذه الحالة؛ إذا كان المَمَرُّ صعباً جِدّاً، لكنَّه يَختصِر المسافات، فإنَّ الأمازيغَ يُفضِّلونَهُ عَنِ المسالِكِ السَّهليَّةِ الطَّويلة. إذ يُفَضَّلُ المَمَرُّ، على صُعوبَتِهِ، إذا كان يَختصرُ المسافات، على المَمَرِّ السَّهل الاختِرَاقِ، الطَّويلِ المدى. لكن مَنْ يُؤدِّي الثَّمن؟ إنَّها الدَّوابُّ؛ فهي التي تتكلَّفُ عَناءَ الصُّعود الصَّعبِ، والنُّزول الصَّعْبِ في الجبال، والمُرورِ فوق الزَّوايَا الحادَّة بِمُحاذاةِ القِمَمِ، وعلى المسالِكِ الصَّعبَةِ. تَجِدُ الحميرَ، والبِغالَ مُضطرَّةً، أمام صعوبة الصُّعود، إلى أن تَهُزَّ رِقَابَهَا نحو الأعلى، ثُمَّ تَهْوِي بِها نحوَ الأَسْفَلِ إلى درجة

= الغربيُّون المُهتمُّون باللِّسان الأمازيغي لَنَعْتَبِرُ إميلْ لاوُوسْتْ بمثابة إنْجيلَنا الثَّاني"؛ وعرفْتُ أنَّهُ ينامُ ضيفاً على سُكَّانِ الدَّواوير التي يُصادِفُهُ الغُرُوبُ فيها. وكَمْ كانت حَسْرَتي كبيرةً لَمَّا سألْتُهُ عَنِ التَّرخيصِ لأجلِ البحث الذى يقومُ به، فأجابني بِأنَّهُ يقومُ بِبُحوثِه، وتحوّلَهِ في رُبُوعِ جبالِ شيشاوةَ، دون أن يَطْلُبَ أىَّ ترخيصٍ منَ السُّلُطات!؟ ولِكَيْ أُكْمِلَ بحثي طلبتُ، فيما بعدُ، منَ إدارةِ الإحصاءِ العامِّ للسَّكنى والسُّكَّانِ في المغرب، عام 1993م أن يُعينُونَني، بعد أن أَنْهيْتُ مَرْحَلَةَ التَّكوينِ، في قبيلةٍ جبليَّة؛ فكانت دَمْسِيرَةُ من نصيبي. هناكَ تعرَّفْتُ مُدَّةً من 20 يوماً، أو يزيد، على بعضِ أسرار الجبل، وعلى أسرار الجبليِّينَ الأمازيغ الذين أوَدُّ هُنَا، أن أَختصرَ الكلامَ في حقِّهم بالقولِ؛ "إنَّ العُملَتَيْنِ الصَّعْبَتَيْنِ في سُلوكاتِ الأمازيغِ الجبليِّينَ هُما: [الطِّيبُوبَةُ والكرمُ]".

1 – Célérier (J) « L'Atlas et la circulation au Maroc » Hésperis 1927.

أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِمَنْ يَقُودُونَها أَنَّها ترغَبُ في التَّخلُّصِ من بَرَادِعِها، أو من سُروجِها، وأَشْوِلَتِهَا. وعليه، تبقى هذه الدَّوابُّ أسيرةَ المسالِكِ الضَّيِّقة، لا تتوفَّرُ إلاَّ على ما يُتِيحُ لَها لِوَحْدِها، الانعراجَ يَميناً، أو يَساراً، فوقَ عُلُوٍّ شاهِقٍ يُثيرُ الدَّورانَ حتَّى في أكثَرِ الأمازِيغِ تَمَرُّساً بِتَسلُّقِ القِمَمِ المُدَوَّخَةِ. وعندما يتعلَّقُ الأمرُ: *"بِتَجاوُزِ دابَّةٍ، بَغْلٍ، لأُخرى، فوق مَمَرٍّ ضَيِّقٍ، أو تَجاوُزِ قافِلَةٍ لأُخرى، أَوِ الالْتِقاءِ بِها، والتَّقاطُعِ معها على المَمَرِّ نفسِهِ، خُصُوصاً في بعض الأماكِنِ الصَّعبة الاختِراقِ، فَإِنَّ الأمرَ يَتحوَّلُ إلى مَشْهَدٍ دَرامِيٍّ مُضْحِكٍ."* [1] لأَنَّ عمليَّةَ التَّجاوُزِ يُمكِنُ أن تُؤَدِّي إلى سَقْطَةٍ خَطِيرَةٍ، أو تَهْوِي بالقافِلَةِ كُلِّها في مَكانٍ سَحِيقٍ. *"وبِقَدْرِ ما تَكُونُ النَّخْلَةُ أَكْثَرَ عُلُوّاً، بِقَدْرِ ما تَصيرُ السَّقْطَةُ أَكْثَرَ إِيلاماً."* [2]

يضطرُّ سَائِسُو القوافِلِ أمامَ هذه الوضعِيَّةِ، إلى التَّشميرِ عن سيقانِهم؛ إذْ يُمسِكون بِجلابِيبِهِمْ بين أسنانِهم لِيأخُذُوا بدوابِّهِمْ مِنَ رِقَابِها، أو مِنَ ذُيولِها، يُساعِدونَها على تسلُّقِ الارتفاعاتِ، ويثبِّتُونَ أجسامهُم بوساطَتِها، خوفاً مِنَ السُّقُوط في مكانٍ سحيقٍ. ويَحدُثُ أن تكونَ في المناطِقِ، المسالِكُ ضيِّقَةً وصعبةً، ومُحاصَرَةً مِنَ الواجِهَتَيْنِ مَعاً، إِمَّا بالهاوِيَّةِ، أو بالصُّخور الصَّلْبَةِ الصَّلعاءِ. إلى درجة أَنَّ اقتحامَها يُحتِّمُ على الحَمِيرِ والبِغَالِ أَنْ تَحُكَّ الأَشْوِلَةَ-الخَرَادِلَ بالصُّخور، وهو ما يُحدِثُ فيها مَجموعةً مِنَ الثُّقُبِ.

---

[1] – المرجعُ نفسُهُ.

[2] – مَثَلٌ شائِعٌ في الثَّقافة البرازيلية.

ويعمَدُ المتاجرون غالِباً، إلى سَبِّ دوابِّهِمْ، أو يَنهالُونَ عليها بالضَّرب، والوَخْزِ إذا ما سقطَ شيءٌ مِنَ البِضَاعَةِ في الهاوية. بالرَّغمِ من ذلك فهُم يُفضِّلون دائِماً، وأبداً المُرورَ من تلكَ المسالِكِ على أن يَتَسَكَّعُوا في المجالات الفَسيحة للأطلس الكبير.

ثانِياً: نَبْضُ الطُّرُقُ بين العيْشِ والتَّطَوُّرِ والزَّوالِ:

إذا ما تصفَّحنا فِيرْنَان بْرُودِيل، فَإِنَّنَا نَجدُه يُشخِّضُ مَجموعةً مِنَ الأشياءِ، ويُخضِعُها إلى مَنظومَةِ العَيْشِ، التَّطوُّرِ، الزَّوالِ. وهُوَ طرحٌ ليس بِغَرِيبٍ، لا على رُوَّادِ كِتابةِ الجَوْلِيَاتِ، ولا على المُؤَرِّخِينَ الرُّومانْسِيِّينَ، مِنْ أَمْثَالِ الكاتِبِ الفرنسي في القرن التَّاسِعِ عشر للميلاد جُولْ مِيشْلِي،[1] لِكَوْنِهِما اهتمَّا مَعاً، باللَّامُنْتَظَرِ في التَّاريخ. في هذا السياق، يَخْلُصُ بْرُودِيل إلى طرح أَسْئِلَةٍ فَحْوَاهَا: *" هل حياةُ الطَّرِيقِ تَأْفُلُ؟ أو هل تَزْدَهِرُ؟ وهَلِ التِّجارَاتُ، والدَّواوِيرُ، والمُدُنُ تتوسَّعُ، وتَنْتَفِخُ، أَمْ أَنَّها تتقَلَّصُ؟"* [2] أَدْرَجْنَا هذه الأسئِلَة لأَنَّ شيشاوة تدخُلُ بالفِعْلِ، ضِمنَها لارتباطِها بالصَّويرة، خاصَّةً قبل أن تُمَدَّ الطَّرِيقُ باتِّجاه أَكَادِير، أو في ارتباطِها بِأَكَادِير بعد إِمدادِ الطَّرِيقِ الرَّئيسَة، أو حتَّى الطَّرِيقِ السَّيَّارِ، أو بِمُرَّاكُشَ منذ زمنٍ بعيدٍ.

في هذا الإطار استقصَيْنَا في الدَّائِرَةِ الخاصَّة بالأَشغال العُمومِيَّةِ في مُرَّاكُشَ. وكان اهتمامُنا مُنصبّاً على المِلَفِّ المُتعلِّقِ بتعبيد مَسْلَكِ مَمَرِّ تِيزِي نْ أُومَاشُو،

---

1 - Braudel (Fernand) « La Méditerranéc et le Monde Méditerrannéen à l'époque de philippe II » 6ème Edi. Paris T_1 . p86

2 - Braudel (F) Ibid T_1 p 103

وتَحويلِه إلى طريقٍ رئِيسَةٍ. وهو مَشروعٌ مُوَّلَ من لَدُنِ شركة[1] B.I.R.D. كان الكُلُّ قَدِ استحسَنَ إِقامَةَ هذا المشروع، خاصَّةً سُكَّانُ شيشاوة، لِكَوْنِهِ مكَّن هذه الأخيرةِ، وكذا إِيمِي نْ تَانُوت مِنَ التَّوغُّلِ بِسُهولَةٍ، عبر تِيزِي نْ أُومَاشُو في الأطلس الكبير الغربي، والمرور منهُ إلى السُّوسِ. إِنَّ التَّفسيرات التي أحاطتْ بالمشروع قد أخذت بِعَيْنِ الاعتبارِ المسافات، وكذا الامتيازات التي تُوفِّرُها طريق تِيزِي نْ أُومَاشُو أثناءَ توغُّلِها في السُّوس. ليس فقط، على حِسابِ القِمَمِ العالِيَّةِ للأطلس الكبير الغربي، ولكن أيضاً، على حِساب الطَّريق السَّاحلي، المَارِّ من آسفي، الصَّويرة، ورأس كِيرْ. وهي الطَّريق التي تُعاقُ بِمجموعةٍ مِنَ الحواجز الطَّبيعية، كَمُرْتَفَعِ طُوبُوكَان، المُمْتدِّ بين تَمَنَار وأَكَادِير. وقَدِ اتَّصلنا بِبَعْضِ مَنِ اشتغلوا في هذه الطريق المُعبَّدَةِ، وَاسْتَفْسَرْنَاهُمْ حول إسهامِ الدَّوَابِّ في تلك الأشغال العُمومِيَّةِ، وكان الدَّافِعُ للتَّساؤُل هو، ما وصَلَتْ إليه شيشاوةُ من أَهَمِّيَّةٍ بِحُكم تَموضُعِهَا في مُلتقى الطُّرق بعد أن أُنْجِزَ هذا المشروع. فكانتِ الإجاباتُ تتمحور حول استجالةِ تَخلُّص الإنسانِ –على حَدَاثَةِ وسائِلِ عَمَلِهِ– مِنَ الصُّخُور السَّميكة التي كانت تُغَطِّي سُطوحَ المَسالِكِ، وهِيَ تُحَوَّلُ، فيما بَعدُ إلى طريقٍ مُعبَّدٍ. إِذْ لَمْ يتمكَّنِ العُمَّالُ المُشْتَغِلُونَ في تلك الطَّريق مِنِ اقتلاعِها إلاَّ بِفَضْلِ الدَّوابِّ، على طُول مَمَرِّ شيشاوة–أكادير. لَمْ يكن بِإِمكان الشَّاحنات اقتحامُ كُلِّ الممرَّات، والمُرتفعاتِ، ولِذا حلَّت محَلَّها الدَّوابُّ.

---

[1] –« Banque International pour la reconstruction et le dévclopement ».

كانتِ الدَّوابُّ بِمَثابَةِ الوَسائِلِ الرَّئيسَةِ المُمَوِّنَةِ للمشروع بالمياه؛ إمَّا للشُّرب، أو للغَسْلِ، أو للطَّهوِ، أو لِخَلْطِ الموادِّ الخاصَّة بالتَّعبيد. كانتِ الدَّوابُّ هي وسائِلُ نقل العُمَّالِ مِنَ الدَّواوير إلى مَقَرِّ المشروع، ومنه إلى دواويرِهِمْ ليلاً. ولَكُمْ تَخَيُّلُ البَقِيَّةِ.

لابد أن نشيرَ هنا، إلى أَنَّ جُولْ لُوكْلِيرْك[1] يُقِرُّ في كِتابِه، مِنْ مُوكَادُورْ إلى بِسْكْرَا، على أَنَّ بَلَدَ المَغْرِبِ وإلى حدود حوالي (1298هـ/ 1881م)، لَمْ يتعرَّفْ بَعْدُ، على العَرَبَةِ التي يَجُرُّها الخيولُ، والبِغَالُ، والحَمِيرُ؛ وعلى أَنَّ هذه العَرَبَةَ لَمْ تظهَرْ في المغرِبِ إلاَّ مع بِداية القرنِ العِشرين. فهَلِ الطَّريقُ الجَديدَةُ قد أَغْنَتْ سُكَّانَ شيشاوة عَنِ الدَّوابِّ؟ بالطَّبعِ لا ! إذ منذُ الوَهْلَةِ الأُولَى يتَّضِح وَكَأَنَّه لَمْ يتحقَّق أَيُّ تغييرٍ في النَّقلِ الطُّرُقي. فشيشاوةُ لا زالت تعرِفُ قوافِلَ الدَّوابِّ نفسِها، خصوصاً في أَيَّامِ الأسواقِ. كما تزخَرُ بالمَسَالِكِ نَفْسِها، خصوصاً التي تربطُ بينها وبين باقي الدَّواوِيرِ. وتَعرِفُ البضائِعَ نفسَها، مع بعضِ التَّغييرات، في الموادِّ التَّجهيزيَّة والاستهلاكِيَّةِ. وعليه، إذا كانت شيشاوةُ قد صَمَدَتْ في وَجْهِ زحفِ، واتِّساعِ مُدُنٍ أُخرى، فَإِنَّ ذلك لَمْ يَكُنْ راجعاً إلى كَوْنِ المُدُنِ الكبيرة المُرتَبِطَةِ بِها قد تركَتْهَا لِقَدَرِهَا، وإِنَّما يَعُودُ ذلكَ إلى كونِها دافعت عَنِ استمرارِها في البَقَاءِ، خاصَّةً وأَنَّ المُدُنَ المذكورةَ قد أبانت على أنَّها لا يُمكِنُها الاستغناءُ عن خدماتِ شيشاوةَ، ولا

---

1 – Jules Leclerq: « De Mogador à Bisqra »

عن خدمات الشِّيشَاوِيِّينَ. فقد بقِيَتْ مثلاً، كُلٌّ من مُرَّاكُشَ، أَكَادِير، الصَّوِيرَةَ، في حاجةٍ للزَّرابِي الشِّيشاوِيَّةِ، وكذا لِلَوْزِ الجبل، وجَوْزِهِ، وحِلِيِّهِ، وأرحائِهِ، وأَرْغَانِهِ...

وعن لَوْزِ الجبلِ الشِّيشاوي، فقد ترك لنا دُوتِّي منذُ مُستهَلِّ القرنِ الماضي، بعضَ المعلومات عنه قائلاً: "*كُنَّا بالقُرْبِ من تَاوْلُوكُولْت*، وهي تابعةٌ لِتُوكَّة غيرَ بعيدٍ عن مركَزِ شيشاوةَ الإداري، وهي *دْشِيرَةٌ كبيرةٌ مِنَ الزِّراعات المُنْتَشِرَةِ، الخاصَّةِ بالحبوب، مع مَجموعةٍ مِنْ أشجارِ اللَّوز الضَّعيفة. إذْ أَنَّ اللَّوزَ هو بالتَّقريبِ، الشَّجَرُ الوحيدُ، الذي يُتَوِّجُ هذا المَجالَ الجافَّ. غير أَنَّ لَوْزَ مُتوكَّة، وكذا لَوْزَ السُّوس يُعتَبَران بِمَثابَةِ التِّجارَةِ التي لا تَلْقَى إِقْبالاً، لِضُعْفِ جَوْدَتِها. وذلك راجعٌ إلى كَوْنِ المُنتجين يَخلِطون بين اللَّوزِ الحُلْوِ واللَّوزِ المُرِّ. بل إِنَّ المنتوجَ يَحتوِي أحياناً، على ثَلاثِينَ في المِائَةِ مِنَ اللَّوْزِ المُرِّ. ولِذَا فَإِنَّ المُسْتَوْرِدِينَ الأجانبَ قَدِ اعْتَادُوا على تَسْمِيَتِهِ بِجِلْدِ المَاعِزِ، أَوْ باللَّوْزِ المُرِّ الآتِي مِنْ مِينَاءِ الصَّوِيرَةِ. وفي مَارْسِيلْيَا بِفَرَنْسَا، كان لا بُدَّ أَنْ تُسَخَّرَ مَجموعاتٌ كبيرةٌ مِنَ النِّساءِ لِيَتَذَوَّقْنَ، ويتلَذَّذْنَ اللَّوْزَ كي يَعْزِلْنَ الحُلْوَ عَنِ المُرِّ فيه. وقد كان ذلكَ جِدُّ مُكَلِّفٍ.*" [1] هكذا يُقدِّمُ لنا دُوتِّي مِحْوَراً تِجارِيّاً هامّاً، كان نشيطاً بين مْزُوضَة، مْتُوكَّة، وتَاوْلُوكُولْت. وكلُّها مَناطِقُ شيشاوِيَّةٌ تتعامَلُ مع الصَّويرة، ومن خلال مينائِها، مع مَارْسِيلْيَا. فمن كان

[1] – Edmond Doutté, Ibid p150 .

يُحَرِّكُ هذا المِحورَ التِّجاري بين تَاوْلُوكُولْت والصَّويرة في فترةٍ بدأَ المغرِبُ يدخُلُ فيها مَرحلَةَ التَّوليف مع العَرَبَةِ؟

ثالِثاً: دوابُّ شيشاوة والطُّرُق الجديدة:

إذا ما ألقينا نظرةً على مَوْقِعِ شيشاوةَ مِنَ الأطلس الكبير الغربي، فإنَّنا سَنَجِدُهَا تتميَّز بِمَنْفَذٍ هَامٍّ يتمثَّل في تِيزِي نْ أُومَاشُو. وهو مَمَرٌّ مُتوازِي مع مَمَرِّ كُنْدَافَة. لكنَّ المَمَرَّ الشِّيشاوي يتفرَّدُ بِخاصِّياتٍ تتمثَّلُ في سُهولة اختراقِهِ، الشَّيء الَّذي جعل مُهَنْدِسِي الطُّرُقِ يَفضِّلُونَهُ عَنِ الثَّانِي. وهو يتوغَّلُ في جبالِ الأطلس الكبير الغربي، انطلاقاً من إِيمِي نْ تَانُوت؛ يَقَعُ على ارتِفاعٍ أقَلَّ مِنَ الَّذي يَقَعُ عليه مَمَرُّ تِيزِي نْ تِسْت. يُؤَدِّي إِمَّا إلى أكادير، أو باتِّجاه تَارُودَانْت، عبرَ بْوِيبَاوْن، ومنه إلى السُّوسِ حيث يُوجدُ نَخِيلُ مَنْتَاكَة، وهَرْغِيتَة. هناك أيضاً، مَسلكانِ آخرانِ يُمكِنُ استعمالُهما: الأَوَّلُ، هو تِيزِي نْ مَحْمُود، والثَّاني تِيزِي نْ الحُسَيْن. وعلى العمُوم، اكتسبَ هذا الطَّريق أَهَمِّيَّةً كُبرى منذ القرن (10هـ/ 16م). إذ كانت تَمُرُّ منه القوافِلُ المُحَمَّلَةُ بالمَعادِنِ المُستَخْرَجَةِ مِنْ تَامْدُّولْت في الأَطلس الصَّغير، والمُتَّجِهَةِ نحو مُرَّاكُشَ. كما كان تِيزِي نْ أُومَاشُو هذا، هُوَ الطَّريقُ الرَّابِطُ بين السُّوسِ، مَعْقِلِ الدَّولة السَّعدِيَّةِ ومُرَّاكُشَ، عاصِمَتِهِمُ الجديدةِ بعد تَارُودَانْت. في هذا الباب، تُفْصِحُ نُصوص (ق10هـ/ 16م) عَنْ مَعلوماتٍ كثيرةٍ تُوَضِّحُ التَّنقُّلاتِ الكثيرةِ للجُيوش، والحَرَكَاتِ التي تَمَّتْ بين سُوس ومُرَّاكُش.

ولِذَا أُقيمَت على طول هذه الطَّريقِ قصباتٌ، اشتهرَتْ منها قصبةُ فْرُوكَة، وبَنْ تَاكْمُّوس، وآمْسْكْرُود. للإشارة سُمِّيَت هذه الطَّريقُ على عهدِ العلوِيِّينَ بالطَّريق السُّلْطَانِي.

ملاحظة: نُلفِتُ الانتِباهَ إلى أَنَّ كُلاًّ من طريق تِيزِي نْ أُومَاشُو، وكُنْدَافَة يُقدِّمانِ مَعاً، خَدماتِهما للقوافِلِ في مَعْزِلٍ عَنِ التَّنافُسِ، لأَنَّهُما مُراقَبان من قِبَلِ قبائِلَ مُخْتَلِفَةٍ. وتتمثَّل خدماتُهُما في تسهيلِ الاتِّصال بين سَهْلِ سُوس وسهل الحَوْزِ، عبر الأطْلَسِ الكبير الغربي. وكان الحوزُ عَبْرَهُمَا، يُزَوِّدُ السُّوسَ بِالمَنتوجات الآتيَةِ من مُرَّاكُشَ؛ كالسُّكَّرِ، والسَّكاكين، والحلوى، والشَّمع، والأصداف، وما إلى ذلك. أَمَّا الجبلُ فيزَوِّدُ الحَوْزَ ومُرَّاكُشَ بِالمَواشِي، والجُلود، والأَصواف، والأرحاء، والزُّيوت، والأَرْغَانِ، واللَّوْز، والجَوْزِ، وما إلى ذلك. لابُدَّ هنا، أن نُدْرِجَ إحصاءً يُقدِّمُهُ لنا الجِنِرَال مُوفُو إِبَّانَ الحِمايَةِ، حول القوافِلِ التي كانت تَمُرُّ من مَسْلَكِ بِيكُودِين، وتَامَانَارْت؛ مِنْ بِيكُودِين إلى الحوزِ لاحَظَ الجينِرالُ الفرنسي، أَنَّ عددَ الحميرِ قد وَصَلَ إلى 720 حِماراً، ولهذه الدَّابَّةِ بِذلكَ أَوَّلَ حُضورٍ بين باقي الدَّوابِّ من حيثُ العدَدُ. تتبَعُها الجِمالُ بِمِقْدارِ 350 جَمَلاً، ثُمَّ البِغَالُ بِحوالي 160 بَغْلاً. ومِنَ الحَوْزِ إلى بِيكُودِين، فَإِنَّ الأَوْلَوِيَّةَ كانت للحَمِيرِ، بحوالي 1100 حِماراً، تتبَعُها الجِمَالُ بِحوالي 800 جَمَلاً، ثُمَّ تأتي البِغَالُ ثالِثَةً بعددِ 220 بَغْلاً.

رابِعاً: إسهامُ الدَّوابِّ في التَّواصُلِ بين الأسواقِ والمداشِرِ:

لا يَقتَصِر هنا، دَوْرُ السُّوق على الوظيفةِ التِّجارِيَّةِ داخل القبيلةِ فقط، بل يُعْتَبَرُ فَضَاءً للاتِّصال بين الجماعات؛ يأتيه الرِّجال للبيْع، والشِّراء، وتَبادُلِ الأخبار. كما يَلِجونَهُ لِرَسْمِ الحدود، التي يُسَيِّجُونَ بوساطَتِها الدُّوَّارَ، أَوِ القبيلةَ، قبلَ أن يفتَحونَها على العالَمِ الخارجي. تجري فيه لِقاءاتٌ تُذَوَّبُ فيها أحياناً الصِّراعاتُ والأَحقادُ، لِذا يتوجَّبُ أن يُقَامَ فوق مَجالٍ مُحايِدٍ، يكونُ غالباً على حدود القبيلة، أو خارِجَها. وهو غالباً، ما يُقَامُ في حِمَى وليٍّ صالِحٍ يكون قبرُه إِمَّا بِجوار السُّوق، أو في وسطِهِ، الشَّيءُ الَّذي يُيَسِّرُ تَبَرُّكَ النَّاسِ به أثناءَ، أو قُبَيْلَ البَيْعِ والشِّراء. وعلى هذا الأساسِ نَصِلُ إلى حقيقةٍ مَفادُها أَنَّ أكثرَ الأَسواقِ تُوجدُ خارجَ التَّجمُّعات السَّكَنِيَّةِ. يَجِبُ الإشارة أيضاً، إلى أَنَّ دواويرَ شيشاوة تتوفَّرُ على أَزِقَّةٍ ضَيِّقَةٍ، وهو ما يُعيقُ اقتحامَها من لدُنِ بعضِ وسائِلِ النَّقلِ. بالرَّغم من ذلك، فالدُّورُ الهامِشِيَّةُ، والمَعزُولَةُ، الواقِعَةُ خارج المَداشِرِ والدَّواوير تَستفيدُ مِنَ البضائِعِ التي تأتيها مِنَ الأسواق، أو من الدَّكاكين. لكن كيف يَتِمُّ ذلك؟

إذا كانتِ الأَزِقَّةُ الضَّيِّقةُ تُعِيقُ بالفِعْلِ تَحرُّكَ بعضِ وسائِلِ النَّقل، فإنَّ ضِيقَها لا يَستطيعُ شيئاً أمامَ الحِمَارِ والبَغْلِ؛ تتولَّى هاتان الدَّابَّتان أُمورَ إِيصالِ البضائِعِ، والرَّسائِلِ، والأخبارِ إلى كُلِّ الدُّورِ التي سبق وأشرنا إلى الصُّعوبات التي تَحولُ دون تَمَكُّنِها مِنَ الاستِفادَةِ من ذلك. بِمَا أَنَّنا نتحدَّثُ

عن شيشاوة، ومن خلالِها في بعض الأحيان، عَنِ المغرب؛ فلا بأسَ أن نُقدِّمَ نظرةً، ولو في عُجالةٍ، عن وضعية الدَّوابِّ في بعض المدن من دُوَلِ البحر الأبيض المتوسِّطِ. وهيَ نظرةٌ قد ترتَبِطُ بِمَدى استعمال سُكَّانِ تلك الدُّول للحِمار والبَغْلِ، مَحَلَّ الحِصانِ والجَمَلِ. وعن ذلك تُفْصِحُ كِتاباتُ القرن الخامِسِ عشرَ والسَّادِسِ عشرَ الميلادِيَّيْنِ عَنِ المعلُومات التَّالِيَةِ: *"لقد ترك لنا فَلاَّحٌ إسبانيٌّ يُدعى أَلْفُونْسو دُو هيريرُو، عاش في عهدِ الملكِ الإسباني شَارْل كْوِينْت والدِ الملك فيليب الثَّاني، مَعلومَاتٍ في كِتابِهِ (الفِلاحَةُ الحُرَّةُ) تقولُ: إنَّ استعمالَ الحُمُرِ والبِغَالِ مَحَلَّ الجِيادِ في إسبانْيَا آنذاك، كان ضَرْباً مِنَ المُزاحِ."* وفي إيطاليا *"ومن أجل تدعيم تربِيَةِ الخيول في نَابْل بالذَّاتِ، في إيطاليا، لاَبُدَّ من مَنْعِ أغنياء نَابْل، وبِوَسائِلَ قَسْرِيَّةٍ من جَرِّ عرباتِهم بِوَساطة البِغَالِ."* وفي قُبْرُصْ *"وانطِلاقاً من عام 1550م، فَإِنَّ تربِيَةَ البِغَالِ يَنْتُجُ عنها تَقَلُّصٌ كبيرٌ في الخُيُولِ."* في الأندلس *"كان لاَبُدَّ مِنِ اتِّباع تدابيرَ صارِمَةٍ لحِمايةِ الخيول"* وفي شبه جزيرة البلقان *"وخِلالَ الحُروب التُّركيَّةِ الإمْبْرِيالِيَّةِ ما بين (1593-1606م)، كان المسيحيُّون يُحَبِّبُونَ بِغَالَهُمْ حتَّى لا تَنْفَدَ بِفِعْلِ تِلك الحُروب"*.

وعلى العكس من كُلِّ ذلك، فَإِنَّ شيشاوةَ تستعمل أَيَّ دابَّةٍ، وبِأَيِّ عَدَدٍ أراد أَهْلُهَا، وفي أَيِّ الأعمالِ. لأَنَّ الدَّوابَّ فيها لا تُستعْمَلُ فقط، للفلاحة وما يَدورُ في فَلَكِها، بَلِ اسْتُعمِلَتْ لأغراضٍ أُخرى كثيرةٍ،

ومُتنوِّعَةٍ. وقبل أن نَعْرِضَ للأغراضِ التي لأجْلِها استُعْمِلَتِ الدَّوابُّ في المغرِبِ، نُدْرِجُ هذا النَّصَّ، ولو على تَحامُلِهِ على حضارَةِ بلَدِنا، فإنَّهُ يُؤَكِّدُ فيه صاحِبُهُ سْتِيفان كْزِيل: *"أنَّ الشَّرقَ الأَدْنَى*، ويعني به حضارةَ الفينيقيِّين، *علَّمَ المَغارِبَةَ إنْتاجَ بعضِ أنواعِ الشَّجَرِ، واستِخدامَ الحِصانِ الَّذي لَمْ يُعرَفْ في المَغرِبِ إلاَّ بين الألْفيِّ الثَّاني والأَلْفيِّ الأوَّلِ ق.م."* ويَزيدُ، مع شيءٍ مِنَ التَّرَدُّدِ قائِلاً: *"إنَّ العَهْدَ الحَجَرِيَّ الصَّقيلَ لَمْ يَنتَهِ في منطقة المغرِبِ إلاَّ بعد 1000 ق.م، أي مع مَجيءِ الفينيقِّيين. فتعلَّم منهُمُ البَرْبَرُ استِعمالَ الحديد، دون أن يَمُرُّوا بِمَرْحَلَةِ استِعمالِ النُّحاسِ، والبُرُنْزِ."* [1] ودرْءً لأيِّ لَبْسٍ يُمْكِنُ أن يُحْدِثَهُ هذا النَّوعُ مِنَ التَّحامُلِ على حضارَتِنا، فقَدِ استهلَّيْنا هذا البحثَ بتقديمِ نظريَّاتٍ مُسْتَخْلَصَةٍ من بحثٍ في البَّالِيَنْطُلُوجْيا، لِصاحِبِهِ إِميلْ إينُوشِي، بيَّنَّا - من خِلالِها- كيفَ أنَّ البربرَ، وخِلافاً لِما أقرَّ به كْزِيل، كانوا يَستعمِلون، منذ زمانٍ بعيدٍ، قبل وصول الفينيقيِّين، آلاتٍ حَجَرِيَّةٍ صَقيلَةٍ ونُحاسيَّةٍ. أي أنَّهُم مَرُّوا مُبَكِّراً، بِثَوْرَةٍ نْيُولِيتِيَّةٍ، تتمثَّلُ في استِخدامِهِمْ لِحَجَرِ السِّلِكْس المنحوتِ، ولِكُوى النَّارِ. وأدواتٍ ما بَعْدَ نْيُولِيتِيَّةٍ، ولَوْ لَمْ يَتمكَّنوا هُمْ أنفُسُهُمْ من صُنعِها، وإنَّما تسلَّموها من جيرانِهِم، أو من تُجَّارٍ، أو من غُزاةٍ.

كيفَما كان الحالُ، فقدِ استُعمِلَتْ الدَّوابُّ، ومن بينها الأَحْصِنَةُ التي شهِدَ كْزِيل نفسُهُ على حضُورِها في المغرِبِ، منذ مابين الألفي الثَّاني والألفي

[1] - أنظر عبد الله العروى: "مُحمل تاريخ المغرب" ص45.

الأَوَّل ق.م في الحُروب، وفي البِناء، وفي السِّباقات أَيَّامَ المُناسبات الدِّينيَّة، والوطنِيَّةِ. واسْتُعمِلت أيضاً، في المَواسِمِ، وفي حفلات الزِّفاف، وفي الخِتَانِ، وفي الاستعراض، وفي التَّفاخر، والتَّباهي، واستِعْرَاضِ الزِّينةِ، وفي الإحصاء العامِّ للسُّكَّانِ والسُّكنى، وفي التِّجارة... ولْنَأْخُذ واحدةً من هذه الوظائِف:

خامِساً: العَطَّارُ خليلُ الدَّابَّةِ:

إذا ما ألقى المَرْءُ نظرةً على الخريطة الطَّرِيقِيَّةِ في شيشاوة، فإنَّهُ سيَجِدُ أَنَّ المَحاوِرَ الرَّئِيسَةَ فيها تَمْتَدُّ على الشَّكْلِ التَّالِي: مِحوَرٌ بين شيشاوة ومُرَّاكُشَ، عبرَ المُزْوضِيَّة واثْنِين لُودَايَة. مِحْوَرُ شيشاوة الشَّمَّاعِيَّة، عبر ثْلاَث إيغُّود. مِحْوَرُ شيشاوة الصَّويرة، عبرَ سِيدِي المُخْتَار وثْلاَث الحَنْشَان. مِحْوَرُ شيشاوة أَكَادِير، عبر إيمِي نْ تَانُوت. وهناك أَيضاً، مَحاوِرُ تَختفي وراء الطُّرُقِ، أوتظْهَرُ عن يَمينِها، وعن يسارِها؛ وهي، وإن كانت لا تتعدَّى في شَكْلِها مسالكَ نَحَتَتْهَا الحوافِرُ والأقدامُ، فإنَّها تربطُ بين مُختلِفِ النِّقَطِ. وعلى امتداد هذه الطُّرُقِ والمسالك، يُسجَّلُ حضورٌ هَامٌّ لِتِجارَةِ العِطارَةِ؛ يذهب العطَّارون ويَجِيئُون مُمْتَطِينَ دوابَّهُمْ؛ حميراً، أَو بِغالاً، يَحمِلون معهُمُ البضائِعَ، والرَّسائِلَ، والأخبار.

لَقَدِ ارتبط العطَّارُ في حِرْفَتِهِ بِمفهوم البِشَارَةِ. ولذا فهو الرَّابِطُ الأساسُ بين الأُسَرِ المُتاخِمَةِ للأراضي البعيدة عَنِ الطُّرُقِ الرَّئيسَةِ، كما يَرْبِطُ أيضاً، بين القبائِلِ والدَّواوِيرِ. يشير في هذا الصَّدَدِ دُوتِّي إلى ذلك في كتابه

قائلاً: *"نَعرفُ أَنَّ البَشَّارَ هو الذي يَنقُلُ الأخبارَ المُتعلِّقَةَ بالطَّرفِ الآخرِ من الأسرة، والقاطنِ بالدُّوَّارِ الآخرِ، البعيد عَنِ الَّذي يَقْطُنُهُ مُراسِلُهُ. وهم كثيرونَ، تَصْحَبُهُمْ حُمُرُهُمْ. وعليه، ففي هذا السِّياقِ، يُعتَبَرُ العَطَّارون بَشَّارُونَ."* ثُمَّ إِنَّ نقلَ الأخبارِ يقتضي سُرعةً مُعَيَّنَةً، تتوازَى فيها سُرعَةُ المَشْيِ مع سُرعة التَّبليغ، وإِيصالِ البضائِعِ. وعن هذه المُتَوازِيَةِ يُحَدِّثُنا فِيرْنَان بْرُودِيل في إطار مُعادَلَةٍ قائلاً: *"تَكونُ الرَّسائِلُ المتبادَلَةُ، وكذا البضائعُ اللاَّزمةِ مَحْكومَةً بالبُطْءِ، وبذلك فهي لا تُشكِّلُ استثناءً عَنِ القاعِدَةِ المُتمثِّلَةِ فيما يلي: في إطار الخدَمات المُقَدَّمَةِ مِنْ لَدُنِ العَطَّارِ المُتجوِّلِ، فَإِنَّ الوقتَ المُستَغْرَقَ في الطَّريق يُضافُ بانتظام، إلى الوقت المُتَعلِّقِ بالمُقابِلِ المُقَدَّرِ بِمَدى أهَمِّيةِ، وسُرعة إبلاغِ الرِّسالَة"* [1] إِنَّ الأَجْرَ المُقابِلَ للسُّخرة التي يَقُومُ بِها العَطَّارُ، يكونُ في مثل طولِ، أو قِصَرِ الفترة الزَّمنيَّة التي يَقْضِيهَا بين المُرسِل والمُرسَلِ إليْه. والأَجْرُ ذاكَ إِمَّا أن يكونَ نقداً، أو عَيْناً. وفي كِلْتَا الحالَتَيْنِ، فَإِنَّ الحِمارَ والبغْلَ يستفيدانِ مَعاً، من ما يَتَفَكَّرُهُ به العطَّارُ. وكُلَّما كان الأجْرُ مُرتفِعاً كانتِ استفادَةُ المطِيَّتَيْنِ كبيرةً من الكلإ، والعكسُ جائزٌ. نُثِيرُ الانتباهَ إلى أَنَّهُ في الوقت الَّذي يَركَنُ فيه الحِمَارُ والبَغْلُ إلى الرَّاحَةِ، غَاطِساً كُلُّ واحدٍ منهُما مِشْفَرَهُ في الجِرَابِ المليء بالشَّعير، فَإِنَّ العطَّارَ غالباً، ما يتلذَّذُ بِمَقالِبِهِ؛ مُغازَلَةُ بعضِ نساءِ الدُّوَّارِ، اللاَّئِي غالِباً ما يتهيَّأْنَ لذلك. وتدورُ في غالِبِ

---

1 – Braudel (F) Ibid T_I p 386.

الأحيانِ تفاصيلُ المُغازَلَةِ، وما يليها من مُذاعَباتٍ حول رَقَبَةِ الدَّابَّة المُنْشَغِلَةِ بالقضْمِ، فتحظى بِمَسْدِ رَقَبَتِها من لَدُنِ الأُنثى المُذَاعَبَةِ، خُصُوصاً إن أرادت أن تُوَارِيَ حَرَجَها النَّاتِجِ عَنْ ذلكَ المَشهد المليء بالمُرَاوَدَةِ.

وعَنِ ارتباطِ السُّخرة، أَوِ الخِدمة التي يُقدِّمُها العطَّارُ بالتَّأنِّي والبُطْءِ في السَّيْرِ، فَإِنَّ لِفِرْنان بْرُوديل رَأْياً في الموضوع، إذ يقول: *"يعتبرُ بُطْءُ المَسالِكِ بمثابة مُشْكِلٍ عَامٍّ. فَعِندما تُسافِرُ، أو تُنْقَلُ البِضاعَةُ: النُّقود، وأيضاً الرَّسائِلُ المُتبادَلَةُ في اتِّجاهٍ، أو في آخَرَ، تتقاطَعُ، تلتَقي. فَتَخْضَعُ هذه الدَّوراتُ إلى البُطْءِ، لأنَّها تَحْجِزُ البَضائِعَ، والنُّقُودَ، والرَّسائِلَ المُتبادَلَةِ في المسالِكِ لِمُدَّةٍ أَطْوَلَ"*. والواقعُ أَنَّ ما يُبْطِئُ تَبليغَ البضائِعِ، والرَّسائِلِ لا يَقْتَصِرُ فقط، على طول المسافات، أو على صُعوبَةِ اختراقِ المسالِكِ، وإنَّما تُضافُ إليه التَّوقُّفاتُ التي يقوم بِها العطَّارُ في الأسواق مثلاً، أَوِ في الدَّواوير، أَوِ في المَحَطَّات، أَوِ في المواسِم، أَوِ في الزَّوايا. ويكون المُقابِلُ غالِباً، عَنِ الرَّسائِلِ المُبَلَّغَةِ في مَوْعِدٍ أَطْوَلَ مِمَّا كان يُتَوَقَّعُ لَها، أو أَنَّهُ غالباً ما يكونُ قَصِيراً. فلا يَحظى الحمارُ عندَها، سِوَى بِنَصيبٍ ضَئِيلٍ مِنَ الكَلإِ هُوَ الآخَرَ. وفي كُلِّ الأحوالِ فَإِنَّ الحِمارَ هنا، بِمثابة رأسمالِ العَطَّارِ، ولكي يَستعِدَّ كَرَأْسَمالٍ لإعادةِ الإنتاج، لابُدَّ لَهُ أن يَستريحَ، وأن يُعْتَنَى به، ويُحْفَظَ. إِذَنْ فالحِمارُ هو الَّذي يُقرِّرُ بِسُرعتِهِ، أو بِبُطْئِهِ مَدَى أَهَمِّيةِ البِضاعة، أو مدى تواضُعِ قِيمَتِها. فَبِفَضْلِهِ يُصبِحُ الوَقْتُ مُساوِياً للمُقَابِلِ-النَّقدي. وعلى هذا

الأساسِ، يُفضِّلُ العطَّارُ المسالِكَ القريبَةَ على البعيدة، أي تِلْكَ المسالِكُ التي تَحمِلُ الرَّأْسَمَالَ المُوظَّفَ من قَبْلُ، بِسُرْعَةٍ كبيرةٍ. غير أَنَّ المُشكلَ هنا، يكمُنُ في أَنَّ المَسَالِكَ القريبَةَ بين الدَّواوير، والمداشِرِ، والتجمُّعات السَّكنيَّةِ في شيشاوة، غالباً ما تكون صَعْبَةَ الاختراقِ، نتيجَةَ وُعورَةِ التَّضاريس، أَوِ حَيْلُولَةِ الغابات، أَوِ التَّجمُّعات المائِيَّةِ دون التَّبليغِ السَّهْلِ. وعَنِ المُشكِلِ نَفْسِهِ، يُسعِفُنا دُوتِّي بِمعلوماتٍ قائلاً: *"تكونُ هذه المسالِكُ مُتَحَجِّرَةً وَصَلْبَةً، فيكونُ بذلك الحمارُ هو الضَّحيَّةَ الوحيدَة؛ لأَنَّ العَطَّارِينَ غالباً، ما يَتَّبِعُونَ المسالِكَ الضَّيِّقَةَ، الَّتي تَوَفَّرَتْ لَهُمْ بِصُعُوبَةٍ وضِيقٍ وَسَطَ الأحجارِ الصَّلبة المُنتَشِرَةِ"*[1].

1 – Doutté (Edmond) Ibid p160.

الباب الثامن

شيشاوة المُقاوِمَة أرضاً وأناساً

الفصل الأوَّل:

للمغاربة جِبِلَّةٌ على المقاومة من الرُّومان إلى المرينيِّين

الفصل الثَّاني :

جوانب من حركة الجِهاد في شيشاوة مِنَ السَّعديِّين إلى العلويِّين

الفصل الثَّالث:

محاولاتٌ للإقلاع بالإقليم الشِّيشاوِيِّ الفَتِيِّ

الفصل الرَّابِع:

تنظيرٌ لِسُبُلِ تفعيل التَّنميَّة البشريَّة في شيشاوة

الفصل الأول

أصالة المقاومة لدى المغاربة

أولاً: تأصيلٌ مُقْتَضَبٌ:

المقاومة سلوكٌ صِدَامِي له وجهان، كما للجهاد البحري. فحين يتحدَّث مَثَلاً، مُجاهدو مَدِينَتَيْ سَلاَ والعَرَائِشِ عن بطولاتِهم أثناء اعْتِراضِهِمْ سُبُلَ سُفُنِ نصارى الضِّفَّةِ الشَّمَالِيَّةِ في عَرْضِ البحر المتوسِّط، أو في البحر المحيط، يُسَمُّون إِنْجازاتِهم بالجهاد البحْري، المُنطلِق من دار الإسلام إلى دار الحرب. فيما يُسمِّيهمُ النَّصارى بالقَرَاصِنَةِ. وللمقاومة أيضاً، وَجْهَيْنِ آخريْنِ: وجهٌ تتحقَّقُ - من خلاله- إن وُجِّهَتْ من لَدُنِ الأبطال الشَّعبيِّين ضِدَّ النَّصارى المُقتحِمين للبلاد عبر الثُّغور؛ ووجهٌ آخرُ يتحقَّقُ لأبطالٍ شعبيِّين آخرين يَتَصدَّوْنَ لِجَشَعِ السُّلطة المركزيَّة، أو يتسيَّبُون عليها آنَ ما تتراجَعُ هَيْبَتُهَا، أو يتفشَّى ظُلْمُها، وشَطَطُها. وشيشاوة نَموذجٌ حَيٌّ للوجهيْن معاً.

مِنَ المعلوم أَنَّ التَّهديدَ الأكثر شراسةً للأراضي المغربية قد تَجَسَّدَ في التَّوغُّل الرُّومانِي في المغرب خِلالَ التَّاريخ القديم. وهنا تستوقفُني مُلاحظةٌ بسيطةٌ، ولكنَّها بالِغَةُ الأهَمِّيَّةِ من حيثُ العُمْقُ، أبداها لنا الباحثُ عبد الله العروي حين قال: *" يستطيعُ المرءُ أن يُبَهَتَ من قُوَّةِ الرُّومان، حين يُعايِنَ*

الأَفلاَم التَّاريخيَّة عند الغَرْبِ؛ إذ يُقدِّمون فيها المُقاتلين الرُّومانَ مُمْتطِينَ خُيولَهُمُ المُطهَّمةَ، ومُدَجَّجين بِدُروعِهِمْ، وحِرابِهِم، ونِبالِهِم، وجُلودِهِم، ومَنْجَنيقاتِهِمْ... ولكنَّ الكتِابات التَّاريخيَّة القديمة، سواءٌ منها الرُّومانيَّةُ، أو الإسلاميَّةُ، أَجْمعت على أَنَّ الرُّومانَ قد هُزِموا من لَدُنِ الفاتحِين المُسلمين من الشَّام إلى فتح القسطنطينية. غير أن كتِابات المُسلمين لَم تَفِ بِغَرَضِ الوَصْفِ الدَّقيق، أو رسم هيئاتٍ واضِحَةٍ للمقاتلين المُسلمين؛ ربَّما ذلك راجعٌ إلى مَوْقِفِهِمُ البَيِّنُ مِنَ التَّجسيد" [1].

ولعلَّ ما يُزكِّي هذا القولَ يُوجدُ بِجلاءٍ، في فِلْمِ كْلاَدْيَاتُّور، الَّذي بَيَّنَ أَنَّ الكَتِيبَةَ الخامسةَ لِجُيوش الرُّومان، قد هاجمت قبائِلَ الجِرمان هُجوماً سريعاً، ومُنظَّماً، وذا فعاليَّةٍ. فيما أَثْبَتَ لنا التَّاريخُ القديمُ المتعلِّقُ بالمغرب أَنَّ الكَتِيبَةَ الثَّالثةَ هي الَّتي حَرَسَتِ السُّهولَ المغربيَّةَ، الَّتي صادَرَهَا الرُّومانُ بالقُوَّةِ، مِنْ أمازيغِ المغرب، وهي نفسُها الَّتي دفعت بِهِمْ إلى أن يَحْتَموا بِقِمَمِ الجبال.

يُخبرُنا التَّاريخُ القديمُ بِأَنَّ المغربَ القديمَ كان مُكوَّناً من مَمْلَكَتَيْنِ: مَملكةُ نُوميدْيَا، وتَمتدُّ من قرطاجة إلى وادي مَلْوِيَّةَ؛ ثُمَّ مَملكة موريطانيا، وتَمتدُّ من وادي مَلْوِيَّةَ إلى البحر المحيط. وأَنَّ أَبرَزَ مُلوك هذه الثَّانية هُمْ بُوخُوسْ القديم، وبوخُوس الشَّاب، وبُوغُود. وكُلُّهم عاشوا في المغرب

---

[1] - عبد الله العروي: "مُلاحظةٌ أبداها في إحدى المحاضرات لطلبة السِّلْكِ الثَّالِثِ (مادة المناهج) الرباط، عام 1988م" .

قبل الميلاد، وكُلُّهم عَجَزُوا عَنِ التَّصدِّي لِلزَّحف الرُّومانِي على الأراضي المغربية. فيما استولى الرُّومانُ من جِهَتِهِم، على أجود الأراضي، مُعتَمِدِين على قُوَّتِهِمُ العسكريَّة لإخضاع الأمازيغ. إذ فرضُوا عليهمُ السُّخرة، ومَتَّعوا بعضَ الأمازيغِ بِحَقِّ المُواطنة لأجْلِ مَحْوِ الشَّخصيَّة الأمازيغِيَّةِ. ولَمَّا: *"لَم يُوفَّقِ الملوكُ الأمازيغُ في إيقاف الزَّحف الإستعماري الرُّوماني، أخذت ظاهرةُ المُقاومة الشَّعبيَّةِ تَبْرُزُ للوجود. بدأت إذَّاكَ القبائلُ الأمازيغيَّةُ تُحارِبُ الرُّومانَ بصورةٍ تِلْقائيةٍ... في الحِقْبَةِ المُمتدَّةِ من سنة 34 إلى 19ق.م دَارَتْ رَحَى الحرب بين الطَّرفَيْنِ خَمْسَ مَرَّاتٍ (على مدى 15سنة). فخرج من صُفوف المُقاومينَ زعماءٌ، وقُوَّادُ حَرْبٍ أمازيغ خلَّدَ التَّاريخُ أسْمَاءَهُمْ، أمثال: تَاكْفَارِيناس، وَأَيدِيمُون"*.[1]

ثانياً: إسهام أهل شيشاوة في فتح الأندلس:

سبق وأشرنا إلى درجةِ إسهام أهل شيشاوة في فتح الأندلس، فلفتنا الإنتباه إلى أَنَّ جَاكْ بِيرْك قد لاحظَ أَنَّ التَّحرِّيات التي تَمَّت في شأن جُلِّ الكتابات الإسبانية-المُسلمة، التي تطرَّقت لفترة عبور الفاتحين لِمَضْيَقِ جبل طارق، لَمْ تكن كافيةً للكشف عن أسْماءَ أمَازِيغِيَّةٍ شاركت في عمليَّة العبور تلك، ولَها علاقةٌ بأسْماءِ أمكنةٍ، أو قبائلَ مِنَ الأطلس الكبير الغربي المنتمي إلى مجالات شِيشَاوَةَ. غير أَنَّه بالرَّغم من نُدرة الأسماء الأمَازِيغِيَّةِ داخل تلك

[1] - محمد شفيق "لمحة عن ثلاثٍ وثلاثين قرناً من تاريخ الأمازيغ" ص40.

الكتابات، فَإِنَّ عبد الرَّحمن بْنَ خلدون يُسعفنا بِمعلوماتٍ حول رِجالٍ مِنَ المَصامدَة-الأَمازيغ، شَهِدَ لَهم بالمشاركة الفعَّالة في الفتح الإسلامي بالأندلس إذ يقول: *"ومن بُطون كَنْفِيسَةَ أيضاً قبيلةُ سَكْسِيوَةَ المُوطَّنون بِأَمْنَعِ المَعاقِلِ من هذه الجبال، يُطِلُّ جَبَلُهُم على بسيطِ السُّوسِ مِنَ القِبْلَةِ، وعلى ساحل المحيط مِنَ الغرب... وكان من مَشاهيرهم كُسَيْرُ بْنُ وَسْلاَس بْنِ شَمْلاَل مِنْ أَصَادَة، وهو جَدُّ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، راوي المُوَطَّأ عن مالك. دخل الأندلس، وشهِد الفتحَ مع طارقٍ في آخرينَ مِنْ مَشاهيرهم استقرُّوا بالأندلس، وكان لأعقابِهِم بِها ذِكْرٌ في الدَّولة الأُمَوِيَّةِ"*.

ثالثاً: مُبادَرَةُ أهل شيشاوة للجهاد قبل المرابطين:

سبق وأشرنا إلى أنَّ يَعْلَى بنَ مْصَلِّين، وهو رَكراكيُّ الأصل، قد شيَّدَ رباطَ شاكِرٍ، وكان ذلك قُرابة نِهاية المائة الرَّابعة للهجرة.[1] وقد بات رباطُ شاكرٍ مَحَجّاً للأولياء، خاصَّةً في شهر رمضانَ، وبات فيما بعدُ، في أيَّام زحف المرابطين مِنَ الجنوب، مُنطلقاً للحملات التَّأديبية التي قام بِها المُلثَّمون ضدَّ البَرْغْوَاطِيِّينَ المُنتشرين في سهول تَامَسْنَا، بين وادي سَبُو شَمالاً ووادي أُمِّ الرَّبيعِ جنوباً.

ويزداد هذا تأكيداً عندما نقرأُ على لِسان عَلِيِّ بنِ أبِي زرعٍ الفاسي مَثَلاً، أَنَّ أبا بكرٍ بْنِ عمرَ اللَّمْتُونِي ارتَحَلَ بعد غَزْوِهِ لِجميع بلاد السُّوسِ، إلى بِلاد

[1] - رِباطُ شاكِرٍ هو أوَّلُ وَلِيٍّ صالحٍ دُفِنَ في المغرب، ويوجد ضريحُه على الحدود بين عَمالة شيشاوة وعمالة آسفي.

المصامدة-الأمازيغ: "*ففتح جبالَ دَرَنْ، وفتح أيضاً بِلادَ رُودَةَ، وفتح مدينةَ شيشاوَةَ بالسَّيْفِ، ثُمَّ فتح بِلادَ نَفِّيسَ وسائرِ كَدْمِيوَةَ، وأتاهُ قبائلُ زَكْرَاكَةَ وحاحَةَ فبايعوهُ، وارتحَلَ إلى مدينة اغْمَاتْ.*" [1] ولعلَّ ما يُثيرنا في هذا النَّصِّ هو وُرودُ كلمة شِيشَاوَةَ، ونَعتِها من لَدُنِ صاحب كِتابِ رَوْضِ القِرْطَاسِ، بالمدينة ومُرَّاكُشُ لَمْ تُؤَسَّسْ بعدُ. ثُمَّ إنَّ موقعَ رباطِ شاكرٍ هذا في شَمال شِيشَاوَةَ، على مَقرُبةٍ مِنَ الضِّفَّة الشَّمالية لِوادي تَانْسِيفْتْ يكاد يَمُدُّنَا بتفسيرٍ للحيْرة التي انتابتِ الباحثَ الأرخيولوجي الفرنسي بُولْ بِيرْتْيِي، بعد أن عثر صُدفةً، وهو ينقِّبُ في أنقاض مَعْصَرَتَيْ السُّكَّر الشِّيشَاوِيَّتَيْنِ، على بقايا في دارٍ قديمةٍ، من أشكال البِناء والتَّزيين ذاتِ الطَّابع المُرابطي،[2] فلم يستطع أن يلتَمِس لِحيْرته جواباً شافياً.

والواقعُ أَنَّ لِحَيْرَةِ هذا الباحث ما يُبرِّرُهَا؛ فالنُّصوص التي تَحدَّثت عَنِ الوجود المرابطي في شِيشَاوَةَ، ونخصُّ بالذِّكْرِ منها نَصَّ ابنَ أبي زَرْعٍ الفاسي، لَمْ تتعدَّ الإشارةَ إلى مرور هؤلاء الملثَّمين منها أثناء إخضاعهم لِمَناطق الحوز، قبل أن يتوجَّهوا إلى اغْمَاتَ. وهو ما يجعلُنا نستبعدُ أن يكون أبو بكرِ بْنِ عمر اللَّمتوني قَدِ استقرَّ في شِيشَاوَةَ، أو شيَّد بها تلك الدَّارَ لتكون واجهةً خلفيَّةً لكتائِب المقاومين المُناوشين للبرغواطيين. وهو ما لا

---

[1] - ابن أبي زرع الفاسي: "الأنيس المُطرِبُ بروض القِرطاس في أخبار مُلوك المَغرب وتاريخ مدينة فاس." ص 128-129.

[2] – أنظر مقال :

« La maison de la pleine et la maison des oliviers à Chichaoua » Hespéris :1962 vol 3 fasc. 1. pp. 75-77.

يَمنعُنا في الوقتِ نفسِهِ مِنَ القول بأنَّ الدَّارَ المذكورة قد شُيِّدَتْ في شِيشَاوَةَ، قبل زحف المرابطين مِنَ الجنوب، كثانِي مَحَطَّةٍ لتجمُّع المُقاتلين ضدَّ البُرغواطيين، بعد أن يكونوا قَدِ انْطلقوا مِنَ المَحَطَّةِ الأُولى التي هي رباطُ شاكرٍ. وإذا ما صحَّ هذا الافتراضُ يجوزُ لنا أن نُقِرَّ بِأَنَّ مجالات شيشاوة كانت دَعامةً أساساً للمُقاتلين الَّذين برز من بينهم ابنُ موسى المْلِيجِي،[1] وهو: *"مِنْ أهل قرية مُليجَة من بلاد رَكْرَاكَة، من تلامذة أبي عبد الله الَّذي كان بِتَالَّغْتْ، من أشياخ عبد الخالق بْنِ ياسين من أكابر الأولياء."* [2]

رابعاً: بين التَّمرُّد والجهاد في أيَّامَ حكم الموحِّدين:

سبق وأشرنا إلى أنَّ كثرة الأفخاذ المُنضويَّة تحت لواء كَنْفِيسَةَ أبانت على أن هذه الأخيرة كانت على جانبٍ كبيرٍ مِنَ القُوَّة والإِئْتِلاَفِ، وأشرنا أيضاً إلى أنَّ ابْنَ تُومَرْت كان قد خصَّصَ مَجالَها، إِثْرَ رِحلتِه التَّبشيرية، والعَسكريَّة في آنٍ واحِدٍ، في دَرَنْ خِلالَ عامِ (514هـ/ 1120-1121م) بعنايةٍ

---

[1]- تُوجد قَرية هذا الوالي المُسمَّاةُ مْليجَةَ في مَوْطِنِ قبيلة احْمَرْ، على بُعد 68 كلم من مراكش، وعن يمين المُتَّجه منها نحو شيشاوة، وقبل الدُّخول إلى هذه المدينة بِيسيرٍ. وتُسمَّى كذلك قرية البَطْمَةِ نِسبةً إلى شجرة البَطْمِ، وهي شجرةٌ ذاتُ جِذْعٍ ضخمٍ تعود إلى مُخلَّفات الزَّمن الجْيولوجي الثَّالث. والبطمُ بِلسان البربر هو إِيكْ بجيمٍ مِصريَّةٍ عليها سكونٌ وشدَّةٌ (lgg)، فتكون التَّسميةُ المنسوبة إليه هي الإِيكِّي. وهمزة القطع مع كسرٍ في أوَّلِه هي التي تُحوِّلُ في التَّعريب إلى هَاءٍ، فجاء هكذا الهِيجِّي. أنظر: إحالات الباحث أحمد التَّوفيق في إحالاته في كتاب "التشوف" ص125-126.

[2] - المصدر نفسُه، ص126.

خاصَّةٍ. إذ أحاط بِمجالِ إِدَاو مَحْمُود من جهتِه الشَّماليَّة، وكذا الغربيَّة إلى أن أخضَعَه، ومنه بلغ إلى تَاكَطُّوشْت المُتاخِمة لِجَنُوبِي ممَرِّ تِيزِي نْ أُومَاشُّو، المحاذي لإيمي نْ تَانُوت، إلى حدود البحر المحيط في الغرب حيثُ مجالاتُ إِمْشَاجِينَا على ضفاف مَصَبِّ وادِي سُوس في البحر المُحيط. ثم سرعان ما عاد من جنوب السِّلسلة الأطلسيَّة لِيُهاجم إِدَاو مَحْمُود، إحدى قبائل كَنْفِيسَةَ بِوَسَاطَةِ آيت وَاكَّاس، وهم بَطْنٌ من بطون القبيلة نفسِها. وبعد عشر سنواتٍ من ذلك، في حدود عام (526هـ/ 1132م) ثار من جديدٍ، ابْنُ مَلْوِيَّةَ، وهو زعيمُ كَنْفِيسَةَ في ذلك التَّاريخ، بعد أن ركَّز قواتِه بِتَاوْدَغُوسْت، وهو مكانٌ لَمْ يَتِمَّ تحديدُه إلى الآن. غير أنَّه قُتِلَ من لَدُنِ مُوحِّديٍّ يُدعى التِّيكِّي، على أَنَّ هذا الاسمَ يُعْتَبَرُ بِمثابةِ أَوَّلِ إشارةٍ لِرَجُلٍ ينتمي لا مَحَالَةَ، إلى قبيلة مْتُوكَّةَ الشِّيشَاوِيَّةِ، المسمَّاة بِالشَّلْحَةِ إِنْ تُوكَّة، التي إنَّما هي جمعٌ للكلمة المفرد أَتِّيكِّي. يتَّضح مِمَّا أدرجناه أَنَّ الدَّعوةَ المُوحِّديَّةَ قد تَمَكَّنَت من بعض القبائل المصموديَّة، إلى درجة أنَّها تولَّت إخضاعَ القبائل المجاورة لَهَا إلى السُّلطة الموحِّديَّة القائمة. وعن بقيَّة أخبار جبل شيشاوة أيَّام الموحدين، يقول لنا ابن خلدون بأنَّ هذا المجالَ المرتفِعَ كان آهلاً بالمصامدة وهم *"أُمَمٌ لا يحصيها إلاَّ خالِقُها"* وهو ما جعل *القبيلةَ الأُمَّ*، كَنْفِيسَة تُمَثَّلُ بأربعة أشخاصٍ داخل مَجْلِسِ الخمسين لدى الموحِّدين، ليحتلُّوا بذلك المرتبةَ الرَّابعةَ في التَّمييز الموحِّدي، بعد قبائل *هَرْغَةَ: قبيلةِ الإمام المهدي، وهَنْتَاتَة، وتِنْمَل.*

خامساً: بين التَّمرُّد والجِهاد في أيَّام حكم بني مرين:

تأتِي شهادة ابن خلدون لتؤكِّد أَنَّ قبيلةَ سَكْسَاوَةَ، وإن لعبت دوراً طلائِعِيّاً في إرساء الثَّقافة الصُّوفيَّة من خلال تأسيس للأَّعزيزة لِمَا سُمِّيَ بِنِظام الطَّوائف، أو من خلال تنظيم أميرها حَدُّو يوسف قَبْلَهَا بكثيرٍ، للمُناظرات مع أحبار اليهود، خصوصاً بعد انصرام العصر المرينِيِّ الأوَّل. هكذا برز عن قبيلةِ سَكْسَاوَةَ الشِّيشَاوِيَةِ أميرُها عبدُ الواحد، المشهور حالياً بِحَدُّو يُوسُفْ، والَّذي كان مُعاصراً للسُّلطان المريني أبِي يوسفَ يعقوب قبل أن يتوفَّى حَدُّو عامَ (680هـ/ 1281-1282م). برز كَقُطْبٍ من أقطاب الثَّقافة المصموديَّة-الأمازيغيَّة في جبال شِيشَاوَةَ، واهتمَّ إلى جانب كونِه أميرَ قومه، بِمجموعةٍ مِنَ العلوم العقلية والدِّينية، وبالسِّحر والشَّعوذة، وجالسَ اليَهودَ. وبرز أيضاً، كَمُتَصَدٍّ لقيام سلطة بني مرين، وكأنَّ له رغبةٌ في أن تعودَ السُّلطةُ لبني شيعَتِهِ الموحِّدين بعد نِهاياتِهِمُ المُخْزِيَّةِ. ولعلَّ خاصِّيةَ حفيدِ حَدُّو يوسف عبدُ الله السَّكسيوِي، تكمُنُ في طول المدَّة التي بَقِيَ فيها أميراً على سَكْسَاوَةَ، إِذِ امتدَّت إلى أواخر عام (762هـ/ 1360-1361م)؛ ولذلك مَدَّ نفوذَهُ على بعض القبائل المجاورة. ولَمَّا استَبَّ الأَمْرُ للسُّلطان المريني أبِي الحسن الَّذي حكم بين عَامَيْ (731هـ/ 1331م)-(749هـ/ 1348م)، وتبيَّن أَنَّ السِّكْسِيوِيِّينَ قد سبق وخرجوا عن طاعة سَلَفِهِ من سلاطين بني مرين، وامتنعوا عن تأدية الضَّرائب إلى عُمَّالِهِمُ

الهَنْتَاتِيِّينَ، انتظر السُّلطانُ المذكورُ إلى أن: *"فَرَغَ مِنْ شأن أَخيه عُمَرُ،*[1] *وسكَّن فتنةَ المغرب، ودوَّخ أَقطارَه، وحَلَّ مُعْتَصَمَهُ بالعساكر. فقام بمُحاصرة عبدِ الله السَّكْسِيوِي دون أن يَجِدَ هذا الأخيرُ من يَمُدَّهُ بالمساعدة لفَكِّ الحِصار. إذ كان السُّلطان أبو الحسن قد تغلَّب على عَرَبِ السُّوسِ، ثُمَّ أنزلَ عُمَّالَهُ بالعساكر بين السَّكْسِيوِّيِينَ."* ولمَّا وجد عبدُ الله نفسه مَعزولاً: *"لاَذَ مِنَ السُّلْطَانِ بطاعةٍ مَعروفةٍ رَهَنَ فيها ابنَه مُحَمَّد، واشترط للسُّلطانِ الهَدِيَّةَ والضِّيافةَ، فتقبَّل منه ومَنَحَهُ جانبَ الرِّضى."* غير أَنَّ عبدَ الله السَّكسيوي لَمْ يَحفَظْ للسُّلطان المريني أبي الحسن سابِقتَه تلكَ، وانتظر هو بِدَوْرِهِ وقتاً، إلى أن: *"كانت نَكْبَةُ السُّلطان بالقيروان عام* (749هـ/ 1348م)، *واضطرب المغربُ فتِنةً، وخَلاَ جَوُّ البِلاد المُرَاكُشِيَّةِ مِنَ المَشايخِ، اجتمع رَأْيُ المَلإِ مِنَ المَصامدةِ على النُّزول إلى مُرَّاكُش، وأَحكموا عَقْدَ الاِتِّفاقِ بينَهم، وأَجْمَعُوا تَخْرِيبَها بَما كانت داراً للإمرة ولمُقَامِ الكتائبِ المُجَمَّرَةِ."* يبدو أَنَّ السَّكْسِيوِيِّينَ كانوا يُكِنُّونَ عَدَاءً شديداً للْهَنْتَاتِيِّينَ، عُمَّالِ بني مرين على مُرَّاكُشَ وعليهم، كما كانوا يُبَطِّنُونَ كَراهِيَّةً لِمُرَّاكُشَ، مَوْطِنِ إمارةِ أولئكَ الهنتاتيِّين الَّذين أَثْقَلوا كاهِلَ القبائلِ الأمازيغيَّةِ بالضَّرائب. وتَظهرُ مَلامِحُ العَداء جَلِيَّةً - مِنْ خِلال اغتنامهم- فُرصةَ خُلُوِّ مُرَّاكُشَ مِنْ

[1] – كان السُّلطان المريني أبو الحسن (1331-1348م) قد توجَّه إلى المغرب الأوسط لحصار تلمسان، ثم عاد إلى مراكش. بعد أن علِم أبو الحسن بغدر أخيه عاد إلى المغرب، فتتبَّعَهُ إلى أن حاصرَه بِسِجِلْمَاسَةَ واقتحمها عليه في عام (734هـ-1334م)، وقَتَلَهُ.

شيوخ هَنْتَاتَةَ الَّذين صَحِبُوا السُّلطانَ المريني في حِصاره لِتِلمسانَ وأَفْرِيقِيَّةَ، لِيُجمعوا أَمرَهُمْ على الاِنْقِضاضِ عليها. ولعلَّ ما يُوضِّحُ أَنَّ السَّكسيويِّينَ كانوا أَشَدَّ المصامدة–الأمازيغِ تَحاملاً وتَربُّصاً بِمُرَّاكُشَ، ما كان من زعيمِهم عبدِ الله السَّكْسِيوِي، إذ: *"ضَمِنَ هُوَ تَخريبَ المَساجِدِ لِتَجافيهِمْ عنها، فكانت مَذكورةً على الأَيام."* فما الَّذي حَمَلَ السَّكْسِيوِيِّينَ على العَزْمِ على تَخريب مُرَّاكُشَ؟! ويبدو أَنَّ عبدَ الله لَمْ يُسْرِعْ، والحمدُ لله إلى تنفيذ ما كان عازماً عليه، وهو تَخريبُ مُرَّاكُشَ وهَدْمُ مَساجِدِها. إذ يذكُرُ ابْنُ خلدون أَنَّهُ سرعانَ ما: *"انْحَلَّ عَزمُهم، وافتَرَقَتْ جَماعَتُهم وكَلِمَتُهم بِمَا كان مِنِ اسْتقامَةِ الدَّوْلَةِ بِفَاسَ، واجتماعِ بني مَرينَ على السُّلطان أبي عِنان... فانْحَجَرَ كُلٌّ منهم بِوِجَارِهِ."*

الفصل الثاني

جوانب من حركة الجهاد في شيشاوة

مِنَ السَّعديِّين إلى العلويِّين

أوَّلاً: فِطْرَةُ الجِهاد:

بِما أَنَّ الحركةَ الجزوليَّةَ كانت هي الممثِّلُ الأكبرُ للجِهاد في ميدان مغرب (ق10هـ16/ م)، فَقَدِ انخرط فيها محمَّدُ بْنُ عبد الرَّحمن الحسني، الَّذي جاء إلى رودانة، وتلقَّبَ بالقائِمِ بِأَمْرِ الله، فبعث وَلَدَيْهِ أحمد المُلَقَّبُ بالأعرجِ، ومحمَّد المُلَقَّبُ بالشَّيْخِ إلى فاس عام (917هـ/ 1115م) يَلْتمِسان مِنَ الأمير الوطَّاسي محمَّد المُكنَّى بالبُرْتُغالي، السَّماحَ لَهما بتنظيم الجِهاد، أو بِعِبارةٍ أُخرى بِإِنابَتِهِما عنه في منطقة سوس. ولَمّا أحرز محمَّد القائم على نصرٍ مَعنويٍّ غادر سوس، واستقرَّ في أفُغال، حيث كانت توجد زاوية الجزولي. في مُقابل ذلك كان نفود الدَّولة الوطَّاسية منحصِراً في الشَّمال، ولَم يكن يَصِلُ إلى جنوب البِلاد، فيما كانت مَخَاطِرُ البُرْتُغاليِّين تزدادُ باحتِلالِهم لِثُغورٍ كثيرةٍ على السَّواحل. وفي مُقابِلِ غِياب سُلطة المخزن في المناطِقِ الصَّحراوية، فقد بادر السُّكَّانُ، ومنهمُ السِّباعِيُّون الَّذين نزح كثيرٌ منهم، فيما قبل إلى سهول شيشاوة، للدِّفاع عن مَصالِحِهم هناك، وعن عقيدتِهِمْ، وَوَطَنِهِم. وعليه، انخرط في حركة الجِهاد، الَّتي كان يدعو إليْها صوفيَّةٌ،

وفقهاءُ، وشُرفاء، نظراً لِما كان لَهم من نُفوذٍ قويٍّ على النَّاس.[1] فكان طبيعياً أن يُخَلِّدَ السِّباعِيُّون عَمَلَهُمُ الجِهادي البُطولي من خِلالِ دِلالَة ألقاب صُلحائِهِمُ المُجاهدين، من أمثال سيدي غَانْمْ السِّباعي، دفينِ مُرَّاكُشَ قُرب ضريح الوليِّ أبي العبَّاس السَّبتي، وشيْخِهِ سيدي عبد الله بن ساسي، دفين وادي تانْسِيفْت،[2] وهُما معاً، من أتباع محمَّد الغزواني.

ويسْرُدُ الباحث الكُفناني أسْماءً أُخرى لِمُجاهدين سِباعِيِّين من أهل شيشاوة، فيقول: *"نذكر سيدي علي لْمَعاشُو دَفينِ أُفْغَال في الشْيَاظْمَة، وهو المكانُ نفسُهُ الَّذي دُفِنَ فيه الجزولي قبل أن يَنقُلَه السَّعديُّون إلى مُرَّاكُشَ. وتجدر الإشارة إلى أنَّ من هؤلاء السِّباعيِّين من كان من بين المتطوِّعين الأوائلِ، الَّذين حاربوا البرتُغاليِّين بسواحِلِ حاحَا، والشْياظْمَة، وجِبال الأطلس الكبير قبل أن ينتقِلَ إليها محمَّد القائِم بِأمر الله السَّعدي وَوَلَدِهِ أحمد الأعرج."*[3] ومِمَّا يدلُّ على ذلك وُجودُ مَكَانٍ في سكساوة الشِّشاوية، يحمل اسم سيدي غَانْم تسمَّت عليه فخذةٌ من أفخاذ سكساوة وهم: آيت سيدي غَانْم، وهو مدفونٌ اليومَ في قرية بُولْعْوان، بعد مدخلِ دْوِرَان، غير بعيدٍ عن ضفة وادي القِهْرَا، المُتَحَوِّلِ اسْمُهُ في السَّهل إلى وادي شيشاوة

---

[1] -Drague (Georges): «Esquisse d'histoire religieuse» Paris,1951, p. 51.

[2]- ابن عسكر. محمد الشفشاوني: "دوحة النَّاشر لمَحاسِنِ من كان بالمغرب منْ مَشايخِ القرن العاشر" تحقيق محمد حجّي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرِّباط 1977، ص 110.

[3]- الكفناني مولاى الحسن: "مراكش خلال العصر المريني والسَّعدى" جامعة القاضي عياض مراكش. أشغال الملتقى الثاني العدد 8، 1990، ص. 118.

الأعلى. ويُخبرنا جاك بيرك[1] بِأنَّ الباحِثَ فْرِيدِيريك دُو لاَشَابِّيل قد قام بِتَحَرِّيَاتٍ في الأطلس الكبير، فعثَرَ على مَخطوطةٍ تُعرَفُ بسيدي عبد المالك بْنُ عامرٍ السِّباعي، وهو مِنَ المتطوِّعين القادمين مِنَ الصَّحراء؛ عَرَفَ –من خِلالِها- أنَّ هذا السِّباعي كان يَحُظُّ النَّاس في مَجالاتِ شيشاوة، على الجِهاد الَّذي تقاعسَ عنهُ الوطَّاسِيُّون في زَمَنِ حُكْمِ محمَّدٍ الشَّيخ الوطَّاسي، إلى أنْ اسْتُشهِدَ في إحدى المعارِكِ الحامية ضِدَّ البُرتُغاليِّين سنة (909هـ/ 1503م)، في مَوْضِعٍ يُدعى أَكَادِير الذْهَب، ودُفِنَ في مكان استِشهادِهِ في قبيلة دَمْسِيرَةَ، ومعه سِلاحُهُ الَّذي كان عِبارةً عن شَفْرَةٍ.[2]

وقد أشارت بعضُ المصادر، وفي مُقدِّمتِها صاحبُ "نُزهة الحادي"، إلى أَنَّ أشياخَ قبائِلِ حَاحَّا، والشْيَاظْمَة حين سَمِعوا بالْتِفافِ أهلِ سُوس من حول محمَّدٍ القائِمِ بِأَمْرِ الله، شَدُّوا الرِّحالَ لِلتَّوِّ، إلى تِدْسِي في سنة (918هـ/ 1513م)، ودخلوا في طاعتِه. ثُمَّ أحاطوه عِلماً بِأحوال بِلادِهِم، والتمسوا منه أن يَرْحَلَ معهم إلى جِبال الأطلس في شيشاوة، وفي الأحواز المحيطة بِها لِجَمْعِ الكلمة، وتكثيف الجهود، وشَدِّ أَزْرِ المُقاوِمين هُناك، فاستجاب لِطَلَبِهِم وانتقل معهم إلى أَفْغَال.[3] وبعد عامَيْن من ذلك، أي في

---

1 - Berque (Jacque): «Structures sociales du Haut Atlas» 3e édit, Puf, Paris 1978 p, 66-201.

2 - La chapelle (Frédéric de) «Esquisse d' une histoire du Sahara Occidental» act du 7 congrés I.H.E.M Rabat, 1930, Héspéris, 1,2 1930, p, 75.

3 - الأفراني. المراكشي محمد الصغير: "نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى" تصحيح هوداس، ص 2. الرِّباط، ص 16.

حدود (920هـ/ 1515م)، أفادَتْنَا المصادِرُ ذَاتُ الأُصول البُرتغالية المتعلِّقةُ بتاريخ المغرب، بِأخبارٍ مُعاصِرَةٍ للأحداثِ، التي سجَّلت مَعارِكَ طاحِنةٍ دارت بين البُرتُغاليِّين، بِقيادة Lopo de Bariga وكانوا مُدعَّمين بِحشودٍ مِنَ الخوَنَةِ من رُماة الشْيَاظْمَة، وعَبْدَة، تزعَّمها سيدي بوجمعة، أحد عُملاء البُرتُغال في حوالي (400 رامي مِنَ الشْياظمة، و150 رامي من عَبْدة). اصطدموا كُلُّهم مع ما يُقارب من اثْنَيْ عشر دُوَّاراً من أولاد أبي السِّباع، الَّذين كانوا يُرابِطون على مَقرُبَةٍ من حِصْنَيْ أَغْبَالُو الَّذي عُرِفَ - حسب جاك بيرك- في مْتُوكَّة، وأَكْلاكَل المجهولِ المَوْضِعِ.

ويبدو أنَّ القُوَّات البُرتُغالية، وعُملاءَها قد مُنِيَت بِهزائِمَ على يَدِ المُسلمين، يظهر ذلك من خِلالِ الارتِباك، الَّذي أصابَها، وأَرْغَمَها على التَّراجُعِ. ويُؤكِّدُ ذلك بِجلاءٍ تأَسُّفُ القائد بوجمعة، الَّذي وعد بالانتصار في الحملة المُوالية. يظهر ذلك أيضاً، من خِلال رِسالةٍ مُلْتَبِسَةٍ كان قد وجَّهها الحاكِمُ البُرتُغالي لِمدينة آسفي de Ataide Nuno Fernandez إلى المَلِكِ البُرتُغالي إِيمَانُوِيل، المُنطَوِيَّة على مُحاولة إخفاء الانْهزام، والتَّقليل من أَهَمِّيَّةِ المعركة، وأَنَّ الحَملَةَ، وإنْ لَمْ تَكُنْ ناجحةً، فإنَّها لَمْ تكن خَسارةً كامِلةً.[1] ويُفيدُنا الكَانُونِي بِمعلومةٍ قيِّمةٍ حول مُشاركة السِّباعِيِّين في حركة الجِهاد خارِجَ

[1] - أنظر الحسن الوزَّان: "وصف أفريقيا" ص 123. وأيضاً الهامش رقم 70: إذ يُبرِزُ فيه كيف أنَّ التَّقارِيرَ البُرتُغاليَّةَ المَرفوعَةَ من لدن البُرتُغاليِّين الحاكِمين، في بعض الثُّغور، إلى الملك البُرتُغالي "إيمانُويل"، كانت تُخفي انتصارات المُسلِمين، وربَّما حوَّلت إنجازاتِهمُ البُطولية إلى انْهزامات.

مجالاتِ شيشاوة، وما يُحيطُ بِها إلى مَجالات سواحِلِ دُكَّالَة. فيذكُرُ أنَّ من بين من نزل بِها مِنَ المُتطوِّعين، أحدُ العُلماء المشهورين بِتدريس القِراءات السَّبع، وهو سيدي أحمد بن رحَّال السِّباعي، وكان ذلك عام (914هـ/ 1509م).[1]

ثانياً: نصيبُ الجِهاد الشِّيشاوي من نَسْجِ القوميَّة المغربيَّة:

لابُدَّ من أن نُذَكِّرَ بِأنَّ هناك دِراساتٌ سابقةٌ قام بِها الأستاذ محمَّد حِجِّي، ومحمَّد المنُّوني، اهتمَّت بِظاهرة الجِهاد وبِالمُجاهدين. وأشارت بنوعٍ من الحماسِ إلى قضيَّة القوميَّة المغربيَّة،[2] وأُصولِها فأقرَّت بِوجود قوميَّةٍ مغربيَّةٍ، مُبْرزةً أُسُسَها، وعناصِرَها من لُغةٍ، وجِنسٍ، ودينٍ، وأرضٍ. ولَم يفُتها الاهتمامُ بانعكاسات حركة الجِهاد على الأدب، والثَّقافة، والفِكْرِ لِتُشكِّلَ مَظْهَراً من مظاهر التَّعبير عن وجود قوميَّةٍ مغربيَّةٍ في العصر السَّعدي، في مَغرب (ق10هـ/ 16م).[3]

---

[1] - الكانوني. محمَّد بن أحمد العبدى: "جواهرُ الكمال في تراجِمِ الرِّجال" المطبعة العربية، الدَّار البيضاء (1356هـ-1937م) ج1، ص 61-62.

[2] - حجي محمد: "القومية المغربية". - مجلة دعوة الحق ع 8 السنة 1967 ص 92-95.

- مجلة دعوة الحق. ع 9-10 السنة 10 يوليوز 1967 ص 139-141.

- مجلة دعوة الحق. ع 1-10 السنة 10 نوفمبر 1967 ص 88-90.

- مجلة دعوة الحق. ع 5-10 السنة 10 أبريل 1968 ص 142-145.

[3] - محمد المنوني: "استقرار كثيرٍ من أصول القومية المغربية في الفترة المرينية والوطَّاسية" مجلة دعوة الحق. عدد - 8 السنة 11 يونيو-يوليوز 1968 ص 107-111.

تُفيد بعض المصادر البرتُغالية أنَّ البرتُغاليِّين قد أخْلَوْا - ولأسبابٍ غامضةٍ- مدينة آسفي سنة (948هـ/ 1542م)، خصوصاً بعد انْهزامهم بِعامٍ واحدٍ في أكادير، واستيلاء السَّعديِّين بقيادة محمَّدٍ الشَّيْخ السَّعدي، على ثَغْرِ فُونْتِي. فهرع ثُلَّةٌ مِنَ المُجاهدين المَغاربة إلى أزمُّور لِحمايَتِها مَخَافَةَ أن يعود إليْها البُرتُغال. ومِنْ جُملتِهم عَبْدُ الله الكُوش والِدُ زهراءَ الكُوش، دفينَةُ القُبَّةِ البيْضاء المُحاذِيَّةِ لِصَومعة الكتُبيَّة، وسيدي عبد الله بْنُ سَاسِي السِّباعي، دفينُ وادي تانسيفت. ولأمرٍ غامضٍ، عاد البُرتُغالُ بغتةً، إلى مدينة أزمُّور فمنعَهُمُ المُسلِمون، في أوَّلِ الأمر، من دُخولِها فسقط عددٌ منهم أسيراً في يَدِ النَّصارى، وكان من بَيْنِهِمُ المُجاهِدان المذكوران، ولَمْ يُطلَقْ سراحُهُما إلاَّ بعد أَنِ افتكَّهُما المُجاهِدون مُقابِلَ فِدْيَةٍ.[1]

ولعلَّ هذا الإسهامَ الشِّيشاويَّ البيِّنَ في حركة الجِهادِ بالمغرب الأقصى كَكُلٍّ، الَّذي طبع المُجاهدين المغارِبَةَ كافَّةً بِطابعِ ما أسْماه الباحثَانِ حِجِّي والمنُّونِي بالقوميَّة المغربيَّة، يَجِدُ صداهُ وسط نَصِّ النَّاصري الَّذي يقول فيه: *"ولَمَّا نزل بأهل المغرب الأقصى ما نزل من غَلَبَةِ عَدُوِّ الدِّين، واستيلائِهِ على ثُغور المُسلِمين، تَبارَوْا في جِهادِهِ، وقِتالِهِ، وأعْمَلُوا الخَيْلَ، والرَّجلَ في*

---

[1]- ابن عسكر الشَّفشاوني: "دوحة النَّاشر" ص 110. ومِمَّن أُسِرَ من غير هذين المُجاهدين نذكُرُ: ابن عسكر والِدُ صاحب "دوحة النَّاشر"، والمكناسي أحدُ قُضاة سلا وهو صاحبُ "جذوة الاقتباس"، والتُّونُسي المعروف بخروف نزيلُ فاس، وشيخُ الجماعة بِها وغيرُهم. هؤلاء كُلُّهم أصابَهُمُ الأسرُ وخلَّصَهُمُ الله.

مُقارعَتِهِ، ونزالِهِ، وتوفَّرت دواعي الخاصَّة منهم، والعامَّة على ذلك...فكَمْ من رئيسِ قَوْمٍ قام لنُصرة الدِّين غَيْرَةً واحتِساباً، وكَمْ من وَلِيٍّ صالحٍ، أو عالمٍ مَصْرٍ باعَ نفسَه مِنَ الله، ورأى ذلك صواباً، حتَّى لَقَدِ استُشهِدَ منهُم أقوامٌ، وأُسِرَ آخرون، وبَلَّغَ اللهُ تعالى جَميعَهم مِنَ الثَّواب ما يَرْجُون." [1]

[1] - الناصري: "الاستقصا" ج 4 ص 111.

خـاتـمـة:

إذا كان تخميننُا قد جعلنا، ونحن نقتفي بعضَ آثار تاريخ شيشاوة، نقولُ إنَّ قائدَ القبيلة في شيشاوة يتحوَّلُ طبيعيّاً، دون أدنَى صُعوبةٍ، وربَّما بِدون وعيٍ، إلى مَلاَّكٍ كبيرٍ للأراضي الزِّراعيَّة وللعَقار، وراعي الأغنام إلى عاملٍ زراعي يُفْلِحُ الأرضَ التي كانت قَدِ انْتُزِعت من أُسرتِهِ، والتَّاجِرُ الأَمَازِيغِيُّ إلى مُقاوِلٍ ناجحٍ في مُرَّاكُشَ، أو في أكادير، أو في الصَّويرة، وابنُ العَوْنِ المَخْزَنِي إلى مُدرِّسٍ وعُضْوٍ نشيطٍ في نادٍ ثقافي، أو في جَمعيَّةٍ إصلاحيَّةٍ، إلخ. فإنَّنا إذا أردنا أن نُخصِّصَ مِثْلَ هذه التَّفعيلات لابُدَّ لنا من تطعيمها بِدِراساتٍ قِطاعيَّةٍ مُحدَّدةٍ، وكذا بِتَرَاجِمَ شخصيَّةٍ تُمكِّنُنا من إدراك تطوُّرٍ، أو تراجُعِ مُستوى حياة الفرد في إطار ما يُسمَّى بِتاريخ العالَمِ السُّفلي Histoire du bas Monde[1] المُتَعَلِّقِ أساساً، بأفرادٍ مِنَ العامَّة، مِمَّنْ كَدَحُوا في شيشاوة بعد حصول المغرب على استقلالِهِ، فارْتَقَوْا بِمَكانَتِهِمُ المادِّيَّة، والإجتماعيَّة، والفكريَّة، والرُّوحية مِنَ الدَّرَجَة الصِّفْرِ إلى التَّوَهُّجِ.

---

[1]- إشارةٌ ذكيَّةٌ اقتنصتُها من مُداخلَة قيِّمَة للدُّكتور عبد المجيد القَدُّوري: عميد كلية ابن امسيك البيضاء، بِمُناسبَة تأريخه لِنَموذَجٍ، هو الحاج البشير بَلْخَلْفِي الذى انتقل، بفضلِ إيمانِه القوىِّ وصبرِهِ، مِنَ الدَّرجة الصِّفْرِ [العالَم السُّفلي] كعاملٍ بسيطٍ في حقلِ البِناء، إلى مُقاوِلٍ كبيرٍ له إسهاماتٌ كثيرةٌ في ميدان التَّربيَّة والتَّعليم في مراكش، من خلال مُؤسَّسة البشير للتَّربيَّة والتَّعليم. مراكش، أبريل، 2011.

لا يُمكن بأيِّ حالٍ، أن نُنكِرَ صُمودَ شيشاوة أمام اجْتِيَاحِ وَرَمِ الاندثارِ والنِّسيان لِباقي المحطَّات والبَلْدَاتِ، التي كبُرت معها (سيدي شاكر، نَفِّيس، ثُمَّ اغمات) منذ أزيَدَ من خَمسةَ عشر قرناً. لَمْ يَكُنْ لِذلِكَ الصُّمودِ أن يَحْصُلَ لولا الإرادَةِ المُثبَّتَةِ بالفِطرةِ في بَواطِنِ الفرد والمُجتمع الشِّيشاويَّيْنِ. ينتظِرُنا إذن، وبِإلحاحٍ بَيِّنٍ، إنْجازُ بُحوثٍ تُوصِلُنا إلى نظريَّةٍ تعليليَّةٍ عامَّةٍ، موضُوعُها الأفرادُ العاديُّون، السَّابِحون ضِدَّ تيارات الجماعات المُتموِّجة، لِنفهَم - من خِلالِها- توالي أشكال الوعي بِما يُسمَّى بالتَّنميَّة المُستدامَةِ، والتَّكتُّلِ، والتَّصرُّف أمام كُلِّ ما يُشوِّشُ على الإحساس بِقِيَمِ المُواطنة. ما دُمْنَا لَمْ نُنجِز هذا النَّوع مِنَ البُحوث، فإنَّنا سنبقى ضحيَّةَ نِسبيَّةٍ شامِلةٍ. وعليه، مهما تَحقَّقْنَا من حُدوثِ بعض الحوادث فسَنعْجِزُ في الآن نفسِهِ، عَنِ التَّطلُّع إلى فهمِها. في غِياب هذه المَنظُومة التَّأصيليَّة الظَّنِّيَة، والمُؤقَّتة بِطبيعتِها، كيف يَحِقُّ لنا أن نقول إنَّ هذا النَّجاح قد نتج عن تِلْكَ الخُطوة، أو إنَّ هذا الإخفاقَ كان سببُه ذلك الإندِفاعُ؟ يبدو أنَّ البُحوثَ الإجتماعية المُهتمَّة بالعالَمِ السُّفلي مِنَ المُجتمع تبقى أكثرَ قُدرةً مِنَ التَّعليلاتِ الفِكريَّة، والتَّاريخِيَّة التي ضَمَّنَّا هذا الكتابَ بعضاً منها.

متى استشرى وَرَمُ انْدِثارِ المُدُنِ في سهل الحوز، بعد تشييد المُرابطين للمدينة الإمبراطورية مرَّاكش، كما الحال بالنِّسبة إلى نَفِّيس؛ وأُفولِ أُخرى، كما الحالُ بالنِّسْبة إلى اغْمات؛ لَمْ تَكُن توجد قُوةٌ تُيَسِّرُ الاستِشفاءَ من هذيْنِ الدَّاءَيْنِ سوى الصُّمودِ الَّذي حَصَّنَ شيشاوة وأهلِها مَعاً. لا يُهمُّنا إذن، نحنُ المُهْتَمِّين بالتَّاريخ، اندِثارُ وأُفُولُ المُدُن بِقَدْر ما تَهُمُّنا الظُّروف المُمهِّدةُ

لِصُمود غيرِها، لأنَّها تَخُصُّ شيشاوة موضوع بَحْثِنَا. هل كان مِنَ المَعقول مُجاراةُ التَّوسُّعِ السَّريعِ لِمُرَّاكُشَ في الحوز، ثُمَّ في المغرب، والأندلس؟ أكان يُمكن لِشيشاوة المُحافظَة على وُجودِها مِنَ الدَّاخل، حتَّى ولو لَمْ يَكُنْ لَها سُورٌ يَحميها، وصُروحٌ تضمَنُ لَها هَيْبَتَهَا؟ أَوَلَمْ يَكُنِ الصُّمود الشِّيشاويُّ الحقُّ هو الإقبالُ على كُلِّ ما هو عند أهل مُرَّاكُشَ، وأهل حاحَّا، وأهلِ سُوس، وليس اعتِبارُهُ غَيْرَ مُجْدٍ؟

أَملُنا كبيرٌ في المحطَّات المُتَنَوِّرَةِ من ماضي شيشاوة لأن تترُك مَزيداً مِنَ الانفِتاح، والمُبادرة في سُلوك الشِّيشاويِّين، وفي تفكيرهمُ الآن. هذا وحدَه كَفيلٌ لأن يَرفَعَ الشِّيشاويِّين إلى مُستوى البشريَّة الحُرَّة؛ هُمُ الَّذين لَمْ يَذُوبُوا قَطُّ، في الغيْرِ ما عليْهِمْ سوى إدراكِ كيف يُمكِنُهم تَخَطِّي حدود ذَواتِهم، كيف يَتَعرَّفون على أنفُسِهمُ انطِلاقاً منهم لا بِمُجاراة غيرِهم. هذا وحدَه يعني طَفرةً ثقافيةً، نَقْلَةً نوعِيَّةً من مَوْقِعِ تاريخ شيشاوة إلى حَبْكِ آليات تاريخٍ آخرَ أكثر إشراقاً وعُلُوّاً. لِكي يتحقَّقَ ذلك، لا بُدَّ لأهل شيشاوة أن يَقبَلُوا بِواقِعِ الاختِلاف، وأن لا يَحْلُموا بِإجْماعٍ وَهْمِي. مثلاً أن يَمتَنِعَ كُلٌّ منهم عن فرض تصوُّرِه للتَّاريخ، وللمُجتمع على أخيه وجارِهِ. ما على كُلِّ شيشاويٍّ يَرْهَبُ جانِباً من ذاتِهِ، ذلك الجانِبُ الجامِحُ فيه؛ ما عليْهِ سِوى أن يَقْمَعَهُ في وِجدانِهِ، لِيَمْنَعَهُ من أن يُعْرَضَ صراحةً ويُناقَشَ. على كُلِّ فَرْدٍ أن يَكتسِبَ نَصيبَهُ مِنَ الوعْيِ التَّاريخي المُتَّزِنِ والمُحايِدِ، على الأقلِّ، بالمجال الَّذي أَفْرَزَهُ لِيَكْسِبَ وعياً سياسياً حُرّاً.

إن تَمَكَّنَ أهلُ شيشاوةَ من تشخيص ومُكافحة التَّخلُّفِ الإجتماعي، والثَّقافي، وفَحْصِ الإرْثِ التَّاريخي القريب، والبعيد، الخاصِّ بِمَجالِهِمُ المُتَنَوِّعِ، يُمكِنُهم إذَّاكَ، أن يتجاوزوا تَخَلُّفَهُمُ الإقتِصادي. للشِّيشاويِّين أن يطرَحُوا سُؤالاً واحِداً على أنفُسِهِمْ. ما هي مُتَطَلَّباتُ المُجتمع الحديث؟ يبدو أنَّ التَّحرُّرَ والانفِتاحَ هو ما يُلائِمُ مِزَاجَ أهل شيشاوة، فَهُمُ الَّذين تَعايَشُوا، إنْ طواعيَّةً أو بالإكراه، وسط عرائِهِمُ المُحَصَّنِ فقط، بالبراري والجِبال مع الرُّومان، ومع الفاتِحين المسلِمين، ومع المُلَثَّمين، ومع البُرتُغال، ومع الإنجليز، ومع إهل الذِّمَّةِ، ومع الحرْكاتِ الغاضِبَةِ للسَّلاطين المُوَحِّدين، والمرينيِّين، والسَّعديِّين، والعلويِّين الأُوَّلِ، ومع القحط، والسَّنواتِ العِجاف، ومع السَّنوات الأكثر سخاءً، ومع أهل مرَّاكش، وأهل حاحَّا، وأهلِ سوس، وغيرِهم... لا بُدَّ إذن من تذويبِ الفوارِقِ الموروثَةِ سَهْواً، ذاتِ السَّماكَةِ التي تُؤَدِّي إلى إغلاقِ كُلِّ فِئَةٍ على نفسِها؛ لا بُدَّ من إشراك الجميع في تَحَمُّلِ المسؤوليَّة السِّياسيَّة، سِيَما على المُستوى المَحلِّي، بِغايَة مَحْوِ أشكال السُّلوك الانزِوائِي. بِذلك سيتحقَّقُ –من خِلال تعميق الاحساس بِرُوح المُواطنة الحقَّة– انغِراسُ الدَّولة في المجتمع الشِّيشاوي.

ما دفعنا إلى أن نقول هذا هو سَيْرُ شيشاوة بِثَباتٍ، نحو التَّمَدُّنِ والتَّمْدَنَةِ؛ فالبَلْدةُ التي عُيِّنْتُ فيها مُدَرِّساً لِمادَّة الاجتماعيَّات عام 1989م، باتتِ اليومَ مدينةً نابِضَةً بالحركة والمَشاريع، حتَّى وإن غابت فيها شروط

المُدُنِ القْروسطِيَّة، فقد باتت تُدبِّرُ أُمورَ إقليمٍ واسِعٍ ومُتنوِّعِ الإمكانات. لا بُدَّ إذن من تأطير النَّاس وتحويلهم إلى مُواطنين!؟ لا بُدَّ من وضع الإعداد البشري على رأسِ كُلِّ الأسبَقيَّات !؟ لا مُستَقْبَلَ للشِّيشاويِّين إن لَمْ يترُكوا الفئاتِ الاجتِماعيَّة تتنافَسُ، بل وتتصارَعُ بِحُرِّيَّةٍ. ولكن قد يقولُ قائِلٌ: ما العاصِمُ لَهُمْ مِنَ الانْحِلال والتَّفكُّك؟ لا عاصِمَ في هذه الحالِ، مِنَ الفوضى المُحتَمَلَة سوى الضَّابطِ النَّفسي، الضَّامِنِ لِلانقِيادِ الحُرِّ النَّابعِ عَنِ الاعتِرافِ بِشَرْعِيَّة السُّلطة، وصلاحِ الحاكِمِ.

هكذا سنضمَنُ نِسبيّاً، إمكانيَّةَ عدم تجريد الفرد الشِّيشاوي المَقهور مِنَ التُّراثِ التَّاريخي والمُستقبلي لشيشاوة. فلا يَنكَمِشُ على نفسِهِ، لِيتقلَّبَ نظَرُهُ مِنَ الخارج إلى الباطن، ومِنَ المُستقبَل إلى الماضي، في حركةِ انعِكاسٍ لِما يُعرَفُ بِسَهْمِ الزَّمن. في هذه الحال، لن يَرْتَدَّ الكثيرُ مِنَ الشِّيشاويِّين إلى الخلف، نفسانيّاً، واجتماعيّاً، وحتَّى جغرافيّاً. هكذا سنضمن نِسبيّاً، أن لا يَفقِدَ الفردُ الشِّيشاوي القُدرةَ على المُبادرة، لِئَلاَّ يَرجِعَ إلى مُستوى ما دون الرُّشد. نُريدُ لأيِّ شيشاويٍّ سُئِلَ عَنِ البُناةِ الشَّرعيِّين لِمدينتِه الَّتي تفتَقِرُ إلى المُواصفات نفسِها التي لِمُدُنِ العصر الوسيط في المغرب: سورٌ، قُصورٌ، سِجنٌ قديمٌ، جامِعٌ كبيرٌ، صِهريجٌ ضخمٌ للمياه، صُرُوحٌ... أن يُرَدِّدَ وبِكُلِّ اعتِزازٍ، مع المؤَرِّخِ الرَّسْمي للسَّلاطينِ العلويِّين في ق19م، أبي القاسم الزَّيَانِي، ما دوَّنَه هذا الأخيرُ في كِتابِهِ التُّرجُمانةُ الكبرى في أخبار المَعمور بَرّاً وبَحْراً:

"ثُمَّ أَسَّسَ المَصامِدَةُ مدينَةَ شُوشَاوَةَ ومدينَةَ اغْمَاتَ أُورِيكَةَ." [1]

وإذا سُئِلَ عن زَمَنِ التَّشييد، أن يَسْتَنِدَ على الرَّحَّالَةِ أبي عُبَيْدٍ البكْرِي لِيَحْسِمَ الأمرَ بِذكْرِ عام (460هـ/ 1068م)، وهو الزَّمنُ نفسُهُ الَّذي انتهى فيه هذا الرَّحَّالةُ من تأليفِ كِتابِهِ "المسالِكُ والممالِك". نُذَكِّرُ أَنَّهُ في ذلك التَّاريخ لَمْ تكن مُرَّاكُشُ قد تأسَّست بَعْدُ، ولا فاسُ قد فُتِحَتْ، ولا المَغربُ الأوسطُ والشَّرقي قد ناوشَته كتائبُ اللَّمتونِيِّينَ، وإنَّما كان مُقَامُ المُرابِطين في الصَّحراء ولَمْ يزحفوا بَعْدُ على الحوز، ولا على شيشاوة التي عاشت سِنينَ عدداً، قبل أن يذْكُرَها البكري في ذلك التَّاريخ.

[1] - أبو القاسم الزَّياني: "التُّرجُمانةُ الكُبرى في أخبار المَعمور بَرّاً وبحراً." تحقيق عبد الكريم الفيلالي وزارة الإعلام الرباط 1967 ص 79.

لائحة المصادر والمراجع

أوّلاً: المصـادر:

- **ابن أبي زرع. أبو الحسن عَلِيّ بن عبد الله الفاسي:** -"الأنيس المُطربُ بِرَوْضِ القِرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" طبعة دار المنصور، الرِّباط، 1970.

- **ابن حوْقَل. أبو القاسِم محمَّد البغدادي:** -"صورة الأرض" بيروت، 1969.

- **ابن خلدون. عبد الرَّحمن بنُ محمَّد الإشبيلي التُّونسي:** -"كِتابُ العِبَرِ وديوانُ المُبتدإ والخبر، في أيّام العرب والعجم والبربر، ومَنْ عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر" المجلَّد السَّادس والسَّابع، طبعة دار الكِتاب اللُّبناني، بيروت، 1956-1959.

- "مقدِّمة ابن خلدون" طبعة دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

- **ابن الخطيب. لسان الدِّين:** "نُفاضَةُ الجِرابِ في عُلالَة الإغْتِراب"

- **ابن الزَّيَّات. أبو يعقوب يوسف بن يحيى التَّادلي:** -"التَّشوُّفُ إلى رِجال التَّصوُّفِ" ومعه أخبار أبي العبَّاس السَّبتي، تحقيق أحمد التَّوفيق، البيضاء، 1984.

- **ابن زيدان. عبد الرَّحْمن:** -"إتْحافُ أعلام النَّاس بِجمال أخبار حاضرة مكناس" 5 أجزاء- 1410هـ/ 1990م.

- **ابن عسكر. محمَّد بنُ الحسن الشَّفاوني:** -"دوحةُ النَّاشِرِ لِمحاسِنِ مَنْ كان بالمغرب من مشايِخِ القرن العاشر" مطبوعات دار المغرب للتَّأليف والنَّشر سلسلة التَّراجم، تحقيق محمَّد حِجّي، دار النَّشر، الرِّباط 1396هـ/ 1976م.

- **ابن عِذاري. أحمد بْنُ محمَّدٍ المُرَاكُشي:** -"البيان المُغرِبُ في أخبار الأندلس والمغرب" قسم الموحِّدين، تحقيق محمَّد إبراهيم الكتَّاني، محمَّد بن تاويت، محمَّد زْنيبَرْ، عبد القادر زمامة، البيضاء 1985.

- **ابن القاضي. أحمد بْنُ محمَّد المكناسي:** "جذوة الإقتِباس في ذِكْرِ مَنْ حَلَّ مِنَ الأعلام بِمدينة فاس" الجزء الأوَّل، تحقيق عبد الوهَّاب بْنُ منصور، الرِّباط، 1973-1974.

- **ابن قنفد. أحمد بْنُ أحمد بْنِ الحسن بْنِ الخطيب القُسنطيني:** -"أُنسُ الفقير وعِزُّ الحقير" تحقيق محمَّد الفاسي وأَدُولْفْ فُورْ، الرِّباط 1965.

- **أبو زكريا يحي بن خلدون** "بغية الرواد"

- **الإفراني. محمَّد الصُّغَيِّرْ:** "صفوة مَنِ انتشر من صُلحاء القرن الحادي عشر"

- **البَكْرِي. أبو عُبَيْدٍ عبدُ الله بْنُ عبد العزيز:** -"المُغْرِبُ في ذِكْرِ بلاد إفريقية والمغرب" دار الكِتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ.

- **البيدق. أبو بكرٍ بْنُ عليٍّ الصَّنهاجي:** -"أخبار المهدي بْنُ تومَرْتْ، وبداية الموحِّدين" طبعة دار المنصور، الرِّباط، 1971. ثُمَّ: -"المُقتَبَسُ من كِتاب الأنساب في مَعرِفة الأصحاب" نشره بن منصور، الرِّباط، 1971.

- **أَكَنْسُوسْ:** "الجَيْشُ العَرَمْرَمُ".

- **التَّمنارتي. عبد الرَّحمن بْنُ محمَّد:** -"الفوائِدُ الجمَّة في إسناد علوم الأُمَّة" خ ع، الرِّباط، رقم 3693 د.

- **السُّوسي. محمَّد المختار:** -"المعسول" في عشرين جزءاً، مطبعة النَّجاح، الدار البيضاء 1381هـ/ 1961م.

- **السُّوسي. محمد المختار:** -"إلِّيغ قديماً وحديثاً" هيَّأه للطَّبع وعلَّق عليه: محمد بن عبد الله الرُّوداني، المطبعة الملكية 1386هـ/ 1966م.

- **الشَّريف الإدريسي. محمَّد بْنُ عبد الله السَّبتي:** -"نُزهةُ المُشتاق في اختِراق الآفاق" طبعة الجزائِر، 1957.

- **الشوشاوي. أبو علي بنُ الحسين بنِ علي بنِ طلحة الرَّجراجي: "الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة"**

- **الضُّعَيِّف. محمد بن عبد السلام الرِّباطي:** -"تاريخ الدولة السعدية" تحقيق وتعليق وتقديم: أحمد العمَّاري-دار المأثورات، الطبعة الأولى، 1406هـ/ 1986م.

- **الضَّعَيِّفُ الرِّباطي، محمد بن عبد السلام:** "تاريخ الضُّعَيِّفْ"، تحقيق وتعليق العمَّاري أحمد نشر دار المأثورات الرباط 1986.

- **الفشتالي. عبد العزيز بن محمد:** -"مناهل الصَّفا في أخبار الملوك الشُّرفا" مختصر الجزء الثاني، حققه وقدَّم له ووضع فهارِسَهُ: عبد الله كَنُّون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرِّباط، بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي، وتحت إشراف معهد مولاي الحسن للبحوث. المطبعة المهدية، تطوان، 1384هـ/ 1964م.

- **العُمَري. أحمد بْنُ يحيى بْنِ فضلِ الله:** -"مسالِكُ الأبصار في مَمالِكِ الأبصار" تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، البيضاء، 1988.

- **يوسف غاندي:** "الزَّاويةُ النَّحليَّةُ ومَدْرَسَتُها قبيلةُ مْزُوضَةْ" المطبعة الوطنية بِمُرَّاكُشَ عام 2011.

- **مارمول كارْبَخالْ:** -"أفريقيا" الجزء الثَّاني، ترجمة محمَّد حِجّي، محمَّد زْنيبر، محمَّد الأخضر، أحمد التَّوفيق، أحمد بنجلُّون، الرِّباط، 1989.

- **مجهول:** -"كِتاب الإستبصار في عجائِبِ الأمصار" تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، البيضاء، 1984.

- **مجهول:** -"الحُلَلُ المُوشيةُ في ذِكْرِ الأخبار المرَّاكشية" تحقيق سُهيل زكَّار وعبد القادر زمامة، البيضاء، 1979.

- **المُرَّاكُشي. عبد الواحد بن علي التَّميمي:** -"المُعجِبُ في تلخيص أخبار المغرب" تحقيق يعسد العُريان ومحمَّد العربي العلمي، القاهرة، 1949.

- **الزياني أبو القاسم:** "الرَّوْضَةُ السُّليمانيَّة في مُلوك الدَّولة الاسماعيلية". م.خ.ع الرباط رقمه كـ 658 ص125.

- **الوزَّان. الحسن بن محمَّد:** -"وصفُ أفريقيا" الجزء ألول، ترجمه عن الفرنسية: محمَّد حِجّي ومحمَّد الأخضر، الرِّباط، 1980.

ثانياً: المراجع العربية:

- **بلاَّوي. أحمد:** -"الإطار البشري والحياة الحضرية بناحية مراكش قبيل التَّأسيس" ضمن أشغال ندوة مراكش من التَّأسيس إلى آخر العصر الموحِّدي، البيضاء، 1989.

- **بُوشَرْبْ أحمد:** "دُكَّالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور"، ص365-367. دار الثقافة البيضاء، سنة 1984.

- **التَّوفيق. أحمد:** -"حول معنى مراكش" ضمن أعمال ندوة مراكش من التَّأسيس إلى آخر العصر الموحِّدي، البيضاء، 1989.

- **رابطة الدِّين. محمَّد:** -"مراكش زمن حكم الموحِّدين جوانب من تاريخ المجال والإنسان" الجزء الأوَّل والثَّاني، المطبعة والورَّاقة الوطنية، مراكش، 2008.

- **المنوني. محمَّد بن عبد الهادي:** -"ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين" الرِّباط، 1980. -ثُمَّ "حضارة الموحِّدين" البيضاء، 1989.

- **المنوني: محمد بن عبد الهادي:** -"مظاهر يقظة المغرب الحديث" مط الأمنية، الرباط 1973 ج1

- **الكُفناني. مولاي الحسن:** -"قبيلة أولاد أبي السِّباع في ق 19م" بحث لنيل دبلوم الدِّراسات العليا في التَّاريخ المعاصر. نوقش بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، عام 1987-1988م.

- **العروي. عبد الله:** -"مجمل تاريخ المغرب" في ثلاثة أجزاء، المرز الثقافي العربي، البيضاء.

- **شفيق، محمد:** -"لمحة عن ثلاثٍ وثلاثين قرناً من تاريخ الأمازيغ".

- **الطَّالب بُويا لَعْتيكْ:** "شَذَراتٌ مِنَ الأدبِ الحَسَّانِي" الصَّادِر سنة 1999 عن مركز طارق بن زيَّاد.

ثالثاً: مراجع بالفرنسية:

- **Adam (André) :** « Un souq du Haut Atlas occidental : Imintanout » (c.r.des s. m. de L'I.H.E.M.)-H. 1953, t, xl, 3ème,4ème tr, pp. 567-568.

- « **Aperçu bibliographique sur la vie et le règne de Moulay Ismaél** » (établi avec le concours de la bibliotheque Générale de Rabat) H.T 1962 N spécial, suppl. à Hespéris-Tamuda, 1962, pp. 87-92.

- **Berque (Jacque) :** -« Antiquités seksawa » Hcspéris, T.xL, 3ème-4ème tr. 1953. Pp. 359-417.

- **Berque (Jacques) :** « Antiquités Seksawa » H. 1953, t. XL, 3°-4° tr., pp. 359-417, VI. pI. H.t.

- **Berthier (Paul) :** « En marge des sucreries marocaines : La Maison de la Plaine et la Maison des Oliviers à Chichaoua » H.T. 1962, vol, III, fasc. I, pp. 75-77, 7fig. h.t.

- **Berthier (Paul)** : « L'aqucduc de l'Oued Ouaar et le bassin des Gaba à Taroudant » H.T. 1963, vol. IV, fasc. 1-2, pp. 193-213, 4 plans et 20 fig. h.t.

- **Berthier (Paul)** : « L'archéologie, source de l'histoire économique. Les plantations de canne à sucre et les fabriques de sucre dans l'ancien Maroc » H.T. 1966, vol. VII, fasc. Uniquc, pp. 33-40.

- **Berthier (Paul) :** -« Les anciennes sucreries du Maroc et leur réseaux hydrauliques » Etudes d'archéologie et d'histoire économiquc, Rabat, 1966.

- **Berthier (Paul)** : « En marge des sucreries marocaines : Recherches archéologiques à la Zaouia. Bel Moqaddem (Chichaoua–Haouz de Marrakech) » H.T. 1970, vol. XI, fasc. Unique, pp. 141-169, v pl. h.t.

- **Berthier (Paul)** : « Les plantations de canne à sucre dans l'ancien Maroc » Hcspéris-Tamuda, T.V,1966.

- **Braudel (Fernand) :** -« La Méditérranée et le monde méditerrannéen à l'époque de philippe 2, Paris, 1990.

- **Célérier (J) :** «L'Atlas et la circulation au Maroc» Hésperis 1927.

- **Cennival (Pierre de)** : « Les émirs des Hintata, «rois» de Marrakech » H. 1937, t. XXXIV, 4° tr., pp. 245-257.

- **Coll. Guillamar Budé M Histoir Naturelle :** « Le Maroc chez les anciens » 1924 pp 33-34.

- **Deverdin (Gaston) :** « Marrakech des origines à 1912 » Deux tomes, Rabat, 1959, 1966.

- **Desjacques (Jean) et Koeberle (Paul) :** « Mogador et les îles purpuraires » H. 1955, t. XLII, 1er-2e tr. Pp. 193-202, v pl. h.t.

- **Doutté (Edmond) :** « En Tribu », Paris, 1914.

- **Dreach (Jean) :** « Recherches sur L'évolution du relief dans le massif du grand Atlas, le Haouz et le sous, Paris, 1941.

- **Ennouchi (Emile) :** « L'homme du Jebel Ihroud. Etude de paléontologie humaine » H.T. 1963, vol. IV, fasc. 1-2, pp. 229-230.

- **Ennouchi (Emile) :** « Origines de l'homme au Maroc ». H.T. 1964, vol. v, fasc. Unique, pp. 163-166.

- **El Fasi (Mohammed) :** « Lettres inédites de Moulay Ismaêl ; étude, textes et photocopies des letters ». H.T. 1962, Numéro spécial, Suppl. à «Hespéris-Tamuda» 1962, pp. 31-86.

- **Germain (Gabriel) :** « Le culte du bélier en Afrique du Nod » Hespéris, 1948, t, xxxv, 1er tr, pp. 93-124.

- **Henri (terrasse) :** « Villes Impériales du Maroc » 1937 Grenoble p23.

- **Jodin (André) :** « Mogador Comptoir phénicien du Maroc antique et les établissements du roi Juba 2 aux îles purpuraires » E. Marocaine et internationale –Tanger-

- **J.Carcopino :** « Le Maroc Antique » Paris Gallimare Ed. 1948.

- **Jules Leclerq:** « De Mogador à Bisqra »

- **La chapelle (F.de) :** « L'expédition de Suetonius Pailinus dans le sud-est du Maroc » H. 1934, t. XIX, fasc. I-II, pp107-124.

- **Lévi-Provençal (Evariste) :** « Un receuil de lettres offitielles Almohades ».

- **Laoust (Emil) :** «Contribution à La Toponymie du grand Atlas occidental» .

- **Pascon (Paul) :** «Le Haouz de Marrakech», Rabat 1977.

- **Thouvenot (Raymond) :** « La connaissance de la montagne marocaine chez Pline l'Ancien » H, 1939, t. XXVI, 2^{e} tr, pp. 113-121.

- **Thouvenot (Raymond) :** « Recherches archéologiques à Mogador » H. 1954, t. 3^{e} -4^{e} tr. Pp. 463-467.

فهرس الكتاب

مقدمة 7

الباب الأول: شيشاوة منذ ما قبل التَّاريخ إلى زَمَنِ المُرابِطين

الفصل الأول: فترةُ ما قبل التَّاريخ في شيشاوة إلى التَّوغُّلِ الرُّوماني

أوَّلاً: إطارُ المُعالجَةِ 15

ثانياً: إنسانُ شيشاوةَ المُتَقَدِّمُ بالنِّسبَةِ إلى عَصْرِهِ 18

ثالِثاً: تقديمُ المثلَّث الرُّوماني والكشفُ عن ما بعدَهُ 20

الفصل الثاني: شيشاوة مِنَ الفُتوحات الإسلامية إلى المُرابِطينَ

أوَّلاً: مَوْضِعُ شِيشَاوَةَ خِلالَ الفُتوحات الإسلامية: (62هـ/ 681م) 25

ثانِياً: تأسيسها 28

ثالِثاً: شِيشَاوَةُ خِلاَلَ الزَّحْفِ المُرَابِطِي 30

رابِعاً: شيشاوةُ إبَّانَ حُكْمِ المُرابطين: (454-524هـ)/ (1062-1130م) 40

البابُ الثاني: شيشاوة في فترة حُكم الموحِّدين

الفصلُ الأوَّلُ: الإطارُ العامُّ للمجال الجبلي في شيشاوة

أوَّلاً: تَذكيرٌ 49

ثانِياً: رَصْدُ مَعْقِلِ المَصَامِدَةِ 51

الفصلُ الثَّاني: وضعُ قبيلَةِ كَنْفِيسَةَ مِنَ الكِتابات الوسِيطِيَّةِ

أوَّلاً: تَعريف 55

ثانياً: مَرْتَبَةُ قبيلة كَنْفِيسَةَ مِنَ التَّمييزِ المُوَحِّدي 59

ثالِثاً: ملاحظاتٌ عن قبيلة كَدْمِيوَةَ 62

الفصل الثَّالِث: المجالُ الجَبلي لِشِيشَاوَةَ في عهد المَرينيِّين

أوَّلاً: بعضُ أوصافِ الرَّحَّالَةِ للإمتداد الشِّيشاوي 65

ثانِياً: حول علاقة شِيشَاوَةَ بِمُحيطِها الخارجي 67

ثالِثاً: مسألةُ التَّسميةِ وعلاقتُها بالتَّعمير 69

الفصل الرابع : السَّكسيويون أمراء الجبل في شيشاوة ق14م

أوَّلاً: قبيلة سكساوة في فترةِ حُكمِ الدَّولة المرينية 73

ثانِياً: حَدُّو يُوسُف شيخ القبيلة 74

ثالِثاً: عَامِر بْنُ حَدُّو المسمَّى أَكَلِّيدْ 76

رابِعاً: عبد الله السَّكسيوي حفيد حدُّو 79

الباب الثالث: شيشاوةُ في فترة حُكْمِ المرينيِّين

الفصل الأول: القَاهِرَةُ مدينةٌ سَكْسِوِيَّةٌ في شِيشَاوَةَ: (القِهْرَا)

أوَّلاً: حول التَّشييدِ والمُشَيِّدِ الشَّرعي 89

ثانِياً: محمَّدٌ السَّكسيوي الملقَّبُ بِأَيْزِمْ 95

الفصل الثاني : للاعزيزة أشهر أولياء سكساوة منذ حكم المرينيين

أوَّلاً: طبُّغْرَافِيَةُ الوَلِيَّةِ 101

ثانِياً: الأسطورة الخاصَّة بالولية: (الرِّوايَةُ الشَّفويَّةُ) 105

ثالِثاً: مكانة الوليَّة من الكِتابة التاريخية (نص ابن قنفد) 107

الفصل الثالث: شيشاوة في فترة حكم الوطاسيين

أوَّلاً: شيشاوة من مَنْظُورِ الكِتابات الأجنبية 115

ثانياً: شيشاوةُ إبان الحكم السَّعدي: (ق10هـ/ 16م) 117

الباب الرابع: الرِّيادَةُ الثَّقافِيَّةِ فِي قبائل شيشاوة

الفصل الأول: رِيادَةُ قبيلة سَكْسَاوَةَ

أوَّلاً: عودٌ على بَدْءٍ 127

ثانياً: حَدُّو يوسفْ السَّكسيوي 127

ثالثاً: عبد الله السَّكسيوي 129

رابِعاً: مكانةُ الولِيَّةِ للأَعْزِيزَةَ مِنَ الكِتابات التَّاريخية 130

خامِساً: الفقيهُ البُوشْوَارِي الشُّوشاوي نَمُوذجاً 135

الفصل الثاني: حَمْلُ المِشْعَلِ من لَدُنِ أولاد أبي السِّباع

أوَّلاً: إسهامات القبيلة السِّباعِيَّةِ منذ (ق8هـ/ 14م)..... 139

ثانياً: ظُروفُ قدومها إلى شيشاوة 141

ثالِثاً: مسألةُ الشَّرَفِ بين الدّوْلَةِ السَّعديَّة وأولاد أبي السِّباع 144

رابِعاً: حولَ بعضِ الحركاتِ الجِهادِيَّةِ لأَوْلاَدِ أبي السِّباع..... 146

الفصل الثالث: قبيلة مْزُوضَة المُسْتَنْفَة

أوَّلاً: تأصيل 151

ثانياً: إسهامُ قبيلة مْزُوضَةْ في الثَّقافَةِ بشيشاوة..... 152

الباب الخامس: شيشاوةُ مَوْطِنُ زِرَاعَةِ وصِناعَةِ قصب السُّكَّر في مَغرب [ق 10هـ16م]

الفصل الأول: بعض جوانِبِ النَّشاط الإقتصادي في شيشاوة (ق16م)

أوَّلاً: صعوبَةُ البحثِ 159

ثانِياً: مُقَوِّمَاتُ زِراعة قصب السُّكَّرِ في شيشاوة 161

ثالِثاً: مُؤَشِّراتُ ظُهُورِ زِراعَةِ وصِناعَةِ قصَبِ السُّكَّرِ 163

رابِعاً: تَطَوُّرُ هذه الزِّراعة 170

الفصل الثَّاني : مصادرُ المياه ومُشكِلُ التَّزوُّدِ بِها في شيشاوة

أوَّلاً: صبيبُ وادي شيشاوة والسَّواقي الحافَّةِ من حوْلِه 173

ثانِياً: مُونُغْرَافِيَّةُ المَعاصِرِ السُّكَّرِيَّةِ 175

ثالِثاً: التَّعريفُ بِمَعْصَرَةِ السُّكَّرِ الجنوبيَّةِ في شيشاوة 176

الفصل الثالث: مَرَاحِلُ تَصنيعِ قَصَبِ السُّكَّرِ في شيشاوة

أوَّلاً: عمليَّةُ الطَّحنِ 183

ثانياً: مُعالجَةُ وطَهْوُ عصير قصبِ السُّكَّرِ 185

ثالِثاً: وظِيفَةُ الأفرانِ السِّتَّةِ في المَعصَرَة الشِّيشاوِيَّة 188

رابِعاً: مُلاحظاتٌ حول آلِياتِ العمَلِ في المَعْصَرَةِ 190

خامساً: مَصْدَرُ طاقَةِ المَعَاصِرِ السُّكَّرِيَّةِ 193

الفصل الرابع: مسألة الإشراف على المَعاصر السكَّريَّة

أوَّلاً: الدَّولة السَّعديَّة واستغلالُ المعاصر 197

ثانياً: إشارات كِتاباتِ (ق10هـ16/ م) 199

ثالِثاً: علاقَةُ السَّعديِّين بِمَزارِعِ ومَعاصِرِ السُّكَّرِ 201

رابِعاً: بعضُ الظُّروف المُحيطةِ باختفاءِ هذه الزِّراعَةِ..... 203

الباب السَّادِسُ: رَصْدُ بعضِ الأحداث شيشاوة في ظِلِّ حُكْمِ العلويِّين: من (1041هـ/ 1631م) إلى الآن

الفصل الأوَّل: شيشاوة في عهد السَّلاطين: مُولاي إسْماعيل مُ سُليمان، مُولاي عبد الله، سيدي محمَّد بن عبد الله

أوَّلاً: نصيبُها من أوضاعِ المغرب بعد وفاة المولى إسماعيل..... 213

ثانِياً: شِيشَاوَةُ في عَهْدِ السُّلطانِ المولَى سُليمان العَلَوِي..... 221

ثالِثاً: شيشاوة في عَهْدِ السُّلطانِ مولاي عبد الرحمن بْنُ هشام 223

رابِعاً: شيشاوة في عهد السُّلطانِ محمَّد بن عبد الرَّحمن 225

الفصل الثَّاني: شيشاوةُ في عهدِ السُّلطان العلوي المولى الحسنُ الأَوَّلُ

أوَّلاً: إجراءاتٌ أوليةٌ تُجاهَ التَّمَرُّد..... 233

ثانِياً: نَصِيبُ بعض قبائِلِ شيشاوة مِنَ التَّمرُّد 234

ثالِثاً: ردودُ فعلِ السُّلطانِ الحَسَنِ الأَوَّلِ..... 237

الباب السَّابع: إسْهامَاتُ الدَّوابِّ في الحياة اليَومِيَّةِ لِشِيشَاوَةَ

الفصل الأوَّلُ: فسحُ المجالِ لِتَقْدِيمِ الحيوانات المُقترَحَةِ

أوَّلاً: عودٌ على بَدْءٍ 243

ثانِياً: تقديمُ الحيوانات المُقترَحَة 248

ثالِثاً: حضورُ الجَمَلِ في شيشاوة بين الفتح الإسلامي والمُرابِطين 252

الفصل الثَّاني: صمودُ شيشاوة في وجهِ النِّسيان

أوَّلاً: شيشاوةُ المُقاوِمةُ 255

ثانِياً: مَوْقِعُ الدَّوابِّ من ذلك الصُّمود 256

الفصل الثَّالِثُ: حركة الدَّوابِّ وسط حركةِ النَّاسِ في شيشاوة

أوَّلاً: نَهْجُ بعض قبائِلِ شيشاوة لأُسلُوبِ نِصْفِ التِّرحال 263

ثانِياً: مَكانَةُ الدَّابَّةِ لدى الأُسَرِ الفقيرة في شيشاوة 265

الفصل الرَّابِعُ: مُثَابَرَةُ الدَّوابِّ والتَّرخيص لِلمُرُور

أوَّلاً: تنقُّلات الحمير والبِغالِ في المجالِ الجبلي الشِّيشاوي 269

ثانِياً: نَبْضُ الطُّرُقُ بين العيْشِ والتَّطَوُّرِ والزَّوالِ 274

ثالِثاً: دوابُّ شيشاوة والطُّرُق الجديدة 278

رابِعاً: إسهامُ الدَّوابِّ في التَّواصُلُ بين الأسواقِ والمداشِر 280

خامِساً: العَطَّارُ خليلُ الدَّابَّةِ 283

الباب الثَّامن: شيشاوةُ المُقَاوِمَةُ أَرضاً وأُناساً

الفصل الأوَّل: أصالة المقاومة لدى المغاربة

أولاً: تأصيل مُقتضَبٌ 289

ثانياً: إسهام أهل شيشاوة في فتح الأندلس 291

ثالثاً: مُبادَرَةُ أهل شيشاوة للجهاد قبل المرابطين 292

رابعاً: بين التَّمرُّد والجِهاد في أيام حكم الموحِّدين 294

خامساً: بين التَّمرُّد والجِهاد في أيَّام حكم بني مرين 296

الفصل الثَّاني: جوانب من حركة الجِهاد في شيشاوة مِنَ السعديِّين إلى العلويِّين

أولاً: فِطْرَةُ الجِهاد 299

ثانياً: نصيبُ الجِهاد الشِّيشاوي من نَسْجِ القوميَّة المغربيَّة 303

خـاتِمــة 307

لائحة المصادر والمراجع 313

الفهرس 321

إنَّ الزَّائرَ لشيشاوةَ في نهاية (ق10هـ/16م) مِنَ الشَّرقِ، أو مِنَ الأندلس، أو من بلادِ النَّصارى: إنجلترَّا، هولندا، فرنسا، إيطاليا، البُرتُغالِ... يُدرِكُ في الحينِ حالَما تقعُ عيناه، عن قُربٍ، على المَعْصرتيْنِ (سور العبيد، وسور الغابة) اللَّتيْنِ شُيِّدَتا في فترةِ حُكمِ السُّلطانِ المنصورِ السَّعدي، أنَّهما مَعاً، آيَتا السَّعْديِّين. فقد شيَّدوهُما في شيشاوة مُتأخِّرَتيْنِ عَنِ المَعاصِرِ الإثْنَيْ عَشَرَةَ الأخرى، فباتتا نَموذَجاً في التَّنسيقِ المُحكَمِ لوَحَداتِهما التَّصنيعيَّة. وما اختيارُهُما في ستِّينيَّاتِ القرن الماضي مِنْ لَدُنِ الباحث الأرْخيُولُوجي بُولْ بيرْتْيي لأجل التَّنقيب عن بقايا وحداتِهما التَّصنيعيَّة لفَهْمِ ميكانيزْماتِ باقي مَعاصِرِ مَغْربِ (ق10هـ/ 16م)، إلاَّ لكونِهما باتتا أكثرَ المَعاصِرِ الأخرى احتفاظاً بوَحَداتِهما التَّصنيعيَّة، برَغْمِ مُرورِ حوالي 430 عاماً عن تشييدِهما.

صُمِّمَتا بدِقَّةٍ غريبةٍ، كأنَّهما مَتاهَتَيْنِ، تماماً كَبَانيهِما السُّلْطانُ المنصورُ في تدبيرِه المُناورِ إزاءَ القُوى، التي هَدَّدَتْ كيانَهُ في (ق10هـ/16م) فاتَّهَمَتْهُ بالغُموضِ، والمُخاتَلَةِ، فبلغت به شُهْرَتُهُ الآفاقَ فكان، بالرَّغْمِ من ذلك كلِّه، نافِذَةً فيما بين بلادِ النُّوبَةِ والبحر المُحيطِ من ناحية الغرب. وتِلْكُما معصَرتانِ شيشاويَّتانِ لَمْ يُكتَبْ لأيِّ مَعْصَرَةٍ مِنَ المَعاصِرِ السَّابقَةِ عنهُما، في سُوس، أن تحظى بالنَّظرِ إلى سَلامَةِ المعالِمِ نفسِها، التي احتفظَتا بها للنَّاظِرِ إليهما في شيشاوة.